وقد يجمع الله الشتيتين

سياحة في مرابع الأدب
وشيء من حكمة المحبين

تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن الرميحي
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيْتَيْنِ

سِيَاحَةٌ فِي مَرَابِعِ الأَدَبِ.. وَشَيءٌ مِنْ حِكْمَةِ المُحِبِّينَ

تأْلِيفُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

١٤٣٤هـ

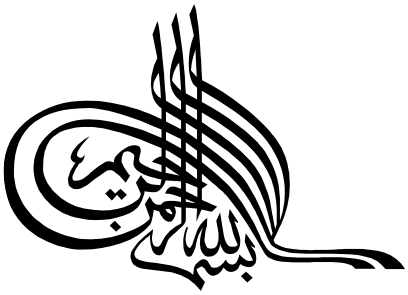
بسم الله الرحمن الرحيم

قَبْلَ الاسْتِهْلاَلِ..

المعنى اليتيمُ الأَخَّاذُ، باللفظِ السَّلِسِ الرَّائقِ، والكَلِم الجزلِ الفاخرِ، إن صادف البال الخليِّ؛ لنفسِ أَدِيبٍ شَذِيّ، فلا تَسَلْ عن عصفه لفؤادِهِ عصفَ الريح المرسلة، وهزِّهِ لمشاعرِه هَزَّ الرَّاح المعتّقِ، وَوُرودِ قلبِه المُرْهَفِ عليه كالنِّيبِ الهِيم في النَّميرِ العَميم!

فحيَّهلاً بك أديباً ذائقاً، ومُحِبّاً وامِقاً.. وعسى أن تَجِدَهُ لِهُشَاشَةِ فُؤَادِكَ روضةً غَنَّاءَ، وربيعاً مُخصباً، وتِرْيَاقاً ناجِعاً، وساعاتٍ هانئة، وانتعاشاتٍ لا تُنْسَى، تَجْلُو هُمُوْمَكَ، وَتَسْلُو غُمُومَكَ، حتى تعود البُرَحَاءُ رَاحَةً، والكَدَرُ صَفْواً، والوَحْشَةُ أُنْسَاً وَشَوْقاً..وَإِيْماناً.

ولعَيْنِك ما يَلْقَى الفُؤادُ المُعَذَّبا!

صفحة بيضاء

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس المحتويات

مقدمة ٧
١- يَا مَنْ يُدَاوِي لَوْعَةَ العُشَّاقِ ١٣
٢- إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ٢٩
٣-وَلا أُنْشِدُ الْأَشْعَارَ إِلّا تَدَاوِيَا ٤٩
٤- وَيَبْقَى الْعُوْدُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ ٦٩
٥- وَبَاكِيَةٌ أُخْرَى تُهِيْجُ الْبَوَاكِيَا ٩١
٦- يَا لَيْلَ الْصَّبِّ مَتَى غَدُهُ ١١٧
٧- بِقَافِيَةٍ أَنْفَاذُهَا تَقْطُرُ الْدِّمَا ١٣٣
٨- وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ١٥٧
٩- فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ١٨٥
١٠- وَلَيْلٍ أُقَاسِيْهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ ٢٢٩
١١- إِنَّ الْمُنِيَّةَ وَالْفِرَاقَ لَوَاحِدٌ ٢٦١
١٢- خَلِيْلَيَّ هَذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلَا ٣٢٩
١٣- فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الْدَّمْعُ كُحْلَهَا ٣٦٥
١٤- وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا الْنَّوَى ٤١١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

صفحة بيضاء

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُقَدِّمَة

أحمد ربي على ترادف نعمائه، وأشكره على تراكم آلائه، لا مستحقّ للحمد على التمام سواه، خلق فسوّى، وقدّر فهدى، أتمّ علينا النعمة، وألبسنا العافية، ومن كل ما سألناه أعطانا، فلك الحمد ربنا كما ينبغي لك. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحقُّ من عُبدَ، وأَولى من أُحِبَّ، وأكرمُ من أُطِيعَ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وصفيّه وخليله وكليمه، خطيب الخلائق إذا وفدوا، ومبشر الناس إذا يئسوا، الأنبياء قد سكتوا لنطقه، والأملاك قد اعترفوا بحقه، إمام العابدين، وخاتم المرسلين، وقائد الغر المحجلين، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة. أشهد أن قد كان نبيُّنَا محمدٌ محمداً في قوله وفعله وخَلْقِهِ وخُلُقِهِ، جامعاً لحذافير كمالات البشر، أرسله الله بالهدى ودين الحق، السعيدُ من اتّبعه، والشقيُّ من عصاه، جمع الله بيننا وبينه في أعلى جنته، وأحيانا وتوفانا على سنته، صلى الله وسلم وبارك عليه ما ذرّ شارق وما درّ بارق، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان، أما بعد:

فذات مساء ربيعي عَنَّ لي أن أرقُمَ شيئاً من ذكريات أدبيّة، وتباريح شعريّة، وملحٍ تاريخية، دبَّجَتْها في صدري الليالي وزخرفتها الأيام، جُلُّها في النَّسِيب، وهل خلا منه قلب نبيل، أو برأت منه نفس كريم؟! هي مُقطوعات ومنثورات مِسْكِيَّة، كَشَمِّ نسيم الرياحين النديَّةِ، وتنشُّقِ الأزهار المبلّلة بقطر الهتون الحنون، وكالخزامى المائس بأطراف الصِّبا بأنفاسِ نسائم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصَّبا، تَضَوَّعَ عبيرُها وفاح نسيمها بأطيب أرج شمَّه أنف عاشق.

جعلتُ طُرَّتَها صدر قيسٍ البائس: وقد يجمع الله الشتيتين بعدما.. تاركاً لخيال القارئ اللمّاح اتباع الطريدة، والفوز بالخريدة. فلْتكن في صدرك الطّروب يا صاحِبِي غادةٌ، جمالها فائق وحسنها رائق..

سطرتها على أديم الفؤاد، بمداد رحيقٍ مباح لا حرام مستباح، وأصل القصة من مأساة صاحبي وبعض أخبار سفرنا صحيح، وما عدا ذلك فمحض خيال دفَقَتْهُ القريحةُ المُضْناةُ في هذه الطروس، على صورة محاورات في تضاعيف الرحلة، حتى يستقيم المراد، فما من بدٍّ من تنضيد وتبجيد، وتدبيج وتنجيد. نظمت عقدها وألبسته جيد النفوس المرهفة، زففتها عروساً مزيّنة، مهداة لمن يستحقها من أهلها، مِنْ عشّاق الأدب الجزل والألفاظ الرقيقة، فاقبلوها أُهَيْل الرهافة واللطافة، وجوزوا عنا يا أهل الكثافة، فما لكم عندنا مشرب ومزمع، ولا لنا إليكم مطمع ومنزع، وليس هذا بعشّك فادْرُجِي، ويا بَعْضِي دَعْ بَعْضاً..

وَلِمَنْ يفتلِ عند ذكر الأدب شدقه، ويلوي عن محاسنه كشحه: دع قارب أفئدتنا يُبحر رخاءً ويسير هوناً، كمشوق إلى لقاء مشوقه، وأنثارُ وبل إلى كبد يبابٍ صادي..

وهل تسير قوافل الأدب إلّا على رواحل الخيال؟ وخلف سجف الحقيقة يكمن أبداع الذائقة، فدعني أُعْنِقُ في خيالي بلا طِوَلٍ، وهل استروح أهل النبل والرهافة إلا بعد أن كرعوا في ذلك المشرب؟ ومن رام رقَّة الطبع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فليأخذ بسبيل ذاك المرتع، وليتجول بخاطره في ذلك المتجع، فما لذة اللبانات إلا وصل ما هنالك. إن طيف الخيال يا عبل يَشفي..

نظمتُ عقده من جواهر الكلم وروائع المعاني، محاولاً جهدي أن يكون اللفظ خادم المعنى، لا أن تسترِقَّ فواتقُ الألفاظ أبكارَ المعاني، إذ تعاور البلغاء على أن المعنى إمامُ اللفظ، فإن أَمَّ اللفظُ؛ بَطلَ رونقُ البلاغة، وانتقض نسيج الفصاحة!

رنوت له أن يكون من أسنى ما تحلّت به أجياد الطروس، رائقاً شائقاً، عبقاً شاهقاً، من ألذ ما سجعت به بلابل الأقلام، وصدحت خلاله خرائدُ الأفهام، فترتشِفُهُ رقائق الأسماع، وتطربُ لرحيقِ سُلَافِهِ هشاشاتُ القلوب، إذا جرت نفثاته في الأفهام؛ قالت: أهذه بنت فكرة، أم بنت كرْمة؟!

حاولته لفظاً مشرقاً، على سجية طبعٍ عربي، بريء من العجمة طاقته، يرنو لنسج حلل قشيبة، وزرابيّ في رياض الأدب مبثوثة، عَلَّ رُعاةَ نجع البيان يصدرون ضحىً عن شبعٍ ورواء.

تعمَّدْتُهُ لفظاً رقيق الحاشية مهدًى لرقيق الحاشية، وكلٌّ حنين لمُشاكِله، وللقلب على القلب دليلٌ حين يلقاهُ، لم أودع إلا ما حَسن إيداعه، ولطف مساغه وإبداعه، وقد استعرت له شيئاً من نثر السابقين ودرر الأولين، واختيار الرجل قطعة من عقله، كما لم يخل من افتراع أبكار الأفكار، وانتقاء أطايب الأنهار، ضَمَّنْتُه فِقَراً منوّعة، دفعاً للسآمة وطلباً للفائدة، أمّلْتُ نثره كنثر الورد، ونظمه كنظم العقد، ورصّعتُهُ بفرائد قلائدِ الأبيات اللائي لم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يبتذلهن الانتشار، بادٍ على محيّاه رونق الطّلاوة، وتحت لسانه رضاب الحلاوة، وبين ثناياه العذوبة والسلاسة.

إن كان وإلا فحاله مع نبلِ ذائقتك كحال امرئ القيس: أحاول ملكاً أو أموت فأُعذرا..

أَلَا إن الفؤاد تَشْعَفُهُ بعض الأحايين قواصفٌ من عواصف العواطف، فأغيب عمن حولي فلا أحفل بالزمان والمكان، بل قد يحدثني الجليس فلا أسمع ركزه وهمسه حتى يصيح بي مروّعاً ملوّعاً!

وذو القلب الحزين وإن تعزّى يهيّج حين يلقى العاشقينا

وما كان عليك يا سليل الأدب ــ إن عاتبت محبك في بسط حروفه ــ أن يكون للمحب ريحانة يشمّها وثمرة فؤاد يضمُّها؟! فللأدباء معاذيرهم، ومن لم يَرَ جمال يوسف لم يدر ما الذي أبكى يعقوب عليهما السلام؟ وهل واطئ الجمر كماشٍ على السندس؟!

واعلم يا رائم الأدب أنّ من أسباب رقة الطبع؛ بَلُّ شغاف الفؤاد بندى أوصاف المحبين، وأريج أخبار المدنفين، وإشناف الأسماع بآهاتهم، وإمتاع البصر بعذب جواهم. وقد أرقلتِ الهمّة لذلك منذ سنين، ولكن قد حال همٌّ دون ذلك شاغلُ..

فاصقل يا بن الأكرمين عارضتك باصطباح هذه الأحرف، وامذق واغتبق، واشرب عللاً بعد نَهَل. وإني سائلك هل يجتمع عطش وريّ؟ فإن عرفت الجواب فأعنق راحلة عينيك ومركوب قلبك، وإلا عُدْ لأخلاطك، فلم تمشِ إلا فراسخ!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

..واحذر يا من أَرْقَلْتَ نجيبَتَكَ في ذيّاك السبيل من تآكُلِ الرّوحِ بعوامل التعرية!

وتقبّل عذري لكريم جنابك من خلل تراه، أو لفظ لا ترضاه، إذ يستحيل خلوُّ إنسان من نسيان، أو قلم من طغيان، ولكن حسبي رشّ بعض الندى على قلبك، وإرواء لسان كبدك العطشى بفتح نافذةٍ وشقّ ساقيةٍ على من قد علمت من أهيلِ ذاك الوادي الأفيح، وفي التلميح غناءٌ عن التصريح. والله المستعان، وعليه اعتمادي والتكلان.

ألا وإن بعض من بَسَطَ المداد في تيك السابلة، قد جاوز الغاية في التهتك وخلع العِذار، لكن محبّك من خطل ذلك على حذر. بل شعاره: إن لم يكن الأدب رافد عفاف وموقد شرف فلا كان. و جملة الكلام: لعل قُصارى هذه الصحائف أن تُذهب عن نفس المُعَنَّى قتامَهَا..

ولا ريب أن من امتلأ قلبه من محبة الله استغنى عن محبة غيره، ومن أحب غير الله عُذّبَ به، وعلى حسب نقص محبة الإله الحق في القلب يكون حظّ الخذلان بحب غيره! وكفى بمحبة الله تعالى عن غيرها.. وكفى، ولو لم يكن من ذلك إلا مِدحةَ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ولحب الله ورسوله ودينه سطور قد رقمتُها في كتابِي «تعظيمُ علّام الغيوبِ بتوضيحِ أعمالِ القلوبِ». وكم من عاشقٍ ضحّى بدينه ومهجته قرباناً على مذبح الحب، فخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

ومرادي هنا؛ أَنَّ حديث أهل المرابع النادية من حاضرة وبادية يسلو بالحزين الكئيب، ويجلو سحائب غمومه، ويذهب كدر أيامه، كما يزيدُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المنشرحَ انبساطاً وانطلاقاً وبِشْراً، ومُحِبَّ العربية زاداً ومتاعاً وذخراً، وسترى ـ يا رعى الله مُحيَّاك ومَحْيَاك ـ أخباراً وأسماراً وأنواعاً من العلوم دَبَّجْتُ بها هذا الرَّقيمَ الموشّى، ومرادي الفائدة والإمتاع، وكلّ خفرة كريمة لن تعدم خاطباً نبيلاً. وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبينا محمد وآله عدد أنفاس أهل الجنّة.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي
عشيّة ٧/ ١٠/ ١٤٣٣
@aldumaiji
aldumaiji@gmail.com

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١

يَا مَنْ يُدَاوِي لَوْعَةَ العُشَّاقِ..

صاحبي أديبٌ ذوَّاقة، بلغ الغاية في الأدب والظرف، والنهاية في الذكاء والنباهة، والمدى في الرَّقة واللطافة، والذروة من دماثة الخلق ولين الجانب ورقة الحاشية. سمحاً سهلاً، قد حُشِيَ كرماً ونبلاً، هو ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان. ابن بجدَةِ الأدب والخبير بعُجَرِه وبُجَرِة، عذبُ المشرب عفّ المطلب، نقيّ الإزار طاهر من خنا الأوزار، جوهر من جواهر الشرف لا من جواهر الصَّدف، وياقوتةٌ من يواقيت الأحرار لا يواقيت الأحجار، أجمل الناس في جِدٍّ وأحلاهم في هزل، العلم حشو ثيابه، والأدب ماء إهابه.

تلوح خلف بسمته كآبة دفينة، تغشى وجهه أحياناً فتبوح بالمكبوت المُسَجَّى، إذْ كانت الرزية عليه مُمِضّة مؤلمة، وطرق العزاء والسّلوة إليه مقطوعة مبهمة، إلا من ذكر الله والدار الآخرة.

قد وَخَطَ البياضُ فوديه قبل إبّانه، فأخذ الشيب بعنان شبابه، فبدت في رأسه طلائع المشيب، ذلك أن كرور الرزايا وتعاقب البلايا لوّحت شبابه، واغتالت ربيع عمره، فخطّت الهموم على وجهه آثاراً سحقت صفاء سحنته، فسلّت ماء الشباب برماد الغياب، مع ذلك فما زالت تباشير وجهه المليح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تلوح، أبى طبعه الكريم أن يظهر كسر قلبه.

مرّت عليه أعوام تلظّى فيها من لواعج الشوق وكوابد الحرمان ما لا يطيقها ثهلان ذو الهضبات، وعطفت عليه فجاءات الحوادث وبغتات البلاء التي لا يقوم لها الحجر القاسي ولا الجبل الراسي، وقُدّر عليه أن يعيش الحب بمراتبه، والفراق بأوابده. وإذا كانت طعنة العدوِّ تُدمي الجسد، فطعنة الصديق تدمي القلب!

خفّض الجأش واصبرنّ رويداً إن الرزايا إذا توالت تولّت

ومما زاده جزعاً أن لا حيلة لمحبوبته في الفراق، فما ثمّ إلا حكم الله النافذ وقَدَرُه القاهر، فله الحمد على كل حال. آخر ما همس لها بعدما سمع أنينها ونشيجها كأنه قيثارة في يد محترف حزين يعزف لحن الرحيل، وعينها ذابلة تَرِفُّ وتختلجُ بين دمعاتها السخينة: أيدري الدمعُ أيَّ دمٍ أراقا؟!

لا لُمتك يا صاحبي بعدها، فللروح طاقة وللاحتمال قدر. وقد قال أبو الطيّب:

إن شئت متْ أسفاً أو فابق مصطبراً قد حلّ ما كنت تخشاه وقد وقعا

لصاحبي عِلّة دفينة، هو في أسرها معتقل، وبقيدها مُكبّل، رأيت شَعُوباً ـ وهي المنيّة ـ تقرع بابه، إذ سعى البينُ في طِلَابِهِ.

قد أضمر بين جنبيه لوعةً، اللهُ وحده يعلم مكانها من أعماق قلبه وشظايا روحه! وقد غشيه من كبَد الفراق كمد وسقم يحسّ به في سويداء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلبه بمثل دبيب النمل ولسع النحل. مرّت سنين وهو لم يحسن الوصول لشاطئ الراحة، بل كان لا يخرج من لجّة شوق إلا غمرته لجة شجى وذكرى، وما هيّج الأحزان مثل التذكُّرِ، تالله ما أكمد الفراق! ومما قلت في حاله مع صاحبته:

طَعَنَ الرَّحيلُ محاجرَ الأحداقِ ... يا من يداوي لوعةَ المشتاقْ
يا مهجَتِي لا تغدُرِين بمهجتي ... فالرُّوحُ قد نُزِعَتْ من الخفّاقْ
كادتْ تَكَلَّم والدموع ترقرقتْ ... فالدمعُ من سمّ الهوى مُهْرَاقْ
جادت بدمعٍ كالجمان وأجهشتْ ... ما للملوّعِ عندنا ترياقْ
إن المنونَ وإن تقاربَ وِرْدُهَا ... ليست بأبأس من قدومِ فراقْ
إنّا وإن طال الزمان بفقدكم ... فالشوق يا صبّ الهوى منساقْ
غابت وغاب النورُ من عينِ الفتى ... وسَرَتْ جنائز الأرواح بالعشاقْ

لسان حاله: نحن في الظاهر على افتراق، وفي الباطن بالقلوب على تلاق، ولئن تفارقت الأشباح؛ لقد تعانقت الأرواح!

هتف باسماً حين رآني: يا فلان لأنت في أوسع العذر عند ثقتي بك، وفي أضيقه عند شوقي إليك، فأنت لي أخ أثير والمرء بأخيه كثير. فقلت بعد جواب طويل إذ كان آسياً ومواسياً لي في كل ضراء، وآتياً ومواتياً في كل سراء: أيها الرفيقُ الرفيقَ؛ أسأل الله أن يسرُّك فيما قدّر مِمَّا ساءَك، ولا يسوؤك فيما سرّك، وأُبَشّرك أنّي من الله في خير حال، فلله مزيد الحمد والمنّة، واعلم أن المصيبة إن قرّبتك من ربك فهي منحة في رسم محنة، وإن أبعدتك عن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلهك فلعمر الحق إن مصيبتك في بُعدك عنه أعظم من الرزيّة ذاتها.

ويا صاحبي ها أنا قد سِرْتُ إليك ووقفتُ عليك وقد عزمت عليك إلا رافقتني لنستجمّ في البراري النادية، ففي البيدِ العذيّةِ جَمامُ النفوس ومتعةُ العيون وراحة الصدور، وكما قال أبو القاسم البلمي:

انظر ونزّه ناظريك بروضةٍ غنّاء ما زالت تراحُ وتمطرُ
ألوانها شتّى وطيبُ نسيمِها يقصى العبير به ويُنسى العنبرُ

هكذا هتفت بنبله وانتخيت كرامته، أريد أن أسير به في فساح الأرض أياماً علَّهُ يسلو، فأبى بعد تمنّع وازورار إلا أن يكون كثير شجننا في النسيب!

فقلت: حيهلاً بك وبه، ففي القلب لَبَانَاتٌ أرجو الراحة من غلوائها، فلها في ساحِهِ هجمة السبع الضاري على الظبي الغافل، وكلما رفقتُ بها أوشكتْ على الفتك، ولكن الله سلّم.

بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلَّنا نرى فرجاً يشفي السقام قريباً

تعمّد صاحبي أن يكون على سجيته، مع الوطء على همومه وشجونه التي تأبى إلا الظهور تاراتٍ من الجوانح إلى الملامح، فالوفاء طبع لا يُتَكَلّفُ، وعادات السادات سادات العادات. حاله كحال عبد الله ابن أبي بكر في عاتكة بنت زيد:

فوالله لا أنساه ما ذرَّ شارقٌ وما ناح قمريّ الحمام المطوّق

انطلقنا على مركوبنا في زمن الوسمي وهو ربيع نجد، وقد أربى الوسم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على الثلاثين وأهدف على الأربعين، قِبْلَة راحلتنا البرق الذي نشيم، والربيع البكر الذي نروم، نضرب تخوم الأرض وقرون الجبال، الخضرة والجبل، والزهر والتل، والكثيب الأجرد، والشاطئ الرملي الناعم، والرياض البكر التي تريح تباريح المدنفين، وكما قيل:

إذا هبّت رياحُكَ فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكونُ
وإن نتجت نياقك فاحتلبها ... فلا تدري الفَصِيْلُ لمن يكونُ

فإزماعنا إعماقٌ في رَحِمِ الصحراء، وإعناقٌ في تضاعيفها وتلافيفها، بتجلياتها وتخفّياتها المترامية المطرّزة، التي تُتَوِّجُ جمال صورة الفيافي الحالمة بتصاويرها الآسرة. ففي البيداء عالمٌ فريد بديع يراه قُصَّادُهُ بعيون الغرام به، يجمع الرهبة والاتساع والجمال والحب والخشوع في صورٌ لا تكون لأهل القتامة في المدن، فمن أَلِف البيد رأى وحشتها أُنساً، وأنس الحواضر وحشةً، ولها أوقاتٌ تملأ النفس رهبة وخشوعاً، فحدثني عن تلك الهيبة التي تجثم على القلب وأنت في وقت الغروب وبعده بهنيهات، حين ينزع الليل قميص الصباح، وحدثني عن الراحة والاتساع في الصدر وقت السحر إذ لا مشاغب على الصفاء من ضوء أو صوت، إنها الصحراء..وكفى!

يمَّمْتُ وصاحبي تلك الجميلة الغامضة والمظلمة الوامضة! إنها فيافي نجد التي لم تحظ صحراء تحت الخضراء بشدو الشعراء كما حظيت به تلك النجدية اللعوب اللاعس. ولا تلمني ــ لك الله ــ في حب بلد فيه درجتُ، ومنه خرجتُ، مجمعُ أسرتي ومقطع سُرَّتِي، وأول أرض مسَّ جلدي ترابها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا أعلم بقعة من الأرض تغنَّى بها الشعراء كنجد، بل حتى من كان خارجاً عنها حنت إلى فيافيها أضلاعه، خلا البلدة الحرام مثابة الناس وقطب رحى أشواق البقاع. نسير نشدوا مع ابن نباته:

يا حبَّذا أرض نجد كيف ما سَمَحَت ... بها الخُطوبُ على يسرٍ وإعسارِ
وحبّذا دَمِثٌ من أرضها عَبِقٌ ... هبّت عليها رياحٌ غِبّ أمطارِ
أُحبّها وبلاد الله واسعةٌ ... حُبّ البخيل غناهُ بعد إعسارِ
ما كنتُ أولَ من حنَّت ركائبه ... شوقاً وفارق إلفاً غير مختارِ

وقد سرّني أن صاحبي حينما ضرب البيداء بدا عليه الإبلالُ من سقمه، وتنسّمت فيه روح الحياة بعد أن أشفى على الوفاة. نعم، فقد عرفنا بلذة الفرح عذاب الترح، وبحلاوة الحياة مرارة الوفاة، في رحلة شئنا أن يكون ربيعها أدبياً قبل كونه جغرافياً، فالغرض هو السياحة في الأرض الخليّة الجميلة، ومطارحة قريض نسيب من سبقونا، فأعذب شعر العربي الغزل. وإنه ليحوي سُكَّراً مُسْكِراً لقريحة النبلاء، ورقةً مذيبة لجلمد المشاعر إن صادفت قبولاً ولطفاً لدى يَعْرُبِيٍّ.

وكما قال المنفلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن السبب في شقاء الإنسان ـ أي بؤسه الآني ـ أنه دائماً يزهد في سعادة يومه، ويلهو عنها بما يتطلّع إليه من سعادة غَيره، فإذا جاء غَدُهُ، اعتقد أن أمسه كان خيرًا من يومه!

سِرْنا نطوي الفدافد وقد اجْرَهَدَّت بنا سبلها لولا جمالها الخلاب، تارةً كصحراء الأعشى الجرداء حين قال:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبلدةٍ مثل ظهر الترس موحشةٍ للجنّ بالليل في حافاتها زجَلُ

وتارة مونقة مورقة، وأخرى نديّة عذيّة ميّاسة، وأبو العلاء المعرِّي يهتف بنا من الماضي:

صاحِ هذي قبورنا تملأ الرّحْـ ـبَ فأين القبور من عهدِ عادِ
خفِّف الوطءَ ما أظنُّ أديم ال أرض إلاَّ من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهـ ـد هوانُ الآباءِ والأجدادِ
سِرْ إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ
ربَّ لحدٍ قد صارَ لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طوالِ الأزمان والآبادِ
فاسألِ الفرقدين عمَّن أحسَّا من قبيلٍ وآنسا من بلادِ
كم أقاما على زوالِ نهار وأنارا لمدلجٍ في سوادِ
تعبٌ كلُّها الحياة فما أعـ ـجبُ إلا لراغبٍ في ازديادِ

كان صاحبي يشرب الشاي المنعنع مع تخطِّينا لحزام نفود رمل عالج، حتى إذا وقفنا على سفحٍ كثيب منه أَحْمَرَ أَزْهَرَ، ولرمله حنينٌ وعزيف، كما وصفه ذو الرّمَّة وقد ظن ما ظنته العرب من أنها جانّ:

ورمل عزيف الجن في عقداته هزير كتضراب المغنين بالطبلِ

وبنت المطر القانية الناعمة تتهادى وتتثنّى بوداعة بين يواقيت ولآلئ حبيبات الرمل، كأنها فتاة امرئ القيس:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتُضحي فتيتُ المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضّلِ

وقد باحت ريح الصباح بأسرار الندى، وأطلّ جبينُ الشمس مع ولادة شروقها واستهلال ضوئها معلناً صباحاً رائقاً ونهاراً شائقاً، وقد ناءت شمسُنا بأثقال سُرَاها حتى إذا قَدَحَتْ زندَها شيئاً، ولمّا يرتفع كلكلها ضحىً؛ سدل الغمام على فمها اللثام، فتراها تسفر تارة، وحيناً بالنَّصِيفِ تسترُ، وللحمائم هديلٌ على أفنان غَضاً على المدى، وصاحبي ـ بعد سُبْحَتِهِ ـ يترنم بإنشاد أبيات ابن ميّادة رافعاً عقيرته من أعلى النفود:

بنفسي وأهلي من إذا عَرَضُوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيبِ
ولم يعتذر عذر البريء ولم يزل له سكتةٌ حتى يُقال مريبِ

قلت: أليس أولى بك في هذا المقام أن تصدح بأبيات ابن الدّمينة مع رونق هذا الضحى ـ أي أوّله ـ وبمعيّة هذا الهديل ونسيم الإصباحِ العليل:

ألا هل من البينِ المفرِّقِ من بُدِّ وهل لليالٍ قد تسلّفنَ من ردِّ
ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجتِ من وجدٍ لقد زادني مسراك وجداً على وجدِ
أإن هتفت ورقاءُ في رونق الضحى على غُصُنٍ غضِ النبات من الرّنْدِ
بكيتَ كما يبكي الوليد ولم تكن وأبديتَ الذي لم تكن تُبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا يملُّ وأن النأي يشفي من الوجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا على أن قُرب الدار خير من البُعدِ

قال: بلى، ولكن تذكرت خجل الحبيب وعفافه مع هذا السكون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العذيّ، ولكأني بالشمس وهي متبرقعة تارة وسافرة أخرى، تذكرني وجه محبوبتي الطفولي اللذيذ، وهذا الهتّان اللطيف بدمعها الساجم بين أهدابها الكحيلة. هاك شجو توبة بن حمير حينما استراب من قوم ليلى، إذ عادةُ محبوبتِهِ اللثام، لكنها سَفَرَتْ له من بعيد، فقال مسترياباً الحال:

وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تبرقعت ... فقد رابني منها الغداة سُفورُها

أرى اليوم يأتي دون ليلى كأنما ... أتت حجّة من دونها وشهورُها

وإني إذا ما زرتها قلتُ يا اسلمي ... ويا بأبي قول اسلمي ما يضيرُها

ثم قال: لقد سبق توبة لأبكار من المعاني وفرائد من الأوصاف، وسيأتيك من أنبائها الخبير.

ثم غاب هنيهة وأتى برِمْثٍ يابس لم يلبث أن انقلب ناراً كأنها شيطان راقص بأدخنته التي ارتفعت كالقزع في الأفق، وكان أحد العيدان يمج ماءه بسبب إيقاده فأنشدتُهُ قول كثيّر، وما أجمل الشعر إذا صادف مكانه وزمانه:

فما روضة بالحزن طيّبة الثَّرى ... يَمُجُّ الندى جَثجاثُها وعرارُها

بمنخرقٍ من بطن وادٍ كأنما ... تلاقت به عطّارةٌ وتِجارُها

بأطيب من أردان عزّةَ موهِناً ... وقد أوقدت بالمندلِ الرطب نارُها

ثم قال: المندل هو عود البخور، والعجب أن النساء لم يسلمن ذلك له، بل قالت إحدى العجائز: فض الله فاك! لو بُخِّرتْ عجوز شعثاء بمندل رطب لطاب ريحُها، هلّا قلت كما قال امرئ القيس:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ألـم تـر أني كلّـما جئـت طارقـاً وجـدتُ لهـا طيبـاً وإن لم تَطَيَّـبِ

نعم إن المقارنة تُعلي وتُدني، وقديماً قيل: إن للدميمة فضلاً على الجميلة! بإبراز حسنها على حساب الدميمة، لكن كثيّر وامرئ القيس كلاهما قد حاز سنام القريض، ونهش كبد الإبدع، وكلّ ميسر لما خلق له، فـ«امرئ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» كما عند أحمد مرفوعاً، وكثيّر شاعر إسلامي، وللتوحيد حسنة لا يعدلها شيء. وعند الطبراني عن فروة بن عفيف بن معدي كرب عن أبيه عن جده قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذُكِرَ امْرُؤُ الْقَيْسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ذَاكَ رَجُلٌ مَذْكُورٌ فِي الدُّنْيَا، مَنْسِيٌّ فِي الآخِرَةِ، شَرِيفٌ فِي الدُّنْيَا، خَامِلٌ فِي الآخِرَةِ، يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِهِ لِوَاءُ الشُّعَرَاءِ يَقُودُهُمْ إِلَى النَّارِ**». بل قد مات كثيّر وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد، فماذا خلّفا؟! وشتّان بين من ملأ الدنيا شعراً ومن ملأها علماً!

ثم أخرج صاحبي ثلاث جمرات من النار إلى جانبها، ووضع عليها الدلّة البغدادية المكروبة بالقهوة الخولانية، وقد بهّرها هيلاً ومسماراً وشيئاً من زنجبيل كيرلا وزعفران إيران. فما هي إلا هنيهة حتى تقلّب المزيج في بطنها كأنه قلبُ حاسد كاشحٍ مغتاظ! ثم سحب الدلّة حتى ركد ما بها من رحيق الأعاريب، بعدها مدّ يده متناولاً مزادته، فأخرج كتلةَ تمرٍ صفري كأن واحدته كتف شاة مصلية، قد تشرّبت دبساً كأنه شهد مذاب، فصفّه برفق في صحفة خشب مدوّرة فوضعها بيننا، بجانب زُبْدٍ غنميٍّ، فتذكرت قول الأول: ما رأيت فارساً أحسن من زبد على تمر!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم سكب ربع فنجانٍ شاميٍّ مزخرف، وتعمّد رفع فم الدّلّة عالياً فانسابت القهوة الشعلاء ولها انصباب كدم شريان الغزال يثجّ بيد حاذق غطريف، مشرقةٌ بشعاعٍ يكاد يضيء ولو لم يكتنفه ضياء شمس الصباح. فمدّ إليّ فنجاناً رشفت منه رشفةً بقيَ طيبُ عَبَقِهَا في أنفي حولاً كريتاً!

ثم سكب لنفسه فنجاناً وشمّه بنشوة لا كنشوة العُقَار، بعدهُ هزهز رأسه وهو يقول: أما والله لو أدرك كثير من نبلاء العرب الأُوَل قهوتنا؛ لتركوا قهوتهم، ولو ذاق غير قليل من كرمائهم شاينا لزهدوا في خمرتهم! فالحمد لله الذي أباح لنا الطيبات. وهل من سرٍّ في تسمية القهوة بهذا المسمّى؟! لعلَّهُ إسقاطٌ بجامع الانتشاء! ولا تستثقل ذكري لذلك فقد قال كعب بن زهير أمام رسول الله ﷺ في بردته:

تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنَّـهُ منهـلٌ بـالرَّاحِ معلـولُ

ثم جمع عيدان الرِّمث الصغيرة المتكسرة فألقاها في النار، ونكت بمشهابٍ معه جوف النار باقراً لها، ثم صَدَح: إيهاً يا بشار ألست القائل:

حـوراءُ إن نظـرتْ إليـك ... سَـقَتْكَ بـالعينينِ خمـراً

تُنسي الغـويَّ معـادَهُ ... وتكـون للحُلـماءِ ذِكـراً

وكـأن لفـظ حـديثِها ... قطـع الريـاضِ كُسين زهـراً

وكـأن تحـت لِسَانِها ... هـاروت ينفُـثُ فيـكَ سِحراً

وتخـالُ مـا جمعـتْ عليـه ... ثيابُهـا ذهبـاً وعطـراً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فضحكت من السرور قائلاً: نعم، لتهنك طراوة حسك ورقة طبعك. فنظر إلى الأفق بشوق وقال: كيف لا يرقُّ طَبْعُ من يَرَى الغواني بعيون عشّاقهنّ، فالعاشق يرى معشوقه كَمالاً وجمالاً، إذ سكرة العشق تُثْمِلُ البصر عن مساقط المعائب، وتعشيه عن حسن في غير منظوره فائق. إذ لو رأيتهن بعينك لربَّما لم تكرّ عليهن النظر زهادةً إن لم يك ثَمَّ تقى، كما قال أحد الجفاة لبعض مشاهير الهوى ما الذي أعجبك من فلانة؟ والله لقد رأيتها ولو ذبح بعرقوبها طير لمات! فأجابه: أما والله لو رأيتها بعيني لتمنيت أن تلقى الله زانياً!

ثم مدَّ كفَّهُ إلى خِصْرِ دلّة القهوة ومسحه برفق قائلاً: أفلان، ألم تشعر أن العرب تُقَدِّر المرأة في كل حالاتها، وتتساقط هافيةً مواطن جمالها بتشبيهاتها، تأمل هذه الدلّة أليست كالفتاة العربيّة؟ أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب، ملّاسة مياسة، لها عنق الظبي، وشعاع الشمس، صدرها ناهد، وخصرها مستدق، وأردافها مكتنزة، إن شئت الهنوف الرشيقة فهي رسلان، أو الممتلئة فهي البغدادية. قلت: أحقاً أنت تصف الدِّلال أم ذوات الدَّلال؟! فقال بزفرة لم تخطئها أذن حادب، أَبْلَغُ منّي علوي بن إسماعيل حين قال:

بنفسي أُفدِّي وقَلَّ الفدا ... غزالاً بوادي النَّقَا أغيدا

مليحاً إذا فضّ عن وجهه ... نِقاب الحيا خلت بدراً بدا

ثم قام ينفض الرمل الأحمر عن ثوبه، وتمنطق عمامته كأنما يهم بعمل شاقّ، ثم نزل من الكثيب ــ ويسمى فصيحاً القوز والنَّقَا والأبرق ــ وغاب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن عيني، فأَمَلْتُ رأسي على المُتَّكَأ مردّداً مترنماً بأبيات الصمّة القشيري:

وأذكـر أيـام الحمـى ثـم أنثنـي ... على كبدي من خشية أن تصدّعا

وليست عشيات الحمى برواجع ... عليكَ ولكنْ خلِّ عينيك تدمعا

ثمّ اعتدلت فصحْتُ بأبيات أمير الشعراء العذريين عروة بن حزام:

وإني لتعـروني لـذكراك رعـدة ... لها بين جلدي والعظام دبيبُ

فـما هـو إلا أن أراهـا فجـاءة ... فأبهـت حتـى مـا أكـاد أجيـبُ

وقلـت لعـرّاف اليمامـة داوني ... فإنـك إن أبرأتنـي لطبيـبُ

فـما بي مـن حمّـى ولامـسّ جنّـةٍ ... ولكـن عمّـي الحمـيري كـذوبُ

عـشيّة لا عفـراء منـك بعيـدة ... فتسلو ولا عفـراء منـك قريـبُ

بنا من جوى الأحزان والبعد لوعة ... تكـاد لـه نفـس الـشفيق تـذوبُ

وما عجبي موت المحبين في الهوى ... ولكـن بقـاء العاشـقين عجيـبُ

ولم أنتبه إلا وصاحبي فوق رأسي يردد آخر بيت على لحني وهو منثنٍ يلقي كومه حطب بجانب النار، ويقول: قد عاش البائس في كفالة عمّه صغيراً فعلق عفراء وعلقته، فخطبها لما شبَّ فوعده خيراً، ثم بعثه للشام وزوّجها من غيره، فلما عاد رآها على جملِ زوجِها فبُهِتَ وقال ما ترنَّمْت به يا عزيزي، والحقُّ أنها من غُرَرِ النسيب.

ثم قال: إني أحدّثك أحاديث ولا أبالي أكنت تعرفُها سلَفاً أم لا! فسلوتي الحديث عن أولئك، فكل نفس تنشط في ذكر من تحبّ فاللهم أعنا على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذكرك، ولما أصاب شيخ الإسلام ابن تيمية مرضٌ أوصاه الطبيب بترك القراءة، فقال له: أُحاجِجُك إلى علمك؛ أوليس إذا انشرحت النفس قويت فيها قواها الطبيعية، فساعدت على البرء بإذن الله؟ قال: نعم، فقال: إذن فأنا في تلك القراءة وهي من تنشيطي كما قد علمت! فبهت الطبيب. كذلك كان أحد السلف إذا مَرِضَ قرأوا عند رأسه مسائل العلم فنشط من مرضه..شاهِدي مما هنالك أن لا تعجب لحديثي عن أخبار العشاق، فنسيم أريج أدبهم يتضوّع في خياشيمي حال حديثي عنهم. ولا يعني هذا صدق الأخبار بلْه صدق نسبة الأشعار، ولكن لا علينا فأهمُّ مغانينا ارتشاف عذب الكلم وانتجاع أحوال المحبين. ثم قام صاحبي لبعض شأنه، وأنا أتذكر شرائط المسامر النادر وأن منها؛ أن يكون خفيف الإشارة، لطيف العبارة، ظريفاً رشيقاً، لبقاً رفيقاً، ألم يكن كذلك صاحبي؟! بلى..

ثم عاد يمسح وجهه قائلاً: إن عروة بن حزام العذري هو أول شاعر مات بالهجر من المخضرمين لما زوجوا عفراء بغيره، وقد صار مثلا سائراً في قتلى الهوى، وعفراء هي ابنة عمه هصر، وقد مات عروة دنفاً بوادي القُرى ــ وهي محافظة العلا وما حولها ــ دون منازل قومه في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخرجت عفراء تندبه وتبكي على قبره حتى قَضَتْ، فدُفنت بجانبه.

ولم أرَ كعشق وعفاف العذريين والعامريين. وقد قيل لرجل من بني عُذْرة: ما بال العشق يقتلكم؟ قال: لأن فينا جمالاً وعفَّةً. وقيل لآخر منهم: ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة، إنما ذلك ضعف فيكم يا بني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عذرة؟ فقال: أما والله لو رأيتم النواظر الدُّعْج، تحتها المباسم الفُلْج، وفوقها الحواجب الزُّجّ؛ لاتخذتموها اللات والعزّى!

ومن نونية عروة ابن حزام الغرّاء، وتدبَّرْ تلك النظرة الحالمة الوادعة في حروفه:

على كبدي من حبِّ عفراء قرحةٌ ... وعينان من وَجْدِي بها تكفانِ
إذا رام قلبي هجرَهَا حالَ دونَهُ ... شفيعان من قلبي لها جدلانِ
إذا قلت قالا بلى ثم أصبَحَا ... جميعاً على الرَّأيِ الذي يريانِ
فيا ربّ أنت المُستعان على الذي ... تحمّلت من عفراء منذ زمانِ
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والأنعام يلتقيانِ
فيقضي حبيب من حبيب لَبَانَةً ... ويرعاهما ربي فلا يُريانِ
فيا ليت محيانا جميعاً وليتَنَا ... إذا نحن متنا ضَمَّنَا كفنانِ
ويا ليت أنّا الدهر في غير ريبةٍ ... خليّان نرعى القفر مؤتلفانِ
تحمّلتُ من عفراء ما ليس لي به ... ولا للجبال الراسيات يدانِ
تحمّلتُ زفرات الضُّحى فأطقتها ... ومالي بزفرات العشيِّ يدانِ
لقد تركَتْنِي ما أعي لمحدِّثٍ ... حديثاً وإن ناجيته ونجاني
وقد تركتْ عفراءُ قلبي كأنه ... جناح غراب دائم الخفقانِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

صفحة بيضاء

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ..

بينا نسير ليلاً تحت سَرَقَةِ حريرِ السماء الفاحمة الدّمقسيّة، ومجوهراتها المتلألئة المنظّمة والمنثورة في قبة الفلك الهائلة المهيبة، وقلادتها المَجَرِّيَّة اللبنيّة، وواسطة قلادتها بدراً منيراً عليه هالة كأنها طوق العذراء، وهو يحكي للمسافرين أخبار المحبين المرهفين في سوالف الأزمان والسنين. بعدها صِرْنَا في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا يطوي بنا الكدلكُ الأسودُ الفدافدَ الحمراء لنفود الدهناء وهي المسمّاة ناقة تميم، تبدو للناظر على ضياء البدر كأنها أوهامُ عاشق مكتنزة عارية وثيرة، ونغوص بمدّ أبصارنا قبل راحلتنا في الطريق الأسود الثعباني، المتلوي كالتواء أفاعي حرّة بني هلال السوداء، منبطحاً بين كثبان رمل عالج وهي الدهناء، والطريق ينخفض ويرتفع ويمن ويشمل، وقد سرنا فراسخ لم نر فيها حيّاً، كأن الكوكب خلا من ساكنيه سوانا، ونحن نسير سيراً وسطاً، وقد أقبلت أمداد ازدياد عساكر الليل، وخفقت رايات بنود الظلام، وأرخى الليل علينا السّدول، وسحب الظلام فوقنا الذيول، وتهادت على مرآنا وفودُ النجوم، ومواكب الكواكب، والبرق يومض أمامنا كأنه ابتسام لَمَىً عاشقةٍ حَيِيّة، ولكأن القمر ساعتئذٍ عينٌ كحَّلها سواد الليل البهيم، وقد لبس الأفق ثوب الدُّجى، وتناثرت في السَّديم عقودُ النجوم كقول الأول:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خوافـق في جـنح الظـلام كأنهـا قلـوبٌ مُعنّـاةٌ بطـول وجيـبِ

والوجيب هو خفقان القلب. قلت: حدثني يا صاحبي بأخبار مجنون بني عامر علّنا نقشّع بها وحشة الطريق. فأجاب: يا لَحُسْنَ ما اخترته! فذلك قيسٌ البائس هو من سطّر لنا ملاحم الغرام بشعرٍ مُفَلّق مستهام. إيهاً صاحبي لقد قدحت زناد قلبي، وأوريت خامده، فهلّا توقفنا على تلك الرابية اللائحة على ضوء سراج الليل المنير، نعلل أنفسنا بالحديث حتى ننام، فإذا أصبحنا رأينا مضارب السحابة، فهذه جداولها تفيض علينا من كل فجّ، ولا نريد البعد عن مسقط الوطفاءِ حتى ننعم برؤية خطّها في صحيفة الأديم.

نزلنا، وأوقدنا الرّمث والسّمر الذي احتطبه بكرةً، وحمدنا الله على ذلك، فالأرض تنجّ الماء نجّاً فما لحاطبٍ مُوقِدٍ مُستمتَعٌ. ثمّ قام صاحبي وأكبّ على الزَّمْلِ فأعدّ العشاء، وتعمّد أن يكثر توابله وفلافله احترازاً للبرد، فلما انتهى من تجهيزه غطّاه ينتظر نضجه، ثم قام مستنداً على عصاً كأنه خطيب جمعه أو قائد خميس، ولا عجب من أمثاله فالخيال لديهم أخو الحقيقة، وهو يقول بصوت عميق، كأنما يتحدث من قعر بئر شطون:

يا رفيق الدّرب، متى تعرّضَ الشاعر العربيّ المفلّقُ للمعنى، وأمرر قريحته عليه؛ نَفَذ فيه وكشف معانيه، وأظهر جواهره واستصفى لبّه بألفاظٍ هي حللُ الديباج والسّندس. ومشاهير العشاق المُفلّقون أربعة؛ جميلُ بثينة، ومجنونُ ليلى، وكثيّرُ عزّة، وقيسُ لُبنى، وأنسبهم عندي المجنون ثم جميل. فلم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تلد العربيات في النسيب كابن الملوح، وهو أمير النسيب بلا ريب.

مجنون ليلى معاصرٌ لقيس بن ذريح، وبعض الناس يخلط بينهما، وصاحبنا هو قيس بن الملوَّح العامري، وزعم بعضهم أن اسمه أحمد أما قيس فلقب، أما محبوبته فهي ليلى بنت مهدي العامريّة وكنيتها أم مالك، قال عنها:

تكادُ بلادُ اللهِ يا أمَّ مالكٍ ... بما رَحُبَتْ يوماً عَلي تضيقُ

تعلّقت مُضغتُه بأهداب ليلى، فلما شَبَّبَ بها منعوه من قربها، إثر دخول سِفْلةٍ من الناس في شأنها، فحرموه الزواج بها، فازداد غرامه، وتوهّج شوقه، ولم يزل يتمادى به الضنى حتى جُنّ! وقد يكون قد علق قبلها بأخريات، لكن شمس ليلى كسفت بالنجوم وخسفت بالأقمار، كما قال وهو المجنون الذي غلب لقب جنونه على اسمه:

محا حبُّها حُبَّ الأُلَى كُنَّ قَبلَها ... وَحَلَّتْ مكاناً لم يَكُنْ حُلَّ من قبل

ويُورَد على ذلك بيته الشهير:

أتاني هَواهَا قبل أن أعرفَ الهوى ... فصَادفَ قلباً خالياً فتمكّنا

وإني إلى الثاني لأميل، فلعل الأوّل إنما كان من الإعجاب العابر لا الحب المكين.

وشكى أهلُها إلى مروان زيارته لحيِّهم وتشبيبه ببنتهم، فأهدر دمه إن وجد في حيّهم، فهام على وجهه وفقد لُبَّهُ، وهام مع الوحوش لا يعبأ بشيء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خلا ليلى، ولا يكترث لأحد من التّلفِ سواها، وكان يلعب بالتراب والعظام لا يعقل غير ذكرها. وأُخبرت ليلى بذلك فجزعت وسقمت، وزوَّجَها أهلُها بغير رضاها من ثقفي رآها حين حجّ بها أهلُها، فقال المجنون:

ألا إن ليلى العامريةَ أصبحتْ ... تقطع إلا من ثقيفٍ حبالُهَا
همُ حبسوها محبَسَ البُدْنِ وابتَغَى ... بها المال أقوامٌ ألا قَلَّ مالُهَا
إذا ما التقتْ والعيس صفر من الثرى ... من العين جَلّى عبرةَ العينِ حالُهَا
خليليَّ هل من حيلةٍ تعلمانها ... فيدنى بها تكليم ليلى احتيالُهَا
فإن أنتما لم تعلماها فلستما ... بأوّلِ باغٍ حاجة لا ينالُهَا

وحين تحقق عنده تزويجها أنشد:

دعوتُ الهي دعوةً ما جهلتُها ... وربّي بما تخفي الصدور خبيرُ
فقد شاعت الأخبارُ أن قد تزوّجَتْ ... فهل يأتِيَنِّي بالطلاق بشيرُ

وجعل يمر ببيتها فلا ينظر إليه وينشد:

ألا أيها البيت الذي لا أزوره ... وإن حَلَّهُ شخصٌ إليّ حبيبُ
هجرتك إشفاقاً وزرتك خائفاً ... وفيك عليّ الدهرُ منك رقيبُ

وقال وتأمل تشبيهه، وقد ظلمه من سلبه ذلك الفن:

كأن القلبَ ليلةَ قيلَ يُغدى ... بليلى العامريَّةِ أو يُراحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فباتت ... تُجاذبه وقد عَلِقَ الجناحُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لهـا فرخـانِ قـد غلِقـا بـوكرٍ فعـشُّهما تـصفِّقُه الريـاحُ
فـلا في الليـل نالـت مـا تُرجِّـي ولا في الـصبحِ كـان لهـا بـراحُ

وانظر روعة تشبيهه هٰهنا:

فقلـت لأصـحابي والـدمع مسبلٌ وقد صدع الشمل المشتت صادعُ
ألـيلى بـأبواب الخـدورِ تعرَّضـتْ لعينيَ أم قرنٌ من الشمسِ طالعُ

ويروون عن كثيّر عزّة أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له: أنشدني شيئاً قلتَهُ في عزَّة، فقال: بل أُنشدك ما امتدحتُك به، فألحّ عليه فجعل ينشده وعيناه تهملان، فقال عبد الملك: ما أشد حبّك لعزة، فهل رأيت قطّ أحداً كان أشد حباً منك؟ قال: أخبرك يا أمير المؤمنين:

خرجت وقد هاج بي الشوق وذِكْرُ عزّةَ، وكانوا قد انتجعوا نجعة قريباً من الحي، فمررت برجل قد نصب شركاً له وهو منفرد عن الحي، فملت إليه، وقلت: هل من قِرى؟ فقال: أنا عازب عن الحيِّ، وقد نصبت حبائلي، فاصبر قليلاً أحوش عليك الظباء، فإن وقع في الحبال شيء أكلنا جميعاً، فإني لم أطعم شيئاً منذ ثلاث. فمضى يحوش، فوقعت في شركه أدماءُ عوهج ـ أي ظبية جميلة ـ فأسرع نحوها، وأنا منه حيث أرى وأسمع، فطفق يمسح التراب منها، ثمَّ أطلقها وأعاد الحبالة وأقبل إلي. فقلت: يا هذا، ما رأيت مثل اليوم أحداً صنع صنيعك، إنا جميعاً نشكو الغرث ـ أي الجوع ـ حتَّى إذا أتى الله بالفرج أرملتنا من زادنا؟ قال: ويحك، إني نظرت إليها وإلى عينيها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فشبهتها بمن أهوى، فهل رأيت من يأكل شبه حبّه؟! وأنشأ يقول:

أيا شبهَ ليلى لا تُراعي فإنَّني ... لكِ اليومَ من بين الوحوشِ صديقُ

أقولُ وقد أطلقتُها من وثاقِها ... لأنتِ لليلى إنْ شكرتِ طليقُ

ثمَّ قال: أقم، فإن وقع شيءٌ أكلنا، فأقمت طمعاً في أن يمنعه الجوع من أن يعود لمثل فعله، فوقع في شركه ظبي، فسعى نحوه، وأطلقه فعدا، وأنشأ يقول:

أيا شبهَ ليلى لو تلبَّثتَ ساعةً ... لعلَّ فؤادي من جواه يفيقُ

وما إنْ أشبهتَها ثمَّ لم تؤبْ ... سليماً عليها في الحياةِ شفيقُ

فقلت: ويحك، أجهدنا الجوع وتركته، وعلمتُ أنه مجنون من الحب، ثمَّ مررت على ظباء ترعى فقلت: إن دللته عليها رجوت أن يحوشها، ويمنعه من إطلاق ما تقع في حبالته منها علمُهُ بأنها طريدتي فيأكل ويطعمني، فرجعت إليه وقلت: ألا ترى إلى تلك الظباء ساكنة ترتعي؟ فقال: هيهات، إني رأيت ليلى ترتع في هذه الروضة وتلعب وإني قلت:

رأيتُ ظباءً ترتعي وسطَ روضةٍ ... وكنتُ أرى ليلى فلنتُ لها دهرا

فيا ظبيُ كلْ رغداً هنيئاً ولا تخفْ ... فإنِّي لكم جارٌ وإنْ خفتمُ دهرا

ثمَّ مضى وتركني، فهذا يا أمير المؤمنين أعشقُ عاشقٍ رأيت. قال: فمن تراه؟ قال: المجنون قيس بن الملوّح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولله دره حينما قال:

وإني لأستغشي وما بيَ نعسةٌ ... لعلَّ خيالاً منك يلقى خياليا

وأخرج من بين الجلوسِ لعلني ... أُحدِّثُ عنك النَّفسَ بالسرِّ خاليا

ولشرف معنى هذين البيتين فقد كان شيخ الإسلام ربما خرج عن العمران حتى إذا خلا في البيداء؛ رفع بصره إلى السماء وأنشدهما..وشتان يا صاحبي بين الغرضين!

وقد بلغ منه العشق مبلغاً عظيماً مسّ شغاف قلبه، بل استولى عليه، ألا تستمع إليه إذ يقول:

ولو شَهِدَتْنِي حين تأتي منيَّتي ... جَلَا سكراتِ الموتِ عَنِّي ابتسامُهَا

حتى الصلاة أخلفه العشق فيها، ولكن لا قلم على مجنون، قال عفا الله عنه:

أُصَلِّي فما أدري إذا ما ذكرتُها ... أثنتين صلَّيتُ الضُّحى أم ثمانيا

وخرج لمكة علّه يسلو عن ليلى، فسمع ليلةً إنساناً ينادي: يا ليلى! فخرَّ صاحبنا مغشياً عليه، فلما استفاق قال ـ وكثيراً ما كان ابن الجوزي وابن القيم يرددانها ـ:

وداعٍ دَعَا إذ نحن بالخيفِ من مِنًى ... فهيّج أحزانَ الفؤادِ وما يدري

دعا باسم ليلى غيرَها فكأنّما ... أطارَ بليلى طائراً كان في صدري

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دعـا باسـم لـيلى أسـخنَ اللهُ ليلَـهُ ولـيلى بـأرض الـشام في بلـد قفـرِ
عرضْتُ علَى قلبي العزاءَ فقال لي منَ الآنِ فاجزعْ لا أَغُرُّكَ بالصَّبرِ
إذا بـان مـن تهـوى وشطّ بـه النَّـوَى فَفُرْقة مـن تهـوى أحرُّ مـن الجمـرِ

ومن عذب معزوفه وانظر إلى المِقَةِ تتثنّى فيه:

يقولـون لـيلى عـذَّبتكَ بحبِّهـا ألا حبَّـذَا ذاكَ الحبيـبُ المعـذبُ

وحين بدأ به الجنون خافت أُمُّهُ عليه، فاحتالت حتى جاءت بها، وسلّمت عليه وهي واقفة وقالت:

ُخبِرْتُ أنك من أجلي جننتَ وقد فارقـتَ أهلـكَ لم تعقـلْ ولم تفـقِ

فرفع إليها رأسه وأنشد:

قالت جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لها الحـبُّ أعظـم ممـا بالمجـانينِ
الحبُّ ليس يُفيقُ الدَّهرَ صاحبُهُ وإنـما يـصرع الإنـسان في الحـينِ
لو تعلمين إذا ما غبتِ ما سقمي وكيـف تـسهر عينـي لم تلـوميني

وقيل: لعل الله ابتلاه بالجنون لمّا قال:

قـضاها لغـيري وابـتلاني بحبِّهـا فهـلَّا بـشيء غـير لـيلى ابتلانيـا

وقال واصفاً حاله وفي البيت الثاني معنىً بديع:

وجـاءوا إليـه بالتعاويـذِ والرُّقَـى وصبّوا عليه الماءَ من ألم النّكسِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقالوا به من أعينِ الجِنِّ نظرة ... ولو عقلوا قالوا به نظرةُ الإنسِ

وأنشدَ الحمائمَ الهادلة:

ألا يا حمامَ الأيكِ مالك باكياً ... أفارقتَ إلفاً أم جفاك حبيبُ

دعاكَ الهوى والشوقُ لما ترنّمَتْ ... هتوفُ الضُّحى بين الغصون طروبُ

تُجاوِبُ وُرْقاً قد أذِنَّ لصوتها ... فكلٌّ لكلٍّ مُسْعِدٌ ومُجيبُ

وقد كان المجنونُ وليلى وهما صبيّان يرعيان غنماً لأهلهما عند جبل في بلادهما يقال له التّوباد، وهو في محافظة الأفلاج ولا زال معروفاً باسمه الشامخ، وقد وصف ذلك الحبَّ الطفولي البريء بقوله:

تعلقت ليلى وهي ذاتُ ذؤابةٍ ... ولم يبدُ للأترابِ من من ثديها حجمُ

صغيرين نرعى البهْمَ ياليت أنّنا ... إلى اليوم لم نكبرْ ولم تكبر البهمُ

فلما ذهب عقله وتوحش كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيم به ــ والغار موجود ومعروف ـ ثم هامَ المسكينُ وساح على وجهه حتى بلغ الشام، حتى إذا ثاب إليه عقله أنكرَ القومَ والأرضَ، فسألهم عن جبل التّوباد الذي كان يرعى وليلى الغنم عنده في سالف الزمان، وهو يتذكّر أيام كان يطيف هو وليلى به وبمرابعه، وقد رأى بلداً لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم: بأبي أنتم، أين التّوباد من أرض بني عامر؟ فيجيبونه: وأين أنت من أرض بني عامر؟! أنت بالشام، عليك بنجم كذا فأُمَّهُ، فيمضي على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلاداً ينكرها وقوماً لا يعرفهم،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيسألهم عن التّوباد وأرض بني عامر، فيقولون: وأين أنت من أرض بني عامر؟! عليك بنجم كذا و كذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه قال باكياً:

وأجْهَشْتُ للتَّوبادِ حين رأيتُه ... وكَبَّرَ للرحمن حينَ رآني
وأذرَيتُ دمعَ العين لمّا عرفتُه ... ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلتُ له قد كان حولَك جيرةٌ ... وعهدِي بذاكَ الصّرم منذ زمانِ
فقال مَضَوْا واستودَعُوني بلادَهم ... ومَنْ ذا الذي يبقَى على الحَدَثانِ
وإني لأبكي اليومَ من حَذَرِي غداً ... فِراقَكَ والحيَّانِ مُجْتَمِعانِ
سِجَالاً وَتْهَتَاناً وَوبْلاً ودِيمَةً ... وسَحًّا وتَسْجاماً إلى هَمَلانِ

ثم التفت صاحبي إلى الشرقِ، وقبسات البروق تتجلّى منعكسة على بياض وجهه وأردانه، بينما تتقاطر علينا زخّاتٌ لذيذة من الهتون، ولها على الجمر كصوت البارود الفاسد في البنادق العتيقة، فرفعت رأسي أتطلع لمزنةٍ غَرْثَى قد ألقت ما فيها وتخلّت إلا من بقايا هتون، والعامّة تسمّيها الغثير، وقد هبت أنفاس الصَّبَا وهي نسائم الريح المشرقيّة، فاستقبلها صاحبي بوجهه الصَّبوح وملأ منها رئتيه، فتذكرت قول ابن الرومي وبيته الأول جبّار:

لها ريقٌ تشفّ له الثَّنايا ... وتروى عنه لا مِنْهُ الظّماءُ
وأنفاسٌ كأنفاسِ الخُزامَى ... قُبَيلَ الصُّبحِ بَلَّتْهَا السماءُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَـنَفَّسَ نَـشْرُها سَـحَراً فجـاءت بــه ســحرية المــسْرى رُخــاءُ

وصاحبي لا زال واقفاً على هيئته، يرتعد حيناً من التأثر وحيناً من البرد، وقال: يرحم الله المجنون إذ قال وقد صدق:

أيــا جــبلَي نعــمان بــالله خَلِّيــا سبيلَ الـصَّبا يخلُـصْ إليّ نـسيمُهَا

أجدْ بردَها أو تَشْفِ مني حرارة عــلى كَبِــدٍ لم يبــق إلا صــميمُهَا

فـإن الـصَّبا ريـحٌ إذا مـا تنـسَّمَتْ على نفسِ مهمـومٍ تجلّت همومُها

ومن رقة طباع أهل العلم والأدب، أنّ واعظ الإسلام عبد الرحمن بن الجوزي لمّا فارق زوجته واسمها نسيم الصَّبا؛ هفا إليها وكلف بها، وأراد معاودة وصلها فأبت، وطال الأمر بأشواقه، وفي يومٍ سعيدٍ حضرت مجلس وعظه، قد استترت منه بجاريتين، فلاحت منه نظرةٌ إليها فعرفها، فتنفّس الصعداء وأنشد أبيات المجنون: أيا جبلي نعمان.. فرقّت له، فقامت وحدثت بذلك بعض نسائها فأخبرنه، فراسلها فأجابت فتزوج بها.

وأهل العلم لا يمنعون مِنْ مثل هذا، فالأنفس اللطيفة الرقيقة لها حاجاتٌ ليست كالكثيفة الثقيلة، وهذا عطاء الله ورزقه، وكما قال سقراط: الكلام اللطيف ينبو عن الفهم الكثيف، وانظر إلى ابن تيمية إذ كان لطيف المعاني بعيد المرامي رقيق الحواشي، وهو الذي لم يدع فضلة علم إلا رفع منارها، ولا دفينة معنى إلا أظهرها وأثارها وأجلاها، إلا ما شاء الله، ثم نراه قد اهتزّ رَحِمَهُ اللَّهُ مرّة وهو ينشد أبيات أبي فراس:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فليتَـكَ تحلـو والحيـاة مريـرة ... و ليتـك تـرضى والأنـامُ غـضابُ

وليـت الـذي بينـي وبينـك عـامرٌ ... و بينـي وبـين العـالمين خـرابُ

إذا صـحَّ منـك الـودُّ فالكـل هـيِّنٌ ... و كـل الـذي فـوق الـتراب تـراب

ثم قال: لا تنبغي هذه إلا لله، وأخرى حينما أنشد لأبي تمام:

هـو البحـر مـن أيِّ النـواحي أتيتـهُ ... فلجّتـهُ المعـروفُ والجـودُ سـاحلُه

تعـوَّدَ بـسطَ الكـفِّ حتّـى لـو أنـهُ ... ثناهـا لقـبضٍ لم تطعـهُ أناملُـه

ولـو أنَّ مـا في كفّـهِ غـيرُ نفـسهِ ... لجـادَ بهـا فليتّـقِ الله سـائلُه

فقال: إنما هذه لرسول الله ﷺ.

نعم يا صاحبي فالأدب كالماء العذب النمير، يهذب النفوس النقيّة ويُرويها، أما النفوس الخبيثة فلا يزيدها إلا فحشاً، واسأل الحَبرَ البحرَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، الذي كان يفتح بابه للسائلين عن الشعر، بل رويت عنه أخبار في روايته النسيب، ولي رجوع لهذا الحديث، فدعنا الآن مع مجنوننا العُذْرِيِّ، ومن بديع وصفه لليلى:

بيـضاءُ خالـصةَ البيـاضِ كأنَّهـا ... قمـرٌ توسّـط جـنح ليـل مـبردِ

موسـومةٌ بالحـسنِ ذاتُ حواسـدٍ ... إنَّ الجـمال مظنَّـةٌ للحُـسَّدِ

وتـرى مـدامِعَهَا ترقـرق مقلـة ... سـوداء تُعربِ عـن سـواد الأثمـدِ

وقال أيضاً مستسلماً لجيش الحب:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقــد يُبــتَلى قــومٌ ولا كبليّتــي ولا مثلَ وجدي في الشقاء بكم وجدُ
غزتني جنودُ الحبِّ من كل جانبٍ إذا حان من جند قفول أتى جندُ

وسُئل يوماً وقد استفاق من جنونه: ما أحسن ما رأيت؟ قال: ليلى. فقيل له: ذلك معلومٌ، وإنما نعني غيرها. فقال: ما رأيت شيئاً وذكرتها إلا سقط من عيني، إلا ظبياً رأيتُه يوماً فذكرت ليلى، فزاد في عيني حسناً، فانطلقت أعدوا خلفه حتى ملّت رجلاي وغاب عن عيني، فأخذت راحتي ثم انطلقت حتى وجدتُه وقد فتك به ذئبٌ، فأخذت سهماً وضربت به الذئبَ فلم يُخْطِ قلبه، فشققت بطنه وأخرجت ما أكل فضممته إلى ما بقي من الظبي فدفنته.

ويا صاحبي إن قلتَ: هذا تعسّف، قلتُ لك: إليك عنّي فدعني في ما يقال مما أُحِبّ، ولو توقفنا عند تحقيق الأخبار لحُرِمْنَا كثيراً من المُتعِ المباحة.

ولما دسّ أبوه إليه من يزعم أن ليلى تشتمه وتتنقصه أنشد على البديهة:

تمرُّ الصَّبا صفحاً بساكن ذي الغضا ويصدعُ قلبي أن يهبَّ هبوبُهَا
إذا هبَّتْ الريحُ الشمال فإنها جوابي بما يُهدي إلي جنوبُهَا
قريبةُ عهد بالحبيب وإنما هوى كلُّ نفس حيث كان حبيبُهَا
وحسب الليالي إن طرحنك مطرحاً بدارِ قِلًى تُمسي وأنت غريبُهَا
حلالٌ لليلى شَتمُنَا وانتقاصُنَا هنيئاً ومغفوراً لليلى ذنوبهَا

ثم سكت صاحبي هنيهة كأنما يتذكر صورةً ويسترجعها أمامه ويملأ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بصره من وحي ذكراها، وقد انقشعت تلك السحابة العَجلى. ومع هدأة السكون سمعنا خريراً ليس بالبعيد عنا، فمشينا نحوه وإذ هو لجدولٍ صغير ينحدر من علو الهضبة بين صخرتين، فصار شلّالاً رائعاً فتذكرت قول الشاعر:

أُكَاتِمُ لوعات الهوى ويُبينها ... تَخَلُّلُ ماءِ الشَّوقِ بين جفوني

ومع انعكاس نور البدر خلاله؛ صار بعيني كعقد لؤلؤٍ على جيد عروس حسناء، فإذا جدولٌ آخر على البعد أكبر منه، فسرنا إليه وإذ هو يتقصَّفُ من الهضبة فيثور ماؤُه في رضراض الحصباء، التي هي أحسن من الدُّرِّ والعقيان في صدور النواهد الحسان، ثم يسحّ سلسالهُ من بين الصخور ويجتمع مع أمثاله فتشكّل سيلاً وسَطاً لا أدري أين مُنتهاهُ. فوقف صاحبي على شطئه، ثم تنفس الصّعداء وقد انبلجت أساريره جذلاً، وأخذ ينكتُ الماء بعصاه منشداً أبيات المجنون بصوت عذب ــ ولا أدري ما سرّ العلاقة بين ندى الصوت وضخامة الأنف ـ ويقول: لقد بكى قيس حينها شوقاً لا حزناً:

جرى السيلُ فاستبكاني السيلُ إذْ جرى ... وفاضت له من مقلتيَّ غروبُ

وما ذاك إلا حين أيقنتُ أنَّه ... يكون بوادٍ أنت منه قريبُ

يكونُ أُجاجاً دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقّى طيبكم فيطيبُ

فيا ساكني أطراف نخلةَ كلّكم ... إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

وإن الكثيبَ الفرد من أيمنِ الحِمَى ... إليّ وإن لم آته لحبيبُ

ثم التفت إلي وقال: أتلومني في تفضيل نسيبه بعد هذه المقطوعة الجذلى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحانية؟! أو إلى تلك الباكية:

إلى الله أشكو حبَّ ليلى كما شكا ... إلى الله فقدَ الوالدينِ يتيمُ
يتيمٌ جفاهُ الأقربون فعظمهُ ... كسيرٌ وفقد الوالدينِ عظيمُ

أو تلك الصادقة:

وكيف أعزِّي النفسَ بعد فراقِها ... وقد ضاق بالكتمان من حُبِّهَا صدري
فو الله واللهِ العزيزِ مكانهُ ... لقد كاد روحي أن يزول بلا أمري
خليليَّ مُرَّا بعد موتي بتربتي ... وقولا لليلى ذا قتيلٌ من الهجرِ

ومثلها قوله:

تعلّقَ روحِي روحَها قبلَ خلْقِنا ... ومن بعدِ أن كنَّا نطافاً وفي المهدِ
فعاش كما عِشنا فأصبح نامياً ... وليس وإن متنا بمنقصفِ العهدِ
ولكنَّهُ باقٍ على كلِّ حالةٍ ... وسائرنا في ظلمة القبرِ واللحدِ

ومرَّ شاعرُنا بزوج ليلى وهو جالس يصطلي في يومٍ شاتٍ، فوقف عليه ثم أنشأ يقول ـ ولا ألومه إذ حسده ـ:

بِربِّك هل ضَمَمْتَ إليكَ لَيلَى ... قُبيلَ الصبح أو قَبَّلْتَ فاها
وهل رَفَّتْ عليك قُرونُ ليلى ... رَفِيفَ الأُقْحُوانة في نَدَاها

فقال: اللّهم إذ حلفتني فنعم. فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه، وسقط الجمر مع لحم راحتيه! وعضَّ على شفته فقطعها من الغمِّ! فقام زوج ليلى مغموماً بفعله، متعجّباً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منه.

وقال مخاطباً النسيم، وتَلمَّحْ جوعتَهُ:

ألا يا نسيمَ الريحِ لوْ أنّ واحداً ... منَ الناسِ يُبْلِيهِ الهوى لبلِيتُ

فلوْ خُلِطَ السُّمُّ الزّعافُ بريقِها ... تَمَصَّصْتُ منه نهلةً ورويتُ

وانظر إلى استسلامه لقياد الهوى، عائذاً بالله من الهوى:

ألا قاتلَ اللهُ الهوى ما أشدّه ... وأسرعه للمرء وهو جليدُ

دعاني الهوى من نحوها فأجبتهُ ... فأصبحَ بي يستنّ حيث يريدُ

ويا لله ما أجمل هذا الخيال...والوفاء!:

تكادُ يدي تَنْدَى إذا ما لمستها ... وينبتُ في أطرافِهَا الورقُ الخضرُ

فيا حبَّذا الأحياءُ ما دمتَ فيهم ... يا حبذا الأمواتُ إن ضمَّك القبرُ

وإني لتعروني لذكراك نفضةٌ ... كما انتفضَ العصفورُ بلَّلَهُ القطرُ

وقال نشوانَ هائماً:

لقد بسملتْ ليلى غداةَ لقيتُها ... فيا حبَّذا ذاك الحبيبُ المبسملُ

قلت له: ما أرهف حسّك وأدقَّ فهمك حين ألقيتَ عليَّ هذه الروائع، فقال: خذ الخاتمة المسكيّة يا ذا الجوى القديم:

فبعد نثري لتلك الدرر المجنونيّة أقول: أما قصيدته الموسومة بالمؤنسة فهي نسيج وحدها، وهي أطول وألطف وأجمل وأعذب وأسلس أشعاره،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفيها للمحزونين راحة وأُنساً، وكان المجنون كثيراً ما يُنشدها إذا خلا بنفسه، ولو لم يقل غيرها لكفته للنسيب أميراً وسيِّداً، فرحمة الله عليه لكم أشجاني بها وسلّاني، لولا هنّاتٌ فيها من الاعتراض والخبل، ولكنه المجنون والجنون عفوٌ يا سادة! وقد تنسَّم منها نسيمُ مرثيةِ ابن الريب التميمي وأكرمْ بها! واسأل ابن الجوزي وابن القيم ما فعلت بهما هذه الأبيات؟!

يُبكى علينا ولا نبكي على أحدٍ ... لنحنُ أغلظَ اكباداً من الإبلِ

وهذه قطعةٌ منها، فهل أنت مصغ؟ قلت: كلّي أذن صاغيةٌ ونفسٌ مشتاقة، فتنحنح ليصفّي صوته، ثم صدح بها بترنّمٍ شجيٍّ حزين، ودموعه تترقرق من آماقها فيتهدّجُ صوته الرخيم:

تذكرت ليلى والسنينَ الخواليا ... وأيامَ لا أعدى على الدهرِ عادِيا
فيا ليلُ كم من حاجةٍ لي مُهَمَّةٍ ... إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
خليليّ إن لا تَبْكياني أَلْتَمِسْ ... خليلاً إذا أنزفتُ دمعي بكا ليا
فَمَا أُشْرِفَ الأيفاعَ إلا صبابةً ... ولا أُنشدُ الأشعار إلا تداويا
وقد يجمعُ الله الشتيتينِ بعدما ... يظنّان كلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا
وعهدي بليلى وهي ذات مؤصَّدٍ ... تردُّ علينا بالعشيّ المواشيا
بتمرينَ لاحتْ نار ليلى وصحبتي ... بقرع العصا تُزجي المطيَّ الحوافيا
فقال بصيرُ القوم لمحةُ كوكبٍ ... بدا في سواد الليل من ذي يمانيا
فقلت لهم بل نارُ ليلى توقَّدتْ ... بعليا تَسَامَى ضوءُها فبدَا ليا
خليليَّ لا والله لا أملك الذي ... قضى اللهُ في ليلى ولا ما قضى ليا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قضاها لغيري وابتلاني بحبِّها ... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
وخَبَّرْتُمَاني أنَّ تيماءَ منزلٌ ... لليلى إذا ما الصيفُ ألقى المراسيا
فهذي شهورُ الصيفِ عنَّا قد انقضت ... فما للنوى تَرْمِي بليلى المراميا
وقد كنت أعلو حُبَّ ليلى فلم يزل ... بي النقض والإبرام حتى علانيا
فيا ربِّ سوِّ الحبَّ بيني وبينها ... يكون كفافاً لا عليَّ ولا ليا
فما طلع النجمُ الذي يُهتدى به ... ولا الصبح إلا هيَّجَا ذِكْرَها ليا
ولا سرت ميلاً من دمشقٍ ولا بدا ... سهيلٌ لأهل الشام إلا بدا ليا
ولا سُمِّيتْ لها عندي من سُمَيَّةٍ ... من الناس إلا بَلَّ دمعي ردائيا
ولا هبّت الريح الجنوبُ لأرضها ... من الليل إلا بِتُّ للريح حانيا
فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها ... عليّ فلن تحموا عليّ القوافيا
فأشهد عند الله أني أُحِبُّها ... فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروفِ منها لغيرِنا ... وبالشوقِ مني والغرام قضى ليا
وإن الذي أَمَّلتُ يا أُمَّ مالكٍ ... أشاب قَذَالِي واستهام فؤاديا
أَعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ ... وقد عِشْتُ دهراً لا أعدُّ الليالیا
وأخرجُ من بين البيوت لعلّني ... أحدّثُ عنكِ النفسَ بالسّرِّ خاليا
وإنّي لأستغشي وما بي نعسةٌ ... لعلّ خيالاً منكِ يلقى خياليا
أراني إذا صليتُ يمّمتُ نحوَهَا ... بوجهي وإن كان المصلَّى ورائيا
وما بي إشراكٌ ولكن حبّها ... وعظم الجوى أعيى الطبيب المداويا
أُحِبُّ من الأسماء ما وافق اسمَهَا ... وأشبَهَهُ أو كان منه مُدانيا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خليليَّ ما أرجو من العيش بعدما ... أرى حاجتي تشرى ولا تُشترى ليا
إذا سرتُ في الأرض الفضاء رأيتني ... أُنازِعُ رحلي أن يميلَ حياليا
يمينا إذا كانت يميناً وإن تكن ... شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا
إذا نحنُ أدلجنا وأنتِ أَمَامَنا ... كفى لمطايانا بذكراكِ حاديا
ذَكَتْ نارُ شوقي في فؤادي فأصبحتْ ... لها وَهَجٌ مستضرمٌ في فؤاديا
ألا أيها الركبُ اليمانُونَ عرّجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
أُسائِلُكُمْ هل سال نَعْمَانُ بعدَنا ... وحُبَّ إلينا بطن نعمان واديا
ألا يا حَمَامَيْ بطنِ نعْمانَ هِجْتُمَا ... عليّ الهوى لمّا تغنّيتُما ليا
وأبكيتُماني وسْطَ صحبيْ ولم أكُنْ ... أُبالي دُموعَ العينِ لو كنتُ خاليا
ألا يا حَمَامَاتِ العراق أَعِنَّنِي ... على شَجْنِي وابكين مثل بُكَائِيا
ويا أيّها القُمْرِيّتَانِ تجاوَبَا ... بلحنيْكُما ثمّ اسْجعَا عَلّانِيا
فإن أنتُما استطربْتُمَا أو أَرَدْتُمَا ... لَحَاقاً بأَطْلالِ الغَضَى فاتبعانِيا
لئن ظعنَ الأحبابُ يا أُمَّ مالكٍ ... فما ظعن الحُبُّ الذي في فؤاديا
فيا ربِّ إذ صيَّرت ليلى هي المُنَى ... فزِنِّي بعينيها كما زِنْتَهَا ليا
وإلا فبغِّضْهَا إليَّ وأهلَها ... فإنِّي بليلى قد لقيتُ الدَّواهيا
على مثل ليلى يقتلُ المرءُ نفسَهُ ... وإن كنت من ليلى على اليأسِ طاويا
خليليَّ إن ضَنّوا بليلى فقرّبا ... لي النعش والأكفان واستغفرا ليا

وكان آخر أمره أن وجد بين حجرين ميتاً، رحمه الله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَلا أُنْشِدُ الْأَشْعَارَ إِلّا تَدَاوِيَا..

أقرب وألطف ما في الدنيا للرجل هي الأنثى، فقد خُلِقَ ليسكن إليها وتسكن إليه، وجعلَ اللهُ بينهما المودة والرحمة، كلاهما شجنةٌ من صاحبه، يحنّ إليها حنين النيب إلى أولادها، والحمائم إلى أفراخها. ذلك أن في فؤاده فراغاً لا تسُدُّهُ إلا الحنون، واشقاءً وأسىً لمن حُرم الحنون!

ألقينا الوجهة شمالاً فضربنا بطن الصّمان المارد، ولإطارات السيارة أنينٌ من حيوفِ الأحجار، تطردنا سحابة من غبار كأنها ذئب منعطف على طريدته. حتى أشرفنا على ماءٍ كأنه مرآة السماء وسط أرج الربيع، وأَجْمِلْ بالربيع إذا تفتّق في ظهر البيداء!

نزلنا إلى ظلِّ دوحة راكع طرفها إلى الماء، قد أرسلت فوقنا غصنين كأنهما جديلي حسناء. قعدنا على حجر نصفه في الماء نلقي صغار الحصا على صفحة الماء رمياً باحتراف، حيث تُدار الحصاة المسطّحة وتقذفُ بشكلٍ سطحي بحيث تنفر من الماء مع أول ملامسة، ومن أبعد حصاته أكثر فقد غلب صاحبه.

أوّاه، ما أجمل ذلك الماء للمتأمل الساكن، خاصة مع لذعِ لطيفٍ من برد الصباح النوفمبري، ماءٌ إذا مسّته يد النسيم حكى سلاسل الفضة، وإذا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صافحته راحة الريح تماوج كارتعاش القلب الرهيف إذا مسه خيال خلّه، يسقيه جدول يمشي على الرضراض كأنه دموع من عيونٍ مراض، قد ترقرقت فيه دموع السحائب التي لا تجف جفونها ولا يخف أنينها.

بادرْتُ القهوة، فجئت بثلاث أثافٍ رصَصْتُها على شكل مثلث، وتخيّرت رقيق العيدان، ثم جعلتُ تحتها الإذخر، وهو ما تسميه العامّة السّاف، وهو حشيش سريع الاشتعال، طيب النكهة، عبق الريح، فيه من نَفَس العطور المشرقيّة، ولربما جعله بعض الهواة بديلاً عن النعناع في الشاي. حتى إذا نفخْتُ الرّمث بعد إيقاد الإذخر علقت النار بها ولها أرجٌ ذكيٌّ لذيذ جمع بين خشونة الرمث الكلاسيكية ونعومة الإذخر الرومنسية! فأصبح المزيج مضاهياً لعود كمبوديا ودهن خشب مليبار.

جئتُ صاحبي بالبُنِّ العذب في الرسلانية المربوبة حديثاً، معها تمر خلاص في صفاء الزجاجة، حتى أنك لترى القطمير في النواة من خلاله، كأنه زجاجة ملئت من عسل السّدر. والتفتنا على صوت رعد بعيد وشِمنا برقه فإذا سحاب ركاميّ كأنه الليل جهة الجنوب، ألا ما أجمل البرق وأروعه! وصدق كلثوم بن عمرو العتابي إذ قال:

أرقتُ للبرقِ يخبو ثم يأتلقُ ... يخفيه طوراً ويبديه لنا الأفقُ
كأنهُ غُرَّةٌ بيضاءُ لامعةٌ ... في وجهِ دهماءَ ما في جِلْدِها بَلَقُ

والبرق يضرب الأرض كأنه سياط فارسين شرسين جَلْدَينِ متقاربين على وشك الوصول لخط المنتهى، وكسب الرهان، وأحياناً يرتفع البرق

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وينكفئ على سحابته فتضيء تارة كالمصباح في الزجاجة القاتمة، وحيناً يظهر متشعّباً على أطرافها كأنه عروقٌ ناتئة في يد هرم نحيل. وريح الجنوب تسمّى الأَزِيب، وأجمِل بما أنشده إسحاق الموصلي:

يا حبَّذا ريحُ الجنوبِ إذا جَرَتْ ... في الصبحِ وهي ضعيفةُ الأنفاسِ
قدْ حُمِّلتْ بَرْدَ الندى وتحمَّلتْ ... عَبَقاً من الجَثْجاث والبَسْباسِ
ماذا يَهيج من الصَّبابةِ والهوى ... للصَّبِّ بعد ذهولهِ واليأسِ

وفي اليوم التالي ومع هنيهات الصباح الأولى، والطيور لا زالت جاثمة في أوكارها، تدفئُ صغارَها بزغبها من برد السَّحَر الرطيب، رشفَ صاحبي رشفات من قهوة الصباح، وهو يتأمل زهر الخُزَامَى البنفسجي الذي ضَاعَ نشْرُه، وقد نبت على رَمْلَةٍ ذهبية مستدقَّةٍ جانب الماء، كأنها قلادة لجينٍ على جيد غيداء ناهد، قد أوفتهما العجاج هذا المكان وليس لهما بمنزل. والخزامى يتمايل مع النسيم كتمايل الثمل النشوان أمام صفيّه الخالص. وليس في نجد زهرة أطيب نفحاً من الخزامى، ولا يطوي عَرْفٌ نَشْرَ الخزامى. فرشف ثم قال:

لَنَجْد العذيّة أحقّ من الكوفة بقول الشعبي: كأن ظهر الكوفة خدُّ العذراء، يُنبت الخُزامي والشيح والأقحوان وشقائق النُعمان كثير العُشب. قلت: وكذلك النَّفَل وهو طيَّبُ النفحِ رقيقُه. ومرّ النعمان بن المنذر بزهور الشقائق فأعجبته، فقال: من نزع منها فانزعوا كَتِفه، فسميت شقائق النعمان.

قلت: الكوفة قد تُعَدُّ امتداداً لنجدٍ في صحرائها وهوائها، فهي لنجد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بمثابة الناصية، وقد راعى الصحابة الكرام ذلك لمّا اختطوها حتى لا يختلف عليهم هواؤها اللطيف بهواء السواد الكثيف. قال: لعلّه.

ثم أتممت قائلاً: ونجدُ تنخفض تدريجياً من الغرب إلى الشرق. وقد سُمّي الجزء الجنوبي المرتفع والمحاذي لجبال الحجاز تاريخياً باسم العالية أو عالية نجد، بينما تسمى الأرجاء الشمالية المتاخمة للعراق نجد السفلى. قال الأصمعي: نجدٌ اسمان: السافلة والعالية؛ فالسافلة ما ولي العراق، والعالية ما ولي الحجاز وتهامة.

سرى البرقُ من نحو الحجاز فشاقني ... وكل حجازي له البرق شائقُ

ثم قام صاحبي إلى الخزامى فاقتطف منها زهراً جعله بين أذنيه وفي جيب ثوبه الأعلى لينعم بأرجها من قريب. قلت: ما بالك شتَّتَّ شملهن، وقطعت آصرتهنّ؟ قال: أحب أن أرى دمع الوداع الزهري، وتمثّل ببيت ابن رزيق:

ودَّعْتُهُ وبِودِّي لو يودعني ... طيب الحياة واني لا أودِّعُهُ

ثم قرّب منها زهراتٍ لخيشومه، وللزهرِ ندى يَبَضُّ الماء، ويضوع الهواء بنفحٍ لطيف. وهو يقول: هل أسمعك شيئاً من احتفاء العرب بالخزامى. ثم تابع ولم ينتظر جوابي لعلمه السالف بمحبتي لتلك الأحاديث: قال امرؤ القيس:

كأن المُدَامَ وصَوْبَ الغَمَام ... وريحَ الخزامى ونَشْرَ القطر

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يعـــلّ بـــه بَـــرْدُ أنيابِهـــا إذا غـــرَّدَ الطـــائرُ المـــستحر

وأُنشِد بين يدي هارون الرشيد شعر يحيى بن طالب:

ألا هَـلْ إلى شَـمِّ الخُزَامَـى وَنَظْـرَةٍ إلى قَرْقَـرَى قَبْـلَ المَـمَاتِ سَـبِيلُ
فـأشرَبَ مِـنْ مَـاءِ الحُجَيلاءِ شَرْبَـةً يُـدَاوَى بِهَـا قَبْـلَ المَـمَاتِ عَلِيـلُ
أُحَدِّثُ عنكِ النفسَ أن لَستُ رَاجِعاً إليـكِ فَحُـزْني في الفُـؤادِ دَخِيـلُ
أُرِيـدُ هُبُوطـاً نَحْـوَكُمْ فَـيَرُدّني إذا رُمْتُـهُ دَيْـنٌ عَـليّ ثَقِيـلُ

فقال هارون الرشيد: يُقضَى دينُه، فطُلِبَ فإذا هو قد مات قبل ذلك بشهرٍ. وقال الأحوص الأنصاري:

كـأنَّ ذكـيَّ المـسكِ تحـتَ ثيابِهـا وريحَ الخُزامى ظَلَّةً تنضحُ الندى

ولحسين بن مطيرٍ الأسدي، ومعانيه هنا أرفع من عبارته:

لقد كنت جلداً قبل أن تُوقِدَ النَّوى على كبدي ناراً بطيئاً خمودُها
ولو تُرتكت نار الهوى لتصرَّمت ولكنَّ شوقاً كل يومٍ وقودُها
وقد كنت أرجو أن تموت صبابتي إذا قَدُمَتْ أيامُها وعهودُها
بمُرتجّة الأردافِ هيفٌ خصورها عذابٌ ثناياها عجافٌ قيودُها
وصفرٌ تراقيها وحمرٌ أكفُّهَا وسودٌ نواصيها وبيضٌ خدودُها
مخصّرةُ الأوساط زانت عقودَها بأحسن مما زيَّنتَها عقودُها
يُمَنِّيننا حتى ترفّ قلوبنا رفيف الخزامى بات طَلٌّ يجودُها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفيهن مِقلاقُ الوشاح كأنَّها ... مهاةٌ بتُرْبَانٍ طويلٌ عمودُها
وكنت أذود العين أن تَرِدَ البُكا ... فقد وردت ما كنتُ عنه أذودها
هل الله عافٍ عن ذنوبٍ تسلّفت ... أم الله إن لم يعْفُ عنها معيدُها

ولأمير الشعراء حقاً جرير:

لها مثلُ لَوْنِ البَدْرِ في لَيلَةِ الدُّجى ... وَرِيحُ الخُزَامى في دِمَاثٍ مُسَهَّلِ

ولخليفته المتنبي، وتلمَّح طِبَاقَهُ وسهولته مع جزالته وبهائه:

وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا ... إذا لم يكن فوقَ الكرامِ كرامُ

وقال أبو الفضل الدارمي:

تذكَّرَ نجداً والحمى فبكى وجداً ... وقال سقى الله الحِمَى وسقى نجداً
وحيَّتْهُ أنفاس الخُزامى عشيَّة ... فهاجت إلى الوجد القديم به وجدا
فأظهَرَ سلواناً وأضمر لوعةً ... إذا طفئت نيرانها وَقَدَتْ وقداً
ولو أنه أعطى الصبابةَ حكمَهَا ... لأبدى الذي أخفى وأخفى الذي أبدى

وأنشد ابن الزقاق البلنْسِي أبياتاً غنائية راقصة، ولطالما تميّز بها وبموشحاتها الأندلسيون، قال ولم تلهيه زخارف ربيعها الأندلسية عن ربوع نجد:

وفتيانٍ مصاليتٍ كرامِ ... مدربة على خوض الظلامِ
وقد خفقَ النعاسُ بهمْ فمالوا ... به مَيْلَ النزيفِ من المُدامِ
وكل نجيبةٍ هوجاء تهفو ... سوابقها بإرخاء الزِّمامِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سريتُ بهم وللظلماء سجفٌ ... يُمزِّقه ببارقة حسامي
أجرُّ ذوابلي من أرض نجدٍ ... خلالَ مَجَرِّ أذيال الغمامِ
على ميثاءَ رفَّ بها الخزامى ... وأضحى الزهرُ مفضوض الخِتَامِ
تلفُّ غصونها ريحٌ بليلٌ ... فينعتق الأراكُ مع البشامِ
ألا يا صاحبيَّ استروِحَاها ... شآميةً فمن أهوى شآمي
عسى نَفَسُ النّعامى بعد وَهْنٍ ... يبشِّرُ من سليمى بالسلامِ

وصدح الشاعر الذي لم يُعط حقه من الإشادة بشاعريته وهو الشريف المرتضى، وهذه من عيون شعره وتفيض بأسلوب العربِ الأُوَلِ في الجزالةِ، وختلِ الأوصاف، واختلاس المشاعر:

خَليليَّ من فرعيْ مَعَدٍّ تأمّلا ... بعينيكُما بَرْقاً أضاءَ يمانِيا
كما قلَّبَتْ خَرْقاءُ في غَبَشِ الدُّجَى ... ذراعاً شُعاعِيَّ المعاصِمِ حاليا
هَفا ثُمَّتَ استخفى فقلتُ لصاحبي ... ألا هلْ أراك البرقُ ما قد أرانيا
تبسَّمَ عن وادي الخُزامَى وميضُهُ ... وخالسَ عينيِّ الحِمى والمطاليا
وضرَّمَ ما بيني وبينَ مَتالعٍ ... فأبصرتُ أشخاصَ الخيامِ كما هيا
أضاءَ القصورَ البيضَ من جانبِ الحمى ... فقلتُ أثَغْراً ما أرى أمْ أقاحيا
وأقبل يشتقّ الغمامَ كأنّما ... يزاحمُ بالبيداءِ كوماً متاليا
تَراغَيْن لمّا أنْ دعاهُنَّ حالبٌ ... وأرسلنَ بالإبساسِ أبيضَ صافيا
أقولُ وقد والَى عليَّ وميضَه ... ألا ما لهذا البرقِ صَحْبي ومالِيا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يشوّقنى منْ ليس يشتاق رؤيتى ... ويذكرنى منْ ليس عنّيَ راضيا
وما ذاكَ عن جُرْمٍ ولكنْ بدأتُهُ ... بصَفْوِ ودادٍ لم يكنْ عنه جازيا
ديارٌ وأحبابٌ إذا ما ذكرتُهمْ ... شَجِيتُ ولم أملكْ دموعي هوامِيا
أوانسُ إنْ نازَعْنَنا القولَ ساعةً ... نثرن على الأسماعِ منه لآليا
ويُحْسَبْنَ من حُسنٍ بهنَّ وزينةٍ ... على أنَّهنّ عاطِلاتٌ حواليا

أما البحتري الطائي مالك زمام الوصف بلا منازع، فقد قال ـ وتلمَّح الندى يقطر من ثنايا أبياته ـ:

فُؤَادٌ مَلاهُ الحُزنُ حتَّى تَصدَّعا ... وعَينانِ قال الشَّوقُ جُودَا معاً مَعَا
لِمن طَلَلٌ جرَّتْ به الريحُ ذَيْلها ... وحنَّتْ عِشارُ المُزنِ فيهِ فأَمرعا
لِلَيْلاكَ إذ ليْلى تُعِلُّكَ رِيقَهَا ... وتَسقيكَ من فيها الرَّحيقَ المُشَعشعا
كأنَّ بهِ التُّفَّاح غَضَّا جنيْتُهُ ... ونشْرَ الخُزامَى في الصبَّاح تَضَوَّعا
وهَيَّجَ شوقِي سَاق حُرٍّ أَجابَهُ ... هديلٌ علَى غُصنٍ مِنْ الْبانِ أفْرَغَا
يُقلِّبُ عَيْنَيْهِ ويوحِي بطَرْفِهِ ... إلى بلحْنٍ يَترْكُ القَلبَ موجعَا
إذا ما الغَضا يوْماً ترَنَّمَ فرْعُهُ ... وحَنَّتْ له الأَرواحُ غَنَّى فأَسمعا
طوتْنِي بَنَاتُ الدَّهر من كُلِّ جَانِبٍ ... وللدَّهر وَقعٌ يترُكُ الرَّأسَ بلْقَعا
وَقَد كُنتُ وقَّاد الشَّعيلَةِ شارِخاً ... أَحدَّ مِن العَضْبِ الحُسام وأَقْطَعا
فأَصْبَحْتُ كالرَّيْحانِ أَذْبلهُ الظَّما ... وودَّعْتُ رَيعانَ الشَّبابِ فودَّعا

قلت: قد أجدت يا عاشق الجمال الفاخر، والحسن الباذخ. قال: لئن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلتَها ملاطفةً لقد صدقتَ لأن عشق الجميلة الأديبة يُثمر الأدب الرفيع، وقد كلفت بصبيّة أديبة في سالفِ زماني، حين كان غُصنُ الشباب رطيب، ورداء الحداثة قشيب، ولم أعقل أنّ وراء الغيب أقفال!

لا أرى حسن النساء إلا فيها، قد جمع الله في جسدها وروحها ما فرّقه في الغواني، ولا أحسب إلا أنها قطعة من الحور العين! قلت: يا هَنَاه حسبك، أَهَبِلْت؟!

فوضع يده على قلبه وقال: معاذ الله أن أقصد عصياناً أو طغياناً، لكنه حال المُدْنفين إذا طرأ عليهم من يحبون!

إذا لعــب الرجــال بكــل شيءٍ رأيــت الحــبَّ يلعــب بالرجــالِ

وإنه ليتراءى بين ناظِريَّ مجنون ليلى أحياناً وإخاله يتبسّم! وإني واصفُها لك فاحكم فيّ يا صفيّ الفؤاد. فأنت مني كما قال الأول: إن كان إخوان الثقة كثيراً؛ فأنت أوَّلهم، وإن كانوا قليلاً؛ فأنت أوثقهم، وإن كانوا واحداً؛ فأنت هو.

قلت جَذِلاً: يا صاحباه، إني لرؤيتك وحديثك لأطرب من الإبل على الحداء، والثَّمل على الغناء، وإذْ سافرنا في المودّة وبلغنا دارها؛ فقد أَمِنَّا خبايا الضمائر، فحللنا عقد التحفظ في الكلام، ونزعنا ملابس التكلّف في المقال. يا صاحبي قل ما تريد وبُحْ به، فإني لبوحك بالأشواق، والهمّ إذا فرّق بين اثنين خف حِمله، وقد صرنا ثلاثة! فنفّس وبُثَّ شجنك، فليس في الصديق خير إن لم يوجَد وقت الضيق، قل ولا تتتعتع ولا تُقصِر، ففصاحة الشكوى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على قدر البلوى، وليس في الشاكي انقباض، ولا بالمشكو إليه إعراض، قُلْ قبل أن لا تَقُلْ، وبُحْ لي بسرك حتى تنشط من عقالك فالصَّدْرُ إذا نَفَثَ برأ، ولابد من شكوى إذا لم يكن صبرُ. وكما أُنشد:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءةٍ ... يُواسيك أو يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّعُ

ومن مقولي:

كفكفي الدمعَ يا عينُ فقد ... حَرَّقَ الخَدَّينِ سَيلُكِ الدفّاقْ

بَضَّتِ الدَّمعةُ كالطَّلِّ وقالتْ ... هَبْنِي كففتُ فكيفَ بالخفّاقْ

نعم، إن استطعت أن تكتمَ شكواك عن غير مولاك فحسن، كما قال الأول:

وإذا عَرَتْكَ بليّةٌ فاصبرْ لها ... صَبْرَ الكريمِ فإنَّهُ بكَ أعلمُ

وإذا شَكوتَ إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ

لكن إن خشيت التلف تعيّن على لسانك البوح دفعاً للهلكة، وحفظاً للبقية من العقل الشَّتيت. فلك يا صديقي نصيحة خالصة ومحبة راسخة، وإني لأرى أن قد غشيَكَ من ضَنَى الجَوَى كَمَدٌ وسقم، تحسُّ به في سويداء قلبك، بمثل دبيب النمل ولسع النحل. فجحظت عيناه من إصابة اللفظ لإحساسه الجريح، فتابعتُ مقولي: إيهٍ يا صاحبي، إنَّ لك دالة الصداقة عليّ، فاطّرِحِ الوقارَ والتكلّف، واسترسل على سجيتك في ذكر تفاصيل التفاصيل من قصّتك، علّها تبرد اللوعة، وتسكن الروعة، واعلم أن آخرَ عهدي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بخبرك حين تنتهي من آخر حرف، ولا تخش تحفُّظاً أو إحفاظاً.

وقد قال معاوية لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما اللذة؟ قال: طرح المروءة. أي عند الثقة الذي لا تتحفّظ منه. وقال سليمان بن عبدالملك: ركبنا الفارِهَ ووطئنا الحسناء ولبسنا الناعم وأكلنا اللذيذ، فما وجدت أحب إلي من جليس أضع عنده مؤنة التحفظ. وقد قال هذا لخطورة الكلام من فم الخليفة.

وقال المأمون: ما بقيت لي لذة إلا وجودُ أخٍ أضع بيني وبينه مؤنة التحفّظ. وقد قال الجاحظ معلّقاً: صدق عمرو، فما تكون الزَّماتةُ والوقار إلا بحِمْلٍ على النفس شديد، ورياضة متعبة.

فأطرق صاحبي مليّاً ثم رفع رأسه، وباح من بين دموعه ونشيجه بأمورٍ لا تطيق حملها الجبال الرواسي، وأفضى بمراراتٍ وأحزانٍ لو بقيت على كبده لقتلَتْهُ، وذكر أقواماً لا ستروا له عيباً، ولا حفظوا له غيباً، ولا أقالوا له عثرة، ولا رحموا له عَبْرَة، مع أن له عذر قد سَحَبَ ذيلَه، وأرسل سيله. لكنها النفوس وما أدراك ما النفوس؟!

فقمت فقبَّلْتُ ما بين عينيه، وقلت مواسياً: بالله لا تحمل همّاً فما في الدنيا مستراحٌ، ومن علم أن الآخرة هي الحيوان سَلَى، ولو تبخرت كل أحلامه ورحل كل أحبابه. فتنفّس ثم تبسَّمَ تبسُّمَ الحيران، ثم أنشد:

لعل انحدارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً من الوجد أو يشفي نجيَّ البلابلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على كلٍّ أيها الوفيّ، كنت قد وعدتك بأن أذكر تفصيل لوعتي وليس ذلك إلا بأن أصف محبوبتي، وَإِذْ فارَقَتِ الدُّنيا فعلَّامَ التحفّظ؟! والوعدُ سحابة، وإنجازه مطرها، ولعينيك ما يلقى الفؤاد المُعَذَّبَا!

ثم أطرق بحنان، وأغمض عينيه، وخفض صوته كأنما يكلم محبوبته غائباً عن الزمان والمكان قائلاً: صاحبتي هي الأنثى بكل تجليّاتها وغموضها وأسرارها، الجمال الذي يمشي على قدمين، والرقة التي تطير على جناحين، والعقل الذي يزِنُ بلداً، والخُلُق الذي يكفي قبيلة، والعفاف الذي لو فرّق على الغواني لاستراح الرجال، والحياء الذي لو جُسِّد لغطّى السحائب، والصوت الحلو اللذيذ الرائق الذي لو سمعه البلبل لخجل من تغريده، والذوق البديع الذي يحكي لطافة الحس مع كثافة الحزم، في مزيجٍ قلّ أن يجتمع في إنسان.

حوريةٌ غانية حسناء، هيفاء لفّاء غيداء، حوراء نجلاء بيضاء، خالط بياضَها حمرةٌ فصارت زهراء، ذات ثدي ناعم ناهد، وقدّ ميّاسٍ مائد كأنه الخيزران في تعطُّفِهِ وتثنِّيه، أسيلةُ الخدِّ صافية الجبين، لها طَرْفٌ أدعج، وثغرٌ مفلّج، رُوحُها أرقّ من نسائم السَّحر، ذاتُ قَدٍّ تنافست فيه تفاحتان زهراوان، كأن واحدتها حُقُّ عاجٍ، لؤلؤةٌ رُصِّعتْ بياقوت، شذاها أرقُّ من لطيف الهواء، وجلدها أصفى من قراح الماء، ووجهها أبهى من بدر السماء، صبوحةُ الوجه، وضيئة البشرة، جميلة الأنف، حلوة العينين، مليحة الفم، ظريفة اللسان، رشيقة القوام، فاحمة الشعر، ساطعة النحر، مهضومة الخصر،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لبقة الشمائل. قد جَمَعَتْ ما فرّقه ابن الأعرابي في قوله: العرب تقول: الملاحة في الفم، والحلاوة في العينين، والجمال في الأنف. وفوق ذلك جميلة الروح بحياء يلفُّهَا.

جمالها أخّاذٌ بارع، وكلُّ جزء من قدّها يسبِّحُ بحمد من سَكَبَهَا في ذلك القالب البديع الساحر! ناعمةُ البشرة، لدنة المفاصل، لطيفة الكفين، ليّنة الأعطاف، نسمةٌ منعشة على قلبي المهيض، ودفقةُ ترياقٍ بروحي المدنف المريض!

خَرِيدَتِي، لها كتيبةُ حسنٍ لا يُقاوم، ولها صولةُ جمالٍ لا بقاء بعدها، وفوقَ ذلك هي شاعرة أديبة، دَيِّنَةٌ أريبة، رقيقةُ الحس مرهفة المشاعر، كلامها في النهاية من إشراقة ديباجة البيان، والغاية من رقة حاشية اللسان. لنحنُ أحق ببيتي كثيّر وصاحبته إذ يقول، ولعلّه أراد إبهامها باسم غيرها حتى لا تُعرف:

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعْدَى بأرضها ... أرى الأرضَ تُطْوَى لي ويدنو بعيدُها

من الخَفِراتِ البِيضِ وَدّ جليسُها ... إذا ما انقضتْ أُحدوثةٌ لو تُعيدُها

ومن ابن الرومي وصاحبته إذ قال:

وحديثُهَا السِّحرُ الحلالُ لو أنه ... لم يجنِ قتل المسلمِ المتحرِّزِ

إن طال لم يملل وإن هي أوجزتْ ... وَدَّ المحدَّث أنها لم توجزِ

إيهاً يا كثيّر لله أبوك إذ قلت:

يقولون سوداءُ العيونِ مريضة ... فأقبلت من أهلي إليها أعودُهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـو الله مـا أدري إذا أنـا جئتُهَـا ... أَأُبرِئُهـا مـن دائهـا أم أزيـدُهَا

إذا جئتُهَـا وسـط النسـاءِ منحتُهَـا ... صدوداً كأنَّ النفسَ ليس تُريدُهَا

ولي نظرة بعد الصدودِ من الجوى ... كنظرةِ ثكلى قد أُصيبَ وحيدُهَا

ولقد غبطتُ إدريس بن أبي حفصة إذ يقول:

لهـا أحاديـثُ مـن ذكـراك تـشغلُهَا ... عـن الـشرابِ وتُلهيهـا عـن الـزادِ

لهـا بوجهـك نـورٌ تستـضيءُ بـه ... ومـن حـديثك في أعقابهـا حـادِ

إذا شَكَتْ من كلال السيرِ أُوعِدُها ... رَوْحُ اللقـاء فتحيـا عنـد ميعـادِ

بادلتني بجوىً كجواي بل أشدّ، لكني على البوح لها أقدر، بيننا مشاكلةٌ في الأروح، تكتفي في عتابي باللمحة الضئيلة، وأكتفي منها في مثل ذلك بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا بالكناية كأننا نتحدث عن غيرنا فنكتفي بذاك المطمع، حتى في عتابنا ما نحن إلا مشتاقة تلقى مشوقاً..

قد هُرِيقَ في لسان قلبها ماء الفصاحة، فلا يمجّ سمعي كلامَهَا، ولا تستأذن على قلبي معانيها وأوزانها، أدبها مستطرَفٌ، ورقَّةُ طبعها تالدة، قريبةُ القلب من اللسان، حديثُها الديباج الخسرواني، أحلى في نفسي وأشهى في سمعي مما سواها من كُلّ غِرِّيدٍ ومُغَنِّيَة.

يا صديقي: أَمَا إن رؤية الحبيب وسماعه لتشفي الأحشاء من البُرَحَاءِ، وقد كانت صاحبتي على روحي كالرّاح المُعتّق والسُّلافِ المُعَبّق. بل هي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سحر هاروت وماروت بيد أنه حلال!

ترى الدر منثوراً إذا ما تكلمت وكالـــدر منظومـــاً إذا لم تكلـــمِ

هي من وجهها في صباح شامس، ومن شعرها في ليل دامس، كأنها فلقة قمر على برج فضة، طِفْلَةٌ طَفْلَةٌ، خُلقها وخَلقها كنسيم الأسحار، يتضوَّعُ منها المسك الأذفر، ويشرق منها الصبح الأنور، بدر التمّ يضيء تحت نقابها، وغصن البان يهتزُّ تحت ثيابها، فاترٌ طرفها، ساحرٌ لفظها، تأخذها العين وتكاد تشربها، ويقبلها القلب ويكاد يأكلها، جرى ماء الشباب في لين عودها، وأثمر ثمر الشباب عن ناعم نهودها، وجهها بهاء الحسن مغسول، وريقها بصافي الشهد معسول، وطرْفُها بمرْوَد السِّحر مكحول، يترقرق ماء الجمال في خدِّها، وجوهر الرحيق بين سحْرِهَا ونحْرِهَا، حنونةٌ يتفجّر الحنان من أعطافها كالينبوع العذب السلسال.

فروعُ هواها في فؤادي باسقة، وعروق دوحات محبتها بين أطباقه راسخة. إذا أصبحت أطلّت عليّ بوجه مشرقٍ كإشراق شمس الربيع المزهر، تناجي بعذوبةِ كلامٍ كعذوبة فِيهَا المُتَبَسِّم، يصبو إليها القلب والطّرْف، ويقطُرُ من مُحيّاها ماءُ الملاحة والظّرف، ثم لا تسلني إذا غنّتْ لي صباحاً بقيثارة غنجها: صباح النُّور والبلّور يا وجه السَّعْدِ والسُّرور..حينها تنقشع عن رأسي سحائب النوم وكتائب النعاس، ويصبح مزاجي من همومي صحواً، وترفع اليقظةُ السعيدة في صدري راية النصر والفرح، وتستفتح محبوبتي صباحي بوجهها المليح وثغرها الحسن. أهٍ، ثم آهٍ، سقى الله أيام الهنا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لن تعودا! رعى الله ليال الهوى والسُّعُودا.

ومن يقدر على ردِّ أمس؟ولمس عين الشمس؟ لَأَنَا لها أسرع من الشعاع لو كان، ولكن ما أنا اليوم إلا كقابض الهواء بكفِّه! ما لك ولي يا الصمّة القشيري إذ قلتَ:

قفا ودّعا نجداً ومن حَلَّ بالحِمَى ... وَقَلَّ لنجدٍ عندنا أن يُودَّعا
ولما رأيت البِشْرَ أعرضَ دونَنَا ... وجالتْ بناتُ الشوق يحننّ نُزَّعَا
تلفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى وجدتني ... وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدعا
بكتْ عينيَ اليُمنى فلمّا زجرتُها ... عن الجهلِ بعد الحلمِ أسبلتا معا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أن تصَدَّعا
فليستْ عَشِياتِ الحِمى برواجعٍ ... عليكَ ولكن خَلِّ عينك تدمَعا

ثم وضع يمناه على كبده ثم انثنى متمثلاً بالقشيري، ثم أنشد لابن الرومي:

أُعَانِقُهُ والنَّفْسُ بعدُ مشوقة ... إليه وهل بعد العِنَاقِ تداني
وألثمُ فاهُ كي تزولَ حرارتي ... فيشتدّ ما ألقى من الهَيَمَانِ
ولم يكُ مقدار الذي بي من الهوى ... ليرويه ما ترشفُ الشَّفتانِ
كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يُرى الروحان مجتمعانِ

في قلبي قد ضرب الشوق لها كَلْكَلاً وجِرَاناً، ووَرَدَ الودُّ وصَدَرَ حتى ضرب بِعَطَنٍ. أحببت فيها حتى كبرياءها، وأحببت من أجلها حتى شقائي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يا رفيقُ، لقد مَدَّ الفراقُ علينا الرُّواق، وحَلَّ النِّطاق، ومزّق الأوراق، فأناخ الغمُّ بنوازله، واستقل الهم بأركانه، وأرسى الحزن بكلاكله، حتى تفاقم الأمر وعِيلَ الصبر، فالكرب لازم، والحزن دائم، والتنفسُ صُعُداً، ورغبة فيما لا يُدرك ولا يُحصى!

وإني لأجد في قلبي لوعةً إن لم أبردها بعبرة خشيت أن تنصدع كبدي كمداً وأسفاً، فقد ودَّعتُها وعبراتي يتحدرن على المآقي، وزفراتي يتصعَّدْنَ من التراقي، وهذه خاتمة التلاقي!

يا رفيقي، لقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادر الدموع، وتتابعت الزفرات حتى أقامت حنايا الضلوع، وما اعتضت من بعدها إلا أَمْنُ المصائب لفقدها، بعد الأجر. وقد جعلت القلب للحزن ضريحاً، فدفنت فيه ما أثمر الغم الطويل صريحاً، واهاً من بُرَحاء الشوق! فاللهم رحماك يا أرحم الراحمين. إلهي خذ بيدي فقد عثرت، واستر عليّ فقد عريتُ. ولك الحمد على كل حال.

فلمّا زفر صاحبي حُرقته التي كادت تذيب حصى الصوان من حوله؛ أردتُ أن أُخفِّفَ عليه بذكر أحاديث أُخَر، لكنه أشار إليّ وكأنما عرفَ ما هممتُ به قائلاً: بقيت في النفسِ عُلالات. اسمعها ثم شأنك بما سواها، قال الحارثي وتأمل عمق المعنى وصفاءه، ولهما بيتان يُغْنِيَان عن معلَّقةٍ مُذَهَّبَة:

إذا سَمِعَتْ باسم الفراقِ تَقَعْقَعَتْ ... مفاصلُها من هولِ ما تَتَحذَّرُ

وليسَ الذي يجري من العينِ ماؤُها ... ولكنَّها نفسٌ تذوبُ فتقطرُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسأكفيك عناء تحويل دفّة الحديث، لكن نُجْعتي قريبة من مرابعه، فلذي الوزارتين ابن زيدون المخزومي القرطبي رائعة ماتعةٌ في ولّادة بنت المستكفي الأموية:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينَا ... ونابَ عن طيبِ دنيانا تجافينا
أَلَا وقد حَان صبح الليل صبَّحَنَا ... حَيْنٌ فقام بِنَا للحين ناعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحِهُمُ ... حُزْنًا مع الدهر لا يبلى ويُبلينا
أَنَّ الزَّمان الذي ما زال يُضحكُنا ... أُنْساً بقربهم قد عاد يُبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغصَّ فقال الدهر آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانْبَتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمس كُنَّا وما يُخشى تفرّقنا ... واليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
كُنَّا نرى اليأس تُسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابْتَلَّتْ جوانِحُنَا ... شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرُنا ... يَقضِي علينا الأسى لولا تأسِّينا
حالت لفقدكمُ أيامُنَا فغدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
ليَسْقِ عهدكمُ عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحنا
لا تحسبوا نأيكمْ عَنَّا يُغَيِّرُنا ... إن طالما غيَّرَ النَّأْيُ المحبِّينا
واللهِ ما طلبت أهواؤُنا بدلاً ... منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا
يا ساري البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ به ... من كان صِرْفَ الهوى والودِّ يسقينا
واسأل هنالك هل عَنَّى تذكُّرنا ... إلفاً تذكّره أمسى يُعنِّينا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويـا نـسيمَ الـصَّبا بلِّـغْ تحيَّتنـا ... من لو على البعد حيَّا كان يُحْيِينَا
كأننـا لم نبـتْ والوصـلُ ثالثُنـا ... والسَّعْدُ قد غضَّ من أجفانِ واشينا
عليـك منِّـي سـلامُ الله مـا بقيـتْ ... صـبابةٌ بـك نُخفيهـا وتُخفينـا

فقلت له: يا صاحبي لأنت حقيقٌ بسمطيّة علقمة بن عبَدَة الفحل إذ قال:

طَحَا بكَ قَلبٌ في الحِسان طروبُ ... بُعيْد الشَّبابِ عصرَ حانَ مشيبُ
تُكلِّفُنـي لـيلَى وَقـد شَـطَّ ولْيُهـا ... وعـادتْ عـوادٍ بينَنـا وخُطُـوبُ

أما وقد ذكرتَ هوَى ابنَ زيدون ولّادة، فثمّ ما يشبهه من الهوى المستخفي، وأعني به هوى المتنبي خولة أخت سيف الدولة الحمداني، إذْ أضمر المتنبي حُبَّ خولة في حشاشته، فأبت الصَّبابة إلا ظهوراً من بين صدور الشعر وأعجازه، فقد قال مخاطباً معاتباً قلبه الكسير:

وأعلـمُ أن البـين يُـشكيك بَعـدَهُ ... فلـستَ فـؤادي إن رأيتـك شـاكيا

لكن أبى الفؤاد إلا الافتضاح، إذ قال حين خرج من حلب خروجه الأخير مودّعاً:

رحلـتُ فكَـمْ بـاكٍ بأجفـانِ شـادنٍ ... عـليَّ وكـم بـاكٍ بأجفـان ضـيغمِ

ثم كانت آخر قصائده على الإطلاق في عضد الدولة، وأظنُّ طيف خولة لم يغب عن القصيدة، فحرارة المشاعر فاضحةٌ للأغطية، وسواء كانت على ظاهرها لأبي شجاع أم كان بعضها للمحبوبة، فهي بحق من درر

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الوداعيات، ولقد كان نافِثُها في الذروة القصوى والسنام الأعلى للمعنى واللفظ معاً حين صدح بها من بحره الطامي:

أَرُوحُ وَقد خَتَمتَ على فُؤادي ... بحُبّكَ أنْ يحِلّ بهِ سِوَاكَا
وَقَد حَمّلْتَني شُكْراً طَوِيلاً ... ثَقِيلاً لا أُطيقُ بِهِ حَرَاكَا
أُحاذِرُ أن يَشُقّ عَلى المَطَايَا ... فَلا تَمْشِي بِنَا إلاّ سِواكَا
لَعَلّ الله يَجْعَلُهُ رَحِيلاً ... يُعِينُ على الإقامَةِ في ذَرَاكَا
فلوْ أنّي استَطَعتُ خفَضْتُ طرْفي ... فَلَمْ أُبْصِرْ بهِ حتى أرَاكَا
أرَى أسَفي وَمَا سِرْنا شَديداً ... فكَيفَ إذا غَدا السّيرُ ابترَاكَا
وَهَذا الشّوْقُ قَبلَ البَينِ سَيفٌ ... وَهَا أنا ما ضُرِبتُ وَقد أحَاكَا
إذا التّوْديعُ أعرَضَ قالَ قَلبي ... عليكَ الصّمتَ لا صاحَبتَ فاكَا
وَلَوْلا أنّ أكْثَرَ مَا تَمَنّى ... مُعاوَدَةٌ لَقُلتُ وَلا مُنَاكَا
إذا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ داءٍ بِداءٍ ... فأقتَلُ مَا أعَلّكَ ما شَفَاكَا
فأستُرُ مِنكَ نَجْوَانَا وَأُخْفي ... هُمُوماً قَد أطَلْتُ لَهَا العِرَاكَا
وَفي الأحبابِ مُخْتَصٌّ بوَجْدٍ ... وَآخَرُ يَدّعي مَعَهُ اشْتِرَاكَا
إذا اشْتَبَهَتْ دُموعٌ في خُدودٍ ... تَبَيّنَ مَنْ بَكَى مِمّنْ تَبَاكَى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤

وَيَبْقَى الْعُوْدُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ..

النفس الشاعرية لها تجليّات تربو على النعت، فمرّة عبر الشعر، وكرّة عبر النثر، وتارة عبر الرواية، ورابعة عبر الرسم أو التصوير أو الأصوات ونحو ذلك، وكما أنها تظهر في المُصْدِر المُرسِل، فكذلك الشأن في المُستقبِل، واعتبر ذلك بمحب الشعر دون الرواية وعكسه أو الرسم والتصوير وهكذا... فالمُخرِجُ لتلك المشاعر على هذه التجليّات هو كالشمس، ومستقبِلُهَا كالنبات الغضّ الرطيب، والمستقبِلُ سواءً أكان معشوقاً معجَباً به، أو ذوّاقة مستمتعاً بجمال الفن، فكلاهما شريك للمبدع الأول، سواء كان شاعراً ـ وهو الأرغب ـ أو رسّاماً ونحوه، فهما الحنجرة وهو الصوت، وهما البحر وهو القارب، وإن كان المعشوق ـ بلا نزاع ـ هو المُلهِمُ الأول، سواء كان حقيقياً أو متوهّماً متخيَّلاً. فالأديب ـ أيّا كان فنّه ـ يَروِي بلسانه أو يده ما نقشته يد المشاعر في فؤاده، ولوّنته ريشة الأخيلة في عينيه. ولا بد في النهاية من مَعْبَرٍ لتلك المشاعر، الذي هو في النهاية العمل الفني الإبداعي. فالفروع راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة بصدورها، والمباني تبع لمعانيها..وهكذا الفنون الأدبية والإنسانية.

بُحْتُ بتلك الخواطر وأنا أَسيرُ بمعيّة صاحبي على الأقدام، قريباً من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تلك الخميلة الزاهية، وبِيَدِ كلٍّ منا عصاً كأنها عصا هند بنت الغطريف العجلانية إذ تقول:

ولكنَّهـا كانـتْ عـصا خيزرانـةٍ إذا قُلِّبَـتْ بـين الأَكُـفِّ تلـينُ

ثم قَرَعْتُ عصاه وقلت: ألم تر أنك أعنقتَ في الغزل والنسيب وفي هذا ما لا يخفاك من الإزراء! فزفر ثم قال: ما النسيب لي باختيار لكني أُجَرُّ له جرًّا، ولابد للمصدور أن ينفث، كما قال أبو تمام الطائي:

شكوت وما الشكوى لمثلي عادةٌ ولكن تفيض النفسُ عند امتلائها

ثم إن هذه الأمور إذا لم تكُ ديدناً للإنسان، غامرة لواسع حياته، مجلِّلة لغالب عمره فلا بأس بها، بل إنها من نعيمِ الأنفُسِ، ومن الاسترواح وتجديد النشاط وطرد الرتابة والملل. هذا الشعبي يقول: إن القلوب تملّ كالأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة. والنَّسيبُ العُذْرِيُّ العفيف لا يرزأ الرجولة ولا يقدح في النبل، وطالما كان طارئاً غير رتيب فهو لا يغضُّ من البهاء، ولا يخلق من الرواء، بل هو الرواء النمير لأهل اللطافَة والظرف. وإن كنت لا أبرئ نفسي من الزيادة فيه عن حدِّ الوسط، لكن أخاكَ مُكْرَهٌ لا بَطَل.

قلت: كأننا قد اتفقنا فالحب مشاعر، والنسيب لسانها، و حب الأنثى في الحياة كالمِلْحِ، إن فُقِدَ كسدَتْ وإن زاد تلِفَتْ. قال: صدقت ونصحت.

ثم التفت إلي وقال رافعاً عرنونه: يا صديقي، ألم تر أن الحُبَّ يُسخي يد البخيل، ويشجّع قلب الجبان، ويقوّي عزم الكسلان، كما قيل:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يـودُّ بـأن يُمـسي سـقيماً لعلَّهـا إذا سـمعتْ عنهُ بشكوى تُراسلُهْ
ويَهتزُّ للمعـروفِ في طلـب العُـلى لتُحمـد يومـاً عنـد لـيلى شـمائلُهْ

والشعرُ أنفذُ من السِّحرِ، وقد يبلغ به كما بلغ بمالك بن الصمصامة العامري إذ قال في جنوب العامريّة:

خليليَّ قـد حانَـتْ وفـاتِيَ فـاحفِرا برابيـةٍ بـين المخـافر والبُـترِ
لكـيما تقـول العبدليَّـةُ كلـما رأت جدثي سُقِّيت يا قبرُ من قبرِ

فكيف بمن كانت أخلاقه في أصلها كريمةً سخيّة، شجاعة باسلة؟!

وقالَ معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: علّموا أولادَكم الشِّعرَ، فإنّي أدركتُ الخِلافةَ ونلتُ الرئاسةَ ووصلتُ إلى هذه المنزلةِ بأبياتِ ابنِ الإطنابةِ، فإنني يومَ الهرير كُلّما عزمتُ على الفِرارِ أنشدتُ قولَه:

أبَـتْ لي عِفّتـي وأبـى بَلائـي وأخْـذي الحمـدَ بـالثَّمنِ الـرّبيحِ
وقـولي كُلَّـما جـشَأَتْ وجاشَـتْ مكانَـكِ تُحْمَـدي أو تَـسْتَريحي

فَأَثْبُتُ وأقول: مكانكِ تُحمَدِي أو تستَريحي.

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر لبنيه: اعشقوا تظرفوا، وعفُّوا تشرفوا. ولفقيه أهل المدينة عبيد الله بن عتبة بن مسعود، وقد كان من أهل القلوبِ «الخُضْرِ»:

ألا مَـنْ لـنفسٍ مـا تمـوتُ فينقـضي عَناهـا ولا تحيـا حيـاةً لهـا طعـمُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَأَتْــرُكُ إتيــان الحبيــب تــأثُّماً ... ألا إنَّ هُجران الحبيب هو الإثمُ
فذُقْ هجرَها قد كنت تزعم أنه ... رشادٌ ألا يا ربَّما كذب الزعمُ

وعُبيد الله هذا هو ابن أخٍ لعبد الله بن مَسعود، صاحب رسول الله ﷺ، وهو أحد السَّبعة من فُقهاء المدينة وفيه يقول الزُّهْرِيِّ: كنتُ إذَا لَقِيتُ عُبَيْدَ اللهِ فكأنّما أُفَجِّرُ بِهِ بَحْرًا. وقال له سَعيد بن المُسيّب: أنت الفقيه الشاعر. فقال: لا بُد للمصدور أن يَنْفث. وقالها كذلك لعمر بن عبد العزيز حينما عاتبه قائلاً: مَالَك وَلِلشِّعْرِ؟ قَالَ: وَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْمَصْدُورُ إلاَّ أَنْ يَنْفُثَ. وصدق رحمه الله فمِنَ التوقي تركُ الإفراط في التَّوَقّي، ألا إن حبس المصدور للنفثات أثقل من عذاب الفراق وكتاب الطلاق وموت الحبيب وفجأة الرقيب!

ومن شعر عُروة بن أذينة، وهو من فقهاء المدينة وعُبّادها، وكان من أرقّ الناس تشبيباً:

قالت وأَبثثتُهَا وَجْدي وبُحْتُ به ... قد كُنتَ عندي تحب السِّتر فاستَتِر
ألست تُبصر مَنْ حولي فقلتُ لها ... غطَّى هواك وما ألقَى على بَصري

ووقفتْ عليه امرأة، فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجدتُ أُوارَ الحُبّ في كَبِدي ... غدوتُ نحو سِقاء الماء أَبتَرِدُ
هبني بردتُ ببرَد الماء ظاهرَه ... فَمن لنارٍ على الأحشاء تَتّقدُّ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والله ما قال هذا رجل صالح! وكَذَبَتْ، فلم يكن مُرائياً، ولكنه كان مَصْدوراً فنَفث.

وعروةُ هذا هو من قدم على هشام بن عبد الملك في رجال من أهل المدينة، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجِهم فقضاها، ثم التفت إلى عُروة فقال له: ألست القائل:

لقد علمتُ وخيرُ القولِ أصدَقُهُ ... بأنّ رزْقي وإن لم آتِ يَأْتيني

أسعى له فيُعنِّيني تَطَلُّبُه ... ولو قعدت أتاني لا يُعَنّيني

قال: بلى. قال: فما أراك إلا قد سَعيت له. قال: سأنظر في أمري يا أمير المؤمنين، وخَرج عنه، فجعل وجهته إلى المدينة. وكَشف عنه هشام بن عبد الملك، فقيل له: قد توجّه إلى المدينة. فبعَث إليه بألف دينار. فلما قدم عليه بها الرسولُ، قال له أبلغ أميرَ المؤمنين السلام، وقل له: أنا كما قلت، قد سَعيتُ وعُنيت في طلبه، وقعدتُ عنه فأتاني لا يُعنِّيني.

وبعضهم يستحسن قول جميل بثينة على تجاوزه:

وكان التفرّقُ عند الصباحِ ... عن مثل رائحةِ العنبرِ

خليلان لم يقربا ريبةً ... ولم يستخفَّا إلى المنكرِ

ومن قول عبد الله بن المبارك، وكان فقيهاً ناسكاً شاعراً رقيقَ النسيب، مُعجب التَّشْبيب، حيث يقول:

زعموها سألتْ جارتَها ... وتعرّت ذات يوم تَبْتَرِدُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أكـــما يَنْعتنـــي تُبـــصرْنَني عَمْـــرَكن الله لِمَ لا يقتـــصدُ
فتـــضاحَكْن وقـــد قُلـــن لهـــا حَـسَنٌ في كُـل عَـينٍ مـن تَـوَدُّ
حـــسَداً حُمِّلْنَـــهُ مِـــن شـــأنها وقـديماً كـان في الحُـب الحَـسدُ

وقال شريح القاضي، وكان من جملة التابعين والعلماء المتقدمين، وقد استقضاه عليٌّ رَحِمَهُ اللَّهُ ومُعاوية، وكان تزوج امرأة من بني تميم تسمى زَينب. فنَقم عليها، فضربها ثم نَدِم، فقال:

رأيـتُ رجـالاً يـضربون نـساءَهم فـشُلّت يميني يـومِ أَضرب زَيْنبـا
أَأَضْرِبُهَـا في غـيرِ ذَنْـبٍ أتـتْ بـه فما العدل منِّي ضرْبُ مَن ليس أَذْنبا
فزينـبُ شَـمسٌ والنساءُ كواكـبٌ إذا بـرزت لم تُبْـدِ مـنهن كوكبـا

ويزعمون أن أبا حازم المدايني ـ وكان من أعبد الناس وأزهدهم ـ نظر إلى امرأة تطوف بالبيت مسفرة، أحسن خلق الله وجهاً، فقال آمراً لها بالمعروف: أيتها المرأة اتقي الله، لقد شغلتِ الناس عن الطواف! فقالت: أما تعرفني؟ قال: من أنت؟ فقالت:

من اللائي لم يحججنَ يبغينَ حُسْبَةً ولكـن ليقـتُلنَ الـبريءَ المغفَّـلا

فقال: أسال الله أن لا يعذب هذا الوجه الحسن بالنار. فبلغ ذلك سعيد بن المسيب، فقال: أما لو كان بعض عُبّاد العراق لقال: اغربي يا عدوة الله، ولكنه ظرف عُبّاد أهل الحجاز. وقيل له ـ اي ابن المسيب ـ: إن قوماً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من أهل العراق لا يرون إنشاد الشعر. فقال: لقد نسكوا نسكاً أعجمياً! ألا ما أوضح برهانه وأصدع بيانه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويروى عنه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قد قال على قول النميري:

تضوَّعَ مِسْكاً بطنُ نعمان إذ مشتْ ... بـه زينـبٌ في نـسوة عطـراتِ
لـه أَرَجٌ مـن مجمرِ الهنـد ساطعٌ ... تَطَلُّـعُ ريّـاهُ مـن الكَفِـراتِ
تهادَينَ مابين المُحَصَّبِ من منىً ... وأقـبلن لا شُـعثاً ولا غـبِراتِ
مـررن بفـخٍّ رائحـاتٍ عـشيةً ... يُلَبِّـينَ للـرحمن معتمـراتِ
يخمّرن أطراف البنانِ من التُّقى ... ويخرجن جنحَ الليل معتجراتِ
جلَـون وجوهـاً لم تَلُحْهَـا سـمائمٌ ... حـرورٌ ولم يُـسفعنَ بالـسَّبراتِ

فقال سعيد بن المسيّب مؤيِّداً:

وليس كأخرى وسّعتْ جيب درعِهَا ... وأبـدت بنـانَ الكـفِّ للجمـراتِ
وعَلَّتْ بنانَ المسك وَحْفًا مرجَّلاً ... عـلى مثـل بـدرٍ لاح في الظلـماتِ
وقامـت تـراءى يـوم جمع فأفتنـت ... برؤيتهـا مـن راحَ مـن عرفـاتِ

وذكـر الخرائطـي عـن محمـد بـن سـلمة، قـال حـدثني أبي، قـال: أتيـت عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجنِّ للنبيّ ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها، فوجدته مستلقياً يتغنَّى:

فـما روضـةٌ بـالحَزْنِ طيِّبـةُ الثـرى ... يمـجُّ النَّـدى جثجاثُهـا وعرارُهـا
بأطيـبَ مـن أردانِ عَـزَّةَ مَوهنـاً ... وقد أوقدت بالمِندَلِ الرَّطبِ نارُها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الخَفِراتِ البيضِ لم تلقَ شِقوةً ... وبالحسب المكنونِ صافٍ نِجَارُها
فإن برزَتْ كانت لعينيكَ قُرَّةً ... وإن غبتَ عنها لم يَعُمَّكَ عارُها

فقلتُ له: أتُغَنِّي أصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك؟ فقال: أما والله لأُحمِّلَنَّها ركبان نجد، فقال: فوالله ما اكترث بي، وعاد يغنّي:

فما أدماءُ خفَّاقةُ الحشا ... تجوبُ بظِلفيها متونَ الخمائلِ
بأحسن منها إذ تقولُ تَدَلُّلاً ... وأدمُعُها تذرينَ حشوَ المكاحلِ
تمتّع بذا اليومِ القصيرِ فإنَّهُ ... رهينٌ بأيامِ الصُّدودِ الأطاولِ

قال: فندمت على قولي، وقلتُ له: أصلحك الله أتحدثني في هذا بشيء؟ قال: نعم، حدثني أبي قال: دخلتُ على سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأشعب يغنِّيه ـ أي ينشده بصوت حسن ـ:

مُغيِّرِيَّةٌ كالبدرِ سُنَّةُ وجهِها ... مُطَهَّرةُ الأثوابِ والعرضُ وافرُ
لها حسبٌ زاكٍ وعِرضٌ مُهذَّبٌ ... وعن كلِّ مكروهٍ من الأمرِ زاجرُ
من الخفراتِ البيضِ لم تلقَ ريبةً ... ولم يَسْتَمِلْها عن تُقى الله شاعرُ

فقال له سالم: زدني، فغنّاه:

ألَمَّتْ بنا والليلُ داجٍ كأنهُ ... جناحُ غرابٍ عنه قد نَفَضَ القطرا
فقلتُ أعطَّارٌ ثوى في رحالنا ... وما احتملتْ ليلى سوى طيبها عِطرا

فقال له سالم: والله لولا أن تتداوله الرواة لأجزلتُ جائزتك، فإنك من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا الأمر بمكان. وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فمُلَحُ العلم والأدب تفجّرُ فتيق الفهم والكلام.

وللعَلَم العلّامة، والنحرير الفهّامة، الموسوعي المتفنّن محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ، صاحب أضواء البيان قدحٌ معلّى من ذلك الغرَض، ومن قريضه الذي نَشَرَهُ، وذكر إنه قديم:

فقالوا لي تزوّج ذات دلٍّ ... خلوبَ اللحظِ جائلةَ الوشاحِ
ضَحُوكاً عن مؤشرة رقاقٍ ... تمجُّ الرَّاح بالماء القراحِ
كأن لحاظها رشقات نبلٍ ... تذيق القلب آلام الجراحِ

وقال أيضاً:

قد صدّ بي حلمُ الأكابر عن لمى ... شفةِ الفتاةِ الطفلة المغناجِ
ماء الشبيبة زارع في صدرها ... رُمَّانتي روضٍ كحُقِّ العاجِ
وكأنها قد أُدرجت في برقعٍ ... ياويلتاه بها شعاع سراجِ
وكأنما شمس الأصيل مذابة ... تنسابُ فوق جبينها الوهّاجِ

وقال وقد حزَّ المفصل، وبَلَغ العَظَمَ، وقطع كل مِقْوَلٍ:

وترى شعاعَ الشمس في وجناتها ... مترقراً بجبينها الوقَّادِ
لمياءُ تَبْسُمُ عن لآلئَ رُكِّبَتْ ... في معدنٍ من سُمْرةٍ وسوادِ
شنباءُ مَصَّةُ رِيقِها تشفي الجوى ... من صدر حرّان الجوانح صادي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واللهِ لا أنسى مبيتي عندها ... بشفى الأحيمر عن جنوب الوادي
إذ بِتُّ أشفى من رِضابٍ بارد ... داءً تقادم حَرُّهُ بفؤادي
ويل امِّها ما كان أطيب ريقَها ... يا برد ريقتها على الأكبادِ

والشَّنَب بياض وبريق الأسنان، وما ذكره إنّما هو محض خيالٍ، أو طيف خيال، نعم يا صاحبي: فثمّ أمور غابت عن أهلها وهم بها أحق، وكم من درّة في موضع لم تكرم، والنار قد تلتظي من ناضر السَّلَمِ!

وتكفينا بردة الشاعر بن الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، التي ألقاها بين يدي إمام الهدى صلوات الله عليه وسلامه، في مسجده وبين أصحابه:

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ ... متيَّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولُ
وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا ... إلاّ أغنَّ غضيضُ الطَّرفِ مكحولُ
تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنَّهُ منهلٌ بالرَّاحِ معلولُ
شُجَّتْ بذي شبمٍ من ماءِ محنيةٍ ... صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمولُ
تنفي الرِّياحُ القذى عنه وأفرطه ... من صوبِ ساريةٍ بيضٌ يعاليلُ
فيا لها خلَّةً لو أنَّها صدقتْ ... ميعادَها أو لو انَّ النُّصحَ مقبولُ
لكنَّها خلَّةٌ قد سيطَ من دمها ... فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلُ
كانتْ عواقبُ عرقوبٍ لها مثلاً ... وما مواعيدهُ إلاّ الأباطيلُ
أرجو وآملُ أن تدنو مودَّتها ... وما لهنَّ طوالَ الدَّهرِ تنويلُ
أمستْ سعادُ بأرضٍ لا يبلِّغها ... إلاّ العتاقُ النجيباتُ المراسيلُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبعضهم يرويها بزيادةِ:

هيفـــاء مقبلـــةٌ عجـــزاءٌ مـــدبرةٌ لا يـشتكي قِـصَرٌ منهـا ولا طـولُ

وبينا هو ينشد القصيدة كنتُ أطرحُ الفراش بجوار الغدير، فجلسنا ننكتُ طرف الماء بعصيّنا، ونرقب عصافير الصَّعَو بلونها الأصفر الفاقع، وهي تسير بترقب وتلهّف، وتصطاد من الماء حاجتها. فبقينا حتى اصفرت غِلالة الشمس، وصارت كأنها الدينار يلمع في قرار الماء، وقد نفضت تِبْراً على الأصيل، وشدّت رحلها للرحيل، ثم تصوّبت للمغيب، حتى استتر وجهها بالنقاب، وتوارت بالحجاب، حينها..صدح صاحبي بالأذان، وما أعظمه في الفيافي!

وكان من حديثنا على ذلك الغدير؛ أن قلت له: يا أيها الأديب! حدِّثني عن عفاف أهلِ النَّسيب. فقال وقد أشرق محيّاهُ، وتهلّلت أساريره: الآن طاب لي الحديث! ثم تبسّم وفتر عن ناجذه وغمز بعينه وقال: أتريده حديثاً كحديث ابن سعيد الأندلسي إذ يقول:

الـــريحُ أقـــودُ مـــا تكـــونُ لأنَّهـــا تُبـدي خفايـا الـرّدْفِ والأعكـانِ

أو قول الحماسي:

أَبَـتِ الـرَّوادفُ والثُّـدِيُّ لقُمـصِها مـسَّ البطـون وأن تمـس ظهـورا

وإذا الرياح مع العشيِّ تناوحتْ نَـبَّهْنَ حاسـدةً وهِجْـنَ غيـورا

أم قول النحوي العاشق:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعارفةٌ بالنحو قلت لها اعرِبِي ... حبيبي عليَّ البينُ قد جارَ واعتدى
فقالت حبيبي مُبتدا في كلامهم ... فقلت لها ضُمِّيهِ إن كان مبتدا

أم تروم قول أعشى بكر:

قد حجمَ الثديُ على نحرِهَا ... في مشرق ذي بهجة ناضرِ
كبيعةٍ صوِّر محرابُهَا ... بذهبٍ مرمرٍ مائرِ
لو أَسندتْ مَيْتاً إلى نحرِها ... عاشَ ولم يُحمل إلى قابرِ

أم وصف ذي الرمة:

بَرَّاقَةُ الجيدِ واللّبّاتُ واضحةٌ ... كأنها ظبيةٌ أَفضى بها لَبَبُ
عجزاءُ ممكورةٌ خُمْصانةٌ قَلِقٌ ... عنها الوِشاحُ وتَمَّ الجسمُ والقَصَبُ

أم ابن الرومي في حسن تصويره:

صُدورٌ زانَهنَّ حِقاقُ عاجٍ ... وحَلْيٌ زانَهُ حُسنُ اتِّساقِ
يقولُ الناظِرونَ إذا رأَوْهُ ... أَهذا الحَلْيُ مِن هذي الحِقاقِ
وما تلكَ الحِقاقُ سوى ثُدِيٍّ ... قُدِرْنَ من الحِقاقِ على وِفاقِ
نواهِدُ لا يُعَدُّ لَهُنَّ عَيْبٌ ... سوى منعِ المُحِبِّ من العِناقِ

أتُراكَ تريد وصف غمز النهود، وقطف رمان الصدور، ولثم ورد الخدود، ورشف سُلاف الثغور، وجني أُقحوان الثنايا، وشمِّ جدائلها المُجْمَرَة..؟!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلت: دعني يا صاحبي من مجونك، أجمِل بالشعر الظريف العفيف، دون المكشوف المُسِفّ. أريده كهذا:

عيناكِ شاهدتان إنَّكِ من ... حَرِّ الهوى تجدين ما نَجِدُ
بكِ ما بِنَا لكن على مضضٍ ... تَجَلَّدين وما بنا جلدُ

وكهذا للمجنون:

أحنُّ إلى ليلى وقد شطَّتِ النَّوى ... بليلى كما حَنَّ اليراعُ المُثَقَّبُ
يقولون ليلى عذَّبتكَ بحبِّها ... ألا حبَّذَا ذاك الحبيب المعذِّبُ

أو كقول جميل الجميل:

إذا ما تراجعْنَا الذي كان بيننا ... جرى الدمعُ من عيني بثينةَ بالكحلِ
كِلَانا بكى أو كاد يبكي صبابةً ... إلى إلفه واستعجلتْ عبرةً قبلي

وقوله الحالم:

مضى لي زمانٌ لو أخيّر بينه ... ويبن حياتي خالدا آخرَ الدهرِ
لقلت ذروني ساعةً وبثينة ... على غفلة الواشين ثم اقطعوا أمري

وقوله الوفي:

أبلغْ بثينةَ أني لست ناسيهَا ... ما عِشْتُ حتى تجيب النّفسُ داعيها
بانت فلا القلبُ يسلو من تذكُّرِها ... يوماً ولا نحنُ في أمرٍ نُلاقيها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: هاكِها إذن فعلى الخبير سقطْتَ، فَلَأَنا ابن بَجْدَتِها:

قال جرير التميمي، وانظر إلى رقته وحسن اصطياده للمعاني، وجودة كسوته لها برقيق الألفاظ، مع كامل الاحتشام عما يُعاب:

أتنسى إذ تودِّعنا سليمى ... بعودِ بشامة سُقي البشامُ

فلو وجد الحمامُ كما وجدْنَا ... بسلمانين لاكتأبَ الحمامُ

وقال تاجر بن أبي مطيع بكل عفاف وطهر، إذ حدُّهُ الحديثَ دون ما بعده. وإن كان أبو مِرَّةَ لم يمُت، وخطواته لا تُؤمن.:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فَيَمنعُنِي ... منه الحياءُ وخوف الله والحذرُ

أهوى المِلاحَ وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي منهمُ في ريبة وطرُ

كذلك الحبُّ لا آتيه فاحشةً ... لا خير في لذة من بعدها سقرُ

ومن الغواني من يطربن للأدب وهن في الغاية من الاحتشام، والتَّصَوُّنِ التّامِّ، وبعضهن تستسهلُ أمرَ الحديث مع صسونها وعفافها كما قيل:

أُنسٌ غرائرُ ما هممن بريبةٍ ... كظباءِ مكة صيدهن حرامُ

يُحْسَبْنَ من لين الحديث فواسقاً ... ويصدُّهنَّ عن الخَنَا الإسلامُ

وقال أحد المحبين العفيفين:

أُحِبِّكِ يا سلمى على غير ريبةٍ ... لا خير في حب لا تُعفّ سرائرهُ

ودخلت بثينة جميل على عبد الملك بن مروان، فقال لها: والله يا بثينة ما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أرى فيك شيئاً مما كان يقول جميل. قالت: يا أمير المؤمنين، إنه كان يرنو إليَّ بعينين ليستا في رأسك! قال: وكيف صادفته في عفته؟ قالت: كما وصف نفسه حيث يقول:

لا والـذي تـسجدُ الجبـاهُ لـه ... مـا لي بـما دون ثوبهـا خـبرُ

ولا بِفِيهـا ولا هممـتُ بهـا ... مـا كـان إلا الحـديثُ والنظـرُ

وهو القائل:

وإنِّي لأرضى مـن بثينـةَ بالـذي ... لـو استيقنَ الواشي لقرَّت بلابله

بـلا وبـأن لا أسـتطيعَ وبـالمُنَى ... وبالأملِ المرجوِّ قد خاب آملُه

وبالنظرة العجلى وبالحولِ تنقضي ... أواخـرهُ لا نلتقـي وأوائلـه

وذكروا عن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل بن معمر العذري، وهو عليل، وإني لأرى آثار الموت على وجهه، فقال: يا أبا سهل، أتقول: إن رجلاً يلقى الله لم يسفك دماً حراماً، ولم يشرب خمراً، ولم يأت بفاحشة، أترجو له الجنة؟ قلت: إي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل. قلت: بعد زيارتك بثينة، وما تُحُدِّثَ به عنكما؟ فقال: والله إني لفي آخر يومٍ من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، ولا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي فيها بريبة قط! قال: فما انقضى يومه حتى مات رحمه الله.

وقال شاعر رُميَ بمجون:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن أكــن طــامحَ اللحــاظِ فــإنى والــذى يملــك القلــوب عفيــفُ

بل حتى شاعر المغامرات (النسونجي) عمر بن أبي ربيعة كان عفّ الإزار! قال الأصمعي: كان عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق جالسين بفناء الكعبة، فمرت بهما امرأة من ربيعة، وقيل من آل أبي سفيان، فدعا عمر بكتف، فكتب فيها:

أَلِمَّا بـذاتِ الخـالِ فاسـتطلعا لنـا عـلى العهـدِ بـاق ودُّهـا أم تـصرَّما

وقــولا لهــا إن النَّــوى أجنبيــةٌ بنـا وبكـم قـد خفـتُ أن تتـيمَّمَا

فقال له ابن أبي عتيق: ما تريد إلى امرأة مسلمة محرمة تكتب إليها بمثل هذا؟ فقال: أترى ما سيَّرتُ في الناس من الشعر، وربِّ هذه البَنيَّة ما حللت إزاري على فاحشة قط.

وقيل لكثير عزة: هل نلت من عزة شيئاً طول مدتك؟ فقال: لا والله، إلا أنه ربما كان يشتد بي الأمر، فآخذ يدها، فأضعها على جبيني، فأجد لذلك راحة.

إنه كثيّر الشاعر العفيف الظريف، ومن مبلغ ظرفه أن قد اتفق أن خرجت عزّةُ وزوجُها في عِيْرٍ كان فيهم كثيّر، فسلمت عزّةُ على جمل كثيّر، فبلغه فحلّ الجمل وأطلقه وأنشد:

حَيَّتْكَ عزَّةُ بعد الهجرِ وانصرفتْ فحيِّ ويحـك مـن حيـاك يـا جمـلُ

ليـتَ التَّحيَّـةَ كانـت لي فأرددهـا مكـان يـا جمـلٍ حُيِّيـتَ يـا رجـلُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد وفدت عزّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها: أنت عزّة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزّة ولكنّي أمّ بكرٍ الضّمريّة. قال أتروين قول كثيرٍ فيك؟

لقد زعمتْ أني تغيَّرتُ بعدَها ... ومن ذا الذي يا عزُّ لا يتغيَّرُ

تغيّر جسمي والخليقة كالتي ... عهدتِ ولم يُخبرْ بسرّك مخبرُ

قالت: لست أروي هذا، ولكنّي أروي غيره حيث يقول:

كأنّي أنادي صخرةً حين أعرضتْ ... من الصُّمِّ لو يمشي بها العصم زلّتِ

صَفُوحاً فما تلقاك إلاّ بحيلةٍ ... فمن ملّ منها ذلك الوصف ملّتِ

لقد كان كثيّر شاعراً عفيفاً، ولأبياته جودةٌ ورونقٌ وحلاوةٌ وطلاوةٌ، وحينما قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن لأبيه: ما شعرُ كثيّر عندي كما يصفه الناس! قال أبوه: إنك لن تضع كثيّراً بهذا، إنما تضع نفسك. قلت: وما أكثر أمثاله على اختلاف الفنون والمشارب.

وقال فقيه مكة عطاء: كان الرّجل يحبّ الفتاة فيطوف بدارها حولاً كاملاً، يفرح إن رأى مرآها، وإن ظفر منها بمجلسٍ تشاكيا وتناشدا الأشعار. فاليوم يشير إليها وتشير إليه، فإذا التقيا لم يشكوا حبّاً، ولم ينشدا شعراً. وقام إليها كأنّه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه!

وقيل لأعرابيٍّ: ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتّع عيني في وجهها، وقلبي من حديثها، وأستر منها ما لا يحبّه الله، ولا يرضى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بكشفه إلا عند حلّه. قيل: فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أَكِلُ قلبي إلى حبِّها، ولا أصيرُ بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدها.

ودخلت ليلى بنت عبد الله الأخيلية على الحجّاج وعنده وجوه النّاس وأشرافهم، فاستأذنته في الإنشاد، فأذن لها، فأنشدته قصيدةً مدحته بها. فلمّا فرغت من إنشادها، قال الحجّاج لجلسائه: أتدرون من هذه الجّارية؟ قالوا ـ وقد وزنوا بوصلتهم على هوى الأمير، وكذلك حواشي السلاطين والملوك من لَعَقَةِ ذُلِّ البلاط! ـ: لا نعلم، أصلح الله الأمير، ولكنّا لم نر امرأةً أكمل منها كمالاً، ولا أجمل منها جمالاً، ولا أطلق لساناً، ولا أبين بياناً، فمن هي؟ قال: هذه هي ليلى الأخيلية، صاحبة توبة بن الحمير الذي يقول فيها:

نَأَتْكَ بليلى دارها لا تزورها ... وشطّ نواها واستمرّ مريرُهَا

ثمّ قال لها: يا ليلى ما الذي رابه من سفورك حيث يقول:

وكنت إذا ما زرتُ ليلى تبرقعتْ ... فقد رابني منها الغداة سفورُهَا

قالت: أصلح الله الأمير، لم يرني قط إلا متبرقعةً، وكان أرسل إليّ رسولاً أن سيلمُّ بنا، ففطنَ الحيُّ لرسوله، فأعدّوا له وكمنوا، وفطنتُ لذلك، فلم يلبث أن جاء، فألقيت برقعي وسفرتُ له، فلمّا رأى ذلك أنكره وعرف الشّرَّ، فلم يزد أن سلّم عليّ وسأل عن حالي وانصرف راجعاً. فقال الحجّاج لها: لله درّك، فهل كانت بينكما ريبة؟ قالت: لا، والذي أسأله أن يصلحك، إلّا أنه قال مرةً قولاً ظننت أنّه خضع لبعض الأمر، فقلت له:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وذي حاجةٍ قلنا لـه لا تَـبُحْ بهـا فلـيس إليهـا مـا حييـتَ سـبيلُ
لنـا صـاحبٌ لا ينبغـي أن نخونـه وأنـت لأخـرى صـاحبٌ وخليـلُ

فلا، والذي أسأله صلاحك، ما كلّمني بشيءٍ بعدها استربته حتّى فرّق الدّهر بيني وبينه.

وقال ابن هرمة:

ولـربّ لـذّة ليلـةٍ قـد نلتُهـا وحرامهـا لحلالهـا مـدفوعُ

وقال أعرابي من فزاراة: عشقتُ جاريةً من الحي، فحادثتها سنين كثيرة، والله ما حدثت نفسي بريبة قط، سوى أن خلوتُ بها، فرأيت بياضَ كفِّها في سوادِ الليل، فوضعت كفي على كفها، فقالت: مه! لا تفسد ما صلح. فارفَضَّ جبيني عرقاً، ولم أَعُد.

ولما دَعَتِ امرأةٌ عبد الله بن عبد المطلب إلى نفسها؛ أبى وقال:

أمـا الحـرامُ فـالممـاتُ دونَـهُ والحِـلَّ لا حِـلَّ فاسـتبينهُ
فكيـف بـالأمر الـذي تبغينـه يحمـي الكـريمُ عرضَـهُ ودينـهُ

ومن جميل قريض ابن ميّادة:

مَوانـعُ لا يعطـينَ حَبَّـةَ خَـردلٍ وهُـنَّ دوانٍ في الحـديثِ أوانـسُ
ويكـرهنَ أنْ يَسمعنَ في الحبِّ ريبةً كما كَرهتْ صوتَ اللِّجامِ الشَّوامسُ

وقال العباس بن الأحنف، وقد أقرَّ واعترف بجرم النظر وخطره،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعاقبة السمع وخطله:

أتــأذنونَ لــصَبٍّ في زيــارتكم ... فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ

لا يُظهرُ الشوقَ إن طال الجلوس به ... عَفُّ الضمير ولكن فاسق النظرِ

ولا شك أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، وكما قال الإمام أحمد: كم نظرة أوقعت في قلب صاحبها البلابل! وأبلغ من ذلك وأعظم وأجل قول ربنا: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وأنشد المبرد:

مــا إن دعــاني الهــوى لفاحــشةٍ ... إلا نهــــاني الحيــــاءُ والكــــرمُ

فــلا إلى فــاحشٍ مــددتُ يــدي ... ولا مــــشت بي لزلــــة قــــدمُ

وحدّث عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج، فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنها، فتمثلت بقول نُصَيْبٍ:

بزينب أَلْمِمْ قبل أن يرحلَ الركبُ ... وقل لا تملِّينَا فما ملَّكِ القلبُ

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نُصَيْب. فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا. قالت: أنا زينبه. قلت: حيّاك الله وحباك. قالت: أما والله إن اليوم موعده، وَعَدَني العامَ الأول بالاجتماع في هذا اليوم، فلعلَّك أن لا تبرحَ حتى تَرَاهُ. قال: فبينما هي تكلمني إذا أنا براكب، قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إني لأحسبه إياه. فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قريباً من الخيمة، ثم أقبل فسلّم ثم جلس قريباً منها، فسألته أن ينشدها فأنشدها، فقلتُ في نفسي: محبّان قد طال التنائي بينهما، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمتُ إلى بعيري لأشدّ عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي، فسرنا وتسامرنا، فقال لي: أقلتَ في نفسك: مُحِبَّانِ التقيا بعد طول تناءٍ، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك، قال: وربِّ البيت منذ أحببتها ما جلستُ منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا! فتعجبت لذلك، وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة!

وقال المجنون مبيناً مبلغ عفافه، ورُويتْ لغيره:

أَمُسْتَقْبِلِي نَفْحُ الصَّبَا ثم شَائقي ... بِبَرْدِ ثَنَايَا أُمِّ حَسّانَ شَائِقِ

كأنَّ على أنيابها الخمرَ شَجَّهَا ... بماء الندى من آخرِ الليلِ عَاتِقُ

وما شِمْتُهُ إلا بعيني تَفَرُّساً ... كما شِيم في أعلى السّحابةِ بَارِقُ

وحُكِيَ عن الأصمعي ــ وواضح تكلُّف الحكاية، لكنها لا تخلوا من إشارات حسنة، وجمال رقيق ـ قال: بينما أنا أسير في البادية، إذ مررت بحجرٍ مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشرَ العُشَّاقِ بالله خبِّروا ... إذا حل عشق بالفتى كيف يصنعُ

فكتبت تحته:

يداري هواه ثم يكتمُ سِرَّهُ ... ويخشعُ في كل الأمور ويخضعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم عدت في اليوم الثاني، فوجدت مكتوباً تحته:

فكيف يداري والهوى قاتل الفتى ... وفي كـــل يـــوم قلبـــه يتقطَّـــعُ

فكتبت تحته:

إذا لم يجـــد صـــبراً لكـــتمان سرِّهِ ... فليس له شيء سوى الموتِ أنفعُ

ثم عدت في اليوم الثالث، فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً، وقد كتب قبل موته:

ســمعنا أطعنــا ثــم متنــا فبلِّغُــوا ... سلامي على من كان للوصل يمنعُ

وقال أحمد بن أبى عثمان الكاتب:

وإني ليرضـــيني المـــرور ببابهـــا ... وأقنـعُ منهـا بالوعيـدِ وبـالزجرِ

وقال آخر:

فقالـــتْ بحـــقِّ الله إلا أتيتَنَـــا ... إذا كان لونُ الليلِ لونُ الطيالسِ

فجئتُ وما في القومِ يقظان غيرُها ... وقد نـام عنهـا كـل والٍ وحـارسِ

فبتنـــا مبيتـــاً طيِّبـــاً نـــستلذُّه ... جميعـاً ولم أمـدد لهـا كـفَّ لامـسِ

ثم تمطّى صاحبي قائلاً: هل اكتفيت أم أزيد؟ قلت: جزاك الله الحسنى وزيادة، فلم تدع لمسترسلٍ زيادة..

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥

وَبَاكِيَةٌ أُخْرَى تُهِيْجُ الْبَوَاكِيَا..

قصدنا خليج العرب ــ وإن رَغَمَتِ المجوسيَّة ــ في رحلة سير طويلة، لنركب القارب، ونُجرِّبَ حظّنا في صيد الحوت، فلِصاحبي تجربة قديمة في سالف الأيام في مضمار البحار، وقد أحب أن يستدعي الذكريات بركوب صيد السمك! فوافقته مراعاة لخاطر الصحبة، وإلا فلا يعدل عندي شَمُّ عجاج الغيث المغبر بالترب العذي شيء، ولَنسيم صَبَا رياض نجدٍ في أنفي أطيب من رائحة العروس الخريدة في أنف العاشق الشبق، ولَقَطْعُ فيافيها وقت الربيع أحب إلي من حب الشيخ الموسر الكبير لابنه الواحد الصغير، ومن الأعور لعينه الباصرة، والأجذم ليده الناصرة. وشتان عندي بين طراد الخِرْبِ ــ وهو ذكر الحبارى ــ بالحُرِّ، وبين صيد البحر! فليس لي في ركوب البحر منزع، خلا شاطئه فهو معينٌ ثَرٌّ لواردات الأبيات وجمالات التأملات وراحة التأوهات، أما ركوب البحر فيكفيني منه ساعات، شريطة أن يكون نهاراً فَلِلَّيلِ في ظهر البحر رهبة لا أُحبّذها، وكما كتب عمروٌ لعمرَ يصف له البحر: البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير، دودٌ على عود!

كنا نتحدّث ونحن في الطريق بنيّتِنا في الانغماس في أغوار البحر، وضَرْبِ أثباجه، وصراع أمواجه، وتطرقنا متذكّرين لمناقشة رواية إرنست

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

همنجواي التي دوّنها في هافانا (الشيخ والبحر) التي قرأناها أيام الصّبا، ووددنا أن لم نقرأها حتى نعيد متعة قراءتها من جديد، أو أن ننساها مرات لنستمتع بحبكتها كرّات، إذ سجّل فيها مع حسن تصويره لروايته تأملاتِهِ العميقة في صراع الإنسان في حياته، وحكم الله النافذ بأقداره، وهي عندي مع رواية (موبي ديك، الحوت الأبيض) لهيرمان ملفيل في قمة الروايات البحريّة العالمية، لولا حشو لا طائل تحته في الثانية، ولعلَّهُ كَتَبَهَا لأدب المدفأة في ليالي شتاء القارة العجوز وابنتها الظالمة!

بينما نحن نسير وقد اختصرنا الطريق عبر النزول إلى الصحراء دون الأسفلت، فلصاحبي فلسفةٌ مفادها: أن رؤية الصحاري البكر ليست كرؤية الصحاري المزوَّجات! وهكذا كنا نسير بفضل الله وستره، ثم جهاز تحديد المواقع الإلكتروني، وقَتَلَتْ أرضٌ جاهلَها وقتلَ أرْضاً عالِمُهَا، مع أن صاحبي كان كما قيل: لا يَضِلّ حتى يضل النجم، ولا يهاب حتى يهاب السيل، وكان خير ما يكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً!

وأصبرُ من عودٍ وأهدى إذا سرى من النجم في داجٍ من الأرض غيهبُ

وقد أعْنَقْنا في مفازةٍ كأنّها مَعنيّةُ النابغة الذبياني إذ قال:

وَمَهْمَهٍ نازحٍ تعوي الذئابُ به نائي المياهِ عن الوُرَّادِ مِقْفَارُ

وقطعنا وادٍ كأنّما عناهُ امرئ القيس إذ يقول:

وَوَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ به الذِّئبُ يعوي كالخليعِ المُعَيَّلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبينا نحن مُجِدّان في ضرب ظهر الأرض بسياط الإطارات؛ لاحت لناظرينا واحة خلّابة، فما أن أَمْعَنَّا البصر وأنعمنا من بعده النظر؛ إلا وقد أزمعنا النزول وتأجيل البحر للغد أو بعد الغد فليس خلفنا ما يُبكى عليه! وكما قالت العامّة: «مقيمين، وعَلَى عِدٍّ» فملنا يسبقنا شوقنا إلى شجرات سرحٍ وطلحاتٍ، كأنهن الأبكار بالزينة متبرجات، قد نشرن الغدائر، وسرحن الضفائر، على شاطئ ماءٍ يحكي سلاسل الفضة واللؤلؤ، فنزل صاحبي وهو يشدوا مع جميل بثينة:

أَعُدُّ الليالي ليلةً بعدَ ليلةٍ ... وقد كنتُ دهراً لا أعدُّ الليالیا
وددتُّ على حب الحياةِ لو اْنني ... يُزاد لها في عمرها من حياتيا
ألم تعلمي يا عذبةَ الماءِ أنَّني ... أظلُّ إذا لم أُسقَ ماءُكِ صادِيا
لقد خفتُ أن ألقى المنية بغتةً ... وفي النفس حاجات إليكِ كما هيا

نزلنا ضحى، والسماء ملبّدةٌ بغيوم ليست ثقيلة، ثم رويداً بدا حاجبُ الشمس الذهبي، بانقشاع ذوائب السحائب، إلا من قزعات يتهادين نحو الأُفُق، فكشفت الجاريةُ ــ وهي الشمس ــ قناعها، ولمع في أجنحة الطير ضياؤها، وذَهَّبَتْ أطرافَ الماء بسبائكَ مسلسلةٍ متماوجةٍ، تتهادى متنافرة متقاربة، في لوحة قشيبةٍ فارهة فاخرة، فَذُكَاءُ ـ وهي الشمس ـ تسبح بجلالٍ ووقارٍ تحت قبة الفلك الزرقاء.

أصلحنا شأننا واسترحنا عامة الضحى، وَغَزَالةُ ـ وهي شمس الضحى ـ ترسل شعاعها، حتى إذا مَتَعَ النهار، وانتعل كلُّ شيءٍ ظِلَّهُ، ورمت بَرَاح ـ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهي الشمس ــ بجمَراتِ الظهر، غير أن النسيم البارد كسر حرّها، لكن الجَوْنَةُ ــ وهي الشمس ــ أبت بعد ذلك إلا رِماحاً ماضية، فملنا إلى ظل دوحتنا نجرجر أذيال الاستسلام.

إنها الشمس بفخامتها وجلالها وبهائها وحياتها وكبريائها، سخّرها الله تعالى لخلقه وجعلها من جملة رزقه، لكن أكثر الناس ضلوا فلم يهتدوا، وكفروا حيثُ أُمِروا أن يَشكُرُوا، هي أكثر وثنٍ عبد من دون الله تعالى، وقد تتابعت أمم الأوثان على عبادتها وتعاورت على تأليهها، فلم تكد تخلُ أُمَّةُ من تأليهها، فسمّتها العربُ الإلهة وعبدتها، وعبّدوا لها أبناءهم فسمّوا عبد شمس، ونحتت لها الصابئةُ الهياكل وعبدتها، وما من أمة وثنية إلا جعلتها ضمن معبوداتها إن لم تجعلْها الكبرى، وجعلوا لها يوماً وهو الأحد (sun day) أي: يوم الشمس، وأقاموا احتفالات وقرابين يوم اعتدالها الربيعي..وهكذا استطالت ضروب الوثنية فيها. وكلما رحل نبي كريم خَفَتَ نور دعوته ورسالته، واستجرت الشياطين فئاماً من بني آدم إلى عبادة الكواكب، وأعظمها الشمس!

حتى ضرب الخافقين وقرع الأُفُقَيْن ناموس الإسلام ببعثة سيد الأنام عليه الصلوات والبركات والسلام، بأعظم كتاب أوحاه رب العالمين، فأقام للشمس نطاقها الذي لا تتجاوزه، فأظهر الله في القرآن أنها عابدة مربوبة مسبِّحةٌ بحمد ربها، فقال جل شأنه وعز اسمه: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لَهَآ ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨].

وقال جل وعز: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الرعد: ٢]، وقال جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨]، وقال سبحانه وبحمده في آية حاسمة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧] ثم بيّن نهاياتها وفناءها وخرابها وموتها بقوله العظيم المزلزل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١] فالحمد لله على نعمة التوحيد، فاثبت عليه حتى تلقى ربك أيها الحنيف..

ومن روائع شيخ الإسلام قدّس الله روحه ــ أي طهّرها من آثار الذنوب، ويخطئُ من يقول: قدَّس الله سِرّه، لأن في هذا إسقاطًا قبوريًا شركيًّا حيث يعتقدون أنّ لنفسِ الإنسان قُدُراتٌ إلهية خفيّة!، ويسمّونها السِّرّ ــ قال: ومن تدبّر أحوال العالم، وجد كلّ صلاحٍ في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلّ شرّ في العالم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفتنةٍ وبلاء وقحطٍ وتسليطِ عدوٍّ وغير ذلك فسببُهُ مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله. ومَنْ تدبَّرَ هذا حقّ التدبّر؛ وجد هذا الأمر كذلك، في خاصّة نفسه وفي غيرها، عمومًا وخصوصًا، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

مرت ساعةٌ هادئة وادعة، وسكنت الريح فلم يرفّ غصن، ولم تهتز ورقة، ولم تختلج موجة ماء. وقد اضطجع صاحبي ورفع ساقه متكئاً بفَرْشِ قدمه على جذع الشجرة، عابثاً بإبهام قدمه في لحائها التليد، منشداً مع أبي صخر الهذلي:

أمَا والَّذي أبْكَى وأضْحَكَ وَالَّذِي ... أماتَ وأحْيا والَّذي أمْرُهُ الأَمْرُ

لَقَدْ تَرَكَتْنِي أحْسُدُ الوَحْشَ أنْ أرَى ... أليفَينِ منْها لا يَرُوعُهُما الذُّعْرُ

فَيا حُبَّها زِدْني جَوَىً كُلَّ لَيْلَةٍ ... ويَا سَلْوَةَ الأيَّامِ مَوْعِدُكِ الْحَشْرُ

ثم رفع كأس ماء ووضعه على وجهه وهو يقول:

أشهد لأبي حيّة النميري بحذقه في صيدِ نوادرِ المعاني، انظر إلى بيته هذا حين ألقاه تصويراً مدهشاً لدموعه، فصاد المعنى الجزل باللفظ الفحل:

نظرتُ كأنِّي من وراءِ زجاجةٍ ... إلى الدَّارِ من فرطِ الكآبةِ انظرُ

ثم سكب شيئاً من الماء على طرف شدقه كأنه يُلدّ، ثم قال: يا صاحبي هات من عنديّاتك. قلت: لا تستسمنْ ذا ورم! قال: هاتها على علّاتها. قلت: بما أنك ذاهب للبحر فخذ بمعيتك هذه المقطوعة برمزيتها:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما ذا أقولُ وقد تقولُ الأنجمُ ... يا ساهراً بَتَّ الفراقَ لكاعبِ
يا قاصداً ثَبَجَ البحارِ ألا ارْعَوِ ... فلكم تجندلَ في المحيطِ الضَّاربِ
كم عبقريٍّ جُنَّ من ذبلِ اللّمى ... أو شئتَ شهماً قد قضى من حاجبِ
لهفي على عمْرٍ تَقَضَّىْ غافلاً ... وتركتُ للنفس السفيهةِ غاربي
يا صاحبي إن جُزْتَ قبرَيَ هائماً ... فانصحْ لنفسِك واعتبر بتجاربي

كما قلت:

أبشرْ خليلي فقد أجلتْ لنا الكُتُبُ ... نصرٌ من الله في الكُفّارِ يلتهبُ
أنجِدْ أُخَيَّ ولا تلوِ على ضَعَةٍ ... واشف صدوراً شواها القهر والكربُ
أشرق بوجهك قد حانت بوادره ... وعدٌ من الله للأحرار يقتربُ
تنزيلُ مرحمةٍ تنزيلُ ملحمةٍ ... تجنيدُ ألويةٍ صَمْصَامُها النُّجُبُ
نِبراسها العلمُ والتَّقوى تُؤَجِّجُهَا ... فُرقَانها سائقٌ إن صاحتِ النُّوَبُ
أوَّاهُ ما أروعَ الأبطال إذ حَمَلوا ... همّ الديانة إن خافوا وإن سَغَبُوا
ما قال واحدهم همّي الحطام فقد ... صاغتْ مبادِئَهُمْ طه فما انقلبُوا
تناثرَ العلمُ شهداً من ثغورهِمُ ... أكرمْ بِهِ منبعاً للدين ينسكِبُ
إن تُبْلَ معركةٌ تلقى الكرامَ بها ... في ساعةِ الكربِ دوماً غِيلُهم أَشِبُ
إذا المبادئُ لم تُحْمَلْ مكرَّمة ... على الرِّقابِ فلا الأنفالُ تُرتقبُ

كما قلتُ:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أيا مبتغي الفردوسِ عَجِّلْ بصارمٍ ... وَكُن صَادقَ الإقبالِ عند التَّلاقيا
فإن تَحْيَ عِشْتَ العزّ في كلِّ لحظةٍ ... وإن كانت الأخرى ستَلْقَى المراقيا
فلِلعبد إن يَصدُقْ ويُمسي مُجَندلاً ... شهيداً فقد فاحت دماءٌ زواكيا
لئن نَثَرَ الكفّار كلَّ سهامهم ... فما ينصر الإسلامَ غير إلهيا
فلَنَدْعُوَنَّ اللهَ ليلاً وبكرةً ... ولَيَصدقنَّ اللهَ في الحربِ لاقيا
ومن صَدَقَ الجبّارَ يجبرُ كسرَهُ ... ومن نَصَرَ المولى له النصرُ ساعيا
فيا قومِ قوموا فاصدُقوا في لقا العِدا ... فمن كَذَبَ الرحمنَ فالقصمُ ماحيا
ويا فارسَ التوحيدِ مالَكَ لا تُرى؟! ... فبادِرْ وكُنْ للدين حصناً وحامياً
وأبشرْ أخا الإيمان فالفتحُ قادمٌ ... وإن أجلبَ الشيطانُ كلَّ النَّواديا
أيا طولَ يومي ثمّ يا طولَ ليلتي ... إذا هيْعَةٌ ثارتْ وما كُنتُ راميا
فيا ربِّ يا ذا الجُود والطَوْل والنّدَى ... ويا رَبَّ أملاكاً عِظاماً ثمانيا
ويا كاملَ الأوصاف: هَبْ لي شهادةً ... وختِّم حياتي بالسرورِ المُواتيا
فأسألُ ربّي أن تكونَ منيّتي ... بعيداً عن الأوطان للشّركِ غازيا
فَخُذْ من دمائي يا سميعاً لدعوتي ... فما أطيبَ الآلام إن كنتَ راضيا
ويا ربِّ قَطِّعْنِي وفرّق مفاصلي ... بجوفِ طيورٍ أو بُطُونِ العَوَافِيا
أسوقُ لحرْقِ الكفرِ نيرانَ مدفَعِي ... وأزرعُ ألغاماً لنسفِ الأعاديا
فهمِّي رِضَى ربِّي بقتلي لكافرٍ ... برمي رصاصِ الحقِّ جمراً غواشياً
لَئِنْ قَرَّبَ العُبّاد كبشاً وأنعُماً ... وَضَحَّوْا لمولاهم بعيراً فَما ليا؟
فيا ربِّ فاقْبَلْهَا قرابينَ راحَتِي ... فِئاماً من الكفّارِ أضحتْ بَوَاليا
يظُنُّ بيَ المغرورُ ظنَّ سفاهةٍ ... ولا عجباً فالكنز في القلبِ خافيا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سيعلمُ من قَدْ فازَ فوزاً ورِفعةً ... إذا جُندَلَ المخذولُ تحت السّوافيا
وقد ماتَ سيفُ الله بالأمسِ خالدٌ ... وقد خاضَ زحفاً بل حروباً ضواريا
وقد قال قولاً يقدحُ النور في النُّهَى ... فلا نامَ من أمسى جباناً وساليا!
فيا ليت شعْري أين ميتة من ثوى ... قتيلاً كليلاً من قتال البواغيا
ومن ماتَ مثلَ الكلب من شِبْعِ بطنهِ ... وقد مات خوّاراً جباناً ولاهيا؟!
فمن ذا يبيع المُستَهَامَ جنانَهُ ... فقد نادتِ الفردوسُ من كان ساميا
لَئِنْ قَرَّبَ الرّحمنُ عبداً وأنت لا ... فأعظِمْ بِهِ خُسْراً شديداً وكاويا!
أترضى قعوداً يا جبانُ مع النساء ... وقد صاح صوتٌ في الرّجال مناديا؟!
تذكَّرْ هداكَ اللهُ يومَ قيامةٍ ... به النارُ تُذْكَى من لحومِ الطَّواغِيا
أَمَا عرفَ المسكينُ شِدَّةَ حرّها؟ ... فيا ويحَ واخُسْراً لمن كان عاصيا!
لئن عَزَّ ديني واسْتُبِيحَتْ جوارحي ... فأين مقام العِزِّ إلا مقاميا؟
لك الحمد يا ربَّا عظيماً نوالهُ ... بِبَعْثِكَ جُنداً في زمان التَّهاويا
أَيا سامعاً فافهم هُديتَ مقالَتي ... وأَرْعِ لها سمعاً من القلب صاغيا
لقد هبّت الأرواح نصراً ونجدةً ... فحيَّ هَلاً بالحرب زادت شعاعيا!
فَئِيهٍ حُماةَ الدّين جاءَ عدوُّكمْ ... يريدُ بكم كيداً عظيم الدّواهيا
فإن تستجيبوا للكفورِ فخبتمُ ... ألا حَبّذَا قَرْمًا عن الدّين حاميا
أيا أمّة الإسلام جِدُّوا وأَدْلجوا ... فإن عَرِينَ الليثِ قد بات خاليا
لئن كان للإسلامِ قومٌ ودولةٌ ... فهذا أوانٌ للنُّهوض بدا لِيَا
وصلّ إلهَ الناسِ ما مات مسلمٌ ... على خيرِ من أرسلتَ للكفر ماحيا
عليهِ سلامُ الله في كلّ ليلةٍ ... وفي كلّ يومٍ من جديدِ الزّمانيا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَمَّـتْ وأدعـو الله يـرحم غُربتـي إذا كـان تُـرْبَ القبرِ قَسْراً وِسَـاديا

ثم قلت: يا صاحبي إني سائلٌ خبيرَ فِقْهِكَ في شأن المحبين عن الفراق والوصل هل يزيدان وهج الحبّ أم ينقصانه؟ وعن عِشْرَةِ المتحابَّيْن هل يدوم معها حبٌّ؟

فقال وقد اعتدل في جلسته وأخذ يرمي الماء بحصيّات بين يديه: الحب كالسَّعفة، سريعة الاشتعال متوهجة متوقدة، أما المودة فهي كجمر الغضا تحت الرماد، يُدفئُ ما حوله بدون توهُّجٍ ويطول وجوده، فمن الجمر ما يبقى أياماً تحت الرماد وليس كدقائق السَّعَف. لذا فحُسْنُ العشرة والمودة هي الباقية، أما الحب فيزول سريعاً إن لم يكن له روافد.

أما الوصل العارض والفراق الدائم، فالحَقُّ فيه أن الفراق المُيْئِس مع طول الزمان وكرور الأيام يُبرد جذوة الحب الكامنة، ويُنسي صولة الغرام القاهرة، كما أن الوصل التام الذي ترتوي فيه الأعضاء، وتتداخلُ معه الأنحاء، وتُلصق معه الأكباد عارية على طول الوساد، مؤذنٌ بغروب شمس الهوى، مُغيض لعيون آبار الجوى، وكما عند ابن ماجه وغيره وصححه الألباني أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يُر للمتحابين مثل النكاح**» ففي النكاح راحة من لهيب العشق وسعير الوجد، ومن شواهد ذلك قول جميل بثينة:

يمـوتُ الهـوى منِّي إذا مـا لقيتُهـا ويحيـــا إذا فارقتهـــا فيعـــودُ

وكما قال برنارد شو: الزواج هو أكبر حماقة يرتكبها العشاق. وقد قصد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بذلك برود العشق وفتوره، ولكنه غفل عن نعيم المودة والرحمة الباقية مع الزواج.

ولسنا بسبيل مطلق الحب، لكنَّما قصدنا العشقَ المُمِضَّ فالبلوى فيه مشهورة، والعجيجُ فيه معتاد، أما المحبة فباقية ما دام معها حُسْنُ معشر وحلاوة أخلاق. لذلك شَرَعَهُ من خَلَقَ النفوس وهذَّبَهَا، ومعلومٌ أن الحب إذا نكح فسد، لذا فمن هام في حبّه فسببه غالباً هجر ووصل، فلا هو باليائس الناسي، ولا بالواصل الرّاسي، فتتشعَّبُهُ البلابلُ، وتقلقله الأوهامُ، وتُقصِّفه الأمانيُّ. فأحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعَهُ، وهذا هو الغالبُ، وإن كان في بعض بني الإنسان مثنويّة. والشيء من غير معدنه أغرب، وكما قال ابن ميَّادة:

أبِيتُ أُمنِّي النَّفس من لاعجِ الهوَى ... إذا كادَ بَرْحُ الشَّوق يُتلِفها وجْدا

مُنًى إنْ تكنْ حقّاً تكنْ أفضلَ المنَى ... وإلاَّ فقد عِشنا بها زَمَناً رَغْدا

ولما قال الحازمُ: الأماني تخدعك وعند الحقائق تدعك، والأمنيات رأس مال المفاليس، ردّ المتفائلُ: بل الأملُ رفيق مؤنس، إن لم يُبلغك فقد أمتعك وألهاك. فقال الحاكم بينهما: الأمل أمنيةٌ مع عمل، أما بدونه فسراب بِقِيعة..وما أضيق العيش لولا فسحةُ الأمل!

وتأمّل كيف زوجوا ليلى العامرية بورد العقيلي، فمات قيس عشقاً وولهاً بعدما ذهب عقله! وزوجوا بثينة نبيهاً، فمات جميل من العشق! وزوجوا أسماء بنت عوف برجل من مراد، فمات المرقَّشُ الأكبر دَنَفاً وغراماً! وزوجوا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عفراء بغير عروة، فمات عشقا وكلفاً، فندبته حتى لحقته!

فكل هؤلاء حُرموا الوصل التام، فالوصل التام يُذهبُ وَهَجَ الحبِّ، ويُشبع جَوْعَتَه، فالحب إذا تَمَّ وَصْلُهُ هَدَأَ وبَرَدَ، كما أن اليأس يُجفِّفُ منبعه، فاليأس مُنسي، أما التحرُّقُ والانتظار فهو مشعلٌ في الفؤاد أوار الهوى في تنُّور الاشتياق والحُرَق! ولله أبي الطيّب إذ يقول:

وأحلى الهوى ما شَكَّ في الوصلِ ربُّهُ ... وفي الهجرِ فهو الدَّهر يرجو ويتّقي

وإذ يقول:

وما صَبَابَةُ مشتاقٍ على أملٍ ... من اللقاء كمشتاقٍ بلا أملِ

والهجرُ أقتلُ لي مما أفارقهُ ... أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ

قلت جَذِلاً لِذِكْرِ أبي الطيب: لا غرو، فهو الشاعر المطبوع، والفحلُ المُفَلِّق، والمجرِّب الحكيم، قال فيه ابن رشيق بعدما ذكر شعراء: ثم جاء أبو الطيب، فملأ الدنيا وشغل الناس.

أليس هو القائل:

نصيبُك في حياتك من حبيبٍ ... نصيبك في منامك من خيالِ

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتَّى ... فؤادي في غِشاءٍ من نِبَالِ

فصرتُ إذا أصابَتْنِي سهامٌ ... تكسَّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

وهانَ فما أبالي بالرزايا ... لأني ما انتفعتُ بأن أُبالي

وكان الفيلسوف المتأمل المتشائم أبو العلاء المعري إذا ذكر الشّعراء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقول: قال أبونُوَاس كذا، قال أبو تمّام كذا، قال البُحْتُريّ كذا..فإذا ذكر المتنبي قال: قال الشاعر: كذا، فرُوجعَ فقال: أليس هو القائل:

بَلِيْتُ بِلى الأطلالِ إن لم أَقَفْ بها ... وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتمهُ

ومن رائعاته السائرة:

زارني في الظلامِ يطلبُ سِتراً ... فافتضحنا بنورهِ في الظلامِ

وقوله:

وما كنت ممن يدخل العشق قلبَهُ ... ولكن من يبصرْ جفونَكِ يعشقُ

وقوله:

والهَمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ... ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهْرِمُ

كذلك وهو تصويرٌ غايةٌ في الحسن:

ومما شجاني أَنَّها يومَ ودَّعتْ ... تولَّتْ وماءُ العين في الجَفْنِ حائرُ

فلمَّا أشارتْ من بعيدٍ بنظرةٍ ... إليَّ التفاتاً أسلمتْهَا المحاجرُ

ووقف البلغاء معجبين بقوله:

وخصرٍ تُثْبَتُ الأحداقُ فيهِ ... كأنَّ عليه من حَدَقٍ نطاقا

قال صاحبي: أينك عن قوله الرائق، بجرسه الشائق، وقد عاش أهلُ الأندلس ليالاً ملاحاً يردّدونه:

بادٍ هواكَ صبرتَ أم لم تصبرا ... وبُكاكَ إن لم يجر دمعُك أو جَرَى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كم غَرَّ صبرُكَ وابتسامكَ صاحباً ... لمّا رآك وفي الحشا ما لا يُرى

أَمَرَ الفُؤادُ لِسَانَهُ وَجُفُونَهُ ... فَكَتَمْنَهُ وَكَفَى بجِسْمِكَ مُخبِرَا

ولم يأت بعد المتنبي حتى زماننا هذا من يضارعه أو يقاربه في سهولة شعره الممتنعة، وقد يصيد بعضهم شيئاً من ذلك ولكن ليست كاستمرارية أبي الطيب.

وقد أعجبني قولُه لأحد أصحابه وقد أكثر الإلمام به حين مَرِضَ واعتل، فلما أبلّ قطعه: وصلتني أعزَّك الله معتلاً، وقطعتني مُبِلًّا، فإن رأيت ألّا تُكَدِّرَ الصِّحةَ عليَّ، وتُحَبِّبَ العِلَّة إليَّ فعلتَ.

قلت وأنا أُقِرُّ قِدْرَ الطعام وأَزِنُهُ فوق الأثافي: هذا يوم من أيام أبي الطيب، قد تطارحنا فيه بديع شعره.. فهل لك في شعر الفروسية والحماسة؟ أم أن خمر أبي الروقاء ليست تسكرُ؟

قال: بل هي أخت النسيب، ولا خير في نسيب لا يركب متن الجسارة! وغُرَرُ الحماسة عندي ثلاث، وليست بدون مذهّبة عمرو بن كلثوم التغلبي، إن لم يفقْنَها سبكاً وبراعة، ويكفيك منهن باذخةُ عنترة بن شداد العبسي إذ يقول:

حَكِّمْ سيُوفَكَ في رقابِ العُذَّل ... وإذا نزلتْ بدار ذلَّ فارحلِ

وإذا بُليتَ بظالمٍ كُنْ ظالماً ... وإذا لقيتَ ذوي الجهالة فاجهلِ

وإذا الجبانُ نهاكَ يوْمَ كريهة ... خوفاً عليكَ من ازدحام الجحفلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥- وَبَاكِيَةٌ أُخْرَى تُهِيجُ الْبَوَاكِيَا..

فـاعْصِ مقالَتـهُ ولا تَحْفـلْ بهـا ... واقْـدِمْ إذا حَـقَّ اللِّقـا في الأَوَّلِ
واخـتَرْ لِنَفْـسِكَ منْـزلاً تعْلـو بـه ... أَوْ مُـتْ كريماً تَحْتَ ظلِّ القَسْطَلِ
فـالموتُ لا يُنْجيـكَ مـنْ آفاتِـهِ ... حـصنٌ ولـو شـيدتهُ بالجنـدلِ
مـوتُ الفتـى في عـزهِ خـيرٌ لـه ... منْ أنْ يبيتَ أسير طرفٍ أكحلِ
إنْ كُنْـتُ في عـددِ العبيـدِ فَهمَّتي ... فـوق الثريـا والـسماكِ الأعـزلِ
أو أنكـرتْ فرسـانُ عـبس نـسبتي ... فـسنان رمحـي والحـسام يقـرُّ لي
وبـذابلي ومُهَنَّـدِي نلـتُ العـلاَ ... لا بالقرابـة والعديـدِ الأَجـزلِ
ورميتُ مهري في العجاجِ فخاضهُ ... والنَّارُ تقْدحُ منْ شفار الأَنْصُلِ
خـاضَ العجـاجَ محجـلاً حتـى إذا ... شـهدَ الوقعيـةَ عـاد غـير محجـلِ
وأَنـا ابْـنُ سـوْداءِ الجبـين كأَنَّهـا ... ضَـبُعٌ تَرعْـرَع في رُسـومِ المنْـزلِ
الـساق منهـا مثـلُ سـاق نعامـة ... والـشَّعرُ منهـا مثْـلُ حَـبِّ الفُلْفُـلِ
والثغـر مـن تحـتِ اللثـام كأنـهً ... بـرْقٌ تـلأْلأَ في الظّـلامَ المُـسدَلِ
يـا نـازلين عـلى الحِمَـى ودِيـارِهِ ... هَـلاَّ رأيـتُمْ في الـدِّيار تَقَلْقُـلي
قـد طـال عِـزُّكُم وذُلِّي في الهـوَى ... ومـن العَجائـبِ عـزُّكم وتـذَلُّلي
لا تـسقِنِي مـاءَ الحيـاة بذلَّـة ... بل فاسقني بالعزَّ كأس الحنظلِ
مـاءُ الحيـاة بذلـةٍ كجهـنم ... وجهـنم بـالعزَّ أطيـبُ منـزلِ

وهو شاعر جاهلي فلا تستغرب بيته الفاجر الأخير، والحمد لله على نعمة الإسلام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والثانية تُروى للسموأل بن عاديا الأزدي نِسْبَةً اليهوديُّ ديانةً، وعند آخرين أنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي الشاعر العباسي، وإليه مال المتأخرون، والإقحام وارد والانتحال كذلك. والقصيدة من البراعة بمكان أرفع، وخصلتان تملأ رأس العربيِّ شمماً؛ الشجاعة والسخاء، وقد جعلهما الشاعر قطب رحى قصيدته، مع غفلته عن القضاء والقدر في الآجال:

إِذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِن اللُّؤْمِ عِرْضَهُ ... فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وإِنْ هُو لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سبيلُ
وقائِلَةٍ ما بالُ أُسْرَةِ عادِيا ... تَبارَى وفِيهِمْ قِلَّةٌ وخُمُولُ
تُعَيِّرُنا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فقلتُ لها إِنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ
وما ضَرَّنا أَنَّا قَلِيلٌ وجَارُنا ... عَزِيزٌ وجارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
وما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ مثْلَنا ... شَبابٌ تَسامَى لِلْعُلا وَكُهُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنا لَنا ... وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ
وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... ولا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسنا ... ولَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ
صَفَوْنا فَلَمْ نَكْدَرْ وأَخْلَصَ سِرَّنا ... إِناثٌ أَطابَتْ حَمْلَنا وفُحُولُ
عَلَوْنا إِلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنا ... لِوَقْتٍ إِلى خَيْرِ البُطُونِ نُزُولُ
فنَحْنُ كماءِ المُزْنِ ما فِي نِصابِنا ... كهَامٌ ولا فِينا يُعَدُّ بَخِيلُ
ونُنْكِرُ إِنْ شِينَا على النَّاسِ قَوْلَهُمْ ... ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ
إِذا سَيِّدٌ مِنَّا خَلا قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِما قال الكِرامُ فَعُولُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنَا دُونَ طارِقٍ ... ولا ذَمَّنا في النَّازِلِينَ نَزِيلُ
وَأَيَّامُنا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنا ... لَها غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وحُجُولُ
وأَسْيافُنا في كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ ... بِها مِن قِراعِ الدَّارِعينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةً أَلاَّ تُسَلَّ نِصالُها ... فتُغْمَدَ حتَّى يُسْتَباحَ قَبِيلُ
سَلِي إِنْ جَهِلْت النَّاسَ عَنَّا وعَنْهُمُ ... فلَيْسَ سَواءً عالِمٌ وجَهُولُ
فإِنَّ بَنِي الدَّيّان قُطْبٌ لقَوْمِهِمْ ... تَدُورُ رحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وتَجُولُ

وثالثتها لبشار بن برد العقيلي، وهذا الرجل من أعاجيب البشر، ومن أهل اللّسَنِ واللّقن، وقد كان مثجّاً يسيل غرباً:

إِذَا المَلِكُ الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... مَشَيْنا إِليهِ بالسُّيوفِ نُعاتِبُهْ
وكُنَّا إِذا دَبَّ العَدُوُّ لِسُخْطِنا ... ورَاقَبْنا في ظاهِرٍ لا نُراقِبُهْ
دَلَفْنا له جَهْراً بكُلِّ مُثَقَّفٍ ... وأَبْيَضَ تَسْتَسْقِي الدِّماءَ مَضَارِبُهْ
وجَيْشٍ كمِثْلِ الليلِ يَرْجُفُ بالحَصَى ... وبالشَّوْكِ والخَطِّيِّ حُمْرٌ ثَعالِبُهْ
غَدوْنا لهُ والشَّمسُ في خِدْرِ أُمِّهَا ... تُطالِعُنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائِبُهْ
بِضَرْبٍ يَذُوقُ المَوْتَ من ذاقَ طَعْمَهُ ... وتُدْرِكُ مَنْ نَجَّى الفِرارُ مَثالِبُهْ
كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنا ... وأَسْيافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُهْ
وأَرْعَنَ تَعْشَى الشَّمسُ دُونَ حَدِيدِه ... وتَخْلِسُ أَبْصارَ الكُماةِ كَتائِبُهْ
تَغَصُّ به الأَرضُ الفَضَاءُ إِذا غَدا ... تُزاحِمُ أَركانَ الجِبالِ مَناكِبُهْ

فلما سمع الناس قصيدته الجبّارة هذه؛ تناقلوها وطاروا بها، وقال له

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعضهم متعجّباً: إنك تقول:

كـأنّ مُثَـارَ النقـعِ فـوق رُؤوسـنا وأسـيافَنا ليـلٌ تَهَـاوَى كواكبُـهْ

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط؟ فقال: إن عدم النظر، يقوِّي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء، فيتوفر حسه وتذكو قريحته.

وقيل لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت! قال: وما ذاك؟ قال: بينما تقول شعراً تثير به النقع وتخلع به القلوب مثل قولك:

إذا مـا غَـضِبنا عَـضْبَةً مُـضَرِيَّةً هَتكنا حِجابَ الشمس أو تُمْطِرَ الدَّمَا

إذا مـا أعَرْنـا سَـيِّداً مـن قبيلـةٍ ذُرَى مِنْـبرٍ صـلَّى علينـا وسَـلَّمَا

ثم نراك تقول:

رَبَابَـــةُ رَبَّـــةُ البيـــتِ تَـــصُبُّ الخـــلَّ في الزَّيـــتِ

لهـــا عَـــشْرُ دَجَاجَـــاتٍ ودِيـــكٌ حَـــسَنُ الـــصّوتِ

فقال: لكلٍّ وجهٌ وموضعٌ، فالقول الأول جِدٌّ، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض وتحفظه عندها، فهذا عندها من قولي أحسن من:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حبيبٍ ومَنزِلِ بسقط اللوى بين الدَّخول فحوملِ

ثم قام صاحبي وهزَّ جذع شجرة قريب وتابع قوله: ومن معلقة ابن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كلثوم، والتي لا بد أنها قد مرّت على قريحة قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي، فهي على طريقتها وسَنَنِهَا وشعاعها وإن كان التغلبيُّ قد فاق:

هَـــلاَّ سَـــأَلْتَ جُمُـــوعَ كِنْـــ ـــدَةَ يَـــومَ وَلَّـــوْا أَيْـــنَ أَينـــا
أَيَّـــامَ نَـــضْرِبُ هـــامَهُمُ بِبَـــواتِرٍ حتَّـــى انْحَنَيْنـــا

وقد قام عمرو بن كلثوم بها مُفَلِّقاً قصائدَ غيره، في سوق عكاظ وفي موسم الحج وحُقّ له، فهي من نوادر الحماسيات المجلجلة، وقال وكأنما جدّه لأُمِّهِ الزير سالم يرافقه بقريضه:

أَلاَ هُبِّـي بِـصَحْنِكِ فَاصْـبَحِينَا وَلاَ تُبْقِـي خُمُـورَ الأَنْـدَرِينَا
وَمَـا شَـرُّ الثَّلاَثَـةِ أُمَّ عَمْـرٍو بِـصَاحِبِكِ الَّـذِي لاَ تَـصْبَحِينَا
وَإِنَّـا سَـوْفَ تُـدْرِكُنَا الْمَنَايَـا مُقَـدَّرَةً لَنَـا وَمُقَدَّرِيـنَا
قِفِـي قَبْـلَ التَّفَـرُّقِ يَـا ظَعِينَـا نُخَـبِّرْكِ الْيَقِيـنَ وَتُخْبِرِينَـا
قِفِي نَسْأَلْكِ هَلْ أَحْدَثْتِ صَرْمَاً لِوَشْـكِ الْبَـيْنِ أَمْ خُنْـتِ الأَمِينَـا
بِيَـوْمٍ كَرِيهَـةٍ ضَرْبَـاً وَطَعْنَـاً أَقَـرَّ بِـهِ مَوَالِيـكِ الْعُيُونَـا
وَإِنَّ غَـدَاً وَإِنَّ الْيَـوْمَ رَهْـنٌ وَبَعْـدَ غَـدٍ بِـمَا لاَ تَعْلَمِينَـا
تُرِيـكَ إذا دَخَلَـتَ عـلى خَـلاَءٍ وَقَـدْ أَمِنَـتْ عُيُـونَ الكَاشِـحِينَا
ذِراعَـيْ عَيْطَـلٍ أَدْمَـاءَ بِكْـرٍ تَرَبَّعَـتِ الأَجَـارِعَ والْمُتُونَـا
وَثَـدْياً مِثْـلَ حُـقِّ العـاجِ رَخْـصاً حَـصَاناً مِـن أَكُـفّ اللاَمِـسِينَا
وَنَحْـراً مِثْـلَ ضَـوْءِ الْبَـدْرِ وَافَى بِأَتَمِّـامٍ أَنَاسِـاً مُـدْلَجِينَا
وَمَتْنَـيْ لَدْنَـةٍ طَالَـتْ وَنَالَـتْ رَوادِفُهَـا تَنُـوءُ بِـمَا يَلِينَـا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَمَأْكَمَةً يَضيقُ البابُ عَنْهَا ... وَكَشْحاً قد جُنِنْت بِهِ جُنُونَا

تَذَكّرْتُ الصِّبا واشْتَقْتُ لمّا ... رَأَيتُ حُمُولَها أُصُلاً حُدِينَا

وَأَعرَضتِ اليَمَامَةُ واشْمَخَرّتْ ... كَأَسيافٍ بِأَيدي مُصلِتينَا

أَبا هِندٍ فَلا تَعْجَلْ عَلَينا ... وَأَنْظِرْنا نُخَبّرْكَ اليَقينَا

بِأَنّا نُورِدُ الرّاياتِ بيضاً ... ونُصْدِرُهنّ حُمراً قَد رَوِينَا

فإنَّ الضِّغنَ بَعْدَ الضّغنِ يَفْشُو ... عَلَيْكَ وَيُخرجُ الدَّاءَ الدَّفينَا

وَأَيّامٍ لَنَا غُرٍ طِوالٍ ... عَصَينا المَلْكَ فيها أَنْ نَدينَا

وَسَيِّدِ مَعْشرٍ قَدْ تَوّجُوهُ ... بتاجِ المُلْكِ يَحمي المُحجَرِينَا

تَرَكنا الخَيلَ عاكِفَةً عَلَيْهِ ... مُقَلَّدَةً أَعِنّتَها صُفُونَا

وَقَدْ هَرّتْ كِلابُ الحَيّ مِنّا ... وَشَذَّبْنا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا

نَعُمّ أُنَاسَنا وَنَعِفُّ عَنهم ... وَنَحمِلُ عَنْهُمُ ما حَمَّلُونَا

وَرِثنا المَجدَ قد عَلِمتْ مَعَدٌّ ... نُطاعِنُ دُونَهُ حتى يَبِينَا

ونحنُ إذا عِمادُ الحَربِ خَرّتْ ... على الأحفاض نَمنَعُ مَن يَلينا

نُطاعِنُ ما تَراخَى النّاسُ عنّا ... ونَضرِبُ بالسّيوفِ إذا غُشينَا

بِسُمرٍ مِنْ قَنَا الخطيّ لُدْنٍ ... ذَوابِلَ أَو بِبِيضٍ يَعْتَلِينَا

نَشُقّ بها رُؤوسَ القَومِ شَقّاً ... ونَخْتَلِبُ الرّقابَ فَيَخْتَلِينَا

تَخَالُ جَماجِمَ الأبطالِ مِنْهُمْ ... وُسُوقاً بالأماعِزِ يَرْتَمِينَا

نَجُذّ رُؤوسَهُم في غَيرِ وِترٍ ... ولا يَدرُونَ ماذا يَتّقُونَا

كَأَنَّ ثِيابَنا مِنّا وَمِنْهُم ... خُضبْنَ بأُرْجُوانٍ أَو طُلِينَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كَـــأَنَّ سُـــيُوفَنا فِينَـــا وَفِـــيهِمْ ... مَخَـــارِيقٌ بِأَيْـــدِي لاعِبِينَـــا
بِفِتيـــانٍ يَـــرَوْنَ القَتْـــلَ مَجْـــداً ... وَشِـــيبٍ فِي الحُـــرُوبِ مُجَرَّبِينَـــا
يُدَهـدُونَ الـرّؤوس كَـمَا تُدَهـدي ... حَـــزاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهـــا الكُرِينَـــا
بِـــأَيِّ مَـــشيئَةٍ عَمـــرَو بـــن هِنْـــدٍ ... نَكُـــونُ لِقَـــيْلكُمْ فيهـــا قَطِينَـــا
وَإِنَّ قَنَاتَنـــا يـــا عَمْـــرو أَعْيَـــتْ ... عَـــلى الأعـــداءِ قَبْلَـــكَ أَنْ تَلِينَـــا
متـــى تُعقَـــد قَرِينَتُنـــا بِحَبْـــلٍ ... تَجُـــذِّ الحبـــلَ أو تَقِـــصِ القَرِينَـــا
ونحـــنُ الحابِـــسونَ لِـــذي أُراطٍ ... تَـــسِفُّ الجِلّـــةَ الخُـــورَ الـــدَّرِينَا
فكُنّـــا الأيْمَنـــينَ إذا أَلتَقَينَـــا ... وكـــانَ الأيـــسَرينَ بَنُـــوا أَبِينَـــا
فَـــصالُوا صَـــوْلَةً فـــيمَنْ يَلـــيهِمْ ... وصُـــلنا صَـــوْلَةً فِـــيمَنْ يَلِينَـــا
فـــآبُوا بالنِّهـــابِ وبالـــسّبَايَا ... وأُبْنَـــا بـــالمُلُوكِ مُـــصَفَّدِينَا
وَتَحمِلُنـــا غَـــداةَ الـــرَّوْعِ جُـــرْدٌ ... عُـــرِفنَ لَنَـــا نَقائِـــذَ وافْتُلِينَـــا
وَرَدْنَ دَوارِعـــاً وَخَـــرَجْنَ شُـــعثاً ... كَأَمْثَـــالِ الرّصـــائِعِ قَـــد بَلِينَـــا
ورِثنـــاهُنّ عَـــن آبَـــاءِ صِـــدْقٍ ... وَنُورِثُهـــا إذا مِتْنَـــا بَنِينَـــا
وَقَـــدْ عَلِـــمَ القَبَائِـــلُ غـــيرَ فَخْـــرٍ ... إذا قُبَـــبٌ بِأَبْطَحِهَـــا بُنِينَـــا
بِأَنَّـــا العاصِـــمُونَ إذا أُطِعنـــا ... وَأَنَّـــا الغـــارِمُونَ إذا عُـــصِينَا
وَأَنَّـــا المُنْعِمُـــونَ إذا قَـــدَرْنَا ... وَأَنّـــا المُهْلِكُـــونَ إذا أُتِينَـــا
وَأَنّـــا الحـــاكِمُونَ بـــما أَرَدْنـــا ... وأَنّـــا النّـــازِلونَ بِحَيْـــثُ شَـــينَا
وَأَنّـــا التّـــارِكُونَ لِمَـــا سَـــخِطنا ... وَأَنّـــا الآخِـــذُونَ لِمَـــا هَوِينَـــا
وَأَنّـــا الطّـــالِبونَ إذا نَقَمنـــا ... وأَنّـــا الـــضّارِبُونَ إذا ابتُلِينَـــا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأَنّــا النّــازِلُونَ بِكُــلّ ثَغْــرٍ ... يَخَــافُ النّــازِلُونَ بِــهِ المَنُونَــا
وَنــشْرَبُ إنْ وَرَدْنــا المــاءَ صَــفواً ... وَيَــشْرَبُ غَيْرُنــا كَــدَراً وطِينَــا
قَرَينــاكُمْ فَعَجَّلْنــا قِــراكُمْ ... قُبَيــلَ الــصُّبحِ مِــرْدادةً طَحُونَــا
متــى نَنقُــلْ إلى قــومٍ رَحَانَــا ... يكونــوا في اللِّقــاءِ لَهَــا طَحِينَــا
عــلى آثارِنــا بِــيض حِــسَانٌ ... نُحــاذِرُ أَنْ تُفــارِقَ أَو تَهُونَــا
ومــا مَنَــع الظَّعــائنَ مِثــلُ ضرْبٍ ... تَــرَى منــهُ الــسَّواعِدَ كالقُلِينَــا
إذا مــا المَلْــكُ سامَ النَّاسَ خَسفاً ... أَبَينــا أَنْ نُقِــرَّ الخَــسَفَ فينَــا
أَلا لا يَجْهَلَــنْ أَحَــدٌ عَلَيْنــا ... فَنَجهَــلَ فــوقَ جَهــلِ الجاهِلينَــا
وَنَعــدو حَيْــثُ لا يُعْــدَى عَلَينــا ... ونَــضرِبُ بــالمَواسي مَــنْ يَلينَــا
أَلا لا يَحْــسَبِ الأعــداءُ أَنَّــا ... تَضعــضعنا وأَنَّــا قَــد فَنِينَــا
تَرانــا بــارِزِينَ وكــلُّ حــيٍ ... قَــدِ اتَّخَــذوا مَخَافَتَنــا قَرِينَــا
كَأَنّــا والــسّيُوفُ مُــسَلَّلاتٌ ... وَلَــدْنا النّــاسَ طُــرّاً أَجمَعِينَــا
مَلأْنــا الــبَرَّ حتــى ضــاقَ عَنّــا ... كَــذاكَ البَحــرَ نَملَــؤهُ سَــفِينَا
إذا بَلَــغَ الفِطَــامَ لَنــا رَضــيعٌ ... تَخِــرُّ لَــهُ الجَبــابِرُ ســاجِدينَا
لَنَــا الــدُّنيا وَمَــنْ أَضــحَى عَلَيهــا ... ونَــبطِشُ حــينَ نَــبطِشُ قَادِرِينَــا
تَنــادَى المُــصعَبانِ وآلُ بَكْــرٍ ... ونــادَوا يــا لَكِنــدَةَ أَجْمَعِينَــا
فــإنْ نَغْلِــبْ فغَلاَّبُــونَ قِــدْماً ... وَإنْ نُغلَــبْ فَغَــيْرُ مُغَلَّبِينَــا

ولا شك أن الفخر الجاهلي قد تجاوز أصحابه حدود الطبيعة، ولكن لا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حدود في الفخر عند سكان ذلك الزمان. وهي بلا شك معلّقة فاخرة فارهة، سهلة المأخذ قريبة المعنى عالية الصيت، وإن طبول الحرب فيها لتصكّ أذنيك، وبنو تغلب يعظمونها جداً، ويرويها صغارُهُمْ وكِبَارُهم حتى حسدتهم القبائل عليها فهجتهم بذلك، قال بعض شعراء بكر بن وائل وهم خصومهم وبنو عمومتهم!:

أَلْهَى بني تَغْلِبٍ عن كل مَكْرُمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرُو بن كلثومِ

يَرْوُونها أبداً مُذْ كان أوَّلُهم ... يا للرجالِ لِشِعْرٍ غيرِ مسؤومِ

وهو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي الرَّبَعِي، وأمُّهُ هي ليلى بنت الفارس الشاعر الشهير المهلهل بن ربيعة المشهور بالزير سالم. وقد كان عمرو من أعزِّ الناس نفساً، وهو من الفُتَّاكِ الشجعان، ساد قومه تغلب وهو فتىً وعُمِّرَ طويلاً، وهو قاتل الملك عمرو بن هند، وذلك أن أُمَّ عمرو بن هند ادّعت يوماً أنها أشرف نساء العرب، فهي بنت ملوك الحيرة وزوجة ملك وأم ملك، فقالت إحدى جليساتها: ليلى بنت المهلهل أشرفُ منك، فعمُّها كليب وأبوها المهلهل، وزوجها كلثوم بن مالك أفرس العرب وولدها عمرو بن كلثوم سيد قومه، فأجابتها: لأجعلنَّها خادمةً لي. ثم طلبت من ابنها عمرو بن هند أن يدعو عمرو بن كلثوم وأمه لزيارتهم فكان ذلك. وأثناء الضيافة حاولت أم الملك أن تُنْفذ عهدها؛ فأشارت إلى جفنةِ طعامٍ وقالت: يا ليلى ناوليني تلك الجفنة، فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فلمّا ألحّت عليها ــ ولعلّها أهانتها ــ صرخت: يا ويلتاه، يَا لَذُلَّ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تغلب! فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم وكان جالساً مع عمرو بن هند، فقام إلى سيف معلق وقتله به، ثم أَمَرَ رجاله خارج القصر فقاموا بنهبه.

فانظر كيف تفعل الأنفة والحمية العربية صانعة مجد فرسانها، وللأسف والعجب أن نرى ونسمع أن بعض العرب العرباء ذووا العزة القعساء قد انتحلوا مذهباً رديئاً خسيساً يبيحُ عرض أحدهم وشرفه بما أسموه المتعة! فيا لَلعار والشنار!

ولمّا حارب بنو تغلب المنذر بن ماء السماء لحقوا بالشام خوفاً منه، فمرّ بهم عمرو بن أبي حجر الغسّاني فلم يستقبلوه. وركب عمرو بن كلثوم فلقيه، فقال له الملك: ما منع قومك أن يتلقوني؟ قال: لم يعلموا بمرورك. فقال: لئن رجعت لأغزونّهم غزوة تتركهم أيقاظاً لقدومي. فقال عمرو: ما استيقظَ قوم قط إلاّ نَبُلَ رأيهم وعزّت جماعتهم، فلا توقظن نائمَهُم. فقال: كأنك تتوعّدني بهم، أما والله لتعلمنّ إذا نالت غطاريف غسّان الخيل في دياركم أن أيقاظ قومك سينامون نومة لا حلم فيها تجتثُّ أصولهم وينفى فلُّهم إلى اليابس الجرد والنازح الثمد. فرجع عمرو بن كلثوم عنه وجمع قومه وقال:

ألا فاعلمْ أبيتَ اللعنَ أنّا ... على عمدٍ سنأتي ما نريدُ
ستعلمُ أنّ محملنا ثقيلٌ ... وأنّ زِنادَ كبَّتنا شديدُ
وأنّا ليس حيٌّ من مَعِدٍّ ... يوازينا إذا لُبسَ الحديدُ

فلما عاد الحارث الأعرج غزا بني تغلب، فاقتتلوا واشتد القتال بينهم،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم انهزم الحارث وبنو غسّان، وقُتِلَ أخو الحارث في عدد كثير، فقال عمرو بن كلثوم:

هلاّ عطفتَ على أخيكَ إذا دَعَا ... بالثَّكْلِ ويل أبيك يا ابنَ أبي شَمِرْ

قذفَ الذي جشّمت نفسك واعترف ... فيها أخاك وعامر بن أبي حُجُرْ

ثم أخذ صاحبي يردد بصوت شجي حزين بيتي هاشم الرفاعي الذين طالما رددناهما قديمًا من قصيدته السائرة من خلف القضبان «رسالة في ليلة التنفيذ» ـ ولا أدري ما الذي خطرهما بباله، ويا لهذه الخواطر ما أهجمها على الغافلين! ـ:

لم تبق إلا ليلة أحيا بها ... وأحسُّ أن ظلامها أكفاني

سَتَمُرُّ يا أبتاه لست أشكُّ في ... هذا وتحمل بعدها جثماني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٦

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ..

هل يتسع القلب لحبيبتين؟ هذا سؤال وجده صاحبي مكتوباً في ورقة صفراء باهته، قد بلتها الشمس والريح والماء وأكلت أطرافَهَا، وتحت هذا السؤال رُسِمَتْ يمامتان وادعتان، والذَّكرُ منهما يفتلُ ريش الأنثى من أعلى رأسها، وقد رَنَتْ لصدره في مشهدٍ غاية في الرقة، وكأن السائل أجاب حروفه بريشته لا بقلمه!

ناولني صاحبي الورقةَ قائلاً ما تقول؟ فقلت: على مذهب اليمام لا يجوز، لكن على بني الإنسان نعم! فقد عرفنا كثيراً من الرجال أحبوا أكثر من امرأة في وقت واحد، وهو غير ممتنع لا شرعاً ولا عقلاً ولاحساً، لكن تأبى ذلك الغواني اللطيفات والخرائد المرهفات، فيقلن: القلب مسكنُ واحدة، فإن شُوركت فَسَدَ الحب.

والتحقيق: أن حب العشير التام يستغرق القلب، فلا يتسع في العادة لغيره، أما الوداد العادي والمحبة الطبيعية فلا تمنعان الشركة بين اثنتين بل أربع! فإن كان ثمّت واحدة غالبة على القلب؛ فنصيب الأخريات ينقص بحسب ما سلبت من نصيبهن من الوداد. كما أن كُرورَ الأيام وتتابع الليالي مُغرٍ بإعماق المحبة والوداد، وإحياءِ جذوة جمرة الحب الأولى مرة بعدَ مرات،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد تذكو حيناً وتخمد أُخَر. ومناطُنَا هنا هو المحبة النفسانية، أما الشهوانية فلا حدّ لها. قال البحتري الطائي:

وكنت امرأً بالغورِ مني صريمة ... وأخرى بنجدٍ ما تعيدُ ولا تُبدي
فطوراً أكرّ الطرْفَ نحو تهامةٍ ... وطوراً أكرّ الطرف كراً إلى نجدِ
وأبكي إذا فارقت هنداً صبابةً ... وأبكي إذا فارقت دعداً على دعدِ

وقبله قال جرير الخطفي اليربوعي ولعل اسم محبوبته خالدة فَرَخّمَهَا إلى خالد، مع صحة تأنيث خالد كناهد:

أخالدَ قد عَلِقتُكِ بعد هندٍ ... فشيَّبَتْنِي الخوالدُ والهنودُ
هوىً بتهامةٍ وهوى بنجدٍ ... فقتّلَنِي التهائم والنجودُ

وقال جرير كذلك:

إلى الله أشكو أن بالغورِ حاجةً ... وأُخرى إذا أبصرتُ نجداً بداليا

ثم أخذنا العُصيَّ فتجوَّلْنا على الأقدام، فقلت له: هل من أبيات غائرة في الجزالة، عاليةٍ في الحسن، تكون مثنى أو فرادى، أين نفاضة جرابك؟

ولما كان صاحبي لوذعيّاً ألمعياً أحوذيّاً، حاذقاً حسن التأمل في دقائق المحاسن ولطائف الشمائل، فهو من ذلك في أرفع المراتب؛ لم أعجب من حُسْنِ ردِّه الوافي إذ قال: خُذْهَا تقطرُ فتيتَ المسك وخالص العنبر، فمن ذلك قول لبيد:

وجلا السيولَ عن الطُّلول كأنّها ... زُبُرٌ تَجِدُّ متونَهَا أقلامُهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالسيل حين كشف عن الأطلال؛ صارت كأنها كتاب قد انمحى بعضه فأُعيد عليه وترك ما تبيّن منه، فالسيل هو القلم والأطلال هي الكتاب الباهت. وهذا البيت من بيت عجائب الشعر، وقد كان الفرزدق يسجد إذا أنشده، ويقول: إنا لنعرف مكان السجود من الشعر كما تعرفونه في القرآن! وهذا من رِقَّةِ دينه، فالقرآن لا يُضاهى، لاهُمَّ إن قصد السجود لله شكراً على ما أفرح وأسعد بإلهام المعاني الفائقة، وتسهيلها بالألفاظ الرائقة، وهذا من أعظم نعيم الدنيا عند أولئك القوم!

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: أمير الشعراء العصريين أبو الطيب، وأميرُ شعره قصيدته التي مطلعها:

مَـنِ الجـآذِرُ في زِيّ الأعَارِيـبِ ... حُمْـرَ الحِـلَى وَالمَطَايَـا وَالجَلابيـبِ

وأميرُ هذه القصيدة قوله:

أَزُورُهـمْ وسـوادُ الليـلِ يشفعُ لي ... وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغري بِي

وقال الخوارزمي كذلك: أغزلُ بيت للعصريين قولُ أبي الطيّب:

قد كنتُ أُشفقُ من دمعي على بصري ... فـاليومَ كـلّ عزيـزٍ بعـدكم هَانـا

ومن غرر أبياته اليتيمات قوله:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أَنْ يَرَى ... عـدوّاً لـه مـا مـن صـداقتِهِ بُـدُّ

وأنشد أبو الشيص الخزاعي، في معنًى فخم مبتكر:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنْتَ فليسَ لي ... متـــأخَّرٌ عنـــه ولا مُتَقَـــدَّمُ
أَجِـدُ الملامـةَ في هـواكَ لذيـذةً ... حُبَّـاً لـذكركَ فليَلُمْنِـي اللُّـوَمُ

وقال عبد الله بن علقمة:

أَثيبي بِودٍّ قبلَ أن يَشْحَطَ النَّوى ... وَتَنْأَى الليالي بالحبيبِ المفارقِ

أما عروة بن الورد فهو أمير الصعاليك، وكان لا يُغِيرُ إلا على البخلاء الأشحّاء دون الكرماء الأسخياء، ثم يفرّقُ سَلَبَهُ على الفقراء، فسُمّي عروة الصعاليك وهم الفقراء، لذلك فعروة سابق لروبن هود اللص النبيل، ومن أحسن شعره المعبّر عن ذلك:

إني امـرؤٌ عـافى إنـائيَ شرْكَـةٌ ... وأنـت امـرؤٌ عـافى إنـاؤكَ واحـدُ
أَتهـزأُ مِنِّـي أَنْ سَـمِنْتَ وأن تَـرَى ... بجسمي شحوبٌ الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أُفَـرِّقُ جِـسْمِي في جسومٍ كثيرةٍ ... وَأَحْـسُو قَـراحَ المـاءِ والمـاء بـاردُ

كذلك تأمل حكمة عنترة في لاميته في عبلة ابنة عمّه فهي قريبة من هذا السبيل:

بَكَـرَتْ تُخَـوِّفُنِي الحتـوفَ كـأنَّني ... أصبحتُ عن غَرَضِ الحتوفِ بمعزلِ
فأجبْتُهَـــا إن المنيـــةَ منهـــلٌ ... لا بـد أن أُسـقى بكـأسِ المنهـلِ
فَـاقْنِي حياءكِ لا أبالـك واعلمي ... أَنِّي امـرؤ سـأموتُ إن لم أقتـلِ

فعنترة قد جمع إلى المروءة الفروسية الحسية والمعنوية، وانظر لوصفه عفته:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأغضُّ طرْفي إن بدتْ ليَ جارتي حتَّى يوارِي جارتي مأواها
إني امرؤٌ سمْحُ الخليقة ماجدٌ لا أتبعُ النَّفس اللجوجَ هواها

أما الأعشى فهو أحد أشعر العرب العرباء، وهو أحد أصحاب المعلّقات، وتسمّى المُذهبات، ويزعمون أنها كتبت بماء الذهب ثم عُلّقت في جوف الكعبة ولا يصح هذا الزعم البتة، فكتاب العرب لسانهم وقريحة محفوظهم، كما ليسوا بأهل ثراء حتى ينهجوا بها كظرفاء الملوك. ومن غُرَر قريضه:

قالوا الركوبَ فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نُزُلُ

وذكروا أن بيته هذا هو أشجع بيت قالته العرب، فهم يحسنون الطعان فرساناً وراجلة، وقد نشأوا عليه. والأعشى وُصف بقولهم: كان إذا مدح رفع، وإذا هجا وضع! وقال يسخر ويتوعد كسرى قبل يوم ذي قار:

واقعُدْ عليكَ التاجُ معتصباً به لا تطلبنّ سوامَنا فتُعَبَّدَا

والسوام هي الإبل الراعية ويقال لها سائمة، والمقصود ديار العرب.

أما زهير بن أبي سلمى فهو شاعر الحكمة والتأملات ومدح الفضائل، وله أبيات في الحكمة يحفظها العامّة إلى هذا الزمان. وهو والد كعب صاحب البردة، وهو مُعلّم الحطيئة الشعر، وقد كانت له في الشعر مدرسة خاصّة ولعله أخذها عن أستاذه أَوْس بن حَجَر التَّمِيمي القائل:

أَيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعاً إِنَّ الذي تَحْذَرِينَ قد وَقَعا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنّ الـذي جَمَّـعَ الـسَّماحَةَ والنَّـ ـجَدَةَ والبَـأْسَ والنَّـدَى جُمَعـا
الأَلْمَعِـيُّ الـذي يَظُـنُّ بِـكَ الـظَّـ ـنَّ كـأنْ قـد رَأَى وقَـدْ سَـمِعا

وزهير هو صاحب الحوليات، إذ ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ثم يُدَقِّقُها أربعة أشهر، ثم يعرضها على شعراء قومه أربعة أشهر، فإذا كان رأس الحول صدح بها في عكاظ، فطارت بها العرب. وكان الحطيئة يقول ـ ولعله يعني شعر أُستاذه ـ: خير الشعر الحولي المحكّك. ومن حسين شعر زهير:

تـداركْتُمَا عبْـساً وذُبيـانَ بعـدما تفـانوا ودقـوا بينهم عطـرَ منشمِ
وما الحرب إلا ما عرفْتُمْ وذقتُمُ وما هـوَ عنها بالحديثِ المرجَّمِ
متـى تبعثوهـا تبعثُوهـا ذميمـة وتَـضْرَ اذا أضريتموهـا فتـضرمِ

وقال في هَرِم بن سنان:

ولأَنت تفري ما خلقت وبعض القـوم يخلـق ثـم لا يفـري

ومعنى يخلق يقدّر. ومعنى يفري يقطع. فهو إذا عَزَمَ فَعَلَ ولم ينثنِ.

وقال زهير في حصن بن حذيفة:

وأبـيضَ فيَّـاضٍ يـداهُ غمامـةٌ عـلى معتَفِيـهِ ماتُغـبّ فواضـلُه
تـراهُ اذا مـا جئتَـهُ مـتهَلِّلاً كأنَّـك تعطيـهِ الـذي أنـتَ سائلُه

والمُعتف هو السائل. ومعنى تغب أي تنقطع. وقال أيضاً:

وهـل يُنبـتُ الخطّـيَّ إلا وشيجَهُ وتغـرسُ إلا في منابتهـا النخـلُ

وقال أبوالطيب:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن ينفق الساعاتِ في جمعِ مالِهِ ... مخافةَ فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

وقال النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرءِ مذهبُ
وإنَّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ
ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً ... ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ
ولستَ بمستبق أخاً لا تلمنَهُ ... على شعثٍ أيّ الرجال المهذبُ

والسُّورة هي المنزلة. وإذا أُطلق النابغة فهو الذبياني لأن هناك نوابغ سواه، وأطلقوا عليهم ذلك لأنهم نبغوا في الشعر بعد الأربعين، وقال في قصيدته العينيَّة في اعتذاره للنعمان بن المنذر، وهو تشبيه لم يُسبق إليه ولم يُلحق بمثله:

فإنَّكَ كالليلِ الذي هو مُدركِي ... وإن خِلْتُ أن المُنْتَأَى عَنْكَ واسعُ
أَبَى اللهُ إلا عدله ووفاءهُ ... فلا النكْرُ معروفٌ ولا العرفُ ضائعُ

وفي مدح الغساسنة ينشد، وقد نقل أخيلته غير واحد من الشعراء:

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ ... بهن كلومٌ بين دام وجالبِ
ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم ... بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ

ولعامر المحاربي، في معنىً بديع جداً:

وكنا نجوماً كلما انقضَّ كوكبٌ ... بدا زاهرٌ منهن ليس بأقتما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال طُفيل الغنوي في نفس معنى المحاربي ولعلّه أجود:

نجومُ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ ... بدا ساطعاً في جِندِس الليل كوكبُ

ولعنترة، وتأمل تشبيهه العجيب للذباب حينما يَحُكُّ يديه في بعضهما بِرَجُلٍ أجذم يحاول قدح الزناد بذراعيه، وهذا من روائع التشبيه:

فترى الذبابَ بها يُغَنِّي وحده ... هزِجاً كفعلِ الشَّارب المترنِّمِ

غَرِداً يحكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ ... فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجذمِ

ثم قال: هل أُنبئك بخبر ابن عجلان؟ قلت: حيّهلاً بكما!

فقال: ذكروا أن عبد الله بن عجلان النَّهدي القضاعي، صاحب هند النهدية، وهو أقل العشاق أياماً، خرج يوماً إلى شعب في نجد ينشد ضالَّةً، فشارف على ماء نهر يقال له غسّان، فلما علا ربوة تُشْرِفُ عليه إذ بنات قد خلعن ثيابهن يغتسلن في الماء، فَكَمِنَ ينظر مستخفياً، فخرجن حتى بقيت هند وكانت طويلة الشعر، فأخذت تمشطه وتسرحه وتسبله على بدنها، وهو يتأمل شفوف بياض جسدها من خلال سواد شعرها، فتمكَّن الهوى من سويدائه، فنهض ليركب راحلته فعجز وأُقْعِدَ ساعةً مبهوتاً مما جرى من عقره، فلم يستطع ركوب ناقته بعدما كانت تصف أمامه ثلاث رواحل فيقفزها ويرتحل الرابعة، فقال وقد عرف ما داخله من الحب الذي اعجزه وعطل حركته:

لقد كنتُ ذا بأسٍ شديدٍ وهمَّةٍ ... إذا شئتُ لَمْساً للثُّريا لمستُهَا

أتَتْنِي سهامٌ من لحاظٍ فأرشقتْ ... بقلبي ولو استطيعُ رددتُّهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم قال: هذه والله الضالة التي لا ترد، فخطبها إلى أبيها فزوَّجه، ومضى عليهما ثمان سنين في أحسن مقام وأهنأ حال، ولما لم تحبل منه أراد والده تزويجه فأبى، فلما ألحَّ عليه عرض عليها أن يأخذ غيرها، فأبت أن تكون مع أخرى، ثم إنه سَكِرَ يوماً فجمع أبوه وجوه الناس وطلبوا إليه فراقها فطلقها في حال سكره، فلما أفاق احتجبت عنه، وزُوّجت بَعْدُ لغيره، فذاب حاله كمداً، فمات عشقاً قبل الفيل بأربع سنين.

وقيل: إنه ذهب إليها في مضارب زوجها، وكان من بني نمير، فرآها جالسة في حوض فدنا منها فتعانقا وسقطا ميتين.

وبعض أخبار العشاق ومصارعهم هي من نسج أخيلة الرواة، وتمليحات القُصَّاص، ولكن لا علينا لئن كان صدقاً فليس بمستغرب، فلنعش جَوّهم العطريّ قليلاً، ولنَمْتَع فيه خطانا، ولنُمَتِّع به أرواحنا، فالخيال عند أهل الفن أجدى من الواقع وأمتع، فأحلام اليقظة والمنام تنفيس من كُربات الأيام، وإن كانت الحقائق بخلافها!

وما كُلُّ دارٍ أقفرتْ دارةُ الحِمى ... ولا كُلُّ بيضاء الترائبِ زينبُ

وقد ذكروا أن ابن المولى الشاعر المدني وكان موصوفاً بالعفة وطيب الإزار، فأنشد عبد الملك شعراً له من جملته:

وأَبكي فلا ليلى بكتْ من صبابةٍ ... لباكٍ ولا ليلى لِذِي البذل تبذلُ

وأخنعُ بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذْنباً ... وإن أذنبَتْ كنتُ الذي أتنصَّلُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال عبد الملك: من ليلى هذه؟ إن كانت حرّة لأزوجنّكها، وإن كانت أمة لأشترينها لك بالغة ما بلغت! فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنتُ لأصعّر وجه حرٍّ أبداً في حُرّتِه ولا في أمته، وما ليلى التي أَنِسْتُ بها إلا قوسي هذه، سمّيتها ليلى لأن الشاعر لا بد له من النسيب.

ومن مشاهير العشاق كذلك ذو الرمة التميمي وصاحبته مَيّ، كذلك مالك أخو ذي الرمة وصاحبته جنوب الجعدية، وابن علقمة القحطاني وصاحبته حبيش الخريمية، والمُرَقّشُ الأكبر الضَّبعي وصاحبته أسماء، وهي ابنة عمة ومات من حبها بعد زواجها من غيره، ونصيب الزّنجي وصاحبته زينب الكنانية، وعتبة بن الحباب الأنصاري وصاحبته ريّا بنت الغطريف السللي، وكعب الطائي وصاحبته ميلاء ابنة عمه، والصّمة القشيري التغلبي وصاحبته ريا ابنة عمه، نعوذ بالله من نار الهوى.

وقد أحسن بَشّار ثم أحسن في صيد طريدةِ حُسْنِ التشبيه إذ قال:

أقــولُ ولَيْلَتِــي تَــزْدادُ طُــولاً ... أمــا لِلَّيْــلِ بَعْــدَهُمُ نَهــارُ
جَفَتْ عَيْنِي عن التَغْمِيضِ حتَّى ... كــأَنَّ جُفُونَهــا عَنْهــا قِــصارُ
كــأَنَّ جُفُونَهــا كُحِلَــتْ بِــشَوْكٍ ... فَلــيْسَ لِوَسْــنَةٍ فِيهــا قَــرارُ

ومِن فَخَارِ الفرزدق الفاخِرِ:

يختلف النـاسُ مـا لم نجتمْـع لهـمُ ... ولا خـلافَ إذا مـا أجمعـتْ مُـضرُ
فينـا الكواهـلُ والأعنـاقُ تقـدُمها ... فيها الرؤوسُ وفيها السَّمعُ والبصرُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمـا الملـوكُ فإنـا لا نلـين لهـم حتى يلينَ لضرس الماضِغ الحجرُ

وبينا نسيرُ في الصَّحصحان عَنَّتْ على مَدِّ النظر تَبَّةٌ حمراء مشرفة على قاع مخضرٍّ فيه ألون الربيع فأضحى مرجاً رائقاً، فبلغنا التبّة وجلسنا عليها بين ثمامتين سلِمَتَا من مشافرِ النِّيب، مشرفين على ذلك المرج الذي يشرح الصدر منظره وهواؤه، فقلت: حدّثني عن نبات نجد الذي تغنّت به الأعاريب. فمدَّ يده لثمامة على يساره فكسر منها عوداً ولاكه بين أسنانه كهيئة المُتَطَعِّم المُتذوّق ثم لفظه وقال: نبدأ بهذا الثُّمام، وهو كما ترى نبْت ضعيف قصير لا يَطُول، وخُوصُهُ السَّلَب، يقال: أسلب الثّمام إذا أخرج خوصه. والناصِفَة الأرضُ التي تُنْبِتُ الثُّمَامَ وغيرَه. ويسمى الثمام الجَلِيل، وقد تمثّل بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أصابته حمى يثرب:

ألاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أبِيتَنَّ لَيْلَة بِوَادٍ وحَوْلِي إذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وهل أَرِدْنَ يَوْمًا مِياهَ مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لِي شامةٌ وطَفِيلُ

وقد ذكر الإذخر، ويسميه بعضهم السّاف، وهو نَبْتٌ طَيِّبُ الرّائِحَةِ؛ أما شامَة، وطَفِيل فهما جَبَلان مُشْرِفان على مَجَنَّة. وعندَ مَجَنَّة كانت تُقامُ سوقٌ للعَرَبِ فى الجاهِلِيّة. وقال الأَصْمَعِيّ: كانت بمَرِّ الظَّهْران، وهو وادي فاطمة حالياً. وكانت سوقُ مَجَنَّة تُقام عَشْرةَ أيّام من آخِر ذى القِعْدَة، وبعضهم يذكر أنه مجنة جنوب مكة، وقَبْلَها سوق عُكاظ شرقيَّ الطائف مما يلي نجد شمال جبل حضن، بجوار عُشَيرَة والعَرْفَا حالياً.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن نبات أرض العرب النَّصِيُّ وهو نَبْتٌ سَبْطٌ أبيضُ ناعِمٌ من أفضل المَرْعَى. ولا تسل عن جماله إذا تمايل وعكس بقدّه ضياء الشمس عند الأصيل كأنه مرآة صافية تعكس ضوء الشمس.

ومن نباتها العَرَار، وطالما تغنى به الشعراء: وهو نبات نجديّ واحدته عرارة، ولها وردة ناعمة صفراء طيّبة الرَّائحة، قال الصِّمَة بن عبد الله القُشَيْري:

أقولُ لِصَاحبي والعِيسُ تَهْوِي ... بِنَا بَيْنَ المُنِيفَةِ فالضِّمَار

تمَتَّعْ مِنْ شِميم عَرَارِ نجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ من عَرَارِ

ألا حَبَّذَا نفحاتُ نجدٍ ... وريـاً روضه غبَّ القطارِ

ومن نباتها الأُقْحوان، واحدته أقحوانه والجمع أقاحي، وهو نبت معروفٌ لا يكاد يخلو منه بلد ولا سهل ولا وَهَدٌ، وهو من نبات الربيع، طيب الرائحة خفيفها، أبيض النور، في وسطه دائرة صغيرة صفراء، وأوراق زهره مفلجة صغيرة، ناصعة البياض جداً يشبهون بها الأسنان، وهي زهرة في غاية الحسن والرقة والجمال واللطافة، وتسمّى القُرَّاص والقُحوان، وعند المصريين حوان، أما الفرس فيسمونه البَابُونَج .

وقد أحسن ظافر بن القاسم في قوله:

أنظر فقد أبدى الأقاحي مبسماً ... يفترّ ضحكاً فوق قدٍّ أملدِ

كفصوص درٍّ لطفت أجرامه ... وتنظمت من حول شمسة عَسْجَدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن نبات بلاد العرب الأراك، وهو من شجر تهامة، ومن خير المراعي، وهو معدود من شجر الحمض، ويُستاك بقضبانه، واحدته أراكة، والبَرِيرُ ثَمَره، فإذا اسْودّ وبلغ قيل له: الكَبَاث، أما جذوره فهي خير المساويك، واحدها مسواك الأراك. وفي الصحيحين عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمرِّ الظهران نجني الكَبَاث، فقال: «**عليكم بالأسود منه، فإنه أطيب**» فقلت: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «**نعم، وهل من نبيٍّ إلا رعاها**» ويروون عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تستاك بالأراك، فتناوله منها ثم خاطبه مُشَبِّباً بالزهراء:

حُظيتُ يا عودَ الأراك بثغرِهَا ... ما خِفْتَ يا عُودَ الأراكِ أراكا

لو كنتَ من أهل القتال قَتَلْتُكَ ... لم ينج مني يا سواكُ سواكا

ومن ظرف الحسن بن سهل ولطفه أنه كان في يده ضغث من أطراف الأراك، فسأله المأمون عنه: ما هذه؟ فقال: محاسنك يا أمير المؤمنين، تجنباً لأن يقول: مساويك. وقال إبراهيم المهدي راثياً ابنه:

سأبكيكَ ما أبقت دموعيَ والبُكَا ... بعينيَّ ماءً يا بنيَّ يُجِيبُ

وما غَارَ نجمٌ أو تغنَّتْ حمامةٌ ... أو اخضر في فرع الأراك قضيبُ

وأصاب الأبيوردي عين الجمال بقوله:

رمى صاحبي منْ ذي الأراكِ بنظرةٍ ... إلى الرَّملِ عجلى ثمَّ كرَّرها الوجدُ

وأتبعتُهَا أخرى فبي مثلُ ما بهِ ... أجلْ ما استطعتَ الطَّرفَ أسعدكَ يا سعدُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متــى طرَقَتْنِــي نفحــةٌ غَــضَوِيَّةٌ يفــوحُ بريّاهــا العَــرارُ أوِ الرَّنــدُ

والعرب إذا رأوا العرار اشتاقوا لنجد، وإن رأوا الأراك حنوا لتهامة.

ومن نبات أرضهم الشِّيح، وهو نبت سهلي رائحته طيبة قوية، وهو كثير الأنواع ترعاه الماشية. والقيصومُ قريب من الشيح، وهو نَبْتٌ طيِّبُ الريحِ ومعدود من رياحين البر، وهو خاصٌّ ببلاد العرب. ويقال لمن خلصت بدويته: فلانٌ يمضغ الشيح والقيصوم. وقال عمر بن أبي ربيعة:

إحْـدَى بُنَيَّـاتِ عَمِّـي دون منزلهـا أرضٌ بقيعانهـا القَيْصُومُ والشِّيحُ

ومن نباتها الأرطى واحدتُهَا أرطأة، تنبتُ عصيّاً من أصل واحد، تطول قدر القامة، وهي مرة تأكلها الإبل غضّةً، ويشبه الأرطى الغضا إلا أن الغضا أعظمها، ويضرب المثل بحرّ جمره، وذئبُ الغضا من أفتك الذئاب، وسمّته العرب سِيْدَ الغضا، وقالوا في المدح:

إذا سيم ريح الخَسف زَبْدٌ رأيتَه كسِيْدِ الغَضَا أرْبىَ لك المُتَظالعُ

ومن نباتها الأثلُ، وهو شجر عظيم ظليل، وجذوعه سُقُف دورهم إن كانت بقُربه، وتشبهه الطرفاء إلا أنها أصغر، والأثل هو أكبر شجر بلاد العرب مع السِّدر البرِّي. قال ذو الرمّة:

نظــرتُ إلى أظعــان مَــيٍّ كأنَّهــا ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبُه

فأسبلت العينان والصَّدر كاتمٌ بمغرورق نمَّتْ عليه سواكبُه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن نباتها الجثْجاث، وهو شجر أصْفَر مُرٌّ طيب الريح، تَسْتطيبُه العرب وتُكْثر ذكره في أشعارها، كذلك البَسْباسُ وهو طَيِّبُ الريح ويُشْبِه طَعْمُه طعم الجزر، وثالثهما الفشفاش.

كذلك الرّمث، وهو نبات سهلي من أحماض المراعي، وله أنواع عديدة، ويقال: أرض رميثة إذا كانت كثيرة الرمث. ودخان الرمث يخالط سواده بياض، وهذا اللون الرمادي يسمى الأورق، ومنه سموا الذئب أورقاً والذئبة ورقاء، ومن شَمَطَ من الرجال كانت لحيته مقاربة للون الرِّمث يابساً أو لون دخانه.

ولاحظ أن كل هذه المسميّات لنبات أرضهم قد سمّوا بها أولادهم، فسمّوا رمثة وطلحة وسمرة..وكحال بيئتهم وأدواتهم وبهائمهم فسمّوا غيثاً وحجراً وجبلاً وجملاً وأسداً وليثاً وثعلباً وسبيعًا وكلباً وثوراً وجحشاً وحماراً.. والآن: مطراً ورعداً وذئباً وصقراً وبازاً وشاهيناً وعقاباً وقعوداً ونجراً ومحماساً وفنجالاً..وفي ما ذكرت لك من النبات مقنع، فهلم فقد شارفت شمس المغيب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

صفحة بيضاء

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٧

بِقَافِيَةٍ أَنْفَاذُهَا تَقْطُرُ الدِّمَا..

كانت النار بيننا تضطرم بشعاع بديعٌ، ولها خلف صاحبي أشباح تتراقص كأنها جنيّاتٌ سَكْرَى، وقد تعمّد صاحبي أن تكون النار أكبر من المعتاد ليرمي قرصه في مَلَّتِهَا، والملّة هي التراب الحار الذي يلي النار مباشرة، ثم لم يلبث أن يُبَبِّسَ أطراف العجين بعودٍ يمرّره عليه، ثم برّح له في الملّة، ثم ألقاه مثيراً بعض الرماد، بعد ذلك دفنه ببقية الملّة دفناً رقيقاً، ثم أعاد شيئاً من الجمر فوقها حتى تأتي الحرارة من أسفل القرص وأعلاه. فَعَلَ ذلك وهو ينقل بقية جمرات ناره الأولى وخشبها لطرف المجلس الآخر، وقد قرّب للنار إبريقاً قد انتصف من حليب النّوق، وقد ذرَّ عليه القليل من الزنجبيل والفلفل الأسود..ثم قال وهو ينفخ النار التي تفرّقت عن لحيته: حدّثني عن توبة وصاحبته.

قلت ــ وفي علمي أنّه أدرى بخبرهما مني، لكن طِيْبَ المعشر وحبَّ سماع الأخبار من غيره هيّجاه على ذلك ــ: على الرحب يا محب، فحديث المحبين تميل النفوس بأعماقها إليه، وتلقي القلوب بأزمّتها عليه، وقد ذكروا أن توبة بن الحميِّر الخفاجي العامري، وهو أحد مشاهير عشاق العرب وفرسانهم وشجعانهم، وصاحبته هي ليلى الأخيلية العامرية الشاعرة. وقد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أحب ليلى وبادلته حباً، وشبّب بها، ولم يظفر بها بل زوجوها من غيره، فضعف حاله وسقم حتى هلك قتيلاً على نهاب إبل! ومما قال فيها:

ولو أنَّ ليلى الأخيلية سلَّمتْ ... عليَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ

لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقَا ... إليها طائرٌ من جانب القبر صائحُ

ويزعم ظرفاء القصاص أن ليلى الأخيلية مرّت وزوجها بقبره، فقال زوجها متهكّماً: سلِّمِي عليه حتى أرى كذبه، فسلّمت فطار طير من جانب قبره وصاح، فاضطربت الناقة فسقطت ليلى واندق عنها فدفنت بجانبه! وفي توبة تقول ليلى:

أقسمتُ أبكي بعدَ توبةَ هالكاً ... وأحفلُ من دارتْ عليهِ الدوائرُ

لَعَمْرُكَ ما بالمَوْتِ عارٌ على الفَتَى ... إذا لَمْ تُصِبْهُ في الحَياةِ المَعايِرُ

وما أَحَدٌ حَيٌّ وإنْ كان سالماً ... بأَخْلَدَ مِمَّنْ غَيَّبَتْهُ المَقابِرُ

ومَن كان مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جازِعاً ... فلا بُدَّ يوماً أَنْ يُرَى وهُوَ صابِرُ

وليس لِذي عَيْشٍ من المَوْتِ مَهْرَبٌ ... ولَيْسَ على الأَيَّامِ والدَّهرِ غابِرُ

وكُلُّ جَدِيدٍ أو شَبابٍ إلى بِلىً ... وكُلُّ امْرِئٍ يوماً إلى الله صائِرُ

فأُقْسِمُ لا أَنْفَكُّ أَبْكِيكَ ما دَعَتْ ... على فَنَنٍ وَرْقاءُ أو طارَ طائِرُ

وذكروا أن توبة كان قد رحل إلى الشام، فمر ببني عذرة فرأته بثينةُ جميل، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا توبة بن الحميّر، فقال: هل لك في الصراع؟ فقال: ذلك إليك، فنبذت إليه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بثينة ملحفة مورَّسة، فاتزر بها، ثمَّ صارعه فصرعه جميل، ثمَّ سابقه فسبقه جميل، فقال: يا هذا، إنما تفعل هذا بريح هذه، ولكن اهبط بنا الوادي، فهبطا فصرعه توبة وسبقه، وهذا من كريم شمائله، فلم يرد أن يكسره أمام محبوبته.

وأمير شعر توبة قصيدته التي يقول فيها:

نأتكَ بليلى دارُها لا تزورُها ... وشطَّتْ نواها واستمرَّ مريرُها
وقالَ رجالٌ لا يضيركَ نأيُها ... بلى كلُّ ما شفَّ النّفوسَ يضيرُها
أليسَ يضيرُ العينَ أن تردَ البُكى ... ويمنعَ منها نومُها وسرورُها
أرى اليومَ يأتي دونَ ليلى كأنَّما ... أتى دونَ ليلى حِجَّةٌ وشهورُها
خليليَّ روحَا راشدينَ فقد أتتْ ... ضريَّةُ من دونِ الحبيبِ ونِيْرُها
وقد تذهبُ الحاجاتُ يطلبُها الفتى ... شعاعاً وتخشى النَّفسُ ما لا يضيرُها
وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تبرقعتْ ... فقد رابَني منها الغداةَ سفورُها
وقد رابَني منها صدودٌ رأيتهُ ... وإعراضُها عن حاجتي وبسورُها
ولو أنَّ ليلى في ذُرى متمنّعٍ ... بنجرانَ لا التفَّتْ عليَّ قصورُها
يقرُّ بعيني أن أرى العيسَ تغْتَلي ... بنا نحو ليلى وهي تجري ضفورُها
أرتْنا حياضَ الموتِ ليلى وراقَنا ... عيونٌ نقيَّاتُ الحواشي تديرُها
ألا يا صفيَّ النَّفسِ كيفَ تقولُها ... لوَ انَّ طريداً خائفاً يستجيرُها
أظنُّ بها خيراً وأعلمُ أنَّها ... ستنعمُ يوماً أو يُفادى أسيرُها
وقالتْ أراكَ اليومَ أسودَ شاحبا ... وأنَّى بياضُ الوجهِ جرَّتْ حَرورُها
حمامةَ بطنِ الواديينِ ترنَّمي ... سقاكِ من الغرِّ الغوادي مطيرُها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أبينـي لنـا لا زالَ ريـشكِ نـاعماً ... ولا زلـتِ في خـضراءَ جـمٍّ نـضيرُها
وقـد زعمـتْ لـيلى بـأنِّيَ فـاجرٌ ... لنفـسي تُقاهـا أو عـليَّ فجورُهـا
فقـلْ لعقيـلٍ مـا حـديثُ عـصابةٍ ... تكنَّفهـا الأعـداءُ نـاءٍ نـصيرُها
فـإلاّ تنـاهَوا تركـب الخيـلُ بيننـا ... وتُـركُضْ برجـلٍ أو جنـاحٍ يطيرُهـا
لعلَّـك يـا تيـساً نـزَا في مريـرةٍ ... معاقـبُ لـيلى أن تـراني أزورُهـا
وأدمـاءَ مـن سرِّ المهـارى كأنّهـا ... مهـاةُ صـوارٍ غـيرَ مـا مُـسَّ كورُهـا
قطعـتُ بهـا أجـوازَ كـلِّ تنوفـةٍ ... مخـوفٍ رداهـا حـينَ يـستنُّ مورُهـا
يـرى ضـعفاءُ القـومِ فيهـا كـأنَّهمْ ... دعـاميصُ مـاءٍ نـشَّ عنهـا غـديرُها
وقَـسورةُ اللَّيـلِ التـي بـينَ نـصفهِ ... وبـينَ العـشا قـد ريـبَ منهـا أسيرُهـا
أبـتْ كثـرةُ الأعـداءِ أنْ يتجنَّبـوا ... كـلابي حتَّـى يُـستثارُ عقورُهـا
ومـا يـشتكي جهـلي ولكـنَّ عـدَّتي ... تراهـا بأعـدائي بطيئـاً طرورُهـا

ثم قال وهو يتمايل مع أبيات توبة: لقد كان توبة معاصراً لأصحاب المربد، ولقد فاقهم في النسيب وفاقوه في الهجاء. قلت: أتعني أهل النقائض جريراً والفرزدق والأخطل؟ قال: هُم أردت. والذي شهرهم هو الهجاء، قلت فمن قدّمت منهم؟ قال: جريراً الخطفي بلا ريب، فهو النخلة السحوق، والفحل القطم، والسيل العرم، وقد كان أبوه مضعوفاً، لذا فقد كان يرتفع لبطنه بني يربوع ثم لتميم فيقوم ويعلو، إلا أن الفرزدق يردُّه لأبيه فيفقره، أما الفرزدق فقد كان يفخر بمجد أُسرته ووالده وجدّه، ثم يرتفع لبطنه بني دارم ثم يعلو إلى تميم. مع ذلك فقد كان جرير يعرف كيف يبري

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نبال الهجاء المصمِيَّة، ويدلع لسانه في هجو أبي فراس، وإن كان كلاهما من قبيلة واحدة!

وقد كان صُلبُ هجائه للفرزدق، ولم يكن أحدهما يزوَرُّ عن صاحبه، بل يصادمه بأعتى الهجاء، وأمضى رماح الكلِم. ولم يقم لجرير من الشعراء سواه والأخطل، وقد ساعد الأخطل قوّةُ وصفِهِ، وحظوته عند الملوك، وإلا فليس بقوّة الفحلين.

واسمه جرير بن عطية من بني كليب بن يربوعِ، وكان يكنى أبا حزرة. وهو من فحول شعراء الإسلام، ويشبه من شعراء الجاهلية بصناجة العرب الأعشى. وقد كان خاملاً في موطنه بالمروت من البادية ــ ويقال إنها بلدة أُثيثية في إقليم الوشم حالياً ـ ويتهاجى مع الفرزدق، ويتراسلان المغلغلات، فأرسل بنو يربوع إليه فقالوا: إنك مقيم بالمروت ليس عندك أحدٌ يروي عنك، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك منذ سبع حججٍ، قد حمّل الركبان قصائده فينا، وأنت هنا لا يحملها عنك إلا الواحد بعد الواحد، ، فانحدر من فوره إلى العراق فأشعل مربد البصرة بأهاجيه! ولذلك يقول:

وإِذا شَهِدْتُ لثَغْرِ قَوْمي مَشْهَداً آثَرْتُ ذاكَ على بَنِيَّ ومالي

وفوّق أسهمه النافذة، فلم يقم لها أحد سوى من ذكرت. وقيل إن جريراً قد أسقط في الهجاء أكثر من ثمانين شاعراً، كلهم يرميهم خلف ظهره متشحطين في نِبَالِ هجائه! وقد تهاجى والفرزدق خمسة وأربعين عاماً، مع ذلك فقد كانا صاحبين متصافيين، على ما بينهما من ضربِ قَنَا القريض.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والحقّ أن كثيراً من هجاءهما دعابات وإن لم تخل من مقاتل!

وبالجملة، فجرير أهجى الثلاثة، وهو القائل، وتأمل قعقعة السلاح فيهما مع فخامة المعاني وجزالة المباني:

وَعاوٍ عَوَى من غيرِ شيءٍ رمَيتُه ... بقافيةٍ أَنْفاذُهَا تَقْطُر الدَّمَا

خروج بأَفْوَاهِ الرِّجالِ كأَنَّها ... قَرَى هُنْدُوانيٍّ إذا هُزَّ صَمَّما

لقد لان للخطفي عَصِيُّ القريض، واستقام لقريحته معوجُّه، وقد مر راكب بالرَّاعي النميري يتغنى بهما، فقال الراعي: لمن البيتين؟ قال: جرير، قال: قاتله الله، لو اجتمعت الجن والإنس ما أغنوا فيه شيئاً. ثم قال: أُلَامُ أن يغلبني مثل هذا؟ وهذا إقرار من الراعي بأسبقية جرير. وقال كذلك:

وقُلتُ نَصَاحةً لبني عَدِيٍّ ... ثِيابَكُم وَنَضْحَ دَمِ القَتِيلِ

فقال الفرزدق: قاتله الله، إذا أخذ هذا المأخذ فما يقام له، يعني هذا الروي.

وسئل الأخطل عن نفسه وعن جرير والفرزدق فقال: أنا أمدحهم للملوك، وأوصفهم للخمر، والفرزدق أفخرنا، وجرير أهجانا وأنسبنا.

وسئل مرّة عن جرير، فقال: دعوه، فإنه كان بلاء على من صُبَّ عليه، وما أخشن ناحيته، واشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها، والشابة على أحبابها، ولقد هزوه فوجدوه عند الهراش نابحاً، ولقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحب إلي مما طلعت عليه، وهو قوله:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذا غـضبت عليـك بنـو تمـيمٍ حـسبت النـاس، كلهـمُ غـضابا

ومن ذائع قولهم: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر.

وانظر إلى تفوقه في بيته إذ يقول:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي وَعَلَى الْبعيْثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد.

وقيل لمسلم: أي الشاعرين أفضل، جرير أم الفرزدق؟ فقال: الفرزدق يبني، وجرير يهدم. وقال: بيوت الشعر أربعة: فخر، ومدح، وهجاء، ونسيب. وجرير غلب في هذه كلها. يريد بالفخر قوله:

إذا غـضبت عليـك بنـو تمـيمٍ حـسبتَ النـاس كلهـمُ غـضابا

ويريد بالمدح قوله:

ألـستمْ خـيرَ مـن ركـب المطايـا وأنـدى العـالمين بطـونَ راحِ

ويريد بالهجاء قوله:

فغـضَّ الطـرفَ إنـكَ مـن نميرٍ فـلا كعبـاً بلغـتَ ولا كلابـا

قلت: ويكفي لبني نمير أن منهم شيخ الإسلام ابن تيمية على ما ذكره تلميذ تلامذته ابن ناصر الدين وتابعه العدوي على ذلك.

ويريد بالنسيب قوله:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ العيونَ التي في طرفها مرضٌ ... قتلننا ثمَّ لم يحيينَ قتلانا

يصرعن ذا اللبِ حتى لا حراكَ به ... وهنَّ أضعفُ خلق اللهِ أركانا

وقيل لبشار: من أشعر الثلاثة؟ فقال: لم يكن الأخطل مثلهما، ولكن ربيعة تعصّبت له وأفرطت فيه، وكان لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النّوار ـ طليقة الفرزدق ـ فكانوا ينوحون عليها بشعر جرير، الذي رثى به أم حرزة امرأته، وأولها:

لَوْلاَ الحَيَاءُ لَعادَني اِستْعبارُ ... وَلَزُرْتُ قَبْرَك والحَبِيبُ يُزَارُ

ولَهَّت قَلبي إِذْ عَلَتْنى عَبْرَةٌ ... وذَوُو التَّمائمِ من بَنيك صغارُ

لا يُلْبِثُ الأَحبابَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ... لَيْلٌ يَكُرُّ عَليهمُ ونَهارُ

صَلَّى المَلاَئكَةُ الذينَ تُخَيِّرُوا ... والطَّيِّبُونَ عليك والأَبْرَارُ

فلقد أَراكِ كُسيت أَحْسَنَ مَنْظَر ... ومَعَ الجَمَالِ سَكينَةٌ ووَقَارُ

كانَتْ إِذا هَجرَ الحَبِيبُ فرَاشَها ... خُزِنَ الحَديثُ وعَفَّتِ الأَسْرارُ

ومن قول جرير في الأخطل والنصارى:

رجسٌ يكون إذا صلّوا أذانهم ... قرعُ النواقيس لا يدرون ما السّوَرُ

والمُقرعين على الخنزير شهوتَهُ ... بئس الجزورُ وبئس القوم إذ يسَروا

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا ... وهل يضير رسول الله أن كفروا

وكان من أحسن الناس تشبيباً، وقد بلغ ودق السحائب بقوله:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يـا أُمَّ عمـروٍ جـزاكِ الله مغفـرة رُدِّي عـليّ فـؤادي كالـذي كانـا
يـا حبَّـذا جبـل الريـان مـن جبـل وحبـذا سـاكن الريـان مـن كانـا

قال الأصمعي: سمعت الحي يتحدثون أن جريراً قال: لولا ما شغلني من هذه الكلاب، لشببت تشبيباً تحن منه العجوز إلى شبابها كما تحن الناب إلى سقبها.

وقال عمرو بن العلاء: كنت قاعداً عند جريرٍ وهو يملي:

ودِّعْ أَمامَـةَ حـان منْـكَ رحِيـلُ إِنَّ الـوَدَاعَ لَمَـنْ تُحـبُّ قَلِيـلُ

فمرّت به جنازةٌ، فترك الإنشاد وقال: شيبتني هذه الجنائز، قلت: فلأي شيءٍ تشتم الناس؟ قال: يبدؤونني ثم لا أعفو. وقال: لست بمُبتدئ ولكنني مُعتدٍ. يريد أنه يُسْرِفِ في القِصاص. ومثله قول الشاعر:

بني عمّنا لا تَنْطقوا الشعرَ بعدما دَفنـتم بأفنـاء العُـذَيب القَوافِيـا
فَلَسنا كَمـن قـد كنـتمُ تَظْلِمونـه فيَقْبَـل ضَـيماً أو يحكِّـم قاضـيا
ولكنّ حُكْم السيفِ فيكم مُسلَّط فنرضى إذا ما أصبح السيفُ راضيا
فـإن قلـتُم إنّـا ظَلمنـا فلـم نكُـن ظَلمنـا ولكنّـا أسـأنا التقاضـيا

وقال مروان بن أبي حفصة مبيّناً سبقه لأهل زمانه، وغلبته أهل ميدانه:

ذَهَـبَ الفَـرَزْدَقُ بالفخَـارِ وإِنـما حُلْـوُ القَـرِيض ومُـرُّهُ لِجَرِيـرِ

وحينما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة انصبّت عليه الشعراء لتمدح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتُمنح، فلم يأذن لهم بالدخول، فاستشفعوا بعدي بن أرطأة فكلّمه لهم، فسأله عنهم فقال: فمن بالباب من الشعراء؟ قال عدي: يا أمير المؤمنين، عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، فقال ـــ وتأمل نقده الديني، وهو الفيصل بلا تردّد ـ: لا قَرَّبَهُ الله ولا حياه، أليس هو القائل:

أَلاَ لَيْتَ أَنِّي حينَ تدنُو منيتي ... شَمَمْتُ الذي ما بَين عينيكِ والفَمِ

وباتَت سُلَيمَى في المنامِ ضجيعَتِي ... هنالكَ أو في جَنَّةٍ أو جَهَنمِ

فليته عدوَّ الله تمناها في الدنيا، ثم رجع إلى العمل الصالح، والله لا يدخل عليّ. فمن بالباب غيره؟ فقال: كثيّر عزة، قال: أو ليس هو القائل:

رُهبَانُ مَديَنَ والذين عَهِدتهُمْ ... يَبْكُونَ من حَرِّ العذابِ قُعُودا

لو يسمَعُونَ كما سَمِعتُ كلامَهَا ... خَرُوا لعزةَ رُكَعاً وسُجُودا

من بالباب غيره؟ قال: الأحوص الأنصاري، قال: أبعده الله وأسحقه، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل جاريته، حتى أَبَقَتْ من سيدها:

أللهُ بَينِي وَبَين سَيِّدِهَا ... يَفِرُّ مِني بِهَا وَأَتْبَعُهُ

لا يدخل علي، من بالباب غيره؟ قال: الفرزدق همام بن غالب التميمي، قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنى:

هُمَا دَلَّيَانِي مِن ثمانِينَ قَامَة ... كَمَا انْقض باز أَقتَمُ الريشِ كاسِرُهْ

فلما استوَت رِجلايَ في الأرضِ قالتا ... أَحَي يُرَجَّى أم قتيل نُحَاذِرُه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يدخل علي، من بالباب غيره؟ قال عدي: الأخطل التغلبي، قال: هو الكافر والقائل:

وَلَستُ بصائم رمَضانَ عمري ... ولَستُ بآكِل لَحمَ الأضاحي
ولست بزَاجِرٍ جَمَلا بكوراً ... إلى بطحاءِ مكة للنجاحِ
ولستُ بِقَائِمٍ كَالعَيرِ يدعُو ... قُبَيل الصبْحِ حَي عَلَى الفَلاحِ
ولكني سأشرَبُهَا شمولاَ ... وأسجُدُ عند مبتلجِ الصباحِ

والله لا وطئ لي بساطاً، من بالباب غيره؟ قال عدي: جرير بن عطية الخطفي، قال: هو القائل:

لولا مراقبَةُ العيونِ أَرَيْنَنَا ... حِدَقَ المَهَا وَسَوالِفَ الآرامِ
طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوبِ ولَيسَ ذا ... وَقْتُ الزيارة فارْجِعِي بسَلامِ

فإن كان ولا بد، فائذن لجرير، فخرج عدي فأذن له، فدخل وهو يقول:

وَسِعَ الخلائِقَ عَدْلُهُ ووقارُهُ ... حتَى ارعَوَى وأقامَ مَيْلَ المائِلِ
إِني لأَرجُو مِنْكَ خَيراً عاجلا ... فالنفْسُ مُولَعَةٌ بحُب العاجِلِ

فلما حضر بين يديه، قال له: اتق الله ولا تقل إلا حقاً، فقال:

كَم باليمامة مِن شعثاءَ أرملةٍ ... ومِنْ ضعيفٍ سقيمِ الصوتِ والنَظَرِ
مِنْ يَعُدُّكَ تكفي فَقْدَ والدِهِ ... كالفَرْخِ في العُشِّ لم يدرجْ ولم يَطِرِ
إنا لنَرْجُو إذا ما الغيْثُ أخلَفَنَا ... مِنَ الخليفةِ ما نَرْجُو من المَطَرِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَـالَ الخلافَـةَ إذْ كانَـتْ لـه قَـدَرَاً ... كـما أتـى رَبَّـهُ موسَـى عـلى قَـدَرِ
هذي الأرامِلُ قد قضَّيْتَ حاجتها ... فَمَـنْ لحاجـةِ هـذا الأَرْمَـلِ الـذَّكَرِ

وهي طويلة، فقال: والله يا جرير، ما يملِكُ عمر سوى مئة درهم، يا غلام، ادفعها له، ودَفَعَ له حليَّ سيفه، فخرج جرير إلى الشعراء، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، رجل يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني عنه لراض، وأنشأ يقول:

رَأَيْـتُ رُقَـى الـشيْطَانِ لا تـستفزّهُ ... وقد كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الجِن رَاقيا

ومما يدل على حسن ديباجته، وصحّةِ سبكه، ورقة لفظه هذه القصيدة الماتعة، (الواعرة الباهية)، وقد خَبَرتُ ذلك:

بَـانَ الخَـليطُ وَلَـوْ طُوِّعْـتُ مَـا بَانَـا ... وقطَّعُـوا مـنْ حبـالِ الوصـلِ أقرانـا
حَـيِّ المَنَـازِلَ إذْ لا نَبْتَغـي بَـدَلاً ... بِالـدارِ داراً وَلا الجِـيرَانِ جِيرَانَـا
قَدْ كنْتُ في أثَرِ الأظْعانِ ذا طَرَبٍ ... مروعـاً مـنْ حـذارِ البـينِ محزانـا
يـا ربَّ مكتئـبٍ لـوْ قـدْ نعيـتُ لـهُ ... بَـاكٍ وآخَـرَ مَـسْرُورٍ بِمَنْعَانَـا
لـوْ تعلمـينَ الـذي نلقـى أويـتِ لنا ... أوْ تَسْمَعِينَ إلى ذي العرْشِ شكوَانا
كـصاحبِ المـوجِ إذْ مالـتْ سفينتهُ ... يـدعو إلى اللهِ أسراراً وإعلانـا
يـا أيّهَـا الرّاكِـبُ المُزْجـي مَطيّتَـهُ ... بَلِّـغْ تَحِيّتَنَـا لُقّيـتَ حُمْلانَـا
بلـغْ رسـائلَ عنـا خـفَّ محملهـا ... عَـلى قَلائِـصَ لمْ يَحْمِلْـنَ حِيرَانَـا
كـيما نقـولَ إذا بلَّغـتَ حاجتنـا ... أنْـتَ الأمِـينُ إذا مُـستَأمَنٌ خَانَـا
تُهدي السّلامَ لأهلِ الغَوْرِ من مَلَحٍ ... هَيْهَـاتَ مِـنْ مَلَـحٍ بـالغَوْرِ مُهْـدانَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أحببْ إليَّ بذاكَ الجزعِ منزلةً ... بالطلحِ طلحاً وبالأعطانِ أعطانا
يا ليتَ ذا القلبَ لاقى منْ يعللهُ ... أو ساقياً فسقاهُ اليومَ سلوانا
أوْ لَيْتَهَا لمْ تُعَلِّقْنَا عُلاقَتَهَا ... غدْرَ الخَلِيلِ إذا ما كانَ ألْوَانَا
هَلا تَحَرّجْتِ مِمّا تَفْعَلينَ بِنَا ... يا أطيَبَ النّاسِ يَوْمَ الدَّجنِ أرَدَانَا
قالَتْ أَلِمَّ بِنا إنْ كنتَ مُنْطَلِقاً ... وَلا إخالُكَ بَعدَ اليَوْمِ تَلقانَا
يا طَيْبَ هَل من مَتاعٍ تمتِعينَ به ... ضيفاً لكمْ باكراً يا طيبَ عجلانا
ما كنتُ أولَ مشتاقٍ أخي طربٍ ... هَاجَتْ لَهُ غَدَوَاتُ البَينِ أحْزَانَا
يا أمَّ عمروٍ جزاكَ اللهُ مغفرةً ... رُدّي عَلَيّ فُؤادي كالّذي كانَا
ألستِ أحسنَ منْ يمشي على قدمٍ ... يا أملحَ الناسِ كلَّ الناسِ إنساناً
يلقى غريمكمُ منْ غيرِ عسرتكمْ ... بالبَذْلِ بُخْلاً وَبالإحْسَانِ حِرْمانَا
لا تأمننَّ فانيَّ غيرُ آمنهِ ... غدرَ الخليلِ إذا ما كانَ ألوانا
قد خنتِ منْ لمْ يكنْ يخشى خيانتك ... ما كنتِ أولَ موثوقٍ به خانا
لقدْ كتمتُ الهوى حتى تهيَّمَنِى ... لا أستطيعُ لهذا الحبَّ كتمانا
كادَ الهوى يومَ سلمانينَ يقتلني ... وَكَادَ يَقْتُلُنِي يَوْماً بِبَيْدَانَا
وَكَادَ يَوْمَ لِوَى حَوّاء يَقْتُلُني ... لوْ كُنتُ من زَفَرَاتِ البَينِ قُرْحانَا
لا بَارَكَ الله فيمَنْ كانَ يَحْسِبُكُمْ ... إلاّ عَلى العَهْدِ حتى كانَ مَا كانَا
من حُبّكُمْ فاعلَمي للحبّ منزِلةً ... نَهْوَى أمِيرَكُمُ لَوْ كَانَ يَهوَانَا
لا بَارَكَ الله في الدّنْيَا إذا انقَطَعَتْ ... أسبابُ دنياكِ منْ أسبابِ دنيانا
يا أمَّ عثمانَ إنَّ الحبَّ عنْ عرضٍ ... يُصبي الحَليمَ ويُبكي العَينَ أحيانا
ضَنّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنَا شَرَعاً ... تَشفي صَدَى مُستَهامِ القلبِ صَديانَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كيفَ التّلاقي وَلا بالقَيظِ مَحضَرُكُم ... مِنّـا قَرِيـبٌ وَلا مَبْـداكِ مَبْـدَانَا
نَهوَى ثرَى العِرْقِ إذ لم نَلقَ بَعدَكُمُ ... كـالعِرْقِ عِرْقـاً وَلا الـسُّلاّنِ سُـلاّنَا
ما أحْدَثَ الدّهْرُ ممّا تَعلَمينَ لكُمْ ... للحَبْـلِ صُرْمـاً وَلا للعَهْـدِ نِـسْيَانَا
أبُـدّلَ اللّيـلُ لا تـسرِي كَوَاكبُـهُ ... أمْ طالَ حتى حسبتُ النجمَ حيرانا
يـا رُبّ عائِذَةٍ بـالغَوْرِ لَـوْ شَـهدَتْ ... عـزّتْ عليهـا بِـدَيْرِ اللُّـجّ شَـكْوَانَا
إنّ العُيُـونَ التـي في طَرْفِهـا حَـوَرٌ ... قتلننـــا ثـــمَّ لمْ يحيـــينَ قتلانـــا
يَصرَعنَ ذا اللُّبّ حتى لا حَرَاكَ بهِ ... و هـنَّ أضـعفُ خلـقْ اللهِ أركانـا
يـا رُبّ غابِطِنَـا لَـوْ كـانَ يطلُـبُكُم ... لاقَـى مُباعَـدَةً مِـنْكمْ وَحِرْمَانَـا
أرَيْنَـهُ المَـوْتَ حتـى لا حَيَـاةَ بِـهِ ... قَـدْ كُـنّ دِنّـكَ قَبـلَ اليَـوْمِ أدْيَانَـا
طارَ الفؤادُ معَ الخودِ التي طرقتْ ... في النـومِ طيّبـةَ الأعطـافِ مبـدانا
مثلوجةَ الريقِ بعدَ النومِ واضعةً ... عـنْ ذي مثانٍ تمـجُ المسكَ والبانا
بتنـا نرانـا كأنـا مـالكونَ لنـا ... يـا لَيْتَهـا صَـدّقَتْ بـالحَقّ رؤيَانَـا
قالـتْ تَعَزَّفـإنَّ القـومَ قـدْ جعلـوا ... دونَ الزيـــارةِ أبوابـــاً وخزانـــا
مّـا تَبَيّنْـتُ أنْ قَـد حِيـلَ دُونَهُـمُ ... ظلّتْ عساكرُ مثلُ الموتِ تغشانا
ماذا لقيتُ منَ الأظعانِ يومَ قنىً ... يتـبعنَ مغتربـاً بـالبينِ ظعانـا
أتبعـتهمْ مقلـةٌ إنـسانها غـرقٌ ... هـلْ مـا تـرى تـاركٌ للعـينْ انسانا
يـا حبـذا جبـلُ الريـانِ مـنْ جبـلٍ ... وَحَبّـذا سـاكِنُ الرّيّـانِ مَـنْ كَانَـا
وَحَبّـــذا نَفَحَـــاتٌ مِـــنْ يَمَانِيـــةٍ ... تأتيـكَ مـن قبـلَ الريـانِ أحيانـا
هبتْ شمالاً فـذكرى مـا ذكـرتكمْ ... عندَ الصفاةِ التي شرقيَّ حورانا
هلَ يرجعنَّ وليسَ الدهرُ مرتجعاً ... عيشٌ بها طالما احلولى وما لانا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما الفخم الفاخر، الذي حفظ لنا كثيراً من لغة العرب إذ لم توجد عند غيره فهو الفرزدق، وقصائده في الشعر بموضع العذار من خد الفرس، وقريضه هو الأنف المقدّم والسنام الأكبر، والفخم الباذخ والجزل الباهر وقد فضّله جماعة على جرير وقدّموه، واسم الفرزدق همام بن غالب بن صعصة بن ناجية بن مجاشع بن دارمٍ، وكان جدّه صعصعة بن ناجية عظيم القدر في الجاهلية، واشترى ثلاثين موؤودةً إلى أن جاء الله عز وجل بالإسلام، فأسلم.

قال أبو عمرو بن العلاء: كان الفرزدق يُشبَّهُ من شعراء الجاهلية بزهيرٍ. وأما النّوار امرأة الفرزدق فهي ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي، وكان علي بن أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَجَّهَ أباها إلى البصرة أيام الحكمين، فقتله الخوارج غيلةً، فخطب النوارَ رجلٌ من قريش، وأهلها بالشأم، فبعثت إلى الفرزدق تسأله أن يكون وليها إذ كان ابن عمها، وكان أقرب من هناك إليها، فقال: إن بالشأم من هو أقرب إليك منّي، ولا آمن أن يقدم قادمٌ منهم فينكر ذلك عليّ، فأشهدي أنك قد جعلت أمرك إليّ، ففعلت فخرج بالشهود وقال لهم: قد أشهدتكم أنها قد جعلت أمرها إلي، وإني أشهدكم أني قد تزوجتها على مائة ناقةٍ حمراء سوداء الحدق! فذئرت من ذلك، واستعدت عليه، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير، والحجاز والعراق يومئذٍ إليه، وخرج خلفها الفرزدق، فأما النوار فنزلت على خولة ابنة منظور بن زبان الفزاري امرأة عبد الله بن الزبير، فرقَّقَتْهَا وسألتها الشفاعة لها، وأما الفرزدق فنزل على حمزة بن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عبد الله بن الزبير ومدحه، فوعده الشفاعة له، فتكلمت خولة في النوار، وتكلم حمزة في الفرزدق، فأنجحت خولة وخاب حمزة، وأمرَ عبد الله ابن الزبير أن لا يقربها حتى يصيرا إلى البصرة، فيحتكما إلى عامله ــ وهو الحقّ، فهو وكّلته بتزويجها من غيره لا من نفسه ـ فخرج الفرزدق فقال ساخراً:

أَمَّا بَنُوهُ فلم تُنْجِحْ شفاعتُهم ... وشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بن زَبَّانَا
لَيْسَ الشَّفِيعُ الذي يأْتيكَ مُؤْتَزراً ... مِثْلَ الشَّفيعِ الذي يَأتيكَ عُرْيَانَا

وكان آخر أمره أن طلّقها وندم، فأنشد:

نـدمت ندامـة الكُـسَعِيِّ لمّـا ... غـدت منـي مطلقـة نـوارُ
وكانـت جنَّـةً فخرجـتُ منهـا ... كـآدم حـين أخرجـه الـضَّرارُ

والضرار هو العصيان. وخال الفرزدق هو العلاء بن قرظة الضبي، وكان شاعراً، وكان الفرزدق يقول: إنما أتاني الشعر من قبل خالي، وخالي الذي يقول:

إِذَا مـا الـدَّهْرُ جَـرَّ عـلى أُنـاسٍ ... حَوَادثَـهُ أَنـاخَ بآخَرينـا
فقُـلْ للـشامتينَ بنـا أَفيقُـوا ... سَـيَلْقَى الـشامتُونَ كـما لَقينَـا

ويُروى أن الفرزدق كان حسن التديّن محمود السيرة، ولعلّ هذا كان بِأَخَرَةٍ، وأنه كان إذا ضحك فاستُغرق في الضحك التفت كأنه يخاطب ملَكَيْه، فقال: أما والله لأُسمعنّكما خيراً: لا إله إلا الله، والحمد لله، وأستغفرُ الله. واجتمع هو والحسن البصري في جنازة، فقال الفرزدق للحسن: يا أبا سعيد، أتدري ما يقول الناس؟ قال: لا، قال: يقولون اجتمع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس، فقال الحسن: كلا لستُ بخيرهم ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا الموضع؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، فقال الحسن: خذوها والله من غير فقيه، وإياك وقذف المحصنات، ثم أنشأ الفرزدق يقول:

أخاف وراء القبر إن لم يُعافِني ... أشدّ من القبر التهاباً وأضيقا
إن قادني نحو القيامة قائدٌ ... عنيفٌ وسَوّاقٌ يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدمَ من مشى ... إلى النار مغلولَ القِلادة أزرقا
يُقادُ إلى نار الجحيم مُسَربلاً ... سرابيلَ قَطْرانٍ لباساً مُمزّقا
إذا شربوا فيها الصديدَ رأيتَهم ... يذوبون من حرِّ الجحيم تحرّقا

فلما مات الفرزدق رُؤي في المنام فقيل: ما صنع بك ربُّك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: بالكلمة التي نازعنيها الحسن على شفير القبر. ويروى أن أبا هريرة قال له: إني أرى لك قدمين لطيفين فانظر أن تجعل لهما موضعاً لطيفاً يوم القيامة، ومهما صنعت من شيء فلا تقنط من رحمة الله. ولما بلغ جريراً موته قال:

هَلَكَ الفَرَزْدَقُ بَعْدَما جَدَّعْتُهُ ... لَيْتَ الفَرَزْدَقَ كان عاشَ قَلِيلاَ

ثم أطرق طويلاً وبكى، فقيل له: يا أبا حرزة ما أبكاك؟ قال: بكيت لنفسي، إنه والله قل ما كان اثنان مثلنا أو مصطحبان أو زوجان إلا كان أمد ما بينهما قريباً، ثم أنشأ يقول راثياً الفرزدق:

فُجِعْنا بحَمَّالِ الدَّيَاتِ ابْنِ غالِبٍ ... وحامِي تَمِيمٍ عِرْضَها والبَرَاجِمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بَكَيْنَاكَ حِدْثانَ الفِراق وإِنَّما ... بَكَيْناك إِذ نابَتْ أُمُورُ العظائِم
فلا حَمَلَتْ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهِيرةٌ ... ولا شُدَّ أَنْسَاعُ المَطِيِّ الرَّواسِمِ

ويحكون أنه مات بعده بسنة.

أما ثالثهم فهو جَبَلُ شعر وجَمَلُ قريض وفحلُ قصائد وأمير وصف، وهو الأخطل واسمه غياث بن غوثٍ التغلبي الرّبَعي. ويكنى أبا مالكٍ.

وحتى ترى قدر الشعر في إثارة النعرات، وأنه الوقود الجزل للعصبيات، فانظر ما أشعل بين قيس ويمن إبَّانَ دولة بني أمية. وإن كثيرها لمسبّةٌ وعار في المسلمين، إذ لا زال الإسلام جذعاً طرياً، وكَدَرُ الجماعة خير من صفوِ الفرقة، ولكنها العرب العرباء! قال نهار بن توْسعة:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا هتفوا ببكر أو تميمِ

ثم اسمع ما جناه الأخطل على قومه ببيتِ شعر كارثيّ! ففي سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ هدأ الناس واجتمعوا على عبد الملك بن مروان، وتكافَّتْ قيسٌ وتغلب عن المغازي والإغارات الهمجية بينهما بالشام والجزيرة، وظنَّ كل واحد من الفريقين أن عنده فضلاً لصاحبه، وتكلم عبد الملك في ذلك ولم يحكم الصلح فيه، وليته فعل، فبينا هم على تلك الحال إذ أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان وعنده وجوه قيس وفيهم الجحَّاف بن حكيم قوله المشؤوم:

ألا سائِل الجحّافَ هل هو ثائرٌ ... بِقَتْلَى أصِيبتْ مِنْ سُلَيْمٍ وعامرِ
أجحافُ إنْ نهبِط عليك فتلتقي ... عليك بُحُورٌ طامِياتُ الزواخِرِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تكن مثل أبداءِ الحباب الذي جرى البحرُ تزهاهُ رياحُ الصرا صِرِ

فتساقطت تمرات كُنّ في يد الجحَّاف فوثب يجر مطرفه، والشرر يتطاير من عينيه، والغضب يفور من أردانه، وقبض وجهه في وجه الأخطل ثم قال:

نعم سوف نبكيهم بكل مهنَّدٍ وننعى عميراً بالرَّماح الشواجرِ

يعني عمير بن الحباب السلمى. ثم قال: لقد ظننت يا بن النصرانية أنك لم تكن لتجترئ عليّ ولو رأيتني مأسوراً. وأوعده. فمازال الأخطل من موضعه حتى حُمَّ، ورب قول أنفذُ من صول. فقال عبد الملك للأخطل: ما أحسبك إلا قد كسبت قومك شراً!

فصاح الجحَّافُ في قومه ولم يخبرهم بنيّته، فصحبه ألف فارس، فثار بهم حتى بلغ الرَّصافة في العراق، ثم كشف لهم أمره وأنشدهم شعر الأخطل، وقال: لهم إنما هي النار أو العار فمن صبر فليُقدم ومن كره فليرجع! ــ عياذاً بالله من تقحُّمِ حفائر النار على بصيرة ــ فقالوا بكل حميّة جاهلية: ما بأنفسنا عن نفسك رغبة، ونحن معك فيما كنت فيه من خير وشر. فأغاروا على بني تغلب ليلاً فقتلوهم وبقروا من النساء من كانت حاملاً، ومن كانت غير حامل قتلوها! وزعموا أن الجحّاف ــ وله من اسمه نصيبٌ كَدِرٌ ــ صعد الجبل وجعل ينادي: من كانت حاملاً فإليّ، فصعدن إليه فجعل يبقر بطونهن! ــ عائذاً بربي من الغدر، ومن قلب لا يرحم، ويُنصبُ لكل غادرٍ لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان ــ. وقالت امرأة من بني تغلب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للجحاف: فضّ الله عمادك، وأكبى زنادك، وأطال سهادك، وأقل زادك، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دمي وأعاليهن ثدي! فقال لمن حوله: لولا أن تلد مثلها لاستبقيتها وأمر بقتلها. فبلغ ذلك الحسن البصري فقال: إنما الجحاف جذوة من نار جهنم.

والعرب لم تعهد مثل جريمته، بل كانت تأنف منها وتعيب وتعيِّر من فعلها مهما كان حال عدوِّه. فجريمته سُبَّةٌ فيه وفي قومه الذين كرعوا في حمأته! وقد ضربتْ به المثل في الفتك فقالت: أفتك من الجحاف!

وأُسِرَ الأخطلُ وعليه عباءة وسخة، فظنّ الذي أسره أنه عبد، فسأله عن نفسه، فقال: عبد، فأطلقه، فرمى بنفسه في جُبٍّ مخافة أن يراه من يعرفه فيقتله. وقد قتلوا ابنه.

ثم إن الجحاف هرب بعد فعله وفرّق عنه أصحابه ولحق بالروم، وقال في ذلك:

فإن تَطْرُدوني تطردوني وقد مضى ... من الوِرْدِ يومٌ في دماء الأراقمِ
لدن ذَرَّ قرنُ الشمس حتى تَلَبَّسَتْ ... ظلاماً بركض المُقْرَبَات الصلادِمِ

وطلبه عبد الملك والأخطل يستثيره باكياً قومه في البِشْرِ ـ وهو موضع ماء ـ بقوله:

لقد أوقع الجحّاف بالبِشْرِ وقعةً ... إلى الله منها المُشْتَكَى والمُعَوَّلُ
فسائلْ بني مروان ما بالُ ذِمَّةٍ ... وحبلٍ ضعيفٍ لا يزال يُوصَّلُ
فإلاّ تُغَيِّرها قريشٌ بِمُلْكِهَا ... يكن عن قريشٍ مستراداً ومَزْحَل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال عبد الملك حين أنشده هذا: فإلى أين يا بن النصرانية؟ قال: إلى النار! قال: أولى لك لو قلت غيرها. ولعل الأخطل أراد إحفاظ عبد الملك بالتلميح برحيلهم عن مملكته لضعفه وعجزه عن حماية رعاياه.

فلبث الجحاف زمناً حتى سكن غضب عبد الملك، وكلمته القيسية في أن يؤمنه فأمّنه، فأقبل فلما قدم على عبد الملك لقيه الأخطل فقال له الجَحّاف بكلّ صلفٍ وإثم:

أبا مالكٍ هل لمتني إذ حضضتَني ... على القتل أَمْ هل لامني لك لائمي
أبـا مالـكٍ إني أطعتُـك في التـي ... حضضتَ عليها فعلَ حَرّان حازمِ
فإن تدعُني أخرى أُجِبْك بمثلها ... وإني لَطَـبٌّ بـالوغَى جِـدُّ عـالِمِ

فزعموا أن الأخطل قال له: أراك والله شيخ سوء. واقتنَصَها جرير فقال:

فإنّـك والجحـافَ يـوم تَحُـضُّه ... أردتَ بذاك المُكثَ والوِرْدُ أعجلُ
بكـى دَوْبَـلٌ لا يُرقـئُ اللهُ دمعَـهُ ... ألا إنـما يبكـي مِـنَ الـذُّلِّ دوبـلُ
ومـا زالـتِ القـتلى تَمـورُ دمـاؤُهم ... بدَجلـةَ حتـى مـاءُ دجلـةَ أَشْـكَلُ

فقال الأخطل: ما لجرير لعنه الله؟! والله ما سمتني أمي دوبلا إلا وأنا صبي صغير، ثم ذهب ذلك عني لما كبرت.

ورأى عبد الملك أنه إن تركهم على حالهم لم يُحْكِمِ الأمر، فأمر الوليد بن عبد الملك فحمل الدماء التي كانت قبل ذلك بين قيس وتغلب، وضمَّنَ الجحَّافَ قتلى البِشْرِ، وألزمه إياها عقوبة له، فأدّى الوليد الحمالات، ولم يكن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عند الجحاف ما تحمَّل، فلحق بالحجاج في العراق يسأله ما حمل لأنه من هوازن، فسأل الإذن على الحجاج فمنعه. فلقي أسماء بن خارجة فعصب حاجته به فقال: إني لا أقدر لك على منفعة، قد علم الأمير بمكانك وأبى أن يأذن لك. فقال: لا والله لا أُلْزِمُهَا غيرَك، أَنْجَحَتْ أو أَكْدَتْ. فلما بلغ ذلك الحجاج قال: ما له عندي شيء، فأبلِغْهُ ذلك. فقال: وما عليك أن تكون أنت الذي تؤنسه فإنه قد أبى، فأذن له، فلما رآه قال: أعهدتني خائناً لا أبا لك؟! فأجابه وقد اصطاد سويداء إعجابه بنفخ فخره بمدحه: أنت سيِّدُ هوازن، وقد بدأنا بك، وأنت أمير العراقين، وابن عظيم القريتين، وعمالتك في كل سنة خمسمائة ألف درهم، وما بك بعدها حاجة إلى خيانة. فقال: أشهدُ أن الله تعالى وفّقَك، وأنك نظرت بنور الله، فإذا صدقت فلك نصفها العام فأعطاه، وأدّوا البقية.

ثم تَأَلَّهَ الجحاف بعد ذلك وتاب، وقصد البِشْرَ وبه بقيَّةُ الحيِّ من تغلب، وقد لبس أكفانه وقال: قد جئت إليكم أُعطي القَوَدَ من نفسي! فأراد شبابهم قتله، فنهاهم شيوخهم، وعفوا عنه. ثم استأذن في الحج فأذن له، فخرج في المشيخة الذين شهدوا معه، وأحرموا، ومشوا إلى مكة، فلما قدموا المدينة ومكة جعل الناس يخرجون فينظرون إليهم ويعجبون منهم.

وسمع ابن عمر الجحاف وقد تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللّهم اغفر لي، وما أراك تفعل! فقال له ابن عمر: يا هذا لو كنت الجحاف ما زدت على هذا القول! قال: فأنا الجحاف. وسمعه محمد بن علي بن أبي طالب ـ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ابن الحنفيّة ـ وهو يقول ذلك فقال: يا عبد الله، قنوطك من عفو الله أعظم من ذنبك!

ويحكون أن الجحّاف قُتِلَ بِأَخَرَةٍ، عفا الله عنا وعنه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ..

بِتنا على شاطئ الخليج، كيما نغنم بركة البكور كما قال السلف: تُقسم الأرزاقُ أول النهار وتُرفع الأعمال آخره، وقد لمحت صاحبي في الغسقِ قائماً يصلي قد صف قدميه بين يدي ربه وراوح بينهما وبين جبهته، وهو إن لم يُطِلِ الصلاة إلا أنه خشوعه فيها وطمأنينته في أركانها مع طول سجوده وابتهاله كافٍ في مَدِّ خزّان القلب بالإيمان والرفرفة الروحانية بين سبع الطباق. حقّاً إن مُتَعَ الحياة لا تحلو إلا بطاعة ربِّ العباد، أما مع المعصية فلا تسل عن الضيقة والحشر حتى وإن بَجَدَ العبد ملاذّه بلا حساب! ناهيك عن شؤمها في الدارين، والله المستعان. خُذها فهي تجربةُ سَمعتها من حكيمٍ جرّب وَحَذِقَ وجرى في المضمار حتى النهاية، فعاد نادماً باكياً.

قمنا مع انشقاق السماء بفالق الإصباح، فأذَّن صاحبي، فصلّينا الرَّغيبة ثم أردفناها بالفريضة، ثم ركبت القارب الذي استأجرناه بعد أن وضعتُ فيه ما خَفَّ ولَزِمَ من مؤنة الطعام والشراب، وقد خُطَّ على جنبتيه بلون أحمر باهت فارس الخليج. ولا أدري ما هذا الفارس الذي يمشي على خليج العرب إلا إن كان العلاء بن الحضرمي وأصحابه رضوان الله عليهم. أما صاحبي فدسّ في مقدَّمة القارب صندوقاً دقيقاً طويلاً قد جمع فيه حاجة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصيد. وبعد تأكّده من الوقود؛ فكّ قيد القارب ودفعهُ برفق في ضحلِ البحر الأخضر الصافي، ورجلاه تعصفان بقرار طين البحر عواصف متماوجة من غبار الطّمي البحري وقطعٍ من طحالبه وعوالقه، وسُمَيْكاتٌ كأنهن دنانير فضةٍ من لمعِ جنوبها بين رجليه. وهو يشدو بأنفاس متقطِّعة مع أبي تمام حبيب الطائي كأنما يُخاطِبُ نفسه:

أَعاذِلَتي ما أخشنَ اللَّيْلَ مَرْكباً ... وأَخشن منه في المُلِمَّات راكِبُه
ذَرِيني وأهوال الزَّمان أقاسِها ... فأهوالُه العُظْمى تَليها رغائبُه
أرى عاجزاً يُدعى جليداً لقسمه ... ولو كُلِّفَ المُقْوِي لكلَّتْ مضاربُه
وعفّاً يُسمَّى عاجزاً بعفافِهِ ... ولولا التُّقى ما أعجزته مذاهبُه
وليس بعجزِ المرءِ أخطأه الغنى ... ولا باحتيال أدرك المال كاسبُه

ثم قال: سقى الله شَرْخَ الشباب، ومشتهى الأحباب! فأجبته ببيتي كَعْبِ بن زهير وعيني ترمق خلفه أشجاراً وارفة في مِهْمَهٍ قفر، بجوار منزل قديم قريب من الشاطئ وأُترجُّها متدلٍّ من الأشجار كنواهد الكواعب الأبكار:

ولَيْسَ لمن لم يَرْكب الهوْلَ بُغْيةٌ ... وليس لِرَحْلٍ حَطَّهُ الله حامِلُ
إذا أنتَ لم تُعْرِضْ عنِ الجهل والخَنَا ... أصبتَ حَليماً أو أصَابَكَ جاهلُ

يا صاحبي:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهدَهُ ... وليس عليه أن تتم المقاصدُ

شَقَّ قاربنا بجُؤْجُؤِهِ صفحة الماء في صباح ربيعيٍّ جميل، في رحلةٍ بحرية

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا تحول ذكراها على مدى الأيام، ولا تزول بطوال الليالي. وبفضل ربي فقد كانت السماء صافية والبحر ساكناً، وكان صاحبي هو من يقود القارب ويتّجه جهةَ عين الشمس التي ذَرَّ شارِقُها كأجمل ما تكون، كأنها صبيّة حسناء سفرت ضاحكة لكهلٍ أخضر القلب!

قال صاحبي وقد أُعجِب بما أُعجِبت به: ذكرتني هذه الجميلة بصاحبة العتبي قال: خرجت حاجّاً فلما صرت بقباء تداعى الوفد وإذا جارية كأن وجهها السيف الصقيل، فلما أرميناها بالحدق ألقت البرقع على وجهها، فقلت لها: إنا سفرٌ وفينا أجرٌ فأمتعينا بالنظر إلى وجهك، فانصاعت وأنا أغرف الضحك في وجهها وأنشدت:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرْفَكَ رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

قال: فانصرفتُ وفي قلبي من هواها كجمر الغضا! ثم صاح ملتفتاً كأنما يخاطب العتبي: قد أَنْذَرَتْكَ اللعوبُ، فمالك ولحبائل المنايا وأفخاخُ إبليس؟!

يسرّ مقلته ما ضرّ مهجته ... لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر

تهادى القارب الرشيق كأنه تيسٌ عارضي ينقز على كثبان النفود، أو ظبي حجازي يرعى سَلَمَ تِهَامَةَ. فملأت رئتي من نسيم الصباح المُفْعم بمِلْحِ الخليج، ثم صدَحتُ مترنِّماً بموشحة ابن الخطيب التي تفيض ماءً وتشعُّ رونقاً:

جادَكَ الغيثُ إذا الغيث هَمَى ... يا زمان الوصل بالأندلسِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لم يكـــن وصـــلك إلا حلـــماً في الكـرى أو خلـسةَ المخـتلِسِ

ثمّ ازدادَ حنين محرّك فارس الخليج وعلا صوته وارتفعت مُقَدِمَتُهُ إثر زيادة السرعة الفُجائية ممن انتشى كأنه غلامٌ يافع يقود سيارة والده لأول مرّة! ثم قال رافعاً صوته وبالكاد أُميِّزُهُ: إنّي هُنا على طبيعتي وسجيّتي، فهل ترى أن ألبير كامو خالفته الحقيقة حينما قال: الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يرفض أن يكون على حقيقته؟! قلت: وهل أنت قبل رحلتنا على حقيقتك؟ أم كنت تختفي خلف أسوار الحزن وتقتل نفسك في زنازين الضنى النفسي؟! قال ــ وأسراب نوارس وطيور بحر قد غطت الأفق ــ: صدقت، وصدق من قال:

أَسِرْبَ القَطَا هل من يعير جناحَهُ لعـلِّي إلى مـن قـد هويـتُ أطـيرُ

ولكني الآن على حقيقتي يا رفيقي وَسَتَرَى. ثم سكت كلانا متأملاً ما حوله من جمال يأخذ الألباب حسنه، من جزرٍ متناثرة متماهية مع ما حولها من لوحات الحسن والروعة، والأمواجُ تدغدغُ أقدامَ شواطئها المرمرية بكَسَلٍ، وتحوطها مياهٌ لازوردية تتهادى وتتماوج فوق هياكل المرجان كأنها تجاعيد يد عجوزٍ ثريّةٍ رُصّعت بنقوش الحنّاء وحُلِّيت بنفيس الجواهر. وتذكرت قول قيس بن الخطيم وأنا أنظر للشمس:

تبـدتْ لنـا كالـشمسِ بـين غمامـةٍ بدا حاجبٌ منها وضنّتْ بحاجبِ

هـذا، وقاربُنا يرمقُ الجزرَ من بعيد خشيةً من غيلةِ صخور المرجان،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبعد جوازها؛ رفَعَ صاحبي سنّارتين عظيمتين بعد أن ثبَّتَهُما بزاويتي القارب الخلفيتين وأعمق سلك الطعم أربعين متراً، ثم دار دورات كبيرة في محيط دائرة يزيد قطرها على خمسة أميال، أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً حتى توقف بعد خمسين دقيقة في مركز الدائرة، ولم يَعْلَقْ بطُعمه حوتٌ واحد!

توقف رَكْبُ فارس الخليج، وألقينا شباكاً موصولةً بحبال غليظة، ثم تناول كلٌّ منا سنارته الصغيرة وألقاها بعد أن أطعمها الرّبيان. وكنت أظن قبل هذه التجربة أن الصيد بالسنّارة مُمِلٌّ، لكن التجربة خير برهان لزيف تيك الدعوى!

بقينا قرابة الساعتين لم يرفّ جفن السنارات إلا بحركات ضعيفة لا تكاد تُذكَر، خلا مرة رفعت سنارتي بعد الانتباه لجذب شيء ما، لكن أطلت الغيبة فعدْتُ بالخيبة التي ملأتني حين رفعتها خالية من الطُّعْمِ والمطعوم! وبالطبع فلم يفوّت صاحبي مثل هذه بتعليقات لاذعة. وحطّ طائر صغير على طرف القارب، ثم طار نازلاً كيما يخطف علقاً طافياً، فتذكرت قول الخضر لموسى عليهما السلام حين جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين: «يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر» رواه البخاري في صحيحه. فسبحان العليم الخبير الذي يعلم ما كان وما يكون وما سوف يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبعد أن مَتَع النّهار رزقنا الله بأنواع من السمك، أتذكَّر منها سمكاً متوسطاً هو الهامور، كذلك وُهِبْنا أنواعاً أكبر وأصغر منه، إلا أن النَّاجل ليس منها، فموطنه ـ على ذمّة صاحبي ـ البحر الأحمر.

أثناء الانتظار الذي يتخلله سكوت متأمّل طويل، وما أجمله ولا يعرف أهل الصّخب لذته وجدواه، كنا نأخذ بأطراف الحديث ومنها الأدب، فقلت: هل لك في شيء من بوحك؟ فنظر متعجبّاً ثم هزّ رأسه قائلاً: يقول الجاحظ: مراتب الشعراء أربع؛ الفحلُ الخِنذيذ، ثم الشاعر المفلِّق، ثم الشاعر، ثم الشعرور. وما صاحبك من هؤلاء بشيء ولكنه متذوّق.

فأجبته: أَصاحبي، إن مع الارتياض في الشعر، وطول الملابسة له وكثرة الدربة تؤتي الشاعرية أُكُلَها، ولا يكاد يتخلّف القريض، وما أُراك إلا قد غطّيتَ شِعْرَكَ بتواضعك! قال: لا عليك، ولعلك أحسنت الظنَّ حتى أعشاك، وبكل حال سأحدثك حديث القوم. فمنهم بشار وتأمل هذه القطعة الإستبرقيّة:

وبيضاء المحاجِرِ من مَعَدٍّ ... كأنَّ حديثها قطع الجِنان
إذا قامت لسُبحتها تثنّت ... كأن عظامها من خيزُران

وقال قيس بن ذريح:

وحدَّثْتَنِي يا قلبُ أنَّكَ صابرٌ ... على البُعْدِ من لُبْنَى فسوف تذوقُ
فَمُتْ كَمِداً أو عِشْ سقيماً فإنما ... تُكلِّفُني ما لا أراك تطيقُ

وقال نُصَيْب في حكمة بديعة ودفقٍ صادق:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وما في الأرض أشقى من مُحِبٍّ ... وإن وجد الهوى حلو المذاقِ
تراهُ باكياً في كل حينٍ ... مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراقِ
فتسخُنُ عينُه عند التنائي ... وتسخنُ عينُه عند الفراقِ

ولعمر بن أبي ربيعة المخزومي، ونهر شعره ثرٌّ وهي من أجود شعره:

فلما التقينا واطمأنَّتْ بِنَا النَّوى ... وغُيَّبَ عنا من نخافُ ونُشفقُ
أخذتُ بكفي كفّها فوضعتُها ... على كبدٍ من خشية البينِ تخفقُ
فقالتْ لأترابٍ لها حين أيقنتْ ... بما قد أُلاقي إنّ ذا ليس يصدقُ
فقُمْنَ لكي يُخلينا فترقرقتْ ... مدامعُ عينيها فظلّت تدفّقُ
فقالت أما تَرْحَمْنَنِي أن تدعنني ... لديه وهو في ما علِمْتُنَّ أخرقُ
فقلن اسكتي عنَّا فلستِ مطاعة ... وخِلُّكِ منّا فاعلمي بكِ ارفقُ

وللفخم الفصيح أبي صخر الهذلي تسهيل تصوير المراد ونجاح الإصدار والإيراد:

أما والذي أبكى وأضحكَ والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ
لقد تركَتْنِي أحسد الوحشَ أن أرى ... أليفين منها لا يروعُهُما الذُعرُ
فيا حُبَّهَا زدني جوىً كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ
وأني لتعروني لذكراك هزّةٌ ... كما انتفض العصفور بلّله القطرُ
هل الوجد إلا أن قلبيَ لو دنا ... من الجمر قِيدَ الرمح لاحترق الجمرُ

ولذي الرِّمة وانظر قطعة من لوحاته التي تضاهي جمال وبهاء الموناليزا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وغموضها:

فإن يرتحل صحبي بجثمانِ أعظمي ... يَقُمْ قلبيَ المحزونُ في منزل الرَّكْبِ

وللسمهريّ:

وبيضاء مِكْسَال لعوب خريدةٍ ... لذيذٍ لدى ليل التمام شمامُها

كأن وميض البرقِ بيني وبينَها ... إذا حان من بعض البيوت ابتسامُها

قلت وأنا أشد السنارة وأُديرُ بكرةَ خيطِها: يا لجميل بثينة إذ يقول:

حلّت بثينة من قلبي بمنزلةٍ ... بين الجوانح لم ينزل بها أحدُ

يا ليتَنَا والمُنى ليست مقربة ... أنّا لقيناك والأحراس قد رقدوا

فيستفيق محبٌّ قد أضرّ به ... شوقٌ إليك ويشفى قلبه الكَمِدُ

وعاذلون لَحَوني في مودّتها ... يا ليتهم وجدوا مثلَ الذي أجدُ

وقد أولعته بثينة بِرَدِّها الأنثوي الوفي وسفحت دم هواه حتى بَرَدَ بقولها:

سواء علينا يا جميلَ بن معْمرٍ ... إذا مِتَّ بأساءُ الحياة ولينُها

قال: لقد أُخِذْتَ بجميل! فَهَاكَ لجميلٍ كذلك:

ومما شجاني أنَّهَا يومَ ودّعت ... تولّت وماء العين في الجفن حائرُ

فلمّا أعادت من بعيد بنظرة ... إليّ التفاتا أسلمته المحاجرُ

وانظر كيف يقول العتبيّ:

أضحتْ بخدِّي للدموعِ رسومُ ... أسَفَاً عليك وفي الفؤاد كلومُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والـصبرُ يحسنُ في المـواطن كلّهـا إلا عليـــك فإنـــه مـــذمومُ

وكيف قال الشاعر الشريف الرضي:

يـا ظبيـةَ البـانِ ترعـى في خمائِلِـهِ ليَهْنِكِ اليـومَ أن القلـبَ مرعـاكِ
المــاءُ عنـدَكِ مـسكوبٌ لـشاربه ولـيس يُرويـكِ ألا مـدمع البـاكِ
هبَّت علينا من رياح الغور رائحة بعــد الرُّقــاد عرفناهــا بريَّــاكِ
ثــم انثنينــا إذا مــا هزَّنَــا طـربٌ عــلى الرحــال تعلّلنــا بــذكراكِ
أنـتِ النعيمُ لقلبي والعـذابُ لـه فــما أمــرَّك في قلبــي وأحــلاكِ

ومن أعذب النسيب لقيس بن ذريح وختم بها أديبُ السُنَّةِ ابن قتيبة نفيسهُ عيون الأخبار:

تعلّق رُوحي رُوحَها قبل خلقِنَا ومن بعد ما كُنَّا نِطافاً وفي المهدِ
فـزاد كـما زدنـا فأصـبح ناميـاً فليس وإن متنا بمنفـصمِ العهـدِ
ولكنَّـهُ بـاقٍ عـلى كـلِّ حـادثٍ وزائرُنـا في ظلمـة القـبر واللحـدِ
يكـادُ حُبابُ المـاء يخدش جلدها إذا اغتسلت بالمـاء من رقّة الجلدِ
يُثقّلهــا لُــبسُ الحريــر لِلِينِهَــا وتـشكوا إلى جاراتها ثِقَـلَ العَقْـدِ
وأَرْحَــمُ خـدَّيْها إذا مـا لحظْتُهـا حِـذاراً للحظي أن يـؤثِّر في الخـدِّ

قلت: صدقت في مدحك لأبياته هذه ويشبهها ويعلوها قول المجنون:

تعلقــتُ لـيلى وهــي ذات ذؤابــةٍ ولم يَبْدُ للأترابِ من من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم يا ليت أنَّنَا إلى اليـوم لم نكـبر ولم تكـبر البـهْمُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال ضاحكاً: يا لها من أمنية! ثم جرّ سمكةً من خُطّاف السنارة الكبير، وبَقَرَ بطنها بحركة محترف مخرجاً أحشاءها، ثم ألقى طريدتنا البائسة في صندوق مخرّم مع ما سبقها من أخواتها، ثم التفت وأنشد بدون ترنم أميرة شعر كثيّر عزة وهي التائية الرائقة كأنما يتصوَّرُ نفسه كثَيِّراً ومُحدِّثُهُ أصحابه:

خليليَّ هذا ربعُ عَزَّةَ فاعقِلا ... قلوصيكما ثم انزلا حيث حَلَّتِ
وما كنتُ ادري قبل عزَّة ما البكا ... ولا مُوجعاتِ الحزن حتى تولّتِ
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كناذرةٍ نذرا فأوفتْ وحلَّتِ
فقلتُ لها يا عَزّ كلّ مصيبة ... إذا وُطّنت يوماً لها النفس ذلّتِ
يكلّفها الخنزير شتمي وما بها ... هواني ولكن للمليك استذلّتِ

والخنزير هو زوجُها الذي حلف ليضربنها أو لتشتم كثيّراً وهو يسمع، لأنها جاءته وهو يبري سهاماً فحادثها وغاب عن نفسه فبرى ساعده، فمسحت دمه بثوبها فعلم زوجها. ثم تابع إنشاد التائية العجيبة ـ وَرَوِيُّها من أمتع الرويّ وألطفه ـ:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ ... لعزّةَ مِنْ أعراضنا ما استحلّتِ
أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةً ... لدينا ولا مقليةً إن تقلّتِ
وإني وتَهْيَامِي بعزّة بعدما ... تخلّيتُ مما بيننا وتخلّتِ
لكالمُرْتَجِي ظِلَّ الغمامة كلَّما ... تبوّأَ منها للمقيلِ اضمحلّتِ
كأنّي وإياها سحابةُ مُمْحِلٍ ... رجاها فلما جاوزتْهُ استهلّتِ

ثم كرّر البيت الأخير وَغَيْنُ حزنٍ يلوح من مآقيه، فأردتُ أن أصرف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث ففطن الأريب وقال وهو على حالته: دعني أنفث حرّ الجوى على لسان المجنون حيث يقول:

فيا ربِّ إنْ أهلِكْ ولمْ تُرْوَ هامَتي ... بليلَى أمتْ لا قبرَ أعطشُ مِنْ قبرِي
وإنْ أكُ عنْ ليلَى سلوتُ فإنَّما ... تسلَّيتُ عنْ يأسٍ ولمْ أسلُ عنْ صبرِ
وإنْ يكُ عنْ ليلَى غنًى وتجلُّدٌ ... فربَّ غنَى نفسٍ قريبٍ منَ الفقرِ

وانظر إلى حسن تشبيب يزيد بن معاوية رضي الله عن معاوية:

أغارُ على أعطافِهَا من ثيابها ... إذا لَبِسَتْهَا فوق جسم منعَّمِ
وأحسد كاساتِ تُقَبِّلُ ثغرها ... إذا وضعَتْهَا موضع اللثم في الفمِ

وإن بعض المغمورين أجود عندي من كثير من المشاهير، وأجزل وأقدر، وكم من درة في موضع لم تكرم؟! فاجعل ذلك منك على ذكر.

قلت: الأمور الذوقية لا يحسُن فيها الملام، فثمّ سقف متوسط يطولُه عامة الشعراء، وهو مقبولٌ ما لم يخرم أركان الشعر لفظاً أو معنى، أما ما جاوز ذلك فتختلف فيه الأذواق، وإن كانت هناك غُررٌ تتابع الأدباء على مدحها وتعاوروا على استحسانها، فمن لم يُعجب بها فذائقته محتاجة لذائقة!

فقال: هات مما عندك مما تراه غرراً، واجعل بدايتها نسيبيّة.

قلت: كأمثال قول ذي الرمة:

إذا هَبَّتِ الأرواحُ من نحو جانبٍ ... به أهلُ مَيٍّ هاجَ قلبي هبوبُهَا
هوىً تذرف العينانُ منه وإنما ... هوى كلّ نفسٍ حيث كان حبيبُهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقول ابن الدمينة:

قفي قبل وشْك البين يا ابنة مالك ... ولا تحرمينا نظرة من جمالكِ
قِفِي يا أميمَ القلب نَقْضِ لبانةً ... ونشكوا الجوى ثم افعلي ما بدا لكِ
لئن ساءني أن نِلْتَنَي بمساءةٍ ... فقد سَرَّني أن قد خطرت ببالكِ

وللحسين بن مطير:

قضى الله يا أسماء أن لستُ بارحاً ... أحبك حتى يُغمضَ العينَ مُغمضُ
إذا أنا رُضْتُ القلبَ في حبِّ غيرها ... بدا حبُّها من دونه يتعرضُ

وأنشد الميداني وبيته الأخير جبّار:

حننتُ إليهم والديارُ قريبةٌ ... فكيف إذا سار المطيُّ مراحلا
وقد كنتُ قبل البين لا كان بينُهُم ... أُعاينُ للهجران فيهم دلائلا
وتحتَ سجوف الرقمِ أغيدُ ناعمٌ ... يميسُ كخُوط الخيزرانة مائلا
وينضو علينا السيفُ من جفْنِ مقلةٍ ... تُرِيقُ دمَ الأبطالِ في الحب باطلا

وتأمل بيت عنترة في جمعه الحب والشجاعة والوصف الخلاب، الذي لم تفتّق ألسنة العرب على مثل بديعه وجماله، وإن تعاور الشعراء على إيراد شبيهه لكنهم لم يصنعوا شيئاً إذ حاز عنترة بهذا وشبهه فضيلة العفاف مع المحبة، والشجاعة مع تقدير الجمال، وقد عَرِيَ عن مثل ذلك شعراء لم ينفق شعرهم على الخاصة، بلْه العامة، نعم فالمشرب العذب كثيرُ الزحام، قال عنترة:

ولقد ذكرْتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ ... مِنِّي وبِيْضُ الهِنْدِ تقْطرُ منْ دمي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـوددتُ تقبيـلَ الـسيوفِ لأنهـا لمعـت كبـارق ثغـركِ المتبـسِّمِ

وقال رهين المحبسين أبو العلاء المعري بيتاً يجدر بالناس تأمله لعمقه، فهو ليس بيتاً ساذجاً بل هو ثمرة تأمل وتفكر في هذه الحياة قال:

ضحكنا وكان الضحك مِنَّا سفاهةً وَحُقَّ لسكان البسيطة أن يبكوا

وشاهده الحديث النبوي الصحيح: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**».

ولصالح عبد القدوس وقد قالها في أُخريات عمره، وأقول إنها أميرة شعره، وهي خزانة حكمة، ونسبها بعضهم لأمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومنها:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ و الـدهر فيـه تـصرّم وتقلـبُ
دَعْ عَنْكَ ما قَدْ فات في زَمَنِ الصِّبا واذكـر ذنوبـكَ وابكهـا يـا مـذنبُ
واخْـشَ مناقَـشَةَ الحِـسَابِ فإنَّـه لا بـدّ يحـصى مـا جنيـت ويكتـبُ
لم يَنْـسَهُ المَلِكـانِ حـين نَـسِيْتَه بَـلْ أَثْبَتَـاهُ وَأَنْـتَ لاهٍ تَلْعَـبُ
و الـرُّوحُ فيـك وديعـة أُودِعْتَهـا سـيردّها بـالرغم منـك وتـسلبُ
وَغُـرورُ دُنْيـاكَ التـي تَـسْعَى لهـا دارٌ حَقِيقَتُهـا متـاعٌ يَـذْهَبُ
و الليـل فـاعلم والنهـار كلاهمـا أَنْفَاسُـنا فيهـا تُعَـدُّ وَتُحْـسَبُ
وجميـعُ مـا حَـصَّلْتَهُ وَجَمَعْتَـهُ حَقًّـا يَقِينـا بَعْـدَ مَوْتِـكَ يُنْهَـبُ
فعليـك تقـوى الله فالزمهـا تَفُـزْ إِنَّ التّقِـيَّ هـو البهـيُّ الأَهْيَـبُ
واعْمَـلْ لطاعتـه تَنَـلْ مِنْـهُ الرِّضـا إنَّ المطيـع لربـه لمقـرَّبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فاقْنَعْ ففي بَعضِ القناعَة رَاحَة ... واليَأْسُ ممّا فات فهو المَطْلَبُ
والْقَ عَدُوَّكَ بالتَّحِيَّة لاَ تكنْ ... مِنْهُ زمانَك خائفا تترقَّبُ
واحْذَرْهُ يوما إنْ أتى لَك باسماً ... فاللَّيْثُ يَبْدو نابُه إذْ يَغْضَبُ
لا خير في ودِّ امرءٍ متملقٍ ... حلو اللسان وقلبه يتلهّبُ
يلقاه يحلف أنه بك واثقٌ ... وإذا توارى عنك فهو العَقْرَبُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كما يَروغُ الثَّعْلَبُ
واخفض جناحك للأقارب كلهم ... بتذللٍ واسمح لهم إن أذنبوا
و دع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ... إنّ الكذوب لَبِئْسَ خِلٌّ يُصْحَبُ
وَذَرِ الحَسُودَ ولو صفا لَكَ مرَّة ... أبْعِدْهُ عَنْ رُؤْيَاكَ لا يُسْتجْلَبُ
و زن الكلام إذا نطقت ولا تكن ... ثرثارَةً في كلِّ نادٍ تَخْطُبُ
واحفظ لسانك واحترز من لفظه ... فالمرء يَسلَمُ باللسان ويعطبُ
والسِّرُّ فاكْتُمْهُ ولا تَنطِق به ... فهو الأسير لديك إذ لا ينشبُ
وَاحْرَصْ على حِفْظِ القُلُوْبِ مِنَ الأَذَى ... فرجوعُها بعد التنافر يصعبُ
إنّ القُلوبَ إذا تنافر ودُّها ... شِبْهُ الزُجَاجَة كسْرُها لا يُشْعَبُ
وكذاك سِرُّ المَرْءِ إنْ لَمْ يَطْوِهِ ... نشرَتْهُ ألسنةٌ تزيد وتكذبُ
لاْ تَحْرَصَنْ فالحِرْصُ ليسَ بِزَائدٍ ... في الرزق بل يُشقي الحريص ويُتعبُ
وَيَظَلُّ مَلْهُوفا يَرُوْمُ تَحَيُّلاً ... والرِّزْقُ ليس بحيلة يُسْتَجْلَبُ
كم عاجزٍ في الناس يؤتى رزقهُ ... رَغَداً ويُحرم كيس ويُخيّبُ
أَدِّ الأَمَانَةَ والخِيَانَةَ فاجْتَنِبْ ... وَاعْدِلْ ولا تَظْلِمْ يَطِبْ لك مَكْسَبُ
وإذا بُلِيْتَ بِنكبَةٍ فاصْبِرْ لها ... من ذا رأيت مسلّماً لا يُنكبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨- وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ..

و إذا أصـابك في زمانـك شـدةٌ ... و أصابك الخطب الكريه الأصعبُ
اسـجد لِرَبِّـكَ إِنَّـهُ أَدْنَـى لِمَـنْ ... يـدعوه مـن حبـل الوريـد وأقـربُ
كن ما استطعتَ عن الأنام بمعزلٍ ... إِنَّ الكَثِـيْرَ مِـنَ الـوَرَى لا يُـصْحَبُ
واجعـل جليسك سيداً تحظى بـه ... حَـبْرٌ لَبِيْـبٌ عاقِـلٌ مِتَـأَدِّبُ
واحْـذَرْ مِـنَ المَظْلُـومِ سَـهْما صـائباً ... و اعلـم بـأن دعـاءه لا يُحجـبُ
وإذا رَأَيْـتَ الـرِّزْقَ ضـاق بِبَلْـدَة ... و خشيت فيها أن يضيق المكسبُ
فارْحَلْ فأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ الفَضَا ... طُـولاً وعرْضـاً شَرْقُهـا والمَغْـرِبُ
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ... فالنـصح أغـلى مـا يبـاع ويوهـبُ
خُـذْها إِلَيْـكَ قَـصِيْدَةً مَنْظُومَـةً ... جاءَتْ كَنَظْمِ الدُّرِّ بَلْ هِيَ أَعْجَبُ
يـا ربّ صـلِّ عـلى النبـيِّ وآلـه ... عَـدَدَ الخلائِـقِ حـصْرُها لا يُحْسَبُ

وفي ظني أنه لو فرّق هذه الحكم خلال تضاعيف القصائد لكان أقبلُ لها في النفوس، فازدحامها أخْفَتَ من وَهَجِهَا.

ولتسمحْ نفسُك ببعض الحماسة، فهي في نظري أميرة أغراض الشعر الأربعة، ولَرُبَّ جيشٍ عرمرمٍ قاده بيت شعر! وكم من فئام أسلمتهم للّحود قصيدة!

فمن فرسان الشعراء المفلّقين قَطَري بن الفُجاءة وكان يُكْنى في السلم أبا محمد وفي الحرب أبا نعامة، وكان أطول الخوارج أياماً وأحدّهم شوكة، عائذاً بربي من بدعتهم وضلالهم. قال في قصيدة مجلجلةٍ تشم في تضاعيفها الدم، وترى الشرر بين النقع، ويْكَأَنَّكَ تسمعُ قعقعةَ الحديد في جوف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصفوف، وقرْعَ القنا في الأصداغ والظهور:

يا رُبَّ ظلِّ عُقابٍ قد وقيتُ به ... مُهري من الشمس والأبطال تَجتلِدُ
ورب يوم حمىً أرعيتُ عَقوَته ... خيْلي اقتساراً وأطرافُ القنا قِصدُ
ويوم لهوٍ لأهل الخفض ظلّ به ... لهوي اصطِلاء الوغى ونارُهُ تقِدُ
مُشَهَّراً موقِفي والحربُ كاشفةٌ ... عنها القناع وبحرُ الموت يطّردُ
وربَّ هاجرةٍ تغلي مراجِلُها ... مخرتُها بمطايا غارةٍ تَخِدُ
تجتاب أودية الأفزاع آمنةً ... كأنها أُسُدٌ يصطادُها أسَدُ
فإن أَمُتْ حتف أنفي لا أمتْ كمداً ... على الطعان وقصرُ العاجزِ الكَمَدُ
ولم أقل لم أساقِ الموت شارِبَهُ ... في كأسه والمنايا شُرَّعٌ وُرُدُ

والعُقاب هي الراية واللواء. والعَقوة هي الساحة. وكلمة قِصَد هي جمع قصدة وهي القطعة مما يكسر. أما تخدُ فهي مضارع وَخَدَ في سيره إذا أسرع. وقصره أي قصارا جهده.

وقد قال أبو عبيدة لما سمعها: هذا والله هو الشعر لا ما يتعللون به من أشعار المخانيث! فضحك صاحبي لمّا سمعها حتى كاد أن يسقط في البحر، وهو يقول: يا لهول ما قال! أُتُرانا كذلك؟ قلت: لا. لكنه قال هذه العبارة أمامَ وَهَجِ أبيات قطري الفخمة الباسقة، فلعله تذكَّرَ مجونيات أبي نُواسٍ وأشباهه، وعلى كل حال فأين شعر الحماسة والقتال من شعر الرقة والنسيب؟!

وتذكرنا هذه الأبيات بمقولة سيف الله خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: ما من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ليلة تُهدى إلي عروس أنا لها محب، بأحب إلي من ليلة شديدة البرد أصبّح غدوتها العدو.

بعدها توضأنا من البحر وصلينا الظهر قصراً، ثمّ أسلمنا أعيننا لقيلولة هانئة لم يكدّرها ذباب أو ضجيج أو همّ أو قلق.

كان صاحبي هو المستيقظ أولاً كعادته الشريفة، ولم يوقظني إلا عبق شاي الجبل يفوح من إبريقه النحاسي، وقد ذابت حبيبات السكر في مائه النمير مشكّلة هالات شفافة تراها العين حين تجعلها أمام الضوء الباهر المنعكس من صفحات وجه الماء الساكن.

أعادت تلك القيلولة التي لم تزد على نصف الساعة نشاطنا كأن لم نلق من سفرنا هذا نصباً. فقرّبت كأس الشاي وأنا أتشمّمُ بانتشاءٍ ما يضوعُ منه من عبير الأوراق السوداء الاستوائية، التي أنعشت بريحها قبل مذاقها خلايا المخّ العطشان لذلك الإكسير المُفْعِم.

اتكّأ صاحبي على عمود المظلّة الحديدي قائلاً: كان الصَّاري للسفن قديماً مع أشرعته بمثابة محرك السفينة، وهو خَشَبةٌ تنصب في وسط السفينة، ويكون عليه شراعها، وجمعه صَوارِي، ومنه سميت معركة ذات الصواري. ويسمى الدَّقَل.

وللقُصَّاصِ وأهل الحكايات قديماً شغفٌ بذكره، لرمزيته في العلو والزهو والترقب والبشارة وهكذا..وبعضهم يطلق مسمّى الصاري على الملاح. وهذا حَسَنٌ فالملاح إذن لم يذهب مع ذهاب الصاري الأصيل!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن الطّرَفِ ما ذكروه من أن رجلاً تنبّأ وسمى نفسه نوحاً صاحب الفُلْكِ، وذَكَرَ أنه سيكون طوفانٌ على يديه إلا من اتّبعه، ومعه صاحب له قد آمن به وصدّقه، فأتى به الوالي، فاستتابه فلم يتب، فأمر به فصُلِبَ، واستتاب صاحبه فتاب. فناداه من الخشبة: يا فلان، أتُسلمني الآن في مثل هذه الحالة؟ فقال: يا نوح، قد علمت أنه لا يصحبْك من السفينة إلا الصاري! ـــ أي خشبة الصلب ـ .

ثم عنّت حركةً في السنارة الكبرى، وما هي إلا هنيهات حتى بَذَحَ صاحبي أحشاء هامورٍ بالغ. فنظرت خلفه وقد صررتُ عينيَّ ووضعتُ كفّيّ على حاجبي أتبيّن أسودةً مارّة. فقال إلام تنظر؟ هل رأيت صاري سندباد، أم صاري عدنان ولينا؟! فضحكتُ لطرفته وقلت: بل صاري سِلفَر! فتابع: ها نحن نعود صبياناً. قلت مُتبسّماً: الظرافة والبراءة والوداعة في الصِّبا، وفرْقٌ بين ذكر معاهد الصبا وبين التصابي، فالتصابي ليس من شيم الكرام، لكن تذكر الساعات الماضيات في الصِّبى بما فيها من عبر وأحلام وسذاجة لها نكهتها المحببة. قال: نعم فلا يهتزُّ للذكريات إلا أصحاب المروءات، وأعذَبُهَا ذكريات الطفولة.

قلت: لقد ذكّرتني بأبيات ابن الرومي في ذكر معاهد الصبا والشباب، وقيل إنه قد عنى بها منزله الذي كان يريد أحد الأثرياء أن يشتريه منه. وبكلّ حال فهي من غُرَرِ حب الأوطان:

وَلي وطـــنٌ آليـــتُ أَلاَّ أَبيعَـــهُ بشيءٍ ولا أَلقى لهُ الدهرَ مالِكا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨- وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ..

عَهِدتُ به شرخَ الشبابِ ونِعمةً ... كَنعمةِ قوْمٍ أصبحوا في ظِلالِكا
وقَد أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كأنهُ ... لها جسدٌ إن غابَ غودِرْتُ هالكا
وحبَّبَ أوطانَ الرِجالِ إليهمُ ... مَآربُ قضَّاها الشبابُ هنالِكا
إذا ذَكروا أَوطانَهم ذكَّرَتْهُمُ ... عُهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لِذَلِكَا

فقال: هذه أكرم من سينيّة أحمد شوقي الذي شوّهها برغبته إليها عن جنة الخلد! فالمبالغة مملوحة في الشعر خلا أن تخطُرَ المحرّمات، ولا خير في أدبٍ يهدم الدين ولا يرفع مقامه.

قلت: وعلى ذكر الأوطان، فهل لك في العودة للوطن - وأعني به اليابسة -؟ قال: إن شئت، إن لم تك ترغب في المبيت هنا! قلت: والعشاء يا صاحبي، أم تريد أكله نيئاً؟! فقال: قد أعددت للأمر أهبته فلا تشغل بالك بشيء.

تضيَّفَتِ الشمس للمغيب، معلنةً صَرْمَ النهارِ بسيف الليل الغائر كما قال الأول:

ولما رأيتُ الليلَ والشمسُ حيَّة ... حياة الذي يقضي حُشاشة تازِعُ

ثم غاب قرص الشمس في أفق البحر الكهرماني الأرجواني، وقد مدَّتْ على الأفق الغربي وِشَاحاً إبريزيّاً من نسج شفق الغروب.

وبعد الصلاة، قام صاحبي فأضاء المركب، ثم أخرج من صندوقه عُدّةَ الشواء والطبخ، فما هي إلا ساعة حتى استرخينا نهضمُ طعامَنَا بعد ما كُنّا غَرْثانين. وقد كانت أفكارنا مع الاسترخاء والتأمل تطوف الكوكب بأسرع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الضوء، تارة في باطنه، وأخرى على سطحه أو خارجه! وقد أَخَّرْنا صلاة العشاء إلى قبيل منتصف الليل، وهي السُّنَّة لمن لم يكن مرتبطاً بجماعة يشقُّ عليهم تأخيرها.

مرت ساعة بعد أن تناولنا العَشاء، ثم أصلحتُ شاياً فاحتسيناه وقد لاح حاجب القمر، وأنا أتأمّل هذا الكَيْفَ والمزاج بين حَدِّه الرائق الشائق، وبين حَدِّهِ الممقوت المهلك! ولكل شعبٍ كَيْف، فيكاد يتفق سكان الكوكب على الشاي والقهوة على اختلاف في طريقة تجهيزهما، ثم تنفرد الشعوب بعدهما بأمزجة وكيوفٍ مُفَتِّرَةٍ أو مُنشيةٍ مُسكرةٍ، وغالب هذه الأمزجة ضارّة مهلكة للدين والدنيا، فلله الحمد على إباحته الطيبات وتحريمه الخبائث، وله الحمد على عظيم نعمائه وجزيل آلائه. وأسأله سبحانه بأسمائه وصفاته أن لا يجعلنا ممن عُجِّلتْ لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا. وقد قال بعض السلف الصالح: إن من توسع في المباحات فإن النقص في الآخرة يلحقه بقدر توسعه، واحتج لذلك بقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا يُصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان كريماً» رواه ابن أبي الدنيا. وعند أحمد في مسنده: دخل رجل على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكساه، فخرج فمر على أبي مسعود الأنصاري ورجل آخر من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال أحدهما: خذها من حسناتك، وقال الآخر: خذها من طيباتك. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لولا أن تُنقص من حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم، ولكن سمعت الله عيّر قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

[الأحقاف: ٢٠]، وقال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: إن شئت استقل وإن شئت استكثر فإنما تأخذ من كيسك. وفي الحديث الصحيح: «**ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها**» ووصى بعض أصحابه أن يكون بلاغ أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، منهم سلمان وأبو عبيدة وأبو ذر وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأوصى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يكون في الدنيا كعابر سبيل. والله المستعان، وكان ابن تيمية يقول: الزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة، وبالجملة فما كان معيناً على الطاعة فهو محمود، وما كان بخلافه فمذموم.

وبينا فكري يسبح في فضاء التأمل سمعتُ صاحبي يهينم هينمة خِلْتُها ولادة قصيدة! فتركته حتى بادرني قائلاً: لكم هي جميلة وحالمة تلك الليالي التي تبتعد فيها عن البشر، وتخلو فيها بنفسك في ليلة بدريّةٍ هادئة، أجواؤها وادعة ساكنة، يداعبُ خدَّكَ فيها نسيمُها العليل، ويتوشَّحُ كبد سمائها بدرٌ كحيلٌ أسيلٌ، لا تخالهُ إلا تاجاً على عروس، أو ملِكاً محبوباً بين الرعايا والنفوس. فإن سَاعَدَ هدوء نفسٍ وراحة بال وصفاء فكر؛ فلا إِخَالُ القصيد إلا نضيداً، والأوزان إلا قعوداً، تختار من أفانين القريض وأقاحي الربيع ما شئت، فما استُجْلِبَتْ بُنَيَّاتُ القصيد وبدائع الأفكار بمثل المكان الخليِّ والصحصحِ العذيِّ والخِلّ الهنيّ الوفيّ.

وما أطول ليالي المحبين حال البعد والهجر! كما وصفهم بشار بقوله:

كأن الدُّجَى طالتْ وما طالتِ الدُّجى ... ولكن أطالَ الليلَ همٌّ مبرّحُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كذلك فلا بد قبل ولادة المقطوعة الأدبية ــ أيّاً كانت ــ من أمرين: اشتعال في الصَّدْرِ، وصفاء في الفكر. فمن الأول وهو الدافع ــ وقد يكون حبّاً ورغبة أو ضدهما ــ تثور المشاعر رطبةً غضّة متوجِّهة للأعلى، كبخار الماء، فمتى صادفت رياحاً لقاحاً في فَلَكِ العقلِ نتج عنهما السحاب المطير بالأدب العذب الصادق بإذن الله تعالى.

قلت: الغضب كذلك رافد لأبيات البراكين النارية. قال: هو من حرائق الصدر فهو داخل، والحزن كذلك نهرٌ رافد لدموع الأبيات البكائية. أما الطمع فلا تحفل بقريضه، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما خرّجه مسلم: «**إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**» خلا من كان مدحه بحق في سبيل إحقاق حق، أما المتكثّرة فلا كثرهم الله! ثم قال: أحقّاً ترى الغضب مفجِّراً لعيون القريض؟ قلت: يا صاحبي، أليستِ الحفيظة تهيج القريحة؟!

وقد ذكروا أن رجلاً من بني عبس سابَّ عنترة بن شداد، فذكر سواده وسواد أمه وأخوته وعيَّره. فقال عنترة: والله إن الناس ليترافدون بالمطعم، فوالله ما حضرتَ مَرْفَدَ الناس لا أنت ولا أبوك ولا جدك قط. وإن الناس ليُدعون إلى الفزع فما رأيناك في خيل قط، ولا كنت إلا في أوائل النساء. وإن اللبس ـ يعني الاختلاط ــ ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أحد من أهلك خطة فصل قط. وكنت فَقْعَاً بقرقر، ولو كنتُ في مرتبتك أو مغرسك الذي أنت فيه، ثم ماجدْتُكَ لَمَجَدْتُكَ، أو طاولتك لطُلْتُكَ، ولو سألتَ أمَّك وأباك هذا لأخبراك. وإني لأحضرُ الوغى، وأوفي المغنم، وأعفُّ عند المسألة،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأجود بما ملكت، وأفصل الخطة الصمعاء. فقال له الآخر: أنا أشعرُ منك، فقال له: ستعلم. وكان عنترة لا يقول من الشعر إلا البيت والبيتين في الحرب فقال قصيدته المعلقة: هل غادر الشعراء من متردم. وزعموا أنها أول قصيدة قالها، والعرب تسميها المُذَهَّبَة.

وهنالك أمثلة مشابهة، وبخاصة مع الشعراء السودان كالشّنفرى ــ ومعناه غليظ الشفه ــ ، وتأبط شراً، والسّليك، فهم أبناء حبشيات نبذهم آباؤهم فتصعلكوا، ولهم مقطوعات رائقة، وهم من أغربة العرب.

ويكأني أرى الحارث بن عُبَادٍ يهتف بقومه بني شيبان غاضباً لمقتل ابنه بجير هاتفاً بهم مثيراً حماستهم وحميتهم صائحًا في سائس فرسه النعامة هادراً:

قرّبا مربط النعامة منّي لقحت حرب وائلٍ عن حيالِ

ثم يعيد الأمر بتقريب عنانها ومربطها في ثنائيات متوالية حتى أضحت سلسلة ناريّة غضبية لم تلبث أن تفجّرت بحربه التغلبيين وأخذ ثأره وشفاء صدره وبرد غليله بجزّ ناصية الزير سالم قاتل ابنه.

وتأمل تشبيهه البليغ ووصفه المطابق ومقارنته بين لقاح الإناث ولقاح الحروب، فلقاح الإناث حمل، لكن لقاح الحروب ثكلٌ وقتلٌ وإيتامٌ وسحق، لذلك قال: لقحت حرب وائل عن حيال، أي أن نتاج الحرب حيال لا حمل، والأنثى الحائل هي التي لم تحمل، أي أن حروب وائلٍ ـ ويقصد بهم جذمي بكر وتغلب ـ قد تفانوا وأهلك بعضهم بعضاً في الرجال والأنعام في حرب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البسوس الشنيعة.

ويشبه قول الحارث بن عباد هذا قول زهير بن أبي سلمى في معلقته واصفاً الحرب:

فتعـــرككم عَـــرْكَ الرّحـــى بثفالهـــا وتَلْقَـــحْ كِـــشَافاً ثُـــمَّ تُنْـــتَجْ فتُتْـــئِمِ

ودخل العجّاج على عبد الملك بن مروان فقال له: يا عجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تقويض الأخبية. قال: فما يمنعك منه؟ قال: إن لنا عزاً يمنعنا من أن نظلم، وإن لنا حلماً يردعنا عن أن نهضم، فعلام الهجاء؟ قال: لكلامك أشعر من شعرك!

وهل اقتدح معلقتي الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم إلا الغَضَبُ؟! وهل شعرُ الحماسة إلا شعر الغضب؟! أما الهجاء فهو نهر الغضب الطامي. وفيه من مداخل الشيطان ما فيه، وما تسابَّ اثنان إلا غَلَبَ الأَمَهُمَا، والهاجي لسانه مقراض الأعراض، ولا يأكل خبزه إلا بلحوم الناس! وكم فيه من لفظة ثقيلة لو أُلقيت في البحر لكدَّرَتْه!

فقال صاحبي: أعوذ بالله من غضبٍ لغير الله، فدعنا الآن من فوران شرايين الغِضاب وارحل بي لرياض المحبين؛ فهل قلت في البدر شيئاً، قلت: نعم، وهل من سكّة أديبٍ ليس فيها نقشُ بدر! وما أنا معك إلا كمستبضعِ التمر إلى هجر، ومهدي الفصاحة إلى أهل الوبر! وعلى كلٍّ فقد قلت قديماً:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨- وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ..

ألا أيها البدرُ الجميلُ أَسَرْتَني ... أسراً لذيذاً والصحاري تشهدُ
كم ليلةٍ عِفْتُ السُّهادَ لعلَّني ... أخلو إليك وقد جفاني المرقدُ
أجمِلْ بمن صاغَ الضياءَ لآلئاً ... وتناثرتْ أَلماسُهُ والعسجدُ
يتسامرُ الأحبابُ تحتَ سنائهِ ... هذا الضياءُ وذا الكثيبُ الأمردُ
عجبي لمن خَلَبَ الفؤادَ بحسْنِهِ ... والحُسنُ يا بدر الدُّجى يَتَجَدَّدُ
قد سُمِّيَتْ بِيْضاً لياليكَ العِذَى ... في ساحِكم لا لن يَدومُ الأسودُ
لكنّما القمراءُ منها بضعةً ... ما أروع اللائي من اسمك تُشْدَدُ
لا أشتهي ليلاً خلا منه الوفي ... ما أوحَشَ اللائي عن اسمك تُفردُ
كم شاعرٍ كم ناثر كم عاشقٍ ... كم عابدٍ في طول ليلك يسجدُ
كم من همومٍ أحرقت كبدي التي ... كادت لحرٍّ في الجوى تتخدّدُ
همٌّ يمضُ الرُّوحَ من طول المدى ... بجوانحي لكنني أتجلَّدُ
أوّاه دمعي لا تبُحْ سِرِّي الذي ... أكننته قلباً حزيناً يكمدُ
لكنَّما اللوعاتُ حينَ أوارها ... تجثوا على القلبِ القويِّ فيهمَدُ
تتهشّمُ الأضلاعُ من رجع الصَّدى ... من أنَّةٍ مكلومةٍ تتردَّدُ
يا مُقلتي ما عُدتُ أقوى صابراً ... جودي ببحرٍ زاخرٍ يتجدَّدُ
بحرٌ خِضمٌّ سُخِّنَتْ أمواجهُ ... من نار كبدي والضلوعُ تُقَدَّدُ
يا لائمي زِدْتَ الجروح بمُهجتي ... أُرفق بمن فيه الهُمومُ تُجَسَّدُ
ظن الرَّفيق وقد رآني ضاحكاً ... أن السرور بخافقي يتوقَّدُ
أَوَمَا دَرَى المسرورُ أن بمُهْجَتِي ... همٌّ ثقيلٌ جاثمٌ يتجدَّدُ
قد قُلتُ ذلك والمُنيرُ بدربِهِ ... ليلٌ طويلٌ والدُّجى يتمدَّدُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: في كل وادٍ بنو سعد، فزدني من هنيهاتك. فقلت وقد حَمِيَتْ أشجاني:

تصيحُ القوافيَ قُمْ واقتَحِمْ ... وما بيْ طِلابٌ وما بيْ شِبَمْ
فأوقدتِ الشيبَ في مفرِقي ... وأجبرتِ الكفَّ جَرّ القلمْ
ملَلْتُ البَقاءَ وذا العيشُ همْ ... لمَّا رأيتُ سُقوطَ القِمَمْ
فتِلْكَ الصِّلادُ إذا ما استحالَتْ ... تراباً بِطَرْفَةِ عينٍ فثمْ
إذا قُدوةُ القومِ أمسى لئيماً ... وباعَ بأخراهُ دُنياً أذمْ
فكبِّرْ وسلِّمْ على أُمَّتِي ... فقبلَ الوفاةِ يكونُ السَّقَمْ
وعُذْراً أُخَيَّ فما مقصدِي ... من القولِ هذا كبارَ الهِمَمْ
ففي كلِّ قرنٍ يذودُ عن الدِّينِ ... فَرداً وجمعاً إلى أن يتمْ
أقولُ وقولوا معي يا أُبَاةُ ... بصوتٍ يطولُ أعالي القمَمْ
إذا الدِّينُ أضحى يُنادي رجالاً ... فلا خير فينا إذا لم نَقُمْ
ولا خير فيمن يصيحُ به الدينُ ... صيحةَ غوثٍ فلم ينتقِمْ

فقام صاحبي يردِّد البيتين الأخيرين، وهو يَمْلَحُ سمكاته الباقية، ويصفّها فوق صندوقه، ثم قال: أجمِلْ بعذب القريض إذا وافق عَطَشَ الهِيم!

ثم رمى إليّ وسادةً وقماشاً من نوع الرّوز، فكان فراشاً ولحافاً، وصار القاربُ كسريرِ الرضيع تُهَدْهِدُهُ خفقاتُ البحر.. ونام السمير والمسامر.

وخيّل إلي أن صاحبي كان يُتمتِمُ مترنِّماً مستعبراً، وهي بحق تستحق الوقوف عندها «وقوف شحيح غاب في الترب خاتَمُه»:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨- وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ ..

كأنَّـــكَ بالمـــضيِّ إلى ســـبيلكْ ... و قـد جـدّ المجهِّـزُ في رحيلـكْ
و جِـــيء بغاســـلٍ فاســـتعجلوه ... بقـولهمُ لـه أفـرغ مـن غـسيلِكْ
و لم تحمـل سـوى كفـنٍ وقطـنٍ ... إلـيهم مـن كثـيرك أو قليلـكْ
و قـد مـدَّ الرجـال إليـك نعـشاً ... فأنـت عليـه ممـدودٌ بطولـكْ
وصـــلَّوا ثـــمّ إنهـــمُ تـــداعَوا ... لحملك من بكورك أو أصيلكْ
فلـــما أســـلموك نزلـــت قـــبراً ... و مـن لـك بالـسلامة في نزولـكْ
أعانـــك يـــوم تدخلـــه رحـــيمٌ ... رؤوفٌ بالعبـاد عـلى دخولـكْ
فـسوف تجـاور المـوتى طـويلا ... فـذرني مـن قـصيرك أو طويلـكْ
أخـي لقـد نـصحتك فاسـمع لي ... و بـالله اسـتعنت عـلى قبولـكْ
ألـست تـرى المنايـا كـل حـين ... تـصيبك في أخيـك و في خليلـكْ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٩

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي..

طوت المركبة بنا البيداء ضحى اليوم التالي، ونحن نغوص في تنوفةٍ غبراء لا نهاية لها على مرأى العين. ترابها يابسٌ ومرعاها عابسٌ، وقد ذكّرتني هذه الصحاصح الأماليس مُؤْيِسَةَ معروف الرصافي:

وما المرءُ إلا دَوْحةٌ في تَنُوفَةٍ ... مُلَوَّحةُ أغصانها بالسمائمِ
لها ورَقٌ قد جفّ إلا أقلّه ... وعيدانها بين النُّيوب العواجمِ
ولا بد أن تُجْتَثَّ يوما جُذورُها ... وتَقلعها إحدى الرياح الهواجمِ
أرى العمر مهما ازداد يزداد نقصُهُ ... إذن نحن في نقصٍ من العمر دائمِ

ثم لاحت لنا أطلال قرية عتيقة مهجورة، فتلا صاحبي قول الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، فاسترحنا ساعة في ظل أثلة في طَرَفِهَا ظليلة شامخة باسقة، وحفيف الأثلات من فوقنا يشوق المشوق ونحن ننشد مع ابن طالب الحنفي:

ألا يا أثلات القاع من بطن تُوضِحِ ... حنيني إلى أطلالكنّ طويلُ
ويا أثْلاتِ القاع قلبي مُوكَّلٌ ... بكنَّ وَجدْوَى خيركنّ قليل
ويا أثلاتِ القاع قد مَلَّ صُحبتي ... وقوفِي فهلْ في ظلِّكُنَّ مَقِيلُ

ثمّ أشملنا جهة الشام ولم نُلقِ العصا إلا بعيد العصر في ظل جبلي أجا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسلمى في حائل الشمّاء العذيّة. التي قال فيها امرؤ القيس:

أبتْ أجاءُ أن تُسْلِمَ اليوم جارَها ... فمن شاء فلينهض لها من مقاتلِ
تبيتُ لبوني بالقُرَيَّةِ أُمَّناً ... وأسرحها غِبّاً بأكناف حائلِ

وقد مشينا من حين فتحت الشمس جفنها إلى أن كادت تغمض طرفها، نطوي الفدافد ونَرْهَجُ البِيد، فوصلنا ونحن ننشد لراشد بن عبد ربه:

وخبّرها الركبان أنْ ليس بَيْنها ... وبين قُرى بُصرى ونَجران كافرُ
فألقت عَصاها واستقرت بها النَّوى ... كما قَرَّ عيناً بالإياب المُسافرُ

أصلحنا الرواق بعد الصلاتين المجموعتين، وكانت الريح تخفقه برفق، لكنها كانت شديدة البرودة، وكان نبتُ الربيع حينها مزهراً في الغاية، وقد أنخنا في شعبٍ دَمْثٍ قد سال منذ أيام فغسل السيل كلَّ شائبة تركها البشر، فأوقدنا النار واصطلينا، ثم قمت لرأس الشعب واشتريت جدياً رضيعاً من أحد الرعاة، فما هي إلا ساعة حتى كانت أبخرة الطعام في الصحفة تفوح بيننا، ذلك أن قِدْرَ الضغط قد قام باللازم، ثم اضطجعنا من الإرهاق في فُرُشٍ معدّة لمثل حالنا من الرَّحالة..ورزقنا الله بالسكون والهدَأة. وصاحبي يردّد:

ألا إن نومات الضحى تورثُ الفتى ... خبالاً ونومات العصير جنونُ

فأجبته موافقاً بقول الآخر:

إذا رام الفتى بَرَقَ المعالي ... فأول فائتٍ طيب الرَّقادِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن لا خيار، إن أردت سمرةً على جمر الغضى. فقال: إني سائلكَ: أيهما أقضى للحاجة دموعه أم دموعها؟ قلت: دموعها أمضى ودموعه أمرّ، فلا أمرّ من بكاء الرجال، ولا أمكر من دموع النساء، وعقل المرأة في جمالها، وجمال الرجل في عقله، وكما قال امرئ القيس:

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي بسهميك في أَعشَار قلبٍ مُقَتَّلِ

ثم خاط كرى النوم أعيننا، فرقدنا رقدةً كابوسيَّة ثقيلة حتى انتبهتُ لأذان صاحبي لصلاة المغرب، ورفعت رأسي الثقيل، إذ النوم في غير وقته يزيد الإرهاق ويشتت التركيز، فقمت وأنا أتأمل بقايا مشاعل الشفق خلف الجبل الأشمّ.

مدَّ صاحبي كأس الحليب المُفعم بالفلفل والهيل والزنجبيل وهو يقول: ألا توافقني أن الإسلام كسر سَوْرَةَ الشعر عند العرب؟

قلت: لا أوافقك في ذلك، فالإسلام هذَّب الشعر ولم يكسره، فعاب مجونيات الملك الضلِّيل امرئ القيس وأشباهه، واطَّرح خمريات الأعشى وابن كلثوم وأمثالهما، كذلك المدائح التي تُراد لغير الحق أو كانت في غير حق، فأمر بملء أفواه أهلها بالتراب، أما ما كانت بحق ولإحقاق حق فلم يمنع منها. وفي المقابل رفع من كاهل أشعار الحرب والحماسة والجهاد ومنها الهجاء الجهادي، واحتفى بأشعار الحكمة والتأمل، كذلك الوعظ والتزهيد، أما غرضك الأثير وهو الغزل والنسيب فلم يحفل به منعاً أو طلباً، بل تركهم على سجيّتهم وعذريتهم. فهزّ رأسه وقال: زدني ومثّل لقولك بما نَدَّ لصائدة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خواطر الذاكرة.

فقلت بعدما تلفَّفْتُ بالكساء الغليظ من لفح رياح الشمال ــ وأنا أقرأ بعض الشواهد من ورقات زوَّرتُها سلفاً ـ:

يكفيك مثالاً شاهداً حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي وهو من خؤولة النبي ﷺ بني النجار، أحد شعراء النبي ﷺ، وكان شعره على قريش أشد من وقع السيوف، وكان يقول عن لسانه: والله ما سرَّني به مِقْوَلٌ من مَعَدٍّ، وهو الذى شفى صدر رسول الله ﷺ من قريش وشعرائها، وقد كان فصيح اللسان حلو البيان. قال أبو عبيدة: فَضلَ حسان الشعراء بثلاث: كان شاعرَ الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في الإسلام، وشاعر اليمن كلها، وكان أشعر أهل المَدَرِ. وكان في الهجاء مُهاباً لا يُجارى غير أنه لا يظلم ولا يتجنى، وهو القائل:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... أن لست هاجيها إلا بما فيها

ومن تهديده:

ودع السؤال عن الأمور وبحثها ... فلرُبَّ حافرِ حفرةٍ هو يصرعُ

وقد كان شجاعاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكفى بمن استعدى الفرسان والشعراء شجاعة وجَلَداً، ولو كان جبانا ـ كما وصفه بعض من لم يخبر حاله ـ لم يكن له في الهجاء والفخر قدمُ صدقٍ، ولقوَّضَ عليه أعداءه مجده الشعري، فما من خُلَّتين هما أرذل وأحقر عند العرب من الجبن والبخل، وإن صح ما زعموه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من أنه لم يشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ فذلك راجع لكبر سنه، ولأنه كان مصابا بالأكحل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن المهمات كذلك أنه صحابي، فبما أنه من صحابة رسول الله ﷺ فله الحصانة الخاصة بالصحبة «**لا تسبوا أصحابي**» مع ضميمة حصانة الإسلام، فلنجعلها منا على ذكر.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**اهجُوا قريشاً، فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ النَّبل**» فأرسل إلى ابن رَوَاحةَ، فقال: «**اهجهُمْ**»، فلم يُرْضِ، فأرسلَ إلى كعب ابن مالك فلم يُرْضِ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسانُ: قد آن لكم أن تُرْسِلوا إلى هذا الأسدِ الضَّاربِ بِذَنَبِهِ، ثم أدْلَعَ لسانه، فجعل يُحرِّكُه، فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينَّهُمْ بلساني فرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَعْجلْ، فإن أَبا بكر أعلمُ قريش بأَنسابها، وإن لي فيهم نَسَباً، حتى يُخْلصَ لك نسَبي**» فأتاه حسان، ثم رجع، فقال: والذي بعثك بالحق، لأسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لحسان: «**إن رُوحَ القُدُس لا يزال يُوَيِّدُكَ ما نَافحتَ عن الله ورسوله**» وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هَجاهُم حسان، فشَفى واشْتَفى**» ومن منافحته عن رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته قوله:

هَجَوْتَ محمدا فأجبْتُ عنه ... وعندَ الله في ذاكَ الجَزَاءُ

هَجوتَ محمداً برّاً تقياً ... رسولَ الله شيمتهُ الوَفَاءُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـــإن أَبي وَوَالـــدَهُ وعِـــرضي ... لِعِـــرْضِ محمـــد مـــنكم وقَـــاءُ
عـــدِمنا خيلنـــا إن لم تَرَوْهَـــا ... تُثِـيرُ النَّقْـعَ مـن كَنَفـي كَـداءُ
يُبَـــارِينَ الأعنَّـــةَ مُـــصْعِدَات ... عـلى أَكتافِهـا الأسَـلُ الظِّـماءُ
تَظَـــلُّ جِيَادُنـــا مُتَمَطِّـــرَات ... تُلَطِّمُهُـــنَّ بـــالْخُمُرِ النِّـــسَاءُ
فـإِنْ أَعْرَضْـتُمُ عنـا اعْتَمَرنـا ... وكَـان الفَـتْحُ وَانكَـشَف الغِطَـاءُ
وإلا فَاصْـــبِرُوا لِجِـــلادِ يَـــوْمٍ ... يُعِـــزُّ الله فيـــه مـــن يـــشاءُ
وقـال الله قـد أرْسَـلْتُ عبـداً ... يقـولُ الحـقَّ لـيس بـه خفـاءُ
وقـال الله قـد يَـسَّرتُ جنـداً ... هُـمُ الأنـصارُ عُرْضـتها اللِّقَـاءُ
لنـا في كـلِّ يـوم مـن مَعَـدٍّ ... سِـــبَاب أَو قتـــال أو هِجـــاءُ
فَمَـنْ يَهْجُـوا رَسـولَ الله مـنكم ... ويَمدَحُـــه وَينـــصُرُهُ سَـــوَاءُ
وجبريـــل رســـولُ الله فينـــا ... وروُحُ القُـدْسِ لـيس لـه كِفـاءُ

ولما أُنشدَتْ قريش شعر حسان قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة! لعلمهم بتفوّقه في الأنساب والأيام. وجعل بعضهم يقول: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا.

وفي المستدرك بسنده وصححه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما دخل رَسُول الله ﷺ مَكَّة رأى النِّسَاء يلطمن وُجُوه الْخَيل بِالْخمرِ، فَتبَسَّمَ رَسُول الله ﷺ إِلَى أبي بكر فَقَالَ: «**كَيفَ قَالَ حسان بن ثَابت يَا أَبَا بكر**» فأنشده أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عـــدمت بنيتـــي إِن لم تَرَوْهَـــا ... تثـير النَّقْـعَ مـن كَتِفـي كـداء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ينـــازِعْن الأعِنَّـــةَ مـــشعفات يلطمهـــن بِـــالْخمرِ النِّـــسَاء

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**من حَيْثُ قَالَ حسان**» فَدخل رَسُول الله ﷺ من كداء أَعلَى مَكَّة.

وفي الصحيحين أن حسان قال: يا رسول الله ائذن لي في أبي سفيان. قال «**كيف بقرابتي منه**» قال: والذي أكرمك لأسُلَّنَّكَ منهم كما يُسل الشَّعر من الخمير، فقال حسان يهجو أحدهم:

وإن سـنام المجـد مـن آل هاشـمٍ بنـو بنـتِ مخـزومٍ ووالـدُك العبـدُ
وأنـت هَجِـينٌ نِـيطَ في آل هاشـمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكب القَدَحُ الفَرْدُ

وورد أنّه حينما جاء لمفاخرة تميم برسول الله ﷺ والإسلام، أخرج لسانه فضرب به أَرنبة أَنفه، وقال: والله يا رسولَ الله إنه ليخيّل لي أنّي لو وضعته على حَجر لفَلَقَهُ، أو على شَعَر لحَلَقَهُ.

وقيل: إن الحارث بن عوف أتى رسول الله فقال: أجرني من شعر حسان، فلو مزج البحر بشعره مزجه.

وأخرج البخاري تعليقاً من حديث أبي الزناد عن أبيه عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه فإما يُفاخر عن رسول الله ﷺ، وإما يُنافح. ويقول رسول الله ﷺ: «**إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله**».

وفي الترمذي أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سُئلت: هل كان النبيُّ ﷺ يَتمثَّل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بشيء من الشِّعْر؟ قالت: كان يتمثَّلُ بِشِعْرِ ابنِ رَواحَةَ، وَيَتَمثَّلُ ويقول: ويأتيكَ بالأخبَارِ مَن لم تُزَوِّد. وروى مُسلم عَن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنه كَانَ يَقُول فِي قصصه يذكر رَسُول الله ﷺ: «**إِن أَخاً لكم لَا يَقُول الرَّفَث**» ـ يَعْنِي بذلك عبد الله بن رَوَاحَة ـ قَالَ:

وَفينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كِتَابه ... إِذا انشقَّ مَعْرُوفٌ من الْفجْر سَاطِعُ

أرانا الْهدى بعد الْعَمى فَقُلُوبنَا ... بِهِ مُوقِنَات أَن مَا قَالَه وَاقِعُ

يبيت يُجَافِي جنبه عَن فرَاشه ... إِذا اسْتَقَلت بالكافرين الْمَضَاجِعُ

ويُذكر أن ابن رواحة أنشد أبياته هذه لما غاضبته امرأته حينما رأته خارجاً عن جاريته، واتهمته بجماعها فأنكر، فقالت: إذن فاتلُ من القرآن ــ لأن الجنب ممنوع من تلاوته ــ فأنشدها الأبيات الآنفة فزال ما بها. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وخرَّج مُسلم عَن عَمْرو بن الشريد عَن أَبِيه قَالَ: أردفني رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «**هَل مَعَك من شعر أُميَّة بن أبي الصَّلْت شَيْء؟**» قَالَ: نعم. قَالَ: «**هيه**». قَالَ: فَأَنْشَدته بَيْتا فَقَالَ: «**هيه**» قَالَ: فَأَنْشَدته حَتَّى بلغت مائَة بَيت. وَفِي رِوَايَة أنشدت النَّبِي ﷺ مائَة قافية من قَول أُميَّة بن أبي الصَّلْت كل ذَلِك يَقُول: «**هيه، هيه**». ثمَّ قَالَ: «**إِن كَاد فِي شعره ليُسْلِم**».

وزعموا أن حسان قد عاش مئةً وعشرين سنة، ستين منها في الجاهلية، وستين منها في الإسلام. ومن فاخر مديحه قوله يمدح الغساسنة وهم أبناء عمومته:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أولادُ جَفْنةَ عند قبر أبيهمُ ... قبرِ ابن ماريَةَ الكريمِ المُفْضِلِ
يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصفَّق بالرَّحيق السَّلْسَلِ
بِيضُ الوجوهِ كريمةٌ أنسابُهم ... شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ
يُغْشَوْن حتى ما تَهِرُّ كِلابُهم ... لا يَسألون عن السَّواد المُقْبِلِ

ومن جزيل قوله، ولعمر الله لقد صدق في فخره بأنصار الله:

لمنْ منزلٌ عافٍ كأنَّ رسومَهُ ... خياعلُ ريطٍ سابرِيٍّ مرسَّمِ
خلاءُ المبادِي ما بهِ غيرُ ركدٍ ... ثلاثٍ كأمثالِ الحمائمِ جثمِ
وغيرُ شجيجٍ ماثلٍ حالفَ البِلَى ... وغيْر بقايا كالسَّحِيقِ المنمنَمِ
يعلُّ رياح الصيْفِ بالِي هشيمهِ ... على ماثلٍ كالحوضِ عافٍ مثلَّمِ
كستْهُ سرابيلَ البلَى بعدُ عهدِهِ ... وجونٌ سرَى بالوابلِ المتهزمِ
وإذْ نحنُ جيرانٌ كثيرٌ بغبطَةٍ ... وإذْ ما مضَى منْ عيشنا لمْ يصرَّمِ
وكلُّ حثيثِ الودْقِ منبثقِ العُرَى ... متى تزجهِ الريحُ اللواحقُ يسجمِ
ضعيفُ العرَى دانٍ منَ الأرضِ بركهُ ... مسفٌّ كمثلِ الطودِ أكظَمَ أسحَمِ
فإن تكُ ليلَى قدْ نأتكَ ديارُها ... وضنتْ بحاجاتِ الفؤادِ المتيَّمِ
وهمتْ بصرْمِ الحبلِ بَعدَ وصالهِ ... وأصغَتْ لقول الكاشِحِ المتزعمِ
فما حبلُها بالرَّثِّ عندِي ولا الذي ... يغيرُهُ نأيٌ ولوْ لمْ تكلَّمِ
وما حُبُّها لوْ وكَلَتْنِي بوَصْلِهِ ... ولوْ صرَمَ الخلانُ بالمتصرَّمِ
لعمرُ أبيكِ الخيرِ ما ضاعَ سرُّكُمْ ... لدَيّ فتجزِينِي بعاداً وتصرِمِي
ولا ضقْتُ ذرعاً بالهوى إذْ ضمنتهُ ... ولا كظَّ صدْرِي بالحديثِ المكتمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا كـانَ ممّـا كـانَ ممّـا تقولُـوا ... عـليَّ ونثُّـوا غـيرَ ظـنٍّ مـرجَّمِ
فـإنْ كُنْـتِ مما تجبُرِينا فسائِلِي ... ذَوِي العلْمِ عنا كيْ تُنَبَّى فتعْلَمِي
متـى تـسألِي عنّـا تنبَّـى بأنَّنـا ... كِـرامٌ وأنّـا أهْـلُ عـزٍّ مقـدَّمِ
وأنّـا عـرانِينٌ صـقورٌ مـصالتٌ ... نهـزُّ قنـاةً متنُهـا لمْ يُوَصَّـمِ
لعمـرُكَ مـا المعـتَرُّ يـأتِي بلادَنـا ... لنمْنَعَـهُ بالـضائِعِ المتهـضَّمِ
ولا ضـيفنا عنـدَ القـرَى بمـدفَّعٍ ... ومـا جارُنـا في النائبـاتِ بمـسْلَمِ
ومـا الـسيدُ الجبـارُ حـينَ يريـدُنا ... بكيـدٍ عـلى أرْماحنـا بمحـرَّمِ
نبيحُ حمَـى ذِي العـزِّ حـينَ نكيـدُهُ ... ونحمِـي حمانـا بالوشـيجِ المقـومِ
ونحـنُ إذا لمْ يـبرمِ النـاسُ أمـرهُم ... نكـونُ عـلى أمـرٍ مـنْ الحـقِّ مُـبْرَمِ
ولـوْ وزنَـتْ رَضْـوَى بحلْـمِ سراتِنا ... لمـالَ برَضْـوَى حِلْمُنـا ويرَمْـرمِ
ونحنُ إذا ما الحربُ حلَّ صرارُها ... وجادَتْ على الحُلاَّبِ بالموتِ والدَّمِ
ولمْ يُـرْجَ إلاَّ كـلُّ أرْوَعَ ماجـدٍ ... شـديدِ القـوَى ذي عـزةٍ وتكـرُّمِ
نكـونُ زِمـامَ القائِـدِينَ إلى الـوَغَى ... إذا الفـشِلُ الرعديـدُ لمْ يتقـدَّمِ
فنحنُ كذاكَ الدهرَ ما هبَّتِ الصَّبا ... نعـودُ عـلى جهـالِهِمْ بـالتحلُّمِ
فلـوْ فهمُـوا وفقُـوا رُشـدَ أمـرِهمْ ... أخـذْنا عليهمْ بعـدَ بؤسـى بـأنعُمِ
فإنّـا إذا مـا الأفْـقُ أمْـسَى كـأنَّما ... عـلى حافتَيْـهِ ممْـسِياً لـوْنُ عنـدَمِ
لـنطعمُ في المـشتى ونطعـنُ بالقنـا ... إذا الحربُ عادتْ كالحريقِ المضرَّمِ
وتلقَـى عـلى أبياتِنـا حـينَ نجتَـدَى ... مجـالسَ فيهـا كـلُّ كهـلٍ معمَّـمِ
رفيـع عـمادِ البيـتِ يسترُ عرضَـهُ ... مـنَ الـذمِّ ميمـونُ النقيبـةِ خـضرمِ
جـوادٍ عـلى العـلاتِ رحـبٍ فناؤُهُ ... متـى يـسألِ المعـروفَ لا يـتجهمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَشَمَّ طويلِ الساعدَيْنِ سميْدَعٍ معيدِ قراعِ الدارِعينَ مكلَّمِ

وقد كان يهجو المشركين ثلاثةٌ من الأنصار؛ حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، ويرميهم كعب بتخويفهم بالحرب، ويثلمهم حسان بالقدح في أنسابهم، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر. فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم.

وفي المسند بسنده عن سعيد بن المسيب، أن عمر مر بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله، فانتهره عمر، فقال حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فانطلق عمر. وعنه كذلك بسنده عن مسلم بن يسار، أن عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله، فأخذ بأذنه وقال: أرغاء كرغاء البعير؟! فقال حسان: دعنا عنك يا عمر، فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فلا يغيّرُ عليَّ. فصدَّقَهُ عمر.

وخبر المفاخرة مع بني تميم في عام الوفود من السنة التاسعة يُظهر منزلة الشعر والخطابة في العهد النبوي، وأصل الخبر عند ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما بأسانيدهما، وأعجبني سياق أبي الفرج في أغانيه بسنده عن محمد بن الضحاك عن أبيه قال: قدم على النبي ﷺ وفدُ بني تميم وهم سبعون أو

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثمانون رجلاً، فيهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، وانطلق معهم عيينة بن حصن فقدموا المدينة، فدخلوا المسجد فوقفوا عند الحجرات فنادوا بصوت عالٍ جافٍ: أخرج إلينا يا محمد، فقد جئنا لنفاخرك! وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا. ـ وتأمل وزن الشعر الفخري في ذلك العهد ـ فخرج إليهم رسول الله ﷺ فجلس. فقام الأقرع بن حابس فقال: والله إن مدحي لزَيْنٌ وإن ذمِّي لشين. فقال النبي ﷺ: «**ذاكَ اللهُ**» فقالوا: إنا أكرم العرب. فقال رسول الله ﷺ: «**أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام**».

فقالوا: ائذن لشاعرنا وخطيبنا. فقام رسول الله ﷺ فجلس، وجلس معه الناس، فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له الفضل علينا وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق، وأتانا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف، ليس في الناس مثلنا، ألسنا برؤوس الناس وذوي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، ولو نشاء لأكثرنا ولكنا نستحي من الإكثار فيما خولنا الله وأعطانا، أقول هذا فأتوا بقول أفضل من قولنا، أو أمر أبين من أمرنا. ثم جلس.

فقام ثابت بن قيس بن شماس ـ خطيب رسول الله ﷺ وَمُصْقِعُ من تشدّق من الأعراب ـ فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يقض شيئاً إلا من فضله وقدرته،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكان من قدرته أن اصطفى من خلقه لنا رسولاً أكرمهم حسباً، وأصدقهم حديثاً، وأحسنهم رأياً، فأنزل عليه كتاباً وائتمنه على خلقه، وكان خيرة الله من العالمين. ثم دعا رسول الله إلى الإيمان، فأجابه من قومه وذوي رحمه المهاجرين، أكرم الناس أنساباً، وأصبح الناس وجوهاً، وأفضل الناس فعالاً. ثم كان أول من اتبع رسول الله من العرب واستجاب له نحن معشر الأنصار، فنحن أنصار الله، ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ويقولوا لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه في الله، وكان جهاده علينا يسيراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات. فقام الزبرقان فقال:

نحنُ الملوكُ فلا حيٌّ يُقَارِبُنا ... مِنّا الملوكُ وفينا يُؤْخَذُ الرُّبَعُ
تلك المكارمُ حُزْنَاها مُقَارَعةً ... إذا الكرامُ على أمثالها اقترعوا
كَمْ قد نَشَدْنا مِنَ الأحياءِ كُلِّهِمُ ... عند النِّهاب وفضلُ العِزِّ يُتَّبَعُ
ونَنْحَرُ الكُومَ عُبْطاً في مَنازلنا ... للنازلين إذا ما اسْتَطْعَموا شَبِعوا
ونحن نُطْعِم عند المَحْلِ ما أكلوا ... من العَبِيطِ إذا لم يَظْهَرِ القَزَعُ
وننصر الناسَ تأتينا سَرَاتُهُمُ ... مِنْ كُلِّ أوْبٍ فتَمْضِي ثم تُتَّبَعُ

فأرسل رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت فجاء فأمره أن يجيبه، ـ وقيل بل كان جالساً فقال: «**قُم فأجبِ الرَّجلَ**» وهذا أليق وأظهر، فأنَّى لحسان أن يتخلَّف عن مثلها؟! ـ فقال حسان ـ وتأمل كيف أتى بها على البديهة وبنفس الوزن والرويّ، وتذكَّر تأييد الروح القدس له ـ:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنّ الـذوائبَ مِـنْ فِهْـرٍ وإخْـوَتِهِمْ ... قـد بَيَّنُـوا سُـنَّةً للنّـاسِ تُتَّبَـعُ
يَرْضَى بها كلُّ مَنْ كانت سريرتُه ... تَقْوَى الإلهِ وبالأمرِ الذي شَرَعُوا
قـومٌ إذا حـاربوا ضَرُّوا عَـدُوَّهُمُ ... أو حاولوا النَّفْع في أَشياعهم نَفَعُوا
سـجِيَّةٌ تلـك مـنهم غـيرُ مُحْدَثَـةٍ ... إنّ الخلائـقَ فـاعلَمْ شَرُّهـا البِـدَعُ
لا يَرْقَعُ النّاسُ ما أوهـتْ أكُفُّهُـمُ ... عند الدِّفاع ولا يُوهُـون ما رَقَعوا
إنْ كان في الناسِ سَبَّاقون بعدَهُمُ ... فكُـلُّ سَـبْقٍ لأدْنَـى سَـبْقِهِمْ تَبَـعُ
أعفَّـةٌ ذُكِـرَتْ في الـوَحْيِ عِفَّـتُهمْ ... لا يَطْمَعـون ولا يُـزْري بهـم طَمَـعُ
ولا يَـضِنُّونَ عـن جـارٍ بِفَـضْلِهِمُ ... ولا يَمَـسُّهُمُ مِـنْ مَطْمَـعٍ طَبَـعُ
يَسْمُون للحرب تبدو وهي كالحةٌ ... إذا الزَّعَانِفُ من أظفارِها خَشَعُوا
لا يَفْرَحـون إذا نـالوا عَـدُوَّهُمُ ... وإنْ أصـيبوا فـلا خُـورٌ ولا جُـزُعُ
كـأنَّهم في الـوَغَى والمـوتُ مُكتَنِعٌ ... أُسُـودُ بِيـشَةَ في أرسـاغها فَـدَعُ
خُذْ منهمُ ما أتى عَفْواً وإنْ مَنَعُوا ... فلا يَكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الذي مَنَعُوا
فـإنّ في حَـرْبِهم فـاتْرُكْ عـداوتَهم ... سُـماً يُخَاض عليه الصَّابُ والسَّلَعُ
أَكْـرِمْ بَقْـومٍ رسـولُ الله قائـدُهُمْ ... إذا تَفَرّقَـتِ الأهـواءُ والـشِّيَعُ
أَهْـدَى لهـم مِـدَحِي قلـبٌ يـؤازِرُهُ ... فـيما أراد لـسانٌ حائِـكٌ صَـنَعُ
فـإنّهم أفـضلُ الأحيـاء كلِّهِـمُ ... إنْ جَدّ بالناس جِدُّ القولِ أو شَمَعُوا

فقام عطارد بن حاجب فقال:

أتينـاك كـيما يعلـمَ النـاسُ فـضلنَا ... إذا اجتمعوا وقتَ احتضارِ المَوَاسِمِ
بأنّـا فُـروعُ النـاسِ في كـلِّ مـوطنٍ ... وأنْ ليس في أرض الحجاز كَـدَارِمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقام حسان بن ثابت فقال:

مَنَعْنا رسولَ الله من غَضَبٍ له ... على أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغمِ
هَلِ المجدُ إلاّ السُّؤْدُدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وجاهُ الملوكِ واحتمالُ العظائِم

قال: فقال الأقرع بن حابس: والله إنّ هذا الرجل لمؤتىً له، والله لشاعره أشعر من شاعرنا، ولخطيبه أخطب من خطيبنا، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا، أعطني يا محمد، فأعطاه، فقال: زدني، فزاده. فقال: «**اللهم إنه سيد العرب**» ـ ولعله أراد أهل البادية ـ فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

ثم إن القوم أسلموا، وأقاموا عند النبي يتعلمون القرآن، ويتفقهون في الدين. ثم أرادوا الخروج إلى قومهم، فأعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم.

ومن مآثر الشعر ما ذكره ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: بلغني أنّ دَوْساً إنما أسلمتْ فَرقاً من كعب بن مالك صاحب النبيّ ﷺ حيث يقول:

قَضينا من تِهامة كُلّ رَيْبٍ ... وخَيْبرَ ثم أَجْمَنْا السيوفَا
نُخَيِّرُهَا ولو نَطقتْ لقالت ... قواضبُهنَّ دَوْساً أو ثَقِيفاً

وفي التاريخ الكبير للبخاري عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال لكعب بن مالك: «**أيا كعب ما نسي ربك، وما كان ربك نسياً، بيتاً قلتَهُ**» قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**أنشده يا أبا بكر**» فأنشده أبو بكر:

زعمتْ سَخينةُ أنْ ستغلب رَبَّها ... ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاّبِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والسخينة: هي طعام حارٌّ يتخذ من دقيق وسمن، وقيل: دقيق وتمر، أغلظُ من الحساء، وأرقّ من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعُيّرتْ بها ــ إذ لم يجدوا سواها ــ حتى سموا سخينة. وتدبّر منزلة الصدّيق الأكبر ومعرفته لمراد الحبيب صلوات الله عليه وسلامه.

وذكر ابن عبد ربه في عَقْدِه أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن رَواحة: «**أَخْبرني ما الشعرُ يا عبد الله؟**» قال: شيء يَختلج في صَدْري فيَنطق بهِ لساني. قال: «**فأَنْشِدني**» فأَنشده شعره الذي يقول فيه:

فثبَّـت الله مـا آتـاك مِـنْ حَـسَنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالَّذي نُصروا

فقال النبيّ ﷺ: «**وإياك ثَبَّت الله، وإياك ثَبت الله**» وروى الطبراني آخره.

وكان الذي هاج فتْح مكة أنّ عمرو بن مالك الخُزاعِيّ، أحدَ بني كَعب، خَرج من مكة حتى قَدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكانت خُزاعة في حِلْف النبيِّ ﷺ وفي عهده وعَقْده، فلمّا انتقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم ما أصابوا، أقبل عمرو بن مالك الخُزاعيّ بأبيات قالها. فوقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال ـ وتأمل تماثل قافيتي الصدر والعجز في اشتراك راقص بديع، وهذا ما ميّز الأراجيز واستحلاها من أفواهِ الحُدَاة ـ:

يـــا رب إنّي ناشـــدٌ مُحمـــدَاً ... حِلْـــفَ أَبينـــا وأَبيـــه الأتْلـــدَا

قـــد كنـــتُم وُلْـــداً وكُنّـــا وَلـــدا ... ثمّـــت أســـلمنا فلـــم ننـــزع يـــدا

إنّ قريـــشاً أخلفـــوك الموعـــدا ... ونقـــضوا ميثاقـــك المؤكّـــدا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجعلـــوا لي في كَـــداء رَصـــداً ... وزعمـوا أن لـست أدعـو أحـدا
وهـــم أذلّ وأقـــل عـــدداً ... هُـــم بيّتونـــا بـــالوتير هُجَّـــدا
وقَتّلونـــا رُكعّـــا وسُـــجّدا ... فانـصرُ هَـداك الله نَـصْراً أَيِّـدا
وأدْع عبَـــاد الله يـــأتوا مَـــدَدا ... فـيهِم رسـولُ الله قـد تجـرّدا
إنْ سِـيم خَـسْفاً وجهُـه تَربّـدا ... في فَيْلـق كـالبَحر يَجْـري مُزْبـدا

قال ابن هشام: فقال رسولُ الله ﷺ: «**نُصرت يا عمرو بن سالم**». ثمَّ عَرض عارضٌ من السماء، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إن هذه السحابة تستهلّ بنَصْر بني كعب**» وأخرجه البيهقي في الكبرى.

لقد كان الشعر ميسوراً على سليقة العرب وسجيتهم وصفاء قريحتهم، وقال سعيد بن المُسيِّب: كان أبو بكر شاعراً، وعُمر شاعراً، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة.

ولما نظم حسان قوله:

نسوِّدُ ذا المـالِ القليـلِ إذا بـدتْ ... مروءتـهُ فينـا وإنْ كـانَ مُعـدَماِ

أعجب به، فصعد أطمةً، ونادى: واصباحاه، فاجتمع قومه إليه، وقالوا: ما وراءك؟ فأنشدهم البيت! ومن لم يذق الفالوذج لم يَسْتَمْه!

وقال أنس بن مالك خادمُ النبيّ ﷺ: قَدِم علينا رسولُ الله ﷺ، وما في الأنصار بيت إلاّ وهو يقول الشعر. قيل له: وأنتَ أبا حمزة؟ قال: وأنا.

هذا ومِن تأثير الشعر في النفوس النبيلة ما رواه ابنُ إسحاق صاحب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المَغازي وابن هشام قالا: لما نزل رسولُ الله ﷺ الصفراء - وقال ابنُ هشام: الأثيلِ - أمر عليًّاً فضرَب عنق النَضر بن الحارث بن كَلدة بن عَلْقمة بن عبد مناف، صبراً بين يدي رسول الله ﷺ. فقالت أُختُه قُتيلة بنت الحارث ترثيه:

يـــا راكبـــاً إنّ الأثيـــل مَظنّـــة	مـن صُبحِ خامسة وأنـت مُوفَّـقُ
أَبْلِـــغ بهـــا مَيْتـــاً بـــأنَّ تحيـــةً	مـا إن تـزال بهـا النجائـبُ تخفـقُ
منـي عليـك وعَـبرة مَـسْفوحة	جـادت بواكِفهـا وأُخـرى تَخنُـق
هـل يَـسمعني النـضرُ إن ناديتُـه	أم كيـف يَـسمع مَيـت لا ينطـقُ
أمحمـد يـا خـيرَ ضِـنْءِ كَريمـة	في قَومهـا والفحـلُ فحـلٌ مُعْـرِقُ
مـا كـان ضرك لـو مَننـت وربـما	مَـنّ الفتـى وهـو المَغـيظ المُحنـقُ
فالنـضر أقـربُ مـن أَسرت قرابـةً	وأحقُّهـم إن كـان عِتْـق يُعتـقُ
ظَلّـت سـيوفُ بنـي أبيـه تَنوشـه	للّهّ أرحـــام هنـــاك تمـــزّقُ
صـــبراً يُقـــاد إلى المنيّـــة مُتعبـــاً	رَسْـفَ المُقيّـد وهـو عـانٍ مُوثَـقُ

قال ابن هشام: قال النبيّ ﷺ، لمّا بلغه هذا الشعر: «**لـو بلغني قبلَ قتله ما قتلْتهُ**». نعم. فقولها: لله أرحام هناك تُمزّق، يهزّ المشاعر هزاً، حتى وإن كان قد قُتِلَ بحق، فقد نُقِلَ عن النبي ﷺ العفو أضعاف أضعاف ما نُقل من العقوبة.

وأرسل الأصمعي قال: جاء رجُل إلى النبيّ ﷺ فقال: أُنْشِدُكَ يا رسول الله؟ قال: نعم. فأنشده:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تركتُ القِيان وَعزْف القِيان ... وأدمنتُ تَصلية وابتهالا
وكَرِّي المُشقَّر في حَوْمةٍ ... وشَنِّي على المُشْركين القِتالا
فيا ربّ لا أغبننْ صفقتيَ ... فقد بِعْت مالي وأهلي بدالا

فقال النبيّ ﷺ: «**رَبح البَيع، ربح البيع**».

وقدم أبو ليلى النابغة الجَعديّ على رسول الله ﷺ، فانشده شعرَه الذي يقول فيه:

بَلَغنا السماءَ مجدنا وسناؤنا ... وإنا لَنرجو فوق ذلك مَظْهَرَا

فقال له النبيّ ﷺ: «**إلى أين يا أبا ليلى؟**» فقال: إلى الجنة يا رسول الله. فقال النبيّ ﷺ: «**نعم، إن شاء الله**» فلما انتهى إلى قوله:

ولا خير في حِلم إذا لم تَكُن له ... بوادرُ تَحْمِي صَفْوه أن يُكَدَّرا
ولا خيرَ في جَهل إن لم يكُن له ... حَلِيم إذا ما أورد الأمرُ أصدرَا

فقال النبيّ ﷺ: «**لا يفْضُضِ اللهُ فاكَ**» فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تَنْغُض له ثنية. رواه أبو نعيم وابن منده. ولهما كذلك بسنديهما عن بجير بن بجرة قال: كنت في جيش خالد ابن الوليد حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أكيدر ملك دومة الجندل فقال النبي ﷺ: «**إنك تجده يصيد البقر**» قال فوافيناه في ليلة مقمرة، قد خرج كما نعته رسول الله ﷺ فأخذناه وقتلنا أخاه كان قد حاربنا وعليه قباء ديباج، فبعث به خالد إلى النبي ﷺ فلما أتينا النبي ﷺ أنشدته:

تبارَكَ سائقُ البقرات إن ... رأيت الله يهدي كل هادِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمـن يـك عائـداً عـن ذي تبـوكٍ فإنّـــا قـــد أُمرنـــا بالجهـــادِ

فقال النبي ﷺ: «**لا يفضض الله فاك**» قال: فأتت عليه تسعون سنة ما تحركت له سن ولا ضرس.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وأرى شعر صدره وهو يرتجز بكلمة بن رواحة:

اللّهم لـولا أنـت مـا اهتـدينا ولا تـــصدَّقنا ولا صـــلّينا
فـــأنزلن ســـكينةً علينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
إن الأُلى قـــد بغـــوا علينـــا وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا

ويمد بها رسول الله ﷺ صوته.

وروى مسلم عن جابر بن سمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصفه رسول الله ﷺ قال: فكان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان الصحابة يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم فيضحكون، وربما يتبسم رسول الله ﷺ.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت كان رسول الله ﷺ إذا اسْتَرَاثَ الخبر تمثل فيه ببيت طرفة ... **ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ**. وعن سفيان الثّوري عن لَيث عن طاووس عن ابن عباس قال: إنها لكَلمة نبيّ. يَعني قولَ طرفة:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً وَيأتيـك بالأخبـار مَـن لم تُـزوِّدِ

وعند أبي نعيم عن يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعي قال: حدثني أبي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن أبيه قال كنت عند النبي ﷺ فأنشدته قول سويد بن عامر المصطلقي:

لا تـأمننّ وإن أمـسيت في حـرمٍ ... إن المنايـا بجنبـي كـل إنـسانِ
واسلك طريقك تمشي غير مختشعٍ ... حتى تلاقيَ ما يُمني لك المـاني
وكـل ذي صـاحب يومـاً مفارقـه ... وكـــل زاد وإن أبقيتـــه فـــاني
والخـير والـشر مقرونـان في قـرن ... بكـل ذلـك يأتيـك الجديـدانِ

فقال رسول الله ﷺ: «**لو أدركت هذا لأسلم**» فبكى أبي، فقلت: يا أبتاه ما يبكيك من مشرك مات في الجاهلية، فقال أبي: ما رأيت من مشركة تلقفت من مشرك خيراً من سويد بن عامر.

وعند ابن ماجه وغيره بسند صحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مر رسول الله ﷺ على جواري من بني النجار ــ وهم خؤولة عبد المطلب جدّ النبي ﷺ ـ وهن يضربن بالدف ويقُلْن:

نحـن جـواري مـن بنـي النجـار ... يـــا حبّـــذا محمـــد مـــن جـــار

فقال النبي ﷺ: «**الله يعلم أني لأحبُّكنّ**».

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسنده عَنِ الأَسْوَدِ بن سَرِيعٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي مَدَحْت اللَّهَ مَدْحَةً، وَمَدَحْتُك أُخْرَى، قَالَ: «**هَاتِ، وَابْدَأْ بِمَدْحِكَ اللهَ**». وبسنده عن أَبِي الْحَسَنِ الْبَرَّادِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. جَاءَ عبد اللهِ بن رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بن مَالِكٍ، وَحَسَّانُ بن ثَابِتٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالُوا:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّا شُعَرَاءُ، فَقَالَ: «**اقْرَؤُوا مَا بَعْدَهَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أَنْتُمْ ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾** [الشعراء: ٢٢٧] **أَنْتُمْ**». وبسنده عن عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَبْنِي الْمَسْجِدَ، وَعبد اللهِ بن رَوَاحَةَ يَقُولُ:

أَفْلَحَ مَنْ يُعَالِجُ الْمَسَاجِدَا

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ يُعَالِجُ الْمَسَاجِدَا

وعبد الله يقول:

يَتْلُو الْقُرْآنَ قَائِمًا وَقَاعِدَا

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

يَتْلُو الْقُرْآنَ قَائِمًا وَقَاعِدَا

وَهُمْ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ.

وعند أبي يعلى بسند صحيح عن الأَعْشَى الْمَازِنِي أنه أَنْشَدَ رسول الله ﷺ أرجوزة ومنها:

غَدَوتُ أَبْغِيهَا الطَّعَامَ فِي رَجَبْ ... فَخَلَّفَتْنِي بِنِزَاعٍ وَحَرَبْ

أَخْلَفَتِ الْعَهْدَ وَلَطَّتْ بِالذَّنَبْ ... وَهُنَّ شر غَالِبٌ لِمَنْ غَلَبْ

قَالَ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يتمثَّلها، وَيَقُولُ: «**وَهُنَّ شر غَالِبٌ لِمَنْ غَلَبْ**».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعند أحمد وأبي يعلى بسند حسن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنّ النَّبِيَّ ﷺ صَدَّقَ أُمَيَّةَ بن أَبِي الصَّلْتِ فِي بَيْتَيْنِ مِنْ شِعْرِهِ، قَالَ:

رجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ ... وَالنِّسْرُ لِلأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ**» قَالَ:

وَالشَّمْسُ تَطْلَعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... حَمْرَاءَ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ

تَأْبَى فَمَا تَطْلُعْ لَنَا فِي رِسْلِهَا ... إِلاَّ مُعَذَّبَةً وَإِلاَّ تُجْلَدُ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ**».

وقد صحح الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث واستدل به على أن حملة العرش في الدنيا أربعة ويوم القيامة ثمانية. قلت: وهذا متوجّه، وإن كان بيت أمية ليس بصريح في الحصر.

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: تَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ، وَأَبُو بَكْرٍ يَقْضِي:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ذَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وعند أبي شيبة في مصنّفه عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ رسول الله ﷺ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا مِنَ الشِّعْرِ إِلاَّ قَدْ قِيلَ له إِلاَّ هَذَا:

هَذَا الْجِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ ... هَذَا أَبَرَّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وله كذلك أَنَّ حَسَّانَ بن ثَابِتٍ أَنْشَدَ النَّبِيَّ ﷺ أَبْيَاتًا ــ وقيل إنها لابن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رواحة ـ فَقَالَ:

شَـــهِدْت بِـــإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّـــدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عَلُ
وَأَنَّ أَبَـا يَحْيَـى وَيَحْيَـى كِلاَهُمَـا ... لَـــهُ عَمَـــلٌ فِي دِينِـــهِ مُتَقَبَّـــلُ
وَأَنَّ أَخَـا الأَحْقَـافِ إِذَا قَـامَ فِيهِمُ ... يَقُـولُ بِـذَاتِ اللهِ فِـيهِمْ وَيَعْـدِلُ

وله بسنده عن عَنْ جَابِرِ بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا نَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ، فَيَجْلِسُ أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي، وَكَانُوا يَتَذَاكَرُونَ الشِّعْرَ وَحَدِيثَ الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلاَ يَنْهَاهُمْ، وَرُبَّمَا تَبَسَّمَ. وله عن أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُتَحَزِّقِين، وَلاَ مُتَمَاوِتِينَ، وَكَانُوا يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيَذْكُرُونَ أَمْرَ جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَإِذَا أُرِيدَ أَحَدُهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ دَارَتْ حَمَالِيقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ.

وقال: حدثنا يزيد بن هارون أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ مُحَمَّدًا وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَالرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ: أَيَتَوَضَّأُ مَنْ يُنْشِدُ الشِّعْرَ؟ وَيُنْشِدُ الشِّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ؟ قَالَ: فَأَنْشَدَهُ أَبْيَاتًا مِنْ شِعْرِ حَسَّانَ ذَلِكَ الرَّقِيقِ، ثُمَّ افْتَتَحَ الصَّلاَةَ.

وله بسنده عَنْ أَبِي الضُّحَى، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتَنْشَدَ مَعْدِي كَرِب فَأَنْشَدَهُ، وَقَالَ: مَا اسْتَنْشَدْت فِي الإِسْلاَمِ أَحَدًا قَبْلَك.

وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معدودٌ من نُقَّادِ الشعر فعند أبي شيبة بسنده عن رِبْعِيِّ بن حِرَاشٍ أنه أَتَى عُمَرَ فِي نَفَرٍ مِنْ غَطَفَانَ فَذَكَرُوا الشِّعْرَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَيُّ شُعَرَائِكُمْ أَشْعَرُ؟ فَقَالُوا: أَنْتَ أَعْلَمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: مَنِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الَّذِي يَقُولُ:

أَتَيْتُــك عَارِيًــا خَلِقًــا ثِيَــابِي عَــلَى خَــوْفٍ تُظَــنُّ بِي الظُّنُــونُ
فَأَلْفَيْــت الأَمَانَــةَ لَمْ تَخُنْهَــا كَــذَلِكَ كَــانَ نُــوحٌ لاَ يَخُــونُ

قُلنا النَّابِغَةُ، ثُمَّ قَالَ: مَنِ الَّذِي يَقُولُ:

حَلَفْت فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

قلنا: النابغة، ثُمَّ قَالَ: مَنِ الَّذِي يَقُولُ:

إلاَ سُــلَيْمَانَ إذْ قَــالَ الإِلَهُ لَــهُ قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْزُمْهَا عَلى الْفَنَدِ

قلْنَا: النَّابِغَةُ، قَالَ: هَذَا أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ. وله عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ عُمَرُ يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

إلَيْــك تَعْــدُو قَلِقًــا وَضِــينُهَا مُعْتَرِضًــا فِي بَطْنِهَــا جَنِينُهَــا

مُخَالِفًا دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا

وله بسنده عَن عِكْرِمَةَ، قَالَ: كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَنَحْنُ مُنْطَلِقُونَ إِلَى عَرَفَاتٍ، فَكُنْت أُنْشِدُهُ الشِّعْرَ، وَيَفْتَحُهُ عَلَيَّ. وله وللبيهقي وغيرهما بأسانيدهم عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: تَمَثَّلَ ابنُ عبّاسٍ بِهَذَا الْبَيْت وَهُوَ مُحْرِمٌ، قَالَ:

وَهُــنَّ يَمْــشِينَ بِنَــا هَمِيــسًا إِنْ تَــصْدُقِ الطَّــيْرُ نَنِــكْ لَمِيــسَا

قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: تَقُول هَذَا وَأَنْتَ مُحْرِمٌ، فَقَالَ: إِنَّمَا الْفُحْشُ مَا وُوْجِه بِهِ النِّسَاءُ وَهُمْ مُحْرِمُونَ. زاد بعضهم: وجعل راجزٌ لعبد الله بن عبّاس يسوق

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

له في الطريق ويقول:

صَبّحتُ من كاظمةَ القَصرَ الخَرِبْ مع ابن عبّاس بن عبد المُطّلبْ

وجعل ابن عبّاس يرتجز ويقول:

آوِي إلى أهلِكِ يا رَبابْ آوِي فقد حان لكِ الإيابُ

وفي المُصَنَّفَينِ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه قال: قالت عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رحم الله لبيدًا قال:

ذهب الذين يُعَاشُ في أكنافهم وبقيت في خُلْفٍ كجلد الأجربِ

يتأكَّلُونَ مغالةً وخِيَانَةً ويُعابُ قائلُهم وإنْ لم يَشْغَبِ

قال: فكان أبي يقول: رحم الله عائشة، فكيف لو رأت زماننا هذا؟!

ـ وكأني بالقارئ الكريم يهزّ رأسه متسائلاً: فكيف لو رأيت زماننا هذا؟! اللّهم غُفراً ـ.

ولابن أبي شيبة بسنده عَن مُطَرِّفِ بن عبد اللهِ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ إِلَى الْكُوفَةِ، فَكَانَ لاَ يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلاَّ أَنْشَدَنَا فِيهِ الشِّعْرَ. وله عَن كَثِيرِ بن أَفْلَحَ، قَالَ: كَانَ أَخِرُ مَجْلِسٍ جَلَسْنَا فِيهِ مَعَ زَيْدِ بن ثَابِتٍ مَجْلِسًا تَنَاشَدْنَا فِيهِ الشِّعْرَ.

وله عَنْ عَاصِمٍ، قَالَ: مَا سَمِعت الْحَسَنَ يَتَمَثَّلُ بِبَيْتٍ مِنْ شِعْرٍ قَطُّ إِلاَّ هَذَا الْبَيْتَ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَيَكُونُ حَيًّا وَهُوَ مَيِّتُ الْقَلْبِ. وله عَنِ ابْنِ أَبْجَرَ، قَالَ: مَرَّ عَامِرٌ بِرَجُلَيْنِ عِنْدَ مَجْمَعِ طَرِيقَيْنِ وَهُمَا يَغتَبَانه وَيَقَعَانِ فِيهِ فَقَالَ:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

وتدبّر فعل الشعر الحماسي الجهادي بصاحبه، فعند ابن إسحاق: كان جعفر بن أبي طالب يقاتل وهو يقول:

يا حَبَّذَا الجنةُ وآقترابها ... طيِّبةٌ وباردٌ شرابُهَا

والرُّومُ رومٌ قد دنا عذابها ... كافرةٌ بعيدة أنسابُهَا

على إن لاقيتها ضِرَابُهَا

وفي السنن الكبرى للبيهقي أَنَّ عبد اللَّهِ بن رَوَاحَةَ قَالَ حِينَ أَخَذَ الرَّايَةَ يَوْمَ مُؤْتَه:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسِ لَتَنْزِلِنَّهْ ... طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ ... مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّة

قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إِلاَّ نُطْفَةٌ فِي شَنَّة

وَقَالَ أَيْضًا:

يَا نَفْسِ إِلاَّ تُقْتَلِي تَمُوتِي ... هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ

وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يُرِيدُ جَعْفَرًا وَزَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. وعَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ عبد اللهِ بن رَوَاحَةَ خَرَجَ غَازِيًا إِلَى بَلَدِ الرُّومِ مَعَ جَعْفَرِ بن أَبِي طَالِبٍ وَزَيْدِ بن حَارِثَةَ، فَلَمَّا رَكِبَ رَاحِلَتَهُ؛ أَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا بَلَّغَتْنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي ... مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَزَادَكِ أَنْعُمًا وَخَلَاكِ ذَمٌّ ... وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي
وَآبَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي ... بِأَرْضِ الرُّومِ مُحْتَبَسَ الثِّوَاءِ
هُنَالِكَ لَا أُبَالِي نَخْلَ بَعْلٍ ... وَلَا سَقْيِي وَإِنْ عَظُمَ الْإِتَاءِ

يَقُولُ: إِذَا اسْتُشْهِدْتُ؛ لَمْ أُبَالِي بِمَا تَرَكْتُ مِنْ عِذْيِ النَّخْلِ وَسَقْيِهِ، والحِساء جمع حسي، وهو موضع رمل تحته صلابة، فإذا مطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء، فمنعته الصلابة أن يغيض، ومنع الرمل السمائم أن تنشفه، فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء، يقال: حسي وأحساء وحساء. ومنه أحساء المنطقة الشرقية. وعن زيد بن أرقم قال: كنت يتيما لعبد الله بن رواحة في حجره فخرج في سفرته تلك مردفي على حقيبة راحلته ووالله إنا لنسيرُ ليلة إذ سمعته يتمثل ببيته هذا:

إِذَا بَلَّغَتْنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي ... مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ

فلما سمعته منه بكيت فخفقني بالدرة وقال: ما عليك يا لُكَع أن يرزقني الله الشهادة وترجع من شعبتي الرحل! واللّكَعُ هو الأحمق، ومؤنَّثُهُ لَكَاع.

وبالجملة، فهذا الشعر قد كان في المكان الأرفع في العصر الذهبي للأمة كما رأيت، ولكن يا صاحبي: أذكِّرك ونفسي أن يكون لنا حزبٌ يوميٌّ من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القرآن الكريم، فلا نتخلّف عن ذلك الورد مهما عظمت رغائب الحطام، فلا بارك الله في شعرٍ يصرف عن كلام الله تعالى، وقد كان لكثير من السلف ختمة أسبوعية لا يتركونها حتى رحلوا. فمن رام التوفيق والفلاح فليتعلق بالله وليعظم كلامه حفظاً وتلاوة وتدبراً وعملاً واستشفاء، وليحذر هجره فإن الخذلان كل الخذلان في هجر القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. وأقول وليس في قولي مثنوية: المحروم من حرم التلذذ بتدبر وتلاوة كلام الرحمن. فحامل القرآن العامل به لا يبلغه شرفُ أمثاله وإن عظم، ولا مجدُهُم وإن قدم. فأَوْلِهِ ـ يا رعاك الله ـ شدّة عنايتك وفرط اكتراثك، وتفقد أخابيره وعجائبه.

هذا، والقرآن العظيم الكريم المجيد لا هو بالشعر ولا بالنثر، بل هو عمود قولٍ لم تعرفه العرب قبلاً، فقد حوى جملاً موزونة على لسان العرب، وفواصل تذكّرهم بقوافيهم، مع ذلك فهو إبداعٌ قاهر مُعجِزٌ جبّار قد قامت به الحجة وظهر به التحدي، فأعجز الخلائق أن يأتوا بمثله، ولو آية! وحيثما ضَرَبْتَ في معانيه وألفاظه وهداياته وعلومه خرجت بفوائد في قلبك ونفسك وعقلك وعلمك لم تكن معك أول الحال وتفجّرت في ثاني الحال عيون الإيمان والبصيرة في فؤادك، وكلّما كررت التلاوة والتدبّر عُدتَ بكنوزٍ لا تعدِلها الدنيا وما فيها، وإني لك ضامن. فهو كلام الله وكفى. ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

وقد روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي ما**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

والقرآن ذو معانٍ إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها، وما أحسن قول أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه حين قال فيما رواه الترمذي مرفوعاً والأصح وقفه: «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، و خبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، و لا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢]. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

وقد ذكر القرطبي رحمه الله في تفسيره كلاماً جامعاً في منزلة الشعر في الإسلام في كلام مؤصَّلٍ متين، ومعان منتخبة، وبألفاظ عذبة، وسبك جيد، عند تفسير قول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢] قال رحمه الله ـــــ وسأُلَخِّصُ مُهمّات كلامه ـ:

إنما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأن الجنّ أكثر ما تكون في الهواء، وأنها تمر في الريح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣] ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ صفة الشياطين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يرجع إلى الكهنة. وقيل: إلى الشياطين.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧] قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جمع شاعر، مثل جاهل وجهلاء، قال ابن عباس: هم الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ ضلال الجن والإنس. وقيل ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الزائلون عن الحق، ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاوون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك. وقد قدمنا في سورة النور أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم. روي مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قلت: نعم. قال: «**هيه**» فأنشدته بيتاً. فقال: «**هيه**» ثم أنشدته بيتا. فقال: «**هيه**» حتى أنشدته مائة بيت. هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته. واسم أبي الشريد سويد. وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية؛ لأنه كان حكيماً؛ ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«**وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» فأما ما تضمّن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمـــد لله العـــلي المنـــان صـار الثريـد في رؤوس العيـدان

أو ذكْرِ رسول الله ﷺ أو مدحه كقول العباس:

مـن قبلهـا طِبْـتَ في الظـلال وفي مـستودعٍ حيـث يخـصف الـورقُ
ثـــم هبطـــت الـــبلاد لا بـــشر أنـــت ولا مـــضغة ولا علـــقُ
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نـــــسراً وأهلـــــه الغـــــرقُ
تنقـــل مـــن صـــالب إلى رحـــم إذا مـــضى عـــالم بـــدا طبـــقُ

فقال له النبي ﷺ: «**لا يفضض الله فاك**». أو الذب عنه كقول حسان:

هجـوتَ محمـداً فأجبـتُ عنـه وعنـــــد الله في ذاك الجـــــزاءُ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه؛ كما روى زيد بن أسلم؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

عـــلى محمـــدٍ صـــلاةُ الأبـــرار صـــلى عليـــه الطيبـــون الأخيـــار
قـد كنـت قوّامـاً بكّـاء الأسـحار يـا ليـت شـعري والمنايـا أطـوار

هل يجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي ﷺ؛ فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إني رضيتُ علياً للهدى علماً ... كما رضيتُ عتيقاً صاحب الغارِ
وقد رضيتُ أبا حفص وشيعتِهِ ... وما رضيتُ بقتل الشيخ في الدارِ
كل الصحابة عندي قدوةٌ علَمٌ ... فهل عليّ بهذا القول من عارِ
إن كنتَ تعلم إني لا أحبهمُ ... إلا لأجلك فاعتقني من النارِ

وقال آخر فأحسن:

حب النبي رسول الله مفترض ... وحب أصحابه نور ببرهانِ
من كان يعلم أن الله خالقه ... لا يرمينّ أبا بكر ببهتانِ
ولا أبا حفص الفاروق صاحبه ... ولا الخليفة عثمان بن عفانِ
أما علي فمشهور فضائله ... والبيت لا يستوي إلا بأركانِ

قال ابن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها، وإن استغرقت الحدّ وتجاوزت المعتاد؛ فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ... متيّم إثرها لم يفد مكبولُ
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحولُ
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح. وأنشد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فقدنا الوحيَ إذ ولَّيتَ عنَّا ... وودَّعَنَا من الله الكلامُ
سوى ما قد تركت لنا رهيناً ... توارثه القراطيس الكرامُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقــد أورثتنــا مــيراث صــدق عليــك بــه التحيــة والــسلامُ

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا؟!

وقال أبو عمر ـ أي ابن عبد البر ـ: ولا يُنكر الحَسَنَ من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النُّهَى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثّلَ به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلمٍ أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله. وروى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «**أصدق كلمة – أو أشعر كلمة – قالتها العرب قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» أخرجه مسلم وزاد: «**وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً، فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر. فقال: ويلك يا لكع! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنه حسن وقبيحه قبيح! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشعر، وكان ابن عمر يمزح وينشد الشعر وسمعته:

يحــب الخمــر مــن مــال النــدامى ويكــره أن تفارقــه الفلــوسُ

وكان عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً مجيداً مقدماً فيه. وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب، وكانت له زوجة حسنة تسمى عثمة فعتب عليها في بعض

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأمر فطلقها، وله فيها أشعار كثيرة منها قوله:

تغلغل حب عثمة في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسيرُ
تغلغل حيث لم يَبْلُغْ شرابٌ ... ولا حزن ولم يبلغ سرورُ
أكاد إذا ذكرت العهد منها ... أطير لوَان إنسانا يطيرُ

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك! فقال: إن المصدور إذا نفث برأ.

الثانية: وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحّهم على حاتم، ويبهتوا البريء ويفسقوا التقي، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبدالملك سمع قوله:

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختامِ

فقال: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

من مبلغ الحسناءِ أن حليلَهَا ... بميسان يُسقي في زجاج وحنتمِ
إذا شئت غنَّتني دهاقينُ قرية ... ورقّاصة تجذو على كل منسمِ
فإن كنت ندماني فبالأكبر أسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلّمِ
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدّمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه. وقال: إي والله إني ليسوءني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦] فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت.

وذكر الزبير بن بكار قال: حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتب إلى عامله على المدينة: إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث، فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إلي. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر، فقال: هيه!

فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ... ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى
وكم مالئ عينيه من شيء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدّمى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون! ثم أمر بنفيه. فقال: يا أمير المؤمنين! أو خير من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبداً، وأجدد توبة، فقال: أو تفعل؟ قال: نعم، فعاهد الله على توبته وخلّاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال هيه!

الله بيني وبين قيِّمِهَا ... يفر مني بها وأتَّبع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بل الله بين قيمها وبينك! ثم أمر بنفيه؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال: والله لا أرده ما كان لي سلطان، فإنه فاسق مجاهر. فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد ولا غيره، كمنشور الكلام القبيح ونحوه. وروي إسماعيل بن عياش عن عبدالله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**حسن الشعر كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام**» رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام**».

الثالثة: روي مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً**» وفي الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «**خذوا الشيطان ـــ أو أمسكوا الشيطان ـ لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً**» قال علماؤنا: وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله، فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب، فيفرط في المدح إذا أعطي، وفي الهجو والذم إذا منع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم. ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام. وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه، بل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يجب الإنكار عليه؛ فإن لم يكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعيّن عليه أن يداريه بما استطاع، ويدافعه بما أمكن، ولا يحل له أن يعطي شيئاً ابتداء، لأن ذلك عون على المعصية؛ فإن لم يجد من ذلك مندوحة أعطاه بنيّة وقاية العِرْض؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتِبَ له به صدقة.

قلت: قوله عليه الصلاة والسلام: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه**» القيح المدة يخالطها دم. يقال منه: قاح الجرح يقيح وتقيح وقيح. و«يريه» قال الأصمعي: هو من الوري على مثال الرمي، وهو أن يدوي جوفه. وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله: إنه الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلأ صدره منه، دون علمٍ سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لِحُكْمِ العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوب على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر».

الرابعة: قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيح كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع. قال الأول منهم:

وجُرْحُ اللسان كجُرْحِ اليدِ

وقال النبي ﷺ في الشعر الذي يَرُدُّ به حسان على المشركين: «**إنه لأسرع**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيهم من رشق النبل» أخرجه مسلم. وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيلِهِ
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليلِهِ

فقال عمر: يا ابن رواحة! في حرم الله، وبين يدي رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «**خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل**».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قال الضحاك: تهاجى رجلان، أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله ﷺ، مع كل واحد غواة قومه ــ وهم السفهاء ــ فنزلت، وقاله ابن عباس. وعنه هم الرواة للشعر. وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس، وقد ذكرناه. وروى غضيف عن النبي ﷺ: «**من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه**» وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما افتتح مكة رنّ إبليس رنة، وجمع إليه ذريته؛ فقال ايئسوا أن تردّوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن أفشوا فيهما - يعني مكة والمدينة - الشعر.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سنن الحق؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليه ما يقوله تثبت، ولم يكن هائماً يذهب على وجهه لا يبالي ما قال. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه.

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ في كلامهم ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق، وبما حده الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل. وقال أبو الحسن المبرد. لما نزلت: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي ﷺ ـ فذكره وفي آخره: ـ قال النبي ﷺ: «**انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً ولا تذكروا الآباء والأمهات**» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي ﷺ: «**إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل**».

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديدٌ لمن انتصر بظلم. قال شريح: سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. ومعنى:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع؛ أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً؛ والله أعلم».

قال صاحبي هازّاً رأسه موافقاً: رحم الله الأئمة الأعلام، وقد اتَّضح الآن مراد الإمام الشافعي بقوله:

ولولا الشعر بالعلماء يُزرِي ... لكنتُ اليوم أشعَرُ من لبيدِ

قلت: صدقت فمراده من جعل الشعر ديدنه وهجّيراه، دون من استملح منه الفوائد والعواذب، فالشعر كالمِلْحِ لا بد منه لصقل العارضة وتفكيك مغاليق الفهم، فهو ديوان العرب الذين نزل بلغتهم التنزيل. ولا نعلم إماماً إلا وله معرفة بالشعر والعربية. وهذا الملح إذا زاد عن حدّه أزرى بصاحبه إن كان طالب علم، وقد كان حكيم الصحابة أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إني لأستجم نفسي ببعض الباطل ليكون أقوى لها على الحق، وكقول الشعبي: إن القلوب تمل كالأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة.

فالأدب يا سادة مطيّة لا غاية، بل وتحتاج هذه الراحلة لحسن سياسة وإلا عطبت وأعطبت، وقد يجر إنباتُها للحُتوف.

وإنه ليعزّ علي إزراء بعض طلبة العلم بأنفسهم في كورها بعد حورها، فينتقل أحدهم من محراب العلم لنادي الشعر، فيرغب عن ثني الركب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للدرس طلباً وتعليماً إلى إنشاد القصائد وقرض الأبيات حتى يُعرف به، فيمضي به ربيع في عقب شتاء، وخريف في ذيل صيف، حتى يحصد الخيبة. فغضّ انقلابه من بهائه وأخلق من روائه وأقفر مزودته من زاده ومزاده، وهذا لعمر الله من الخذلان، وهل عالم كشاعر؟!

بالمِلْحِ نصلحُ ما نخشى تغيّرهُ فكيف بالملح إن حلَّتْ به الغِيَرُ

هذا، ولا بد للأديب من حسنِ سياسة لوقته وحسن تقلُّبٍ في أعطاف عمره، وأنى ذاك إلا بقياد العقل الحازم للنفس الجامح الحرون! والعقلُ مركب صعب على طريق وعر، لكن النُّجح غايته والهوى بخلافه، ولا بد من رياضة النفس حتى تتذلل على الأمور المحمودة، فإن محامد الأمور مستثقلات النفوس، وشجرُ المكاره يثمر المكارم.

ألا إن أسعد أهل الأرض طُرًّا هم الصالحون، فاقرن نفسك بحبلهم، واركب مركب سفرهم تنل ما نالوا، فالكريم واحد. وكم تحت الثرى في هذه الساعة من مؤمن يلفّه السرور ويغشاه الحبور وهو يقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي...

والأدب النظيف للنفوس كالفواكه للأجساد، وكالزهور للأرواح، نُعَطِّرُ بأرجه مجالس أُنْسِنَا، ونعرف به مزيّة يومنا عن أمسنا، خاصة إن علا قدره ورقّ جرسُه وتنوعت حِكمه.

ولبشار بن برد وحقّ له قول مروان ابن أبي حفصة فيه: أنت باز والشعراء غرانيق:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو مشورة حازمِ
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوّةٌ للقوادمِ
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن ... نؤوماً فإن الحُرَّ ليس بنائمِ

وللإمام الشافعي ونُسبت للزمخشري، وهي في الغاية من الحكمة والنصح، وأدركت من يحفِّظها تلامذته:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لي ... مِنْ وَصْلِ غَانِيةٍ وَطيبِ عِنَاقِ
وصريرُ أقلامي على صفحاتها ... أحلى منَ الدَّوكاءِ والعشاقِ
وَأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الفتاة لِدُفِّهَا ... نقري لألقي الرَّملَ عن أوراقي
وتمايلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... أَشْهَى لقلبيَ مِنْ مُدَامَةِ سَاقِي
أَأَبِيتُ سهرانَ الدُّجا وتبيتهُ ... نَوْماً وَتَبْغي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي

وعلى سابلتها قال أبو إسحاق الألبيري:

لئن رفع الغنيُّ لواءَ مالٍ ... لأنت لواءَ علمِكَ قد رفعتا
وإن جلس الغنيُّ على الحشايا ... لأنت على الكواكب قد جلستا
وإن ركب الجيادَ مسوّماتٍ ... لأنت مناهج التقوى ركبتا
ومهما افتضّ أبكار الغواني ... فكم بكرٍ من الحكم افتضضتا
وليس يضرّك الإقتار شيئاً ... إذا ما أنت ربَّك قد عرفتا
فماذا عنده لك من جميل ... إذا بفناء طاعته أنختا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٠

وَلَيْلٍ أُقَاسِيْهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ..

أصبحنا وأصبح الملك لله، نادى بها صاحبي وهو يتوضأ للفجر، حينما سُلَّ سيفُ الصبح من غمد الظلام، والنسائم الباردة لا زالت تهبّ من الشمال، وبعد الصلاة وأذكارها ركبنا السيارة لاستكشاف بيداء جبلي طيئ، فالتفتُّ إلى جبلي شمّر وهما شامخان جهة مشرق الشمس، فتذكرت شموخ جبل رضوى الذي يظرب المثل بشموخه وضخامته وثقلِهِ ووعورته. قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لنا حاضرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنَّهُ ... شماريخُ رَضْوى عزَّةً وتَكَرُّما
متى ما ترزنَا من معدٍّ بعُصبةٍ ... وغسَّانَ نمنعْ حوضَنَا أن يُهدَّما
بكلّ فَتى عاري الأشاجعِ لاحَهُ ... قراعُ الكُماةِ يرشَحُ المسكَ والدَّما
ولدْنا بني العنقاءِ وابنيْ مُحرِّقٍ ... فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابْنَمَا
نُسوِّدُ ذا المال القليلِ إذا بدتْ ... مروءتهُ فينا وإنْ كانَ مُعدما
وإنَّا لقوَّالون للخيلِ أقدِمِي ... إذا لمْ يجدْ بعضُ الفوارسِ مَقْدما
لنا الجَفناتُ الغرُّ يلمعنَ بالضُّحى ... وأسيافُنا يقطُرْنَ من نجدةٍ دَما
أبى فعلُنا المعروفَ أن ننطقَ الخَنَا ... وقائلُنا بالعُرفِ إلاّ تكلُّما

ومن الطرائف حول ذلك؛ ما ذكره أبو مالك بن كركرة قال: أنشدني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ابن مناذر قصيدة رثى فيها عبد المجيد فلما بلغ قوله:

يقدح الدهر في شماريخ رضوى ... ويحط الصخور من هبودِ

قلت: هبود أي شيء هو؟ قال:جبل. قلت: سخنت عينيك! هبود والله عين باليمامة؟ ماؤها ملح لا يشرب منه شيء خلقه الله، والله لقد خريت فيها مرّات! فلما كان بعد مدة، وقفت عليه في مسجد البصرة، وهو ينشدها، فلما بلغ هذا البيت أنشد:

يقدح الدهر في شماريخ رضوى ... ويحط الصخور من عبودِ

قلت له: عبود أي شيء هو؟ فقال: جبل بالشام، ولعلك يا ابن الزانية خريت عليه أيضا؟ فضحكت، ثم قلت: ما خريت عليه، ولا رأيته، ثم انصرفت عنه، وأنا أضحك.

هذا وتزعم العرب أن أجَأَ في الأصل كان اسم رجل، وكان عاشقاً سلمى، وكانت امرأة أخرى يقال لها العوجاء تجمع بينهما بالحرام، ثم إن بعل سلمى أدركهم بعدما هربوا منه، فصلبهم على هذه الأجبُل، فسُمِّيَت الأجبُل بأسمائهم، والجبل الثالث هو العوجاء وهو دون الجبلين في الضخامة. أما الرُّبَّان فهو رُكْنٌ ضَخْمٌ من أَجَأٍ وسَلْمى؛ سُمِّيَ رُبّاناً لارْتِفَاعِه.

قال بُرْجُ بن مُسْهِرٍ الطائِيُّ يُخاطبُ صَخْرًا الهُذَلِيَّ:

فَإِنْ نَرْجِعْ إِلى الجَبَلَيْنِ يومًا ... نُصَالِحْ قَوْمنا حتّى المَمَاتِ

وقال زَيْدُ بن مُهَلْهِلٍ الطائيُّ:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جَلَبْنَ الخَيْلَ مِنْ أَجَإٍ وَسَلْمَى تَخُبُّ تَرَائِعاً خَبَبَ الرِّكَابِ

وقال لَبِيدٌ، يصف كَتِيبةَ النُّعمانِ:

كَأَرْكَانِ سَلْمَى إِذْ بَدَتْ أَوْ كَأَنَّهَا ذُرَى أَجَا إِذْ لاَحَ فِيهِ مُوَاسِلُ

ومُوَاسِلٌ: قُنَّةٌ في أَجإٍ، وقد جاءَ مقصوراً غير مهموزٍ، وهو الأسهل وهو المعمول به الآن عند العامة.

ثم سرنا حتى أوفينا على هضبة، وقد سكنت الريح وبدأت جمرة النهار ترسل شعاعاها الدافئ على متون الأرض التي تقصّفت قبل أيامٍ بمطرٍ كأفواه القرب.

وأشرفنا من فوق التلعة على بساط بديع من الخضرة والربيع، والأركة تنمُّ وسطه عن الكمأة الزبيدية السمينة! فانتشى صاحبي لمرأى هذا المشهد البديع، ولا يملك من رأى مثل هذه المناظر الخلابة إلا التسبيح بحمد ربه. فلما رأى صاحبي ذلك تمثل بقول عمر بن ربيعة:

فلما توافقنا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ

ثم تمثل بقول جميل:

أبثينَ إنك قد ملكت فأسجحي وخذي بحظك من كريم واصلِ

ثم قال: حُقَّ لمن عاشوا في الفيافي أن تَنضج قريحةُ أشعارهم، وتُفترع أبكارُ أخيلتهم. فهات من آدابهم فِقَراً حساناً ونتفاً جياداً تهش لها الأسماع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وترتاح لها القلوب، فتشحذ الأفكار الكليلة وتشفي الأذهان العليلة، وخاصة أهل البادية، فأحلى أبيات الشِّعر ما خرج من أبيات الشَّعر.

قلت: صدقت يا عذب الحديث، ولا عجب في البادية من وجود الشعراء المعرّقين ـ أي تسلسل الشعر في نسلهم ـ فمنهم محمد بن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى. كل هؤلاء شعراء معرقون، وأشعر ولد جرير بلال. أما شعراء القرى والمدر المعرّقون فمنهم سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت، فهؤلاء كلهم شعراء.

ثم قال: هلمّ فلنتخير أطايب سجع حمائم أصحابي، فقلت: أنشد البحتري الطائي:

ألامُ على هواكِ وليس عدلاً ... إذا أحببتُ مثلك أن أُلاما
أعيدي فيّ نظرة مُستثيبٍ ... توخّى الأجر أو كره الأثاما

ولأبي العميثل:

سلام على الوصل الذي كان بيننا ... تداعت به أركانه فتضعضعا
تمنّى رجال ما أحبوا وإنما ... تمنّيت أن أشكوا إليها فتسمعا

فقال: هذا النسيب لا مجونيات امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة والأحوص وأبي نواس.

يا مَنْ تمادى في مُجُون الهَوَى ... سالَ بك السَّيْلُ ولا تدْرِي

قلت: لكن أبا نُوَاسٍ قد أحسن في قوله:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـديتُكَ قـد جُـبلتُ عـلى هواكَـا ... فنفْـــسي لا تنـــازِعُني سِـــواكَا
فليتَ الناسَ أُعْمُوا عنك غيري ... فـــآمَنُ أن يـــرَوْكَ كـــما أراكَـــا
وليْتَـــكَ كلـــما كلّمْـــتَ غـــيْري ... رُميـــتَ بخرسـةٍ ومنعـــتَ فاكَـــا
أُحبّـــكَ لا ببعْـــضي بـــل بكُـــلّي ... و إنْ لم يُبقـــي حبّـــكَ بي حَرَاكَـــا
ويَـقبحُ من سـواكَ الشيْءُ عندي ... فَتَفْعَلُـــه فيحـــسُنُ منـــكَ ذاكَـــا

وقال جميل:

فيا حسنها إذ يغسلُ الدمعُ كحلَهَا ... وإذ هيَ تذري الدمعَ منها الأناملُ
عـشيةَ قالـت في العتـابِ قتلتني ... وقـتلي بـما قالـت هنـاك تُحـاوِلُ
فقلـت لهـا جـودي فقالـت مجيبـة ... أَلَلجِدّ هـذا منكَ أم أنـتَ هـازِلُ؟
لقد جعلَ الليلُ القصيرُ لنا بكـم ... عـليّ لروعـاتِ الهـوى يتطـاولُ

ولنُصَيْب:

جلـستُ لهـا كـيما تمُـرّ لعلّنـي ... أُخالـسها التـسليم إن لـن تـسلِّمِ
فلـما رأتنـي والوشـاة تحـدرت ... مـــدامعها خوفـــاً ولم تـــتكلّمِ
مساكين أهل العشق ما كنت أشتري ... حيـاة جميـع العاشـقين بـدرهمِ

فضحك وقال: قاتله الله ما أصيده للمقاتل! إن النسيب الرقيق كهذا لَهُوَ مما تهشُّ له النفس، ويعلق به القلب، ويسرع اليه الهوى. خذ هذه؛ قال الوليد بن زيدون الأندلسي في معنىً شائق:

تبكي فراقك عين أنت ناظرها ... قد لجّ في هجرها عن هجرك الوسنُ
أنت الحياة فإن يقدر فراقك لي ... فليحفر القبر أو فليحضر الكفنُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولعمرو بن سعيد بن زيد:

أمـــن آل لـــيلى بـــالملا متربّـــعُ ... كـما لاح وشـمٌ في الـذراع مرجّـعُ
ظللـتُ بروحـاء الطريـق كـأنني ... أخـــو حيـــةٍ أوصـــالُه تتقطّـــعُ
وأتبع ليلى حيث سارت وخيمتْ ... ومـا للنـاسُ إلا آلـفُ ومـودعُ

ولما أراد عبد الملك الخروج إلى قتال مصعب بن الزبير تعلقت به امرأته عاتكة، فبكت وأبكت جواريها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جمعة ـ وهذه الدعوة يراد بها المدح عُرفاً ـ إذ يقول:

إذا مـا أراد الغـزوَ لم يُـثْنِ عزمَـهُ ... حَـصَانٌ عليهـا نظـم درٍّ يزينُهَـا
نهتـه فلـما لم تـر النهـي عاقَـهُ ... بكـتْ فبكـى مـما دهاهـا قطينُهَـا

ولابن الأحنف وتأمل كيف نَحَتَهُ في جبل القريض فأضحى جميل المطلع حسن المقطع، هائل المعنى والمبنى:

والحُـبُّ أولُ مـا يكـون لجاجـة ... تـــأتي بـــه وتـــسوقه الأقـــدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لُجَجَ الهوى ... جـــاءت أمـــورٌ لا تطـــاق كبـــارُ

ودخلت عزة على أم البنين بنت عبد العزيز، وقيل سكينة بنت الحسين، فقالت: ما الحق الذي مطلتيه كثيّراً إذ قال:

قـضى كـل ذي حـقّ فـوفّى حقوقـه ... وعـــزّة ممطـــولٌ معنّـــى غريمُهـــا

فقالت: وعدته قُبلة. فقالت: نَجِّزيها وعلي إثمها! ثم إنها استغفرت وندمت.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وذو القلب الحزين وإن تعزى يُهيَّجُ حين يلقى العاشقينا

يا صاحبي: إنه الحب القديم، والعشق العتيق، والغرام الدفين، نعم إنها علائق خلّة ونوازع مقة، تلتحم بها الأحشاء فيتشبث بها القلب وتمتزج بعلائق الكبد، لا تحول مدى الأيام ولا تزول طوال الليالي.

ولْنذهب بخيالنا لبدويات أبي الطيب إذ يقول في تفضيل ظباء الأعرابيات على غزلان الحضريات:

ما أوجهُ الحضرِ المستحسناتِ بهِ كأوجهِ البدويَّاتِ الرَّعابيبِ
حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ
أين المعيزُ من الآرامِ ناظرةً وغير ناظرةٍ في الحُسنِ والطِّيبِ
أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفنَ بها مضغ الكلام ولا صبغَ الحواجيبِ
ولا برزن من الحمَّام مائلةً أوراكهنَّ صقيلات العراقيبِ

ومن بكائيات أبي تمّام العالية:

ومما ضرّم البُرَحاءَ أنّي شكوتُ وما شكوتُ إلى رحيمِ
أظن الدمع في خدي سيبقى رسوماً من بكائي في الرسومِ

وقال أبو تمام أيضاً ولله دره:

فأَجْرَى لَهَا الإشْفَاقُ دَمْعاً مُوَرَّداً مِنَ الدمِ فوقَ خدٍّ مورّدِ
هيَ البدرُ يغنيها تودُدُ وجهها إلى كُل مَنْ لاقَتْ وإنْ لَمْ تَوَدَّدِ

هذا، وقد كان العرب لا يحبّذون الجمال البارع والحسن النادر في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الزوجة، وقد حُكي أن رجلاً شاور حكيماً في التزوّج فقال له: افعل وإياك والجمال البارع؛ فإنه مرعًى أنيقٌ!

ثم قمنا فمشينا على الأقدام مع كل منّا عصاه التي لا تعصيه، وصاحبي يقول: ما هذا الحب الذي يُودِي بعبد الله بن عجلان النهدي لما رأى أثر كفّ محبوبته في ثوب زوجها إلى الموت؟! حقاً إن ابن آدم ضعيف. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال طاووس وغيره: أي في أمر النساء، ولا يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء. وقال وكيع: يَذهب عقلُه عندهن. وقال سعيد بن المسيب: ما آيس الشيطان من بني آدم إلاّ أتاه من قِبل النساء، وقد أتى عليَّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عينيّ وأنا أعشى بالأخرى، وأن أخوف ما أخاف عليّ فتنة النساء. وقال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا ترونني لا أقوم إلاّ رفداً، ولا آكل إلاّ ما لُوِّقَ لي، وقد مات صاحبي منذ زمان، وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي وأن لي ما تطلع عليه الشمس!

فهل ترى يا صاحبي أن الحب العفيف تؤججه الغريزة؟

فأجبته: قِسْمَةُ الحب ثلاثية، فثلث وَهْمٌ، وثلث شهوةٌ، وثلث حقيقة. لذا يذوي الحب عند النكاح، فالوهم ينقشع، والشهوة تبرد، وتبقى الحقيقة فيعيش بثلث حبِّه إن كان ثَمّ، وهو كاف وزيادة، بل قد يربو مع حسن العشرة، ويزيد مع صِدْق الوداد من المحبوب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم قال: ما أجمل ما في الأنثى؟ قلت: الحياء الحقيقي لا المصطنع، والخجل الذاتي لا المتكلف، وإن الرجال ليشمّون خجل الأنثى ويميزونه من أول وهلةٍ، فللفحول غريزتهم الرجولية التي نادراً ما تخطئ في هذا المضمار، وحياءُ بنات حواء درجات متفاوته، وعلى قدر حضوره في نفس الأنثى يعلو قدرها، وتسموا روحها، وتستحق أن تُعشَق. نعم، فأجمل ما في الأنثى الحياء.

وكانت على بعدٍ سدرة بريّة قد طرّ ورقُها، وجرى في العود ماؤها، فمضى إليها فتناول منها غصناً فشمه وأنشد رائعة جميل:

أيبكي حمام الأيك من فقد إِلْفِهِ ... وأصبر مالي عن بثينة من صبرِ
يقولون مسحورٌ يجنّ بذكرِها ... فأُقسمُ ما بي من جنونٍ ولا سحرِ
وأقسم لا أنساك ما ذَرَّ شارقٌ ... وما هبّ آلٌ في مُلَمَّعَةٍ قفرِ
وما لاح نجمٌ في السماء معلَّقٌ ... وما أورق الأغصان من ورق السدرِ
ذكرت مقامي ليلة البان قابضاً ... على كف حوراءِ المدامعِ كالبدرِ
فكدت ولم أملك إليها صبابةً ... أهيمُ وفاض الدمعُ منّي على النحرِ
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ... كليلَتِنَا حتى نرى ساطع الفجرِ
تجودُ علينا بالحديث وتارةً ... تجود علينا بالرّضاب من الثغرِ
ولو سألتْ مني حياتي بذلتُها ... وجُدْتُ بها إن كان ذلك من أمري

ثم قال: ولجميل كذلك وفيه وصف الصراع الإيماني والنفساني:

أُصَلّي فأبكي في الصلاةِ لذكرِهَا ... لي الويلُ مما يكتب الملكانِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ضـمنت لهـا أن لا أهـيمَ بغيرِهَـا وقـد وثقـت منـي بغـير ضـمانِ

وقال كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي صاحب عزة بنت جميل المنافية القرشية:

الله يعلـــم لـــو أردتُ زيـــادةً في حب عـزّة مـا وجـدت مزيـداً

وقال فيها وقد علقها صغيرة:

نظـرتُ إليهـا نظـرة وهـي عـاتق على حين إن شبّت وبانَ نهودُهَا
نظـرت إليهـا نظـرة مـا يـسرُّني بهـا حمـر أنعـام الـبلاد وسـودُهَا

ويا رفيقي: ألا ترى أن بعض النهي يولعُ في المنهي؟ كما قال أبو نواس:

دع عنك لـومي فإن اللـومَ إغـراءُ وداوني بـالتي كانـت هـي الـداءُ

وكما قال الأحوص:

وزادنَى كَلَفاً في الحُبِّ أنْ مُنِعَتْ وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعاَ

ولم ينتظر جوابي فأتمّ كلامه الآنف قائلاً: آهٍ منك يا كثيّر حين قلتَ ـ والمحبوب مسبوب، وقد يُؤذَى من المِقَةِ الحبيبُ ـ:

يقولـون سـوداء العيـون مريـضة فأقبلـتُ مـن أهـلي إليهـا أعودُهـا
فـو الله مـا أدري إذا أنـا جئتُهَـا أَأُبرِئُهَـا مـن دائهـا أمْ أزيـدُها
إذا جئتُهـا وسـط النـساء منحتُهَـا صدوداً كأن النفس ليس تريدُها
ولي نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرةِ ثكلى قد أصيبَ وحيدُها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكأنما هذه نبوءة قد تحقّقت حين رحلت حبيبته عزة للدار الآخرة، فوقف على قبرها ودموعه سواجمٌ على الوجنات، ولا غَرْوَ فقطع الأوصال أيسر من قطع الوصال، وقال ـ وتأمل المناوبة اللفظية في آخر كلمتين من البيت الثاني والسابع ـ:

وَقَفْتُ عَلى رَبْعِ لِعَزّةَ نَاقَتي ... وفي البُرْدِ رَشّاشٌ من الدّمعِ يسفحُ
فَيَا عَزَّ أنْتِ البَدرُ قَد حالَ دونَهُ ... رَجيعُ التّرَابِ والصّفِيحُ المضرَّحُ
وقَد كنتُ أبكي مِن فِراقِكِ حِقبَةً ... فأنْتِ لَعَمْري اليوْمَ أنأى وأنزَحُ
فَهَلاّ فَداكِ الموتُ مَن أنتِ زَينُه ... ومَن هوَ أسْوا منكِ حالاً وأقبَحُ
ألا لا أرى بعد ابنَةِ النَّضرِ لَذّةً ... لِشيءٍ ولا مِلْحاً لِمَنْ يَتَمَلّحُ
فلا زالَ وادي رَمسِ عَزّةَ سائِلاً ... بِهِ نِعمَةٌ من رحمَةِ الله تسفَحُ
فإنّ التي أحبَبتُ قد حالَ دونها ... طوَالُ اللّيالي والضّريحُ المصَفَّحُ
أربَّ بِعَينَيَّ البُكا كُلَّ لَيلَةٍ ... فقَد كادَ مجْرَى دمع عيني يَقرَحُ
إذا لم يكُنْ ماءٌ تَحَلَّبَتا دَماً ... وشرُّ البكاءِ المستَعادُ المَمَنَّحُ

ثم جلس صاحبي وجعل ظهره للشجرة، وكنتُ قد سبقتُهُ للجلوس على صخرة في ظل شجرته لمّا كان ينشد ما فات، ثم تنفّس الصعداء كأنما ينفث على سقيم، ثم اختلجت عيناه وشفتاه كأنما يرى طيفاً حنوناً ألمّ بروحه، ثم قال:

من لطائف العشاق خبر قيس بن ذريح الخزاعي رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقيس بن ذريح هو صاحب لبنى بنت الحباب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكعبية، وبعض الناس يخلط بينه وبين المجنون العامري. ولا تعجب من تردّدي عليهما كذلك جميل وكثير، فإني إذا لاحت لهم بروق مِقَةٍ أكون كما قال البحتري:

ذاك وادي الأراك فاحبس قليلاً مُقْصِراً في ملامتي أو مُطيلا

قيسُ لُبْنَى، كان منزل قومه في ظاهر المدينة وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة وقيل: إن منزله كان بسَرِفٍ كما قال:

الحمد لله قد أمستْ مُجَاوِرةً أهلَ العَقيق وأمسَيْنا على سَرِفِ

تزوج قيسٌ لُبْنَى فكانا على أحسن حال، ثم طلّقها بعد عشر سنين لمّا أقسم عليه والده وألحّ. ولو عصاه فليس عليه شيء، فليس والده كأبي بكر حينما أمر ابنه بالتطليق، وبهذا أفتى الكثير من الأجلّة، فزاد شغفه بها بعد طلاقها، فأنشد فيها غرره الماتعة وقصائده الرائقة.

وكان أول أمرهما فيما يروون؛ أنه قد مَرَّ لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خزاعة، فوقف على خيمة منها والحي خلوف، والخيمة خيمةُ لُبْنَى بنت الحباب الكعبية، فاستسقى ماءً فسقته وخرجت إليه به، وكانت امرأةٌ مديدة القامة، شهلاءُ حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه وشرب الماء، فقالت له: أتنزل فتتبرّد عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم وجاء أبوها فنحر له وأكرمه، فانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حرّ لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع، ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتدّ وجده بها فسلّم، فظهرت له وردت سلامه وتحفّت به، فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حبّها وشكت إليه مثل ذلك، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه.

فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله وسأله أن يزوّجه إياها فأبى عليه وقال: يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك، وكان ذريح كثير المال موسراً، فأحب ألا يخرج ابنه إلى غريبة، فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به، فأتى أمّه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه فلم يجد عندها ما يحب، فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب وابن أبي عتيق فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبوه، فقال له الحسين: أنا أكفيك، فمشى معه إلى أبي لبنى فلما بصر به أعظمه ووثب إليه وقال له: يا بن رسول الله، ما جاء بك، ألا بعثتَ إلي فأتيتك؟ قال: إن الذي جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطباً ابنتك لبنى لقيس بن ذريح. فقال: يا ابن رسول الله ما كنا لنعصي لك أمراً، وما بنا عن الفتى رغبة، ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه علينا، وأن يكون ذلك عن أمره، فإنا نخاف إن لم يسع أبوه في هذا أن يكون عاراً وسُبَّةً علينا. فأتى الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذريحاً وقومه، وهم مجتمعون فقاموا إليه إعظاما له، وقالوا له مثل قول الخزاعيين، فقال لذريح أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس. قال: السمع والطاعة لأمرك، فخرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا لبنى فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها فزوّجه إياها وزُفّت إليه بعد ذلك.

فأقامت معه مدة لا ينكر أحد من صاحبه شيئاً، وكان أبرّ الناس بأمه، فألهته لُبْنَى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدتْ أمّه في نفسها وقالت:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد شغلت هذه المرأة ابني عن برّي!

ثم إن قيساً مرض مرضاً شديداً، فلما برأ من علته قالت أمّه لأبيه: لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفاً، وقد حُرِمَ الولد من هذه المرأة، وأنت ذو مال فيصير مالك إلى الكلالة، فزوِّجْهُ بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً، وألحّت عليه في ذلك، فأمهل قيساً حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال: يا قيس إنك اعتللت هذه العلّة فخفت عليك ولا ولد لك ولا لي سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمّك لعل الله أن يهب لك ولداً تقرّ به عينك وأعيننا. فقال قيس: لست متزوجاً غيرها أبداً، فقال له أبوه: فإنّ في مالي سعة فتسرَّ بالإماء، قال: ولا أسوءُها بشيء أبداً والله. قال أبوه: فإني أقسم عليك إلا طلّقتها! فأبى، وقال: الموت والله علي أسهل من ذلك، ولكني أخيرّك خصلة من ثلاث خصال. قال: وما هي؟ قال تتزوج أنت فلعل الله أن يرزقك ولداً غيري. قال: فما فيّ فضلةٌ لذلك. قال: فدعني أرتحل عنك بأهلي، واصنع ما كنت صانعاً لو مُتّ في علّتي هذه. قال: ولا هذه. قال فَأَدَعُ لُبْنَى عندك وأرتحل عنك فلعلّي أسلوها، فإني ما أحبّ بعد أن تكون نفسي طيبة أنها في خيالي. قال: لا أرض أو تطلّقها، وحلف لا يكنّهُ سقفُ بيت أبداً حتى يطلّق لبنى. فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيظلّه بردائه ويصلَى هو بحرّ الشمس حتى يفيءَ الفيءُ فينصرف عنه، ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه، وتقول له: يا قيس لا تطع أباك فتهلك وتهلكني. فيقول: ما كنت لأطيع أحداً فيك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أبداً. فيقال إنه مكث كذلك سنة حتى طلّقها، وقيل عشراً. كما قد قال قيس لزيد بن سليمان: هجرني أبواي في لبنى عشر سنين أستأذن عليهما فيردّاني حتى طلّقتها.

وقال الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما بعد لذريح أبي قيس: أَحَلَّ لك أن فرّقت بين قيس ولبنى؟! أما إني سمعت عمر بن الخطاب يقول: ما أبالي أفرّقت بين الرجل وامرأته، أو مشيت إليهما بالسيف! ـ أي من الذنب ـ

فلمّا انقضت عدّتها وبانت بطلاقه إياها، أرسلت إلى أبيها ليحتملها وكان قيس يدخل عليها، فأقبل أبوها بهودج على ناقة، وبإبل تحمل أثاثها، فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها فقال: ويحك ما دهاني فيكم؟! فقالت: لا تسألني وسل لبنى، فذهب ليلمّ بخبائها فيسألها، فمنعه قومها، فأقبلت عليه امرأة من قومه فقالت له: ما لك ويحك تسأل، كأنك جاهل أو تتجاهل! هذه لبنى ترتحل الليلة أو غداً، فسقط مغشيًّا عليه لا يعقل ثم أفاق وهو يقول:

وإنّي لَمُفْنٍ دمعَ عيْنيَ بالبكا ... حِذَارَ الذي قد كان أو هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ ... فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائن
وما كنتُ أخشى أن تكون منيّتي ... بكفَّيْكِ إلاّ أنّ ما حان حائن

ثم لم يلبث حتى استُطِيرَ عقلُهُ وذُهب به ولحقه مثل الجنون، وتذكّر لبنى وحالها معه، فأسف وجعل يبكي وينشج أحرّ نشيج. ويقول:

يقولون لُبْنَى فتنةٌ كنتَ قبلها ... بخيرٍ فلا تَنْدَمْ عليها وطلِّقِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فطاوعتُ أعدائي وعاصيتُ ناصحي ... وأقررْتُ عين الشامت المُتخلِّقِ
وَدِدْتُ لعمر الله أنّي عَصَيْتُهم ... وحُمِّلت في رِضوانِها كلَّ مُوبِقِ
وكُلِّفتُ خوضَ البحر والبحر زاخرٌ ... أَبِيتُ على أثْباج موج مُغَرِّقِ
كأنّي أرى الناسَ المحبّين بعدها ... عُصارةَ ماء الحنظل المُتَفَلِّقِ
فتُنكر عيني بعدها كلَّ منظَرٍ ... ويكره سمعي بعدَها كلَّ منطقِ

فلما ارتحل قومها وعلم أن أباها سيمنعه من المسير معها؛ وقف ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه، ثم كرَّ راجعاً، ونظر إلى أثر خف بعيرها فأكب عليه يقبله، ورجع يقبل موضع مجلسها، وأثر قدمها، فَلِيمَ على ذلك وعنّفه قومه على تقبيل التراب فقال مخاطباً خيال لُبنى:

وما أحببتُ أرضَكُم ولكن ... أُقَبِّل إثْر من وَطِئ التُّرابا
لقد لاقيتُ من كَلَفِي بلُبْنَى ... بَلاءً ما أُسِيغ به الشَّرابا
إذا نادى المنادي باسمِ لُبْنَى ... عَيِيتُ فما أُطيقُ له جوابا

وقال وقد نظر إلى آثارها:

كأنِّي والِهٌ بفراق لُبْنَى ... تَهِيمُ بفقد واحِدِها ثَكُولُ
ألاَ يا قلبُ وَيْحَكَ كن جَليداً ... فقد رحَلتْ وفات بها الذَّمِيلُ
فإنك لا تُطيق رجوعَ لُبنى ... إذا رحَلتْ وإن كثُر العَوِيلُ
وكَمْ قد عِشْتَ كَمْ بالقرب منها ... ولكنّ الفِراقَ هو السبيلُ
فصبراً كلُّ مؤتَلِفَيْنِ يوماً ... من الأيام عيشُهما يزولُ

والذميلُ ضربٌ متوسطٌ من سير الإبل. فلما جنّ عليه الليل وانفرد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار، وجعل يتململ فيه تململ السليم ــ أي اللديغ، تفاؤلاً بسلامته ـ ثم وثب حتى أتى موضع خبائها فجعل يتمرغ فيه ويبكي ويقول ــ وتأمل كيف يستذكر لياليها الصريمة وهما بين نجوى واحتضان، فما أجمل هذا الإسقاط والاستعطاف والبوح! ـ:

بِــتُّ والهَــمُّ يــالُبَيْنَى ضــجيعي ... وجرت مُذْ نأيتِ عنِّي دموعي
وتنفَّــستُ إذ ذكرتُــك حتّــى ... زالت اليوم عن فؤادي ضلوعي
يــا لبينــى فــداك نفــسي وأهــلي ... هـل لـدهر مضى لنـا مـن رجـوعِ

ومما قال وسارت به النّوق لجلاله:

وكــلُّ مُلِــمّات الزمــان وجــدتُها ... سوى فُرْقةِ الأحباب هيِّنَةَ الخَطْبِ

ثم ذهب لمضارب قومها عند مائهم، واحتال حتى لقيها فقالت له: يا هذا، إنك متعرّض لنفسك وفاضحي، فقال لها:

صـدَعْتِ القلـبَ ثـم ذرَرْتِ فيـه ... هــواكِ فلِــيمَ فالتــأم الفُطــورُ
تَغَلْغَــلَ حيــثُ لم يبلُــغ شَرابٌ ... ولا حـــــزنٌ ولم يبلـــــغ سرورُ

وجعل قيس يعاتب نفسه في طاعته أباه في طلاقه لبنى ويقول:

وَيْـلِي وعَـوْلِي ومـالي حـين تُفلِتُنـي ... من بعد ما أحرزتْ كفّي بها الظَّفَرا
قد قـال قلبي لطَرْفي وهـو يعذُلـه ... هـذا جـزاؤك منّـي فاكـدِم الحجـرا
قد كنتُ أنهاك عنها لو تُطاوِعُني ... فاصبِرْ فما لك فيها أجرُ من صبرا

وقال في معارضة للامية كعب بن زهير المشهورة:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بانت لُبَيْنَى فأنتَ اليوم متبول ... والرأي عندك بعد الحزم مخبولُ
أستودِعِ اللهَ لُبْنَى إذ تفارقني ... بالرغم منّي وقولُ الشيخ مفعولُ
وقد أَرَاني بلبنى حقَّ مُقتنِعٍ ... والشملُ مجتمعٌ والحبل موصولُ

وقال في إحدى لياليه:

قد قلتُ للقلب لا لُبْناك فاعترِفِ ... واقضِ اللُّبَانةَ ما قضَّيْتَ وانصرِفِ
قد كنت أحلف جَهْداً لا أُفارقها ... أُفٍّ لكثرة ذاك القِيل والحَلِفِ
حتى تكنَّفني الواشون فافتُلِتتْ ... لا تأمَنَنْ أبداً من غشّ مُكتنِفِ
هيهات هيهات قد أمستْ مُجاوِرةً ... أهلَ العَقيق وأَمسيْنا على سَرِفِ
حيٌّ يَمَانُونَ والبَطْحاء منزلَنا ... هذا لَعَمْرُك شملٌ غيرُ مؤتلِفِ

وأرسلت له أمه بنات يَعِبْنَ لبنى عنده لعلّه يسلوا، فأنشد وهو يرى وفود الحجيج والعُمّار داعياً ربه من ذلك الذنب الذي يراه قد محق حياته وهو طلاقه لبنى، ثم يذكر عيب أولئك لها قائلاً في بكائية حزينة تقطر دمعاً وتُسمِعُك وجيب الفؤاد وخفقانه في تأوهات الأبيات ـ وقد نُسبت القصيدة للمجنون، وهي أشبه به مع تحوير اسم المحبوبة ـ:

دعا المحرمون الله يستغفرونه ... بمكة شعثاً كي تُمَحَّى ذ نوبُها
وناديتُ يا رحمن أوّل سؤلتي ... لنفسيَ لبنى ثم أنت حسيبُها
وإنْ أُعْطِ لُبنى فِي حَياتِي لَمْ يَتُبْ ... إلى الله عبد تَوْبَةً لاَ أَتوبُها
يَقَرُّ لعيني قربُها ويزيدُني ... بِها كَلَفاً مَنْ كانَ عِندِي يَعيبُها
وكم قائل قد قال تُبْ فعصيتُهُ ... وَتِلْكَ لَعَمْري توبةٌ لا أتوبُها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَمَا هَجرَتْكِ النَّفْسُ يا لَبْنُ أنَّها قَلَتْكِ وَلَكِنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُها
فيا نفس صبراً لستِ والله فاعلمي بِأوَّلِ نَفْسٍ غابَ عَنْها حَبِيبُها

فانصرفن عنه، فقال ناعياً نفسه لنفسه:

فإن يك تَهْيامي بلُبْنى غَوايَةً فَقَدْ يا ذَرِيحُ بن الحُبَاب غَوَيْتُ
فلا أنت ما أمَّلتَ فيّ رأيتَه ولا أنا لبنى والحياةَ حَوَيْتُ
فوَطِّنْ لهُلْكِي منك نفساً فإنّني كأنك بي قد يا ذَريحُ قَضَيْتُ

فمرض واشتدّ سقمه، فسأل أبوه فتيات الحي أن يعُدنه ويحدّثنه لعلّه أن يتسلّى أو يعلق بعضهن، ففعلن ذلك، ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأطلن السؤال عن سبب علته فقال:

عِيدَ قيسٌ من حبِّ لُبنى ولُبنى داءُ قيسٍ والحبُّ داءٌ شديدُ
وإذا عادني العوائدُ يوماً قالت العين لا أَرَى من أُريدُ
ليت لُبْنَى تَعُودني ثم أَقْضِي إنها لا تعود فيمن يعودُ
وَيْحَ قيسٍ لقد تضمَّن منها داءَ خَبْلٍ فالقلبُ منه عَميدُ

فقال له الطبيب: منذ كم هذه العلّة؟ ومتى وجدت بهذه المرأة ما وجدت؟ فقال:

تعلَّقَ رُوحِي روحَها قبل خَلْقِنا ومن بعدِ ما كنَّا نِطافاً وفي المهدِ
فزاد كما زِدنا فأصبح نامياً وليس إذا مُتْنا بمُنْصَرِم العهدِ
ولكنَّه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرُنا في ظُلْمة القبر واللَّحْدِ

فقال له الطبيب: إن مما يسليك عنها أن تتذكّر ما فيها من المساوئ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والعيوب، فقال:

إذا عِبتُهـا شـبَّهتُها البـدرَ طالعـاً ... وحَسْبُكَ من عيب لها شَبَهُ البدرِ
لقد فُضِّلتْ لبنى على الناس مثلَ ما ... على ألف شهر فُضِّلتْ ليلةُ القدرِ

ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة فأنّبه ولامه، وقال له: يا بني اللهَ اللهَ في نفسك! فإنك ميت إن دمت على هذا فقال:

وفي عُرْوةَ العُذْرِيّ إن متُّ أُسوةٌ ... وعمرِو بن عَجْلانَ الذي قتلتْ هندُ
وبي مثلُ ما ماتا به غيرَ أنّني ... إلى أجلٍ لم يأتِني وقتُه بعدُ
هل الحبُّ إلاّ عَبْرةٌ بعد زَفْرةٍ ... وحَرٌّ على الأحشاء ليس له بَرْدُ
وفَيْضُ دموعٍ تَستهلّ إذا بدا ... لنا علمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

فلما طال على قيس ما به، أشار قومه على أبيه بأن يزوّجه امرأة جميلة، لعلّه أن يسلو بها عن لبنى، فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لقد خِفتُ ألاّ تَقْنَع النفسُ بعدها ... بشيءٍ من الدنيا وإن كان مَقْنَعا
وأزجُر عنها النفس إذ حيل دونها ... وتأبَى إليها النفسُ إلاّ تَطلُّعا

فأعلمهم أبوه بما ردّ عليه، قالوا: فمره بالمسير في أحياء العرب والنزول عليهم، فلعلّ عينه أن تقع على امرأة تعجبه، فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار حتى نزل بحي من فزارة فرأى جارية حسناء قد حسرت برقع خزّ عن وجهها وهي كالبدر ليلة تَمِّهِ، فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: لبنى! فسقط على وجهه مغشياً عليه، فنضحت على وجهه ماء، وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون، فأفاق فنسبته فانتسب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقالت: قد علمتُ أنك قيس، ولكن نشدتك بالله إلا أصبت من طعامنا، وقدمت إليه طعاماً فأصاب منه بإصبعه وركب، فأتى على أثره أخٌ لها كان غائباً، فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه فأخبروه، فركب حتى ردّه إلى منزله، وحلف عليه ليقيمن عنده شهراً، فقال له: لقد شققت علي، ولكني سأتبع هواك، والفزاري يزداد إعجاباً بحديثه وعقله وروايته، فعرض عليه الصهر، فقال له: يا هذا إن فيك لرغبة، ولكني في شغل لا يُنتفع بي معه، فلم يزل يعاوده والحي يلومونه ويقولون له: قد خشينا أن يصير علينا فعلك سُبَّةً! فقال: دعوني ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام، فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبينه على أخته المسماة لُبنى، وقال له: أنا أسوق عنك صداقها، فقال: أنا والله يا أخي أكثر قومي مالاً، فما حاجتك إلى تكلّف هذا، أنا سائر إلى قومي وسائق إليها المهر ففعل، وأعلم أباه الذي كان منه، فسرّه وساق المهر عنه، ورجع إلى الفزاريين حتى أدخلت عليه زوجته فلم يروه هشَّ إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها، وأقام على ذلك أياماً كثيرة، ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومه أياماً، فأذنوا له في ذلك فمضى لوجهه إلى المدينة وكان له صديق من الأنصار بها فأتاه فأعلمه الأنصاري أن خبر تزويجه بلغ لبنى فغمّها، وقالت: إنه لغدّار ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج فأنا الآن أجيبهم.

وقد كان أبوها شكا قيساً إلى معاوية وأعلمه تعرّضه لها بعد الطلاق، فكتب إلى مروان بن الحكم يهدر دمه إن تعرض لها وأمر أباها أن يزوّجها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رجلا يعرف بخالد بن حلزة. فلما زفّت إلى زوجها وعلم قيس جزع جزعاً شديداً وجعل ينشج أحر نشيج، ثم ركب من فوره حتى أتى محلة قومها فنادته النساء: ما تصنع الآن ها هنا؟ قد نقلت لبنى إلى زوجها، وجعل الفتيان يعارضونه بهذه المقالة وما أشبهها وهو لا يجيبهم حتى أتى موضع خبائها، فنزل عن راحلته وجعل يتمعّكُ في موضعها ويمرّغُ خدّه على ترابها ويبكي أحرّ بكاء ويقول:

إلى الله أشكو فَقْدَ لُبنى كما شكا ... إلى الله فقدَ الوالدَيْنِ يتيمُ
يتيمٌ جفاه الأقربون فجسمُه ... نَحيلٌ وعهدُ الوالدَيْن قديمُ
بكت دارُهم مِنْ نأيهم فتهلّلتْ ... دموعي فأيَّ الجازِعَيْنِ ألوم
أمُستعبِراً يبكي من الشوق والهوى ... أَمَ آخَر يبكي شَجْوَه ويَهِيم
تهيَّضَنِي من حبّ لُبْنَى علائقٌ ... وأصنافُ حبٍّ هَوْلُهن عظيمُ
أفي الحقِّ هذا أنّ قلبكِ فارغٌ ... صحيح وقلبي في هواكِ سَقيم

وقال أيضا في رحيل لبنى عن وطنها وانتقالها إلى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حيّها وقد أفضى بأبياته لذكريات خاصّة جداً:

بانت لُبَيْنَى فهاج القلبَ مَنْ بانا ... وكان ما وعدتْ مَطْلاً وَلَيّانَا
وأَخْلفتْك مُنًى قد كنتَ تأمُلها ... فأصبح القلبُ بعد البين حيرانا
الله يدري وما يدري به أحدٌ ... ماذا أُجَمْجِم من ذكراكِ أحيانا
يا أكملَ الناسِ من قَرْنٍ إلى قدمٍ ... وأحسنَ الناس ذا ثوبٍ وعُرْيانا
نعم الضَّجيعُ بُعَيْد النوم تَجْلُبه ... إليكَ ممتلئاً نوماً ويَقْظانا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال بعد أن وجّهت له لبنى رسولاً تعلمه ما جرى من إباحة دمه إن تعرض لحيّها وتُحذّره، وبلغ أباه الخبر فعاتبه وتجهّمه وقال له: انتهى بك الأمر إلى أن يهدر السلطان دمك، فقال:

فإن يَحْجُبوها أو يَحُلْ دون وصلها ... مقالةُ واشٍ أو وَعيدُ أميرِ
فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البُكا ... ولن يُذهبوا ما قد أَجَنَّ ضميري
إلى الله أشكو ما أُلاَقِي من الهوى ... ومن حُرَقٍ تعتادني وزَفيرِ
ومن حَرَقٍ للحبّ في باطن الحشى ... وليلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصيرِ
سأبكي على نفسي بعينٍ غزيرةٍ ... بكاءَ حَزينٍ في الوَثاق أسيرِ
وكنَّا جميعاً قبل أن يظهر الهوى ... بأَنْعَمِ حالَيْ غِبْطَةٍ وسرورِ
فما برِح الواشون حتى بَدَتْ لهم ... بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ
لقد كنتِ حَسْبَ النفس لو دام وصلُنا ... ولكنَّما الدنيا متاعُ غرورِ

وقال أيضاً وقد أزرى به اليأس، فاستروح ببعض العزاء ـ ونعوذ بالله من العشق وأحواله والجوى وأهواله ـ:

إن تلك لُبْنَى قد أتى دون قربها ... حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإنّ نسيم الجوّ يجمع بيننا ... ونُبصر قَرْنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحنا باللَّيل في الحيّ تلتقي ... ونعلم أنّا بالنهار نَقيلُ
وتجمعنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا ... سماء نرى فيها النجومَ تجولُ
إلى أن يعود الدهر سَلْماً وتنقضي ... تراتٌ بغاها عندنا وذُحولُ

ثم حج قيس ابن ذريح واتفق أن حجت لبنى في تلك السنة فرآها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومعها امرأة من قومها فدهش وبقي واقفا مكانه ومضت لسبيلها، ثم أرسلت إليه بالمرأة تبلغه السلام وتسأله عن خبره فألفته جالساً وحده ينشد ويبكي:

ويومَ مِنًى أعرضتِ عنِّي فلم أقل ... بحاجة نفس عند لُبْنَى مقالُها
وفي اليأس للنفس المريضة راحةٌ ... إذا النفسُ رامت خُطَّةً لا تَنالُها

فجعلت تحدّثه عن لبنى ويحدّثها عن نفسه ملياً ولم تعلمه أن لبنى أرسلتها إليه، فسألها أن تبلغها عنه السلام فامتنعت عليه فأنشأ يقول:

إذا طلعتْ شمسُ النهار فسلِّمي ... فآيةُ تسليمي عليكِ طلوعُها
بعشر تحيَّاتٍ إذا الشمسُ أَشْرقتْ ... وعشرٍ إذا اصفرَّتْ وحان رجوعُها
ولو أبلغتْها جارةٌ قَوْلِيَ اسلَمِي ... بكتْ جَزَعاً وارفَضَّ منها دموعُها
وبانَ الذي تُخْفِي من الوجد في الحَشَى ... إذا جاءها عنِّي حديثٌ يَرُوعُها

ثم إنه اعتلّ فقال لها أهلها: إنه عليل، وقد يموت في سفره هذا، فقالت لهم لتدفعهم عن نفسها: ما أراه إلا كاذباً فيما يدّعي ومتعلّلاً لا عليلاً، فبلغه ذلك فقال ـ وهذه الأبيات من الغرر العربيّات ـ:

تكاد بلادُ الله يا أُمَّ مَعْمَرٍ ... بما رحُبتْ يوماً عليّ تَضِيقُ
تكذِّبني بالودّ لُبْنَى وليتَها ... تُكَلَّف منِّي مثلَه فتذوقُ
تتوق إليكِ النفس ثم أَرُدُّها ... حياءً ومثلي بالحياء حَقيقُ
ذُود سَوَامَ النفس عنكِ وما له ... على أحدٍ إلا عليك طريقُ
فإنِّي وإن حاولتِ صُرْمي وهِجْرتي ... عليك مِنَ أحداثِ الرَّدَى لشَفيقُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولم أرَ أيّامـــاً كأيّامنـــا التـــي ... مَـرَرْنَ علينـا والزمـان أَنِيـقُ
ووعـدُكِ إيّانـا ولـو قلـتِ عاجـلٌ ... بعيـدٌ كـما قـد تعلمـين سَـحِيقُ
وحـدّثتني يـا قلـبُ أنـك صـابرٌ ... على البين من لُبْنَى فسوف تذوقُ
فمُـتْ كَمَـداً أو عِـشْ سَـقيماً فـإنّما ... تكلِّفنـي مـا لاَ أَرَاكَ تُطِيـقُ
أطعـتَ وُشَـاةً لم يكـن لـك فـيهمُ ... خليـلٌ ولا جـارٌ عليـك شَـفيقُ
فـإن تـك لمّـا تَـسْلُ عنهـا فـإنّني ... بهـا مُغْـرَمٌ صَـبٌّ الفـؤاد مَـشُوقُ
بلُبْنَـى أُنـادَى عنـد أوّل غَـشْيَةٍ ... ويَثْنِـي بهـا الـدَّاعِي لهـا فـأفِيقُ
شـهِدتُ عـلى نفـسي بأنـك غـادةٌ ... رَدَاحٌ وأنّ الوجـه منـكِ عتيـقُ
وأنـكِ لا تَجزينَنِـي بـصَحابةٍ ... ولا أنـا للهِجـران منـكِ مُطِيـقُ
وأنـكِ قـسَّمتِ الفـؤادَ فنـصفُه ... رَهـينٌ ونـصفٌ في الحبـال وَثيـقُ
صَبُوحِي إذا ما ذَرَّتِ الشمسُ ذكركُم ... ولي ذكـرُكم عنـد المَـساء غَبُـوقُ
إذا أنـا عَزَّيـتُ الهـوى أو تركتُـه ... أتـتْ عَـبَراتٌ بالـدموع تَـسُوقُ
كأنّ الهوى بين الحَيَازِيم والحَشَى ... وبـين التَّرَاقِـي واللَّهَـاة حَرِيـقُ
وأكـتُم أسرارَ الهـوى فأُمِيتُهـا ... إذا بـاح مَـزَّاحٌ بهـنّ بَـرُوقُ
سعَى الدهرُ والواشون بيني وبينها ... فقُطّع حبلُ الوصل وهو وَثيقُ
هـل الـصبر إلا أن أَصُـدَّ فـلا أرَى ... بأرضِـك إلاّ أن يكـون طريـقُ

فلما قضى الناس حجّهم وانصرفوا ازداد مرض قيس وهو في طريقه مرضاً شديداً أشفى منه على الموت، فلم يأته رسولها عائداً لأن قومها رأوه وعلموا به، فقال وقلبه ينفطر من الحزن، وكبده تنصدع من الشوق والصّبابة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ وتدبّر حُسن عتابه وإعماق تأثيره في آخر بيتين ـ:

أَلُبْنَى لقد جَلَّتْ عليكِ مصيبتي ... غَـدَاةَ غـدٍ إذ حـلَّ مـا أتوقَّـعُ
تُمَنِّيَنِـي نَـيْلاً وتَلْـوِينَني بـه ... فنفـسيَ شـوقاً كـلَّ يـوم تَقَطَّـعُ
وقلبـكِ قَـطُّ مـا يَلِـين لمـا يَـرى ... فواكبـدي قـد طـال هـذا التـضرُّعُ
ألومُـكِ في شـأني وأنـتِ مُلِيمـةٌ ... لعَمْـرِي وأَجْفَـى للمحـبِّ وأقطعُ
أخُـبِّرتِ أنّي فيـكِ مَيّـتُ حَـسْرتي ... فما فاض من عينيكِ للوَجْد مَدْمَعُ
ولكن لعَمْرِي قد بكيتُكِ جاهداً ... وإن كـان دائـي كلُّـه منـك أجمـعُ
صَبِيحةَ جـاء العائـداتُ يَعُـدْنَنِي ... فظَلَّـتْ عـليَّ العائـداتُ تَفَجَّـعُ
فقائلـةٌ جئنـا إليـه وقـد قـضَى ... وقائلـةٌ لا بـل تركْنـاه يَنْـزِعُ
فما غَشِيتْ عينيكِ من ذاك عَبْرةٌ ... وعيني على ما بي بِذكْراكِ تـدمَعُ
إذا أنـتِ لم تَبْكِـي عـليّ جِنـازةً ... لـديكِ فـلا تبكـي غـداً حـين أُرفَعُ

قال: فبلغتها الأبيات فجزعت جزعاً شديداً وبكت بكاء كثيراً، ثم خرجت إليه ليلاً على موعد، فاعتذرت وقالت: إنما أُبقي عليك وأخشى أن تُقتل، فأنا أتحاماك لذلك، ولولا هذا لما افترقنا وودّعته وانصرفت.

ثم أرسلت له تسأله عن زواجه بالفزارية، فأقسم أنه لم يدن منها ولم يكشف لها ستراً، وأنه لو رآها مع نساء لما عرفها، ثم حمّل الرسول هذه القصيدة وهي على رويّ قصيدة المجنون «المؤنسة» ومنها:

أَلاَ حيِّ لُبْنَى اليومَ إن كنتَ غاديَا ... وأَلِمِمْ بها من قبلِ أنْ لا تَلاَقِيَا
تَسَاقطُ نفسي حين ألقاكِ أنفُساً ... يَرِدْنَ فما يَصْدُرْنَ إلا صَوَادِيا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإنْ أَحْيَ أو أهلِكْ فلستُ بزائلٍ ... لكم حافظاً ما بَلَّ ريقٌ لسانيا
أقول إذا نفسي من الوَجْد أَصْعدتْ ... بها زَفْرةٌ تعتادني هي ما هيا
وبين الحَشَى والنحرِ منِّي حرارةٌ ... ولوعةُ وجدٍ تترك القلب ساهيا
ألاَ ليت لُبْنَى لم تكن ليَ خُلَّةً ... ولم تَرَنِي لُبْنى ولم أدرِ ما هيا
خليليَّ مالي قد بَلِيتُ ولا أَرَى ... لُبَيْنَي على الهِجْران إلاّ كما هيا
جَزِعتُ عليها لو أَرى ليَ مَجْزَعاً ... وأفنيتُ دمعَ العين لو كان فانيا
حياتَك لا تُغْلَبْ عليها فإنه ... كفَى بالذي تَلْقَى لنفسِك ناهيا
تَمرّ الليالي والشهور ولا أَرَى ... وَلُوعِي بها يزداد إلاّ تماديا
فما عن نَوالٍ من لُبَيْنَى زيارتي ... ولا قِلّةُ الإلمام أَن كنتُ قاليا
ولكنّها صَدَّتْ وحُمِّلتُ من هوىً ... لها ما يَؤود الشامخاتِ الرواسيا

وقال في رقّة كرقّة هواء الجبال وكَلُطْفِ الماء الزلال:

ألاَ ليتَ أيّاماً مَضَيْن تعودُ ... فإن عُدْنَ يوماً إنني لسعيدُ
سَقَى دارَ لُبنى حيث حَلَّتْ وخَيَّمتْ ... من الأرض مُنْهَلُّ الغَمامِ رَعودُ
أعالج من نفسي بَقايا حُشاشةٍ ... على رَمَقٍ والعائداتُ تعودُ
فإنْ ذُكرتْ لُبْنَى هَشِشْتُ لذكرها ... كما هَشَّ للثدي الدَّرُورِ وَليدُ
أجيب بلُبنى مَنْ دعاني تَجَلُّداً ... وبي زَفَراتٌ تنجلي وتعودُ
تُعيد إلى روحي الحياةَ وإنني ... بنفسيَ لو عاينتني لأجودُ
سلاَ كُلُّ ذي شَجْوٍ علمتُ مكانَه ... وقلبي للبنى ما حَييتُ ودودُ
وقائلةٍ قد مات أو هو مَيِّتٌ ... ولِلنفس منِّي أن تَفيض رَصيدُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أُعـالِج مـن نفـسي بقايـا حُـشاشةٍ عــلى رَمَــقٍ والعائــداتُ تعــودُ

قال أحدهم أقبلت ذات يوم من الغابة، فلما كنت بالمذاذ إذا ربعٌ حديث العهد بالساكن، وإذا رجل مجتمع في جانب ذلك الربع يبكي ويحدّث نفسه، فسلّمت فلم يردّ علي سلاماً، فقلت في نفسي: رجل ملتبس به، فولّيت عنه فصاح بي بعد ساعة: وعليك السلام، هَلُمّ هَلُمّ إليّ يا صاحب السلام، فأتيته فقال: أما والله لقد فهمت سلامك، ولكني رجل مشترك اللّبَ يضلّ عني أحياناً ثم يعود إليّ، فقلت: ومن أنت؟ قال قيس بن ذريح الليثي. قلت: صاحب لبنى؟ قال: صاحب لبنى لعمري وقتيلها. ثم أرسل عينيه كأنهما مزادتان، فما أنسى حسن قوله ــ وأظنه من آخر ما أنشد قبل وفاته رحمه الله وعفا عنه وبيته الخامس لم يُسبق إليه، ولم يلحق بمثله ـ:

أبائنــةٌ لبنــى ولم تقطــع المــدى بوصــلٍ ولا صرم فييــأس طــامعُ
وقد كنتُ قبل اليوم خلوا وإنما تُقــسّمُ بــين الهــالكين المــصارعُ
ولولا رجاء القلب أن يعطف النوى لمــا حملتــه بيــنهنّ الأضــالعُ
لــه وجبــات إثْــرَ لبنــى كأنّهــا شـقائق بـرق في الـسحاب لوامـعُ
نهاري نهارُ الناس حتّى إذا بدى لِيَ الليـلُ هزّتنـي إليـكِ المـضاجعُ
أُقـضّي نهـاري بالحـديث وبـالمنى ويجمعنـي بالليـل والهـمُ جـامعُ
إذا نحــن أنفــدنا البكــاء عــشيّة فموعـدنا قرن من الـشمس طـالعُ
وللحــب آيــات تُبَــيِّنُ للفتــى شحوب وتبري من يديه الأشاجعُ
ومـا كـل مـا منَّيـتَ نفسك خاليـاً تُلاقـي ولا كـل الـذي أنـت تـابعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تداعت له الأحزان من كل وجهة ... فحنّ كما حنّ الطيور السواجعُ
كأن بلاد الله ما لم تكن بها ... وإن كان فيها الناس قفر بلاقعُ
هما بَرَّحَابي مُعْوِلَيْنِ كِلاهما ... فؤادٌ وعينٌ جفنُها الدَّهرَ دامعُ
وطار غراب البين وانشقّت العصا ... لبين كما شَقَّ الأديمَ الصواقعُ
ألا يا غراب البين قد طِرْتَ بالذي ... أُحاذر من لبنى فهل أنت واقعُ
فإنّك لو أبلغتها قِيلي اسلمي ... طوت حزناً وارفضّ منها المدامعُ
أتبكي على لبنى وأنت تركتها ... وكنت كآت غيَّه وهو طائعُ
فلا تبكين في إثر شيء ندامة ... إذا نزعته عن يديك النوازعُ
فليس لأمر حاول الله جمعه ... مشتٍّ ولا ما فرّق الله جامعُ
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها ... وإن تلقها فالقلب راضٍ وقانعُ
فيا قلب خبّرني إذا شطّت النّوى ... بلبنى وصدّت عنك ما أنت صانعُ
أتصبر للبين المُشِتِّ مع الجوى ... أم أنت امرؤ ناسي الحياة فجازعُ
فما أنا إن بانت لُبينى بهاجع ... إذا ما استقلّت بالنيام المضاجعُ
وكيف ينام المرء مستشعر الجوى ... ضجيع الأسى فيه نكاس روادعُ
فلا خير في الدنيا إذا لم تزورنا ... لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامعُ
أليست لبينى تحت سقف يُكنّها ... وإياي هذا إن نأت ليَ نافعُ
ويلبسنا الليل البهيم إذا دجا ... ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطعُ
تطأ تحت رجليها بساطاً وبعضه ... أطأه برجلي ليس يطويه مانعُ
وافرح أن تمسي بخير وإن يكن ... بها الحدث العادي تَرُعْنِي الروائعُ
كأنّك بدع لم تر الناس قبلها ... ولن يطلعنك الدهر فيمن يطالعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد كنت أبكي والنّوى لا أظنه ... بنا وبكم لم ندر ما البين صانعُ
وأهجركم هجر البغيض وحبّكم ... على كبدي منه كلوم صوادعُ
فوا كبدي من شدّة الشوق والأسى ... ووا كبدي إنّي إلى الله راجعُ
وأعجل للإشفاق حتّى يشفّني ... مخافة شحط الدذَار والشّمل جامعُ
واعمد للأرض التي من ورائكم ... لترجعني يوماً إليك الرواجعُ
فيا قلب صبراً واعترافاً لما ترى ... ويا حبّها قَعْ بالذي أنت واقعُ

ويذكرون أن قيساً استشفع بابن عتيق فمضى بالحسن والحسين إلى زوجها مستشفعاً بهما دون أن يعلمها حاجته، فلما أعطاهما وعده طلب منه ابن عتيق أن يطلّقها لقيس ففعل فتزوّجها، وقيل ـ وهو المشهور ـ بل ماتت في عدّتها، فبكاها ثم مات بعدها بثلاث فدفن بجانبها.

وقال الخليل بن سعيد: مررت بسوق الطير، فإذا الناس قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضاً، فاطّلعت فإذا أبو السائب قابضاً على غراب يباع، قد أخذ طرف ردائه. وهو يقول للغراب: يقول لك ابن ذريح:

ألا يا غُرَابَ البَينِ قَد طرْتَ بالّذي ... أُحَاذِرُ من لُبنى فَهلْ أنتَ وَاقعُ

ثم لا تقع، ويضربه بردائه والغراب يصيح! وفعل أبي السائب من الظرف لا التصديق، وهذا مثال على وشيجة الأدباء. وإلا فالتشاؤم هو من مخلّفات الجاهلية التي هدمها الإسلام، وقد كان من أهل الجاهلية من لا يراها حقّاً كقول لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه، ونُسبت لطرفة:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لعمرك ما تدري الطَّوارق بالحصى ولا زاجرات الطَّير ما الله صانعُ

وأبو عقيل لبيد العامري شاعر مفلّق حكيم، عركته الأيام وبرته الليالي حتى أفحل، فلمّا أسلم أشبع القرآن نهمته فترك الشعر وأقبل على كتاب الله، وحفظ القرآن كلّه، وهجر الشعر حتى لم يرو له في الإسلام غير بيت واحد هو:

ما عاتب الحرَّ الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليسُ الصالحُ

قال الشعبي: كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة أن استنشد من قبلك من شعراء قومك ما قالوا في الإسلام، فأرسل إلى الأغلب العجلي فاستنشده فقال:

لقد سألتَ هيِّنا موجوداً أرجزاً تريد أم قصيداً

ثم أرسل إلى لبيد فقال له: إن شئت مما عفا الله عنه يعني الجاهلية فعلت، قال: لا أنشدني ما قلت في الإسلام، فانطلق لبيد فكتب سورة البقرة في صحيفة وقال: أبدلني الله عز و جل بهذه في الإسلام مكان الشعر. وفي رواية: قد استغنيت بسورة البقرة، ولله أبوه ما أعقله وأبصره!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١١

إِنَّ الْمُنِيَّةَ وَالْفِرَاقَ لَوَاحِدٌ..

مضى سائر اليوم في تعللات شعرية ونثرية، وسياحات جسدية ونفسية وروحية، من ذلك أن صاحبي وقف على ذودٍ مغاتير ـ والذود هي الإبل من الثلاث إلى العشر ــ وثلاث منها أبكار مطافيل. واحتلب بعد إذن صاحبها واحدة مُشْمَلة، فأتى بالإناء تهتزُّ رغاته البيضاء كأنها غمام الهدا حين تنظر إليه وقت الأصيل من مكة. ثم مدّه إلي فمذقْتُ منه ثم شربت ما أروى وأشبع، فلا مشروب في الشتاء يعدل حليب الناقة الفتيّة ذات الفصيل الصغير والمرعى المخصب، فحمدت الله إليه ثم أنشدت لأعرابي:

إذا ما أصبنا كل يوم مُذَيْقَةً ... وخمس تميرات صغارٍ خوانزِ
فنحن ملوك الأرض خصباً ونعمة ... ونحن أُسود الغيل عند الهزاهزِ

فقال دعني من أعرابيك وهلم لأبي ذؤيب الهذلي إذ يقول:

وإن حديثاً منك لو تَبْذِلِينَهُ ... جنى النحل في ألبان عُوذٍ مطافِلِ
مَطافِيلِ أَبكارٍ حَديثٍ نِتاجُها ... تُشابُ بماءٍ مِثل ماءِ المَفاصلِ

والمَفَاصِل هي ما بين الجَبَلَيْنِ واحدها مَفْصِل، وإنما أراد صَفَاء الماء لانْحِدَارِهِ عن الجِبَالِ لا يَمُرّ بِطِين ولا تُراب. ومراده في بيتيه البديعين: أن حلاوة حديث محبوبته لو تفضلت به حلاوة اللبن مشوباً بالعسل، والعُوذ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هي الإبل الحديثات النتاج، واحدها عائذ، وسميت عائذاً لأن ولدها يعوذ بها لصغره، وألبان العوذ أطيب، لأنها إذا عتق لبنها تغيّر.

قلت: وحليبها الصِّرْفُ إن كانت على العادة خير من الممزوج ولو بالعسل.

ثم عاد صاحبي لنشوته الشعرية وقد لبّدت علينا غيوم الضحى وعلى مَدِّ الأفقِ وطفاءٌ تثجُّ الغيث النمير، فأخذ في إنشاده المختارات والعيون، فأنشد لقيس بن منقذ ابن الحدادية وهي أمه، في محبوبته نُعْمِ بنت ذؤيب الخزاعية:

فما نُطفة بالطَّود أو بِضَرِيّة ... بقيَّةَ سيلٍ أحرزَتْها الوقائعُ
يطيف بها حَرَّانُ صادٍ ولا يرى ... إليها سبيلاً غيرَ أنْ سيطالِعُ
بأطيبَ مِنْ فيها إذا جئت طارقاً ... من الليل واخضلَّتْ عليك المَضاجِعُ
كأنَّ فؤادي يوم شقّين من عصى ... حذارَ وقوع البين أو هو واقعُ
فقلت لها يا نُعم حُلِّي محلَّنا ... فإن الهوى يا نُعم والعيش جامِعُ
وقالت وعيناها تفيضان عبرة ... بنفسيَ بيّن لي متى أنت راجعُ
ففلت لها والله يدري مسافر ... إذا أضمرته الأرض ما الله صانعُ
فألقت على فيها اللثام وأعرضت ... وأمعن بالكحل السحيق المدامعُ
وإني لِعهد الودِّ راعٍ وإنَّني ... بوصلك ما لم يطوني الموتُ طامِعُ
بكت من حديث بَثَّه وأشاعه ... ورصَّفه واشٍ من القومِ راصِعُ
بكت عينُ من أبكاكِ لا يعرف البكا ... ولا تتخالَجْكِ الأمورُ النوازعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـلا يـسمعنْ سِرّي وسِرّك ثالـثٌ ألا كُـلّ سِرّ جـاوز اثنـين شـائعُ
وكيـف يـشيع الـسرّ منـي ودونـه حجاب ومن دون الحجاب الأضالعُ

ثم قال: ألا ما أكذبه، وانقض آخر شعرِهِ لأوّله، لكنّ دماء العاشقين جُبَارُ.

ألم تسمع عمر بن أبي ربيعة المخزومي إذ يقول:

كـدت يـوم الرحيـل أقـضي حيـاتي ليتنـــي مـــت قبـــل الرحيـــلِ

والنمري إذ شجا:

إن المنيّـــة والفـــراق لواحـــد أو توأمـــان تراضـــعا بِلَبَـــانِ

ثم قال: إيهٍ يا صاحبي، ليس شيءٌ ألذُّ من نظر المعشوق في وجه عاشقٍ بابتسام.

واسمع ما قاله أبو نُوَاس وهي من وسائط قلائده في سحر شعره، وقيل إنها للسري الرفاء:

بنفـسيَ مـن رد التحيـة ضـاحكا فجدّدَ بعد اليأس في الوصل مطمعي
إذا ما بدى أبدى الغرامُ سرائري أظهـر للعـذال مـا بـين أضـلعي
وحالـت دمـوع العـين بيني وبينه كـأنّ دمـوع العـين تعـشقه معـي

وقال غيره:

عرضْن فعرّضن القلوب من الجوى لأسرعَ في كيّ القلوب من الجمرِ
كـأن الـشفاه اللُّعْـسَ فيهـا خـواتمٌ مـن المـسك مختـوم بهـن عـلى درِّ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللرائع جرير، وهذا المعنى لا يفهمه غليظ الطبع جافي الحس:

إن الـذين غـدوْا بلبـك غـادروا ... وشَـلاً بعينـك لا يـزال مَعِينـا

غيّـضنَ مـن عـبراتهن وقلـن لي ... مـاذا لقيـت مـن الهـوى ولقينـا

نعم يا رفيق الدرب، فالأدب لم يدع مُلحة شجوٍ ولا دفينة معنى إلا أظهرها وأثارها وأجلاها، لولا زيوف الدخلاء عليه، ممن قادتهم شهوة الجسد عن مغاني النفس، وعلى كلٍّ فهذا ديوان العرب، وكل إناء بما فيه ينضحُ.

لك الله يا أُخيّ، لئن ظفرت بقطعة أدب عسجدية، قد كتبها يراع الرشاقة بمداد الظرف واللطافة حتى أضحى جمالها فائقٌ وأمسى حسنها رائقٌ؛ فعَضَّ عليها ناجذة فؤادك وذاكرة عقلك؛ فهي في مذهب قومنا كتيبة حسن لا يُقام لها، وصولة جمال لا بقاء بعدها، ومعدنٌ مسترادٌ طيب لمن رام تذكّر أيام الهنا، فإن ساعد على هذا توسدك حلالاً لذراع ناعمة البشرة، لدنة المفاصل، لطيفة الكفين، لينة الاعطاف، وقد تورّدت منها الخدود والوجنات بحمرة الخجل، كحمرة ورد الربيع الذي انفتق للتو من كمّه على الغصن الروي، وعليه انضم الندى العطريّ، فتضوّع الجوّ من عَرْفِها، وتضمّخت المساربُ بأرجها، فإن كان للنجم ظهور فهو بالقمر مبهور، ذات ثدي ناعم ناهد، كما قال عمرو بن كلثوم:

وثـدياً مثـل حُـقّ العـاج رَخْـصاً ... حَـصاناً مـن أكـف اللامـسينا

وحق العاج هو وعاء صغير من ناب الفيل، ناصع البياض، وله غطاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منه ناتئ كحلمة ثدي البكر، والرخص هو الجلد الناعم اللدن الرقيق. تحبُّها وتحبك، وتطرح لك أعذب التغاريد وألين الأعضاء، حسناء غانية حوراء، هيفاء غيداء لفّاء، قِوَامُهَا ميّاس مائد كأنه الخيزران، أسيلةُ الخدّ ركيزة القَدِّ، قد تنافست في مُحيّاها تفاحتان أرقّ من لطيف الهواء، وأصفى من قراح الماء، وأبهى من بدر السماء، لها طَرْفٌ أحور أدعج، وثغرٌ أشْنَبَ مفلّج، لها نَفَسٌ أرقُّ من نسائم هزيعِ السَّحَر. وقد أجنّكما ليلٌ حالكٌ من فحمة شعرها، مشرقٌ بشمسِ وجهها، ومضيءٌ بقمرِ السماء، وقد نظرت إليك بابتسامةِ مشتاقة، فتحتارُ كيف يجتمع ليل شعرها الفاحم مع شمس وجهها البهيّ، شمس وليل كيف يجتمعان معاً؟! وكأن النجوم فوقكم خرائد سوافر، أو عيون نجل في سواد البراقع...هناك لا تسل عن الغياب حتى الثمالة بالشم والسمع والنظر وما وراءها..حتى تذوب المِعْنَاجُ بين يديك كذوبان الشهد في فم الغرثان!

إذا مـا الـضجيعُ ثنـى جِيْـدَها تَثَنَّـتْ فَكَانَـتْ عليـه لِبَاسـاً

قلت: يا صاحبي لحظتها تُنسى القصائد والأدب، وتشتعلُ البسوسُ، وتقومُ داحس والغبراء! والعالمية الثالثة! آهٍ منك يا فلان، ضاع العلم بين أفخاذ النساء! ألا فَالوَحَا الوَحَا!

فقال: عفواً يا صاحبي لا تؤاخذني، فأحياناً يتفاقم الأمر ويعيل الصبر، فللنفس قدر فتفيض عند امتلائها، ومزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطباع، ثم إن النفوس اذا كلّت ملّت، وإذا نَفَهَتْ عميَت،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والكسير قد يعلو الرابية، والعاشية تهيج الآبية، ولو ترك القطا ليلاً لنام!

قلت: خَلَاكَ ذَمٌّ يا صاحبي فإلى متى هذا الكرب اللازم، والحزن الدائم، والتنفسُ صُعُداً، والرغبة فيما لايدرك ولايحصى؟! إن كان في الدنيا مكتوباً فوالذي نفسي بيده لتذوقنّه، وإلا فاسأله في الجنة، فربُّنا كريم لا يخيب سائله، ولا يُردُّ داعيه. وإن شئت الخبر الذي كالعيان فلن يستريح مؤمنٌ حتى يُخَلِّف جسر جهنم ورائه!

وَخُذ هذه من أشجان محبك:

أيا مبتغي الفردوس عجّل بصارمٍ ... وكن صادق الإقبال عند التلاقيا
فإن تحيَ عشت العز في كل لحظةٍ ... وإن كانت الأخرى ستلقى المراقيا
فلِلعبد إن يصدقْ ويُمسي مجندلاً ... شهيداً فقد فاحت دماءٌ زواكيا
وينكح أبكاراً حساناً ويرتوي ... برشف اللمى طَوْراً وطوراً تَنَاجِيا
عَرُوباً يفوحُ المسكُ من مسّ خدّها ... ضَحُوكاً يضُوعُ العطرُ جذلانَ هاويا

فأطرق ملياً، وقد أشرفتُ دمعةً حرّى من تحت أهدابه، ثم قال: لقد تعزّى امرؤ القيس لما رأى قبر بنت ملك في أنقرة وهو في مرض موته فقال:

أجارتنا إن المزار قريب ... وإني مقيم ما أقام عسيبُ
أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيبُ

وعسيب اسم جبل. وقال جرير:

خليليَّ هل في نظرة إن نظرتها ... أداوي بها قلباً علي فُجورُ
إلى رُجُحِ الأكفالِ غيدٍ من الصبا ... عِذاب الثنايا ريقهنّ طَهورُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال العباس بن الأحنف:

والله لـــو أن القلـــوب كقلبهـــا ... مـا رقَّ للولـد الـضعيف الوالـدُ
جـالَ الوِشـاحُ عـلى قـضيب زانـه ... رمـانُ صـدر لـيس يقطـف ناهـدُ

حينها ظننت أن علّة صاحبي قد تفضي به إلى الخبل والجنون!

ثم مشينا على أقدامنا حتى توسطنا روضة معتمة، فيها ألوان الزهور الصافية، وأشكال الورود النادية، وقد فُتقت الأرض بالصدع، حتى أخذت زينتها، ولبست زخرفها من كل زوج بهيج ونشر أريج. حَوَتْ ورداً أحمر كالحياء شِيب به الخدِّ، وأصْفَرَ كالمحب أضرَّ به الصدُّ. فجلسنا ثم لم نلبث أن انطرحنا على ظهرينا، وكلانا يتبع ببصره غيمةً وطفاء، تتهادى في كبد السماء مثقلة بالماء كالناقة العُشَراء المتمّ، فقال: أتدري ما العشق؟ قلتُ: صِفه لي.

قال: لم أر أحداً أصاب وصفه وآثاره ومظاهره كالأعرابية الأدية الصافية القريحة التي قالت لما سئلت عنه: العشق خَفِيَ عن أن يُرى، وَجَلَّ عن أن يخفى! فهو كامن كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، وإن لم يكن شعبة من الجنون، فهو عصارة من السحر!

ثم جلس صاحبي ونكت بعصاه زهرتين مفترقتين فجمعهما وهو يقول: هؤلاء الأدباء بعض كلامهم له في القلب أثر كالقنابل النووية، آه ما أروعهم! ثم أنشد لمهيار الديلمي:

ومـن عجـب أني أحـنّ إلـيهم ... وأسـأل شـوقاً عـنهمُ وهـمُ معـي
وتبكـيهمُ عيني وهـم في سـوادها ... ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيا مقلتي العبرى أفيضي عليهم ويا كبدي الحرى عليهم تقطعي

ومررنا وقت الأصيل بإبلٍ باركات في مشهد غريب بديعٍ، قد استقبلنَ الشمسَ بوجوههن كأنما حَرَصْن على جمع أكبر قدر من شعاعها وخَزْنِهِ تحت جلودِهِنَّ العظيمة، وكل واحدةٍ منهن بجانبها فصيلها على نفس الهيئة والجهة، وواحدتهن تجترّ غذاءها وهي تنظر إلينا أثناء مرورنا بعينين كسولتين كأنما جُمعت فيهما نشوة الدنيا! وصغيرُها يتقلّب في ظلّها يمنة ويسرة ناظرًا إليها بدلال وغِنَى، ويكأنما جُمعتِ الدنيا بأسرها في حنان أمه. فتذكّرتُ حديث آكلةِ الخَضِرِ في وصف أهل الدنيا بين الحرص عليها والهلاك بها، وبين أخذ البُلغة منها واستعمالها للحاجة والكفاية، دون التعلّق بحطامها الزائل وفُتاتها الفتّان، والحديث من رواية أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذكر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وجَلَسُوا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا**» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟! فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النَبِيَّ ﷺ وَلاَ يُكَلِّمُكَ؟! فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قَالَ فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟!**» وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ؛ فَقَالَ: «**إِنَّهُ لاَ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَو يُلِمُّ، إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ** - أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - **وَإِنَّهُ مَنْ**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق على صحته.

والرُّحَضَاء: هي العَرَقُ الذي يتفصّدُ من وجهه الشريف أثناء نزول الوحي عليه. وقوله: «**إن الخير لا يأتي**» أي: إن الخير الصرف لا يأتي إلا بالخير، والمال ليس كذلك، بل هو مما يُمازجه شرٌّ من جهة الأخذ والإنفاق وتعلّق القلب بجمعه وبأسبابه وشحه ونحو ذلك. وقوله: «**خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**» أي: مرغوبة من جهة الزينة واللذة، فيقارنها الإفراط في تحصيلها وصرفها، فيؤدي ذلك إلى الهلاك. وقوله: «**حَبَطاً**» أي: انتفاخاً وانبشامًا فتنسدّ أمعاؤها من اختلاط وازدحام النبات الرطب فيها. وقوله: «**أو يُلِم**»: من الإلمام، أي: يقرب من القتل. وقوله: «**إلّا آكِلَةُ الخَضِرِ**» الخَضِر: هو كلأ الصيف اليابس، والمراد: لكن آكلة الخضر تنفع بأكلها، فإنها تأخذ الكلأ على الوجه الذي ينبغي. والحاصل أن ما ينبته الربيع خير لكن مع ذلك يضر إذا لم تستعمله الأكلة على وجهه، وإذا استعمل على وجهه لا يضر، فكذلك المال. وقوله: «**حتى امتدت خاصرتاها**» أي: شبعت. وقوله: «**واستقبلت الشمس**»: تستمرِئُ بذلك. مثالُها في البشر من إذا شبع اتكأ وارتخى وأخذ في الشاي ونحوه. وقوله: «**فثلطت**» أي: ألقت رجيعها سهلاً رقيقاً.

وفي الحديث مثلان ضُرب أحدهما للمفْرط في جمع الدنيا ومنعها من حقها، وضُرب الآخر للمقتصد في أخذها والانتفاع بها. فأما قوله: «**فإن**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مما ينبت الربيع يقتل حَبَطاً» فهو مثل للمُفْرِطِ الذي يأخذها بغير حق، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب كالنفل ونحوه فتستلذُّه الماشية فتأكل منه بلا حساب حتى يبشمَها فتهلك، وكثير من أهل البادية يكونون على الأُهبة عند المراعي اللينة اللذيذة، فلا يتركون الماشية ترعاها وقتاً طويلاً، فإن غفلوا وانتفخت بطونها من الشَّرَهِ أدركوها وعالجوها، وبعضهم يدخل إبرة في خواصرها فترتاح البهيمة! كذلك بهيمة البشر وهي النفس الأمارة التي تركها سائِسُها وراعيها تقودُه لحتفها، وهو المرء الذي يجمع الدنيا من غير حلها، ويمنع ذا الحق حقه فيهْلك في الآخرة بدخول النار، كما قيل:

أبُنَيَّ إن من الرجال بهيمةٌ ... في صورةِ الرجل السميعِ المُبْصِرِ
فَطِنٌ بكل مصيبةٍ في مالِهِ ... وإذا يُصابُ بدِينِهِ لا يَشْعُرِ

وأما مثل المقتصد، فقوله ﷺ: «**إلا آكلة الخَضِر...**» وذلك أن الخضر ليست من أحرار البقول التي يُنبتها الربيع فتستكثر منها الماشية، ولكنها من كلأ الصيف التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول شيئاً فشيئاً من غير استكثار، فضرب مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا ولا يحمله الحرصُ على أخذها بغير حقها، فهو ينجو من وبالها، وتأمّل: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، فهو خير من الدنيا كمّا وكيفًا، وزمناً. كما قيل: لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى؛ لكان على العاقل الحازم أن يؤثر الخزف الباقي على الذهب الفاني، كيف والدنيا خزفًا يفنى والآخرة ذهبًا يبقى؟! ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

مشينا الهوينى وعلى مَدِّ البصر بضعةٌ أشباح مُدْبِرةٌ لرجال ونساء وأطفال، تتزايلُ ظِلَالُهُم الطويلة على امتداد الترب المرمريّ، فقلت متخيلاً حقائهم الآن وبعد مئة عام أو تزيد، ذلك أنّ حقيقة الإنسان بروحه لا بجسده الذي هو كالراحلة لها، وإن كان له عليها تأثير ضئيل لما بينهما من المشاكلة طيبًا وخبثًا، سعادة وشقاءً، وإلا فالخطاب أصالة موجَّهٌ للروح أما الجسد فتابعٌ، أرأيتك سنّك الذي اقتلعتَ، وظُفرك الذي قلّمتَ، وشعرك الذي حلقت، بل العضو إن قُطِعَ؛ هل تُحِسّ بشيء من ذلك؟ كلّا، لكن بما أن الراحلة صالحة للركوب والارتحال فالروُّح متعلّقة بها، فإن طرأ عليها فساد وموت رَحَلَتِ الروحُ لباريها على ما فيها من حاجة للراحلة التي تنتظر مبعثها ونشرها، والله المستعان. وورد أن ابن عمر قال لأسماء معزيّاً أمام جثة ابن الزبير ولمّا تُقبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا: عليك بتقوى الله والصبر، فان هذه الجثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فقالت: وما يمنعني من الصبر، وقد أُهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بني إسرائيل!

فقلتُ منشِدًا زبدة تلك الهواجس والخواطر والفِكَرِ:

أَقْبَلِـــتِ الرَّوَاحِـــل
أَدْبِـــرِتِ الرَّوَاحِـــل
تَكَـــابَرَتْ فِي العَـــيْن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَكَـــاثَرَتْ لِلْبَـــيْن
تَقَـــافَزَتْ أَشْـــبَاحُهَا
تَنَـــاثَرَتْ أَشْـــلَاؤُهَا
مَا تِلْكَ سِوَى أَجْسَادٍ
تَحْمِـلُ أَرْوَاحَ الْبَـشَر!

ومررنا بمحلّة يقال إن في غبرائها شهادة مؤثلة عن بني عمومة اقتتلوا حتى كادوا أن يتفانوا في لُجَجِ خطط الظلم والعدوان وقطيعة الأرحام، فاستحضرَ صاحبي الهائِيةَ المُلوّعة المُفجّعة لقيثارة العرب قاطبة البحتري الطائي وفيها:

وفرسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها ... بأحقادِها حتى تضيقَ دروعُهَا
تقتِّلُ من وترٍ أَعَزَّ نفوسِهَا ... عليها بأيدٍ ما تكادُ تُطيعُهَا
إذا احترَبَتْ يومًا ففاضتْ دماؤُها ... تذكَّرِتِ القُرْبَى ففاضتْ دموعُهَا
شواجِرُ أرماحٍ تُقطِّعُ بينهمْ ... شوجرَ أرحامٍ ملومٍ قَطُوعُهَا

ثم استرسل صاحبي في بحر تأملاته واختياراته وبوحِهِ منتقلًا من غَرَضٍ لأخيه فقال: ولِقرينِ البحتري علي بن الجهم، وهو من بني سامة بن لؤي هاجيًا مُصْمِيا:

يُبيحُكَ منهُ عِرْضًا لم يصنْهُ ... ويرتعُ منك في عِرْضٍ مصونِ

وقال لما سُجِن:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائري حبْسي وأيّ مُهنَّدٍ لا يُغمدُ
أوَمَا رأيتِ الليثَ يألَفُ غِيْلَهُ كِبْرًا وأوباشُ السِّباعِ تردّدُ

ولِعَصْرِيِّهما ابن الرومي في وفاء نادر، وصورٍ نوعيّة ضاربةٍ في عمق الإبداع، ورثاءٍ أليم مُبْكٍ لمُمَدَّحِهِ القتيل عبد الله بن طاهر:

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليكَ وممدودٌ من الظلِّ سَجْسَجُ
ويا أسفى أن لا يردَّ تحيَّةً سوى أَرَجٍ من طِيبِ نَشْرِكَ يأَرجُ
ألا إنما ناحَ الحمامُ بعد ما ثويتَ وكانتْ قبل ذلكَ تَهْزجُ

فقلت: هيا بنا نركب رواحل الأدب عبر أطياف التاريخ، لنحلّ على مضارب بعض أهل المعلّقات. فقال: بَخٍ بخٍ، فهم من شقّوا كِبَرَ طريق شعر العرب، وأضاؤوا عموده، ولا تكاد ترى لهم معنى بديعاً إلا ولهم فيه قصب السبق، ثم انتحله فئامٌ من الشعراء بعدهم. وإن الذي يروم أدب العرب ولم يمخض لسانه المعلقات فليس بأديب.

والمعلقات ــ وتسمى المذهّبات والمقلدات والمسمّطات والسمط ــ سبع وزاد بعضهم ثلاثاً فَكُنَّ عشراً.

وأصحاب السبع هم: امرؤ القيس، وطَرَفَةُ بن العَبْد، وزُهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، والحارث بن حلّزة اليشكري. وعند بعضهم أنها ثمان ويضيف إلى أصحابها النابغة الذبياني، وكثير من المتأخرين جعلوها عشراً وأضافوا إلى من ذكرنا الأعشى، وعبيد بن الأبرص على اختلاف في بعضهم بين نقاد الشعر قديماً وحديثاً،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبما أن ميزان الشعر ذوقي فلا تسل عن سعة الاختلاف بين نقّاده، ولكن ثَمَّت قصائد وشعراء لم يجر فيهم خلاف.

والأكثرون على تفضيل شعر أصحاب المعلقات على غيرهم، وعلى أن أفحل شعراء المعلقات هم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة. قال أبو عبيدة: أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة. وفي الطبقة الثانية؛ الأعشى، ولبيد، وطرفة.

وسئل يونس النحوي: من أشعر الناس؟ قال: لا أومئ إلى رجل بعينه، ولكني أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

قلت: وعنترةُ إذا غضب، وطرفة إذا عتب، وابن كلثوم إذا حُرِب. وهم شعراء متقاربون كالحلْقة المفرغة لا يُدرى أين طرفها؟!

قال أبو عبيدة: أصحاب السبع التي تسمى السمط: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة. وقال المفضل: من زعم أن في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء فقد أبطل. فأسقط بذلك من أصحاب المعلقات عنترة، والحارث بن حلزة، وأثبت الأعشى، والنابغة.

وكانت المعلقات تسمى المذهّبات، وزعموا أن سبب تسميتها أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلّقت على الكعبة، وليس هذا بشيء، فلقد كانت قريحة العرب سماعية لا كتابية. وقيل:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بل كان الملك إذا استجاد قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه، لتكون في خزانته، وهذا متوجّه.

وقالوا: إن امرأ القيس صاحب النصيب الأوفر في الشعر، لأن الشعر في تعبيرهم كان جملاً فنحر، فأخذ امرؤ القيس رأسه، وكان زهير يمتاز بأنه لا يعاظل بين كلامين، ولا يتتبع وحشي الكلام، ولا يمدح أحداً بغير ما فيه. أما النابغة فهو أوضح الشعراء معنى، وأبعدهم غاية، وأكثرهم فائدة. وأما الأعشى فهو أمدحهم للملوك، وأوصفهم للخمر، وأقدرهم شعراً. وأما لبيد فهو أقلّهم لغواً. وأما عمرو بن كلثوم فهو أعزّهم نفساً، وأكثرهم امتناعاً. وأما طرفة فهو أجودهم واحدة، وبلغ على حداثة سنه ما بلغه القوم في طول أعمارهم.

وقال أبو عمرو بن العلاء: طرفة أشعرهم واحدة. يعني معلقته. وفيها يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

وقال البيهقي: وأما أهجاهم للرجال، وأبذّهم في المقال، وأضربهم للأمثال فطرفة.

هذا، وأصحاب المعلقات السبع كلهم جاهليون إلا لبيداً، فإنه من المخضرمين.

وهذه مطالع المذهبات السبع:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلامرئ القَيس الكندي:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ

ولزهير المزني:

أمن أم أوفى دِمْنة لم تكلمِ

وللنابغة الذبياني:

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ

ولطَرَفة البكري:

لِخَوْلة أطلالٌ ببرقة ثَهمدِ

ولعَنترة العبسي:

يا دارَ عَبلة بالجواء تكلمي

ولعمرو بن كُلْثوم التغلبي:

ألا هُبِّي بصحنك فاصْبحينا

ولِلَبيد العامري:

عفَت الدِّيار محلّها فمقامها

وللأعشى القيسي:

ودِّع هُرَيْرةَ إن الرَّكْب مُرْتَحِلُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللحارث بن حِلَّزة اليشكري البكري:

آذَنَتْنا ببَيْنِها أسماءُ

ولعبيد بن الأبرص الأسدي:

أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحوبُ

وتأمل كيف قُسمت أكثر المعلقات بين القبائل، ولعل من أسباب ذلك احتفاء قوم الشاعر بابنهم وروايتها ومدحها حتى تُستحسن، لذا فلا تعجب أن يكون لكل قبيلة من الجراثيم المتناحرة معلّقة، كعبس وذبيان، وبكر وتغلب، كذلك فليس في تلك المعلقات قصائد للمجنون وكثيّر وقيس لبنى لأن هؤلاء إسلاميون، أما أصحاب المعلقات فجاهليون أو مخضرمون، كذلك فالعرب لا تحتفي بالنسيب إلا إن كان مقدمة لقصيدة ومدخلاً لها أما أن تكون كلها فيه فليست لاستحسانهم بسبيل، ولكأني بهم ينتظرون بعده الفخر والحكمة وهما عمدة نظرهم في تقديم المعلقات على غيرها والله أعلم.

والآن فلنلجْ ديوان الفحول، ولنُمِرّ أسماعنا بشيء من إمتاعهم، ولنصقل لغتنا بمحدّ فصاحتهم وبيانهم، ولنُطلق لخَيَالِنا العنان مع بديعهم. وسوف نستنطق أخبارهم وقصائدهم بدون ترتيب ولا استقصاء، دفعاً للسأم والملال، فشعرهم كألوان الربيع المختلفة الألوان والأشكال والشذى..

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد صدحت صنّاجة الأعشى بقوله ــ والصناجة آله موسيقية لأنه كان يتغنى عند إنشاده ـ:

غـراءُ فرعـاءُ مـصقولٌ جوانبهـا تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحلُ
كـأن مـشيتها مـن بيـت جارتهـا مشي السحابة لا ريث ولا عجلُ

ولجلالة شعر الأعشى فقد كان يرفع الوضيع الخامل، ويخفض الشريف النابه، ومن الذين رفعهم شعر الأعشى المحلَّق، وقد كان أباً لثمانِ بناتٍ عوانس، رغبت عن خطبتهن الرجال لفقرهن، فاستضافَهُ على فقره، فمدحه الأعشى ونوّهَ بذكره في عكاظ، فلم يمض عام حتى لم تبق جارية منهن إلا هي زوج لسيد كريم. وقيل بل أرسل خلفه مولىً لأبيه يسوق كرامته التي اقترض ثمنها لفقره، وهي ناقة وخمر وبردين مع مولى لأبيه، بناء على نصيحة زوجته التي قالت: لئن اختلج السنام والكبد والخمر في بطنه وقد اشتمل ببرديك ليرفعنّ ذكرك! فخرج يتبعه، فكلما مر بماء قيل: ارتحل أمس عنه. حتى صار إلى منزل الأعشى في منفوحة باليمامة ـ وهي حيٌّ عامر في الرياض حالياً ـ فوجد عنده عدّة من الفتيان قد غدّاهم بغير لحم، وصبَّ لهم فضيخاً. فهم يشربون منه إذ قرع الباب، فقال: انظروا من هذا؟ فخرجوا فإذا رسول المحلّق يقول: هذه كرامتك، ولم أكُ حاضراً فأتبعتك إياها. فدخلوا عليه وقالوا: هذا رسول المحلق الكلابي أتاك بكذا. فقال: ويحكم، أعرابي، والذي أرسل إليّ لا قدر له ـ أي لا أعظم منه وهي من ألفاظ الأضداد ـ والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفي لأقولن فيه شعراً لم أقل قط مثله. ثم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أذن للرسول فدخل وأناخ الجزور بالباب، ووضع الزِّقُّ والبُردين ين يديه. فقال له: أقره التحية وقل له: وصلتك رحم، سيأتيك ثناؤنا. وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها وشقوا خاصرتها عن كبدها وجلدها عن سنامها، ثم جاءوا بها. فأقبلوا يشوون، وصبوا الخمر فشربوه. وأكل معهم الأعشى وشرب ولبس البردين ونظر إلى عطفيه فيهما فأنشأ يقول قصيدته الذائعة التي سارت في العرب وزوّجت بناته العشر أو أخواته الثلاث، فما أتت على المحلق سنة حتى زوجهنّ كل واحدة على مئة ناقة. فأيسر وشرف، قال ــ وتأمل نار المقرور ـ:

أرقتُ وما هذا السُّهاد المؤرّقُ ... وما بي من سقمٍ وما بي تعشّقُ
لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرة ... إلى ضوء نار في اليفاع تحرّقُ
تشبُّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار النَّدَى والمحلّقُ
رضيعي لبان ثدي أُمٍّ تقاسما ... بأسحم داج عَوْض لا نتفرّقُ
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متنَ الهندواني رونقُ
يداهُ يدا صدق فكفٌّ مبيدةٌ ... وأخرى إذا ما ضنَّ بالمال تنفقُ

وقال فيه عبد الملك بن مروان: قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره. وقال المفضل: من زعم أن أحداً أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر.

واسم الأعشى ميمون بن قيس، وكان يكنى أبا بصير، وكانوا يسمونه صنَّاجة العرب لجودة شعره، أو لأنه كان يتغنى به. وقد مدح سلامة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحميري، فأجازه وأعطاه مئة من الإبل، وكساه حللا كرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً. وقال: إياك أن تخدع عنها. فانصرف عنه حتى أتى الحيرة فباعها بثلاث مئة ناقة حمراء. فخاف أن ينتهب ماله، فاستجار بعلقمة بن علاثة العامري فقال له: أجيرُكَ من الأسود والأحمر فقال: ومن الموت. قال: لا. فأتى عامر بن الطفيل، فقال: له مثل مقالة علقمة، فقال له الأعشى: ومن الموت. قال: نعم. قال: وكيف؟ قال: إن متّ في جواري وديتك. فلما سمع علقمة جواب عامر قال: لو علمت أن ذلك مراده لهان علي. وكان ذلك في أوان منافرة عامر وعلقمة المشهورة ــ والمنافرة هي الاحتكام بعد الفخر ــ وكانت العرب تهاب أن تنفر أحدهما على الآخر لسيادتهما وفروسيتهما، فكانا فرسي رهان، إن أرضيت هذا أسخطت ذاك.

ثم إن الأعشى ركب ناقته ونفر عامراً وفضّله عل علقمة ــ وهذا مثال على مدى صِدقيّة هؤلاء فأكثر شعراء المدح ذبابُ طمع، فيمدحون الكفّ المعطية بلا نظر لصاحبها، وقد يكون ممدوحهم اليوم هو مجهوّهم الغد! ــ فأهدر علقمة دمه. وجعل على كل طريق رصداً، فهجاه الأعشى أيضاً بقصيدة من أشد ما فاهت به العرب في هجوها، يقول فيها:

تَبِيتونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطونُكُمْ ... وجاراتكمْ غَرثى يبتنَ خمائصَا
يراقبنَ مِنْ جوعٍ خلالَ مخافة ... نُجُومَ السّمَاءِ العاتِماتِ الغَوَامِصَا
وما ذنبنا أنْ جاشَ بحرُ ابنِ عمِّكم ... وَبَحرُكَ ساجٍ لا يُوَارِي الدّعَامِصَا

وقد كذب في هجوه لعلقمة، فإنه كان من أجواد العرب. وقد أسلم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما ابن عمه عامر بن الطفيل فهو مَنْ دعا رسول الله ﷺ عليه ربه أن يكفيه، فعاقبه بغُدَّةٍ في رقبته هلك منها. ولما بلغ هجو الأعشى علقمة رفع يده وقال: لعنه الله، أنحن نفعل هذا بجاراتنا؟ وقيل إنه بكى منها! وقال: اللّهم اخزه إن لم يكن صادقاً! ـ فلعل شؤم كذبته ودعوة المظلوم عليه قد لحقاه حتى خُذِل عن الفلاح بدخول الإسلام وقد أوشك عليه! ـ

قال عبد الملك بن مروان: يا بني أُمية، أَحسابكم أَنسابكم، لا تُعرِّضوها للجهّال؛ فإن كلامهم باقٍ ما بقي الدّهر، وأوصيكم بحسن جوار الشعراء، فإن للشعر مواسم لا تزداد على اختلاف الجديدين إلا جدة، والله ما يسرّني أني هجيتُ بمثل هذا البيت وأن لي ما طلعت عليه الشمس:

تَبِيتُون في الْمَشْتَى مِلاَءً بُطونُكُم ... وجَارَاتُكم غرْثى يَبِتْن خَمَائِصَا

هذا وقد كان عبدالملك من خيار طلبة العلم في المدينة، ومن حَمَلَةِ كتاب الله، حتى دخل في الدماء والفتن، فَخَفَتَ نورُهُ، وكان يقول عن نفسه متحسراً: كنت أتحرّج من أن أطأ النمل قبل الخلافة، فلما وليت جعل الحجاج يكتب لي بقتل الفئام من الناس ولا أبالي! وعبدالملك معدودٌ من متذوّقة الأدب الرفيع، وله مجالس وأخبار وافرة لو جمعت في كتاب لكان حافلاً نافعاً.. ولنرجع إلى الأعشى:

ثم إن الأعشى سافر ومعه دليل، فأخطأ به الطريق، فألقاه في ديار بني عامر بن صعصعة فأخذه رهط علقمة بن علاثة فأتوه به. فقال: الحمد لله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الذي أمكنني منك. فقال الأعشى الداهية:

أعلقمُ قدْ صيرتني الأمورُ ... إلَيْكَ وَمَا كَانَ لي مَنْكَصُ
وَكُلُّ أُنَاسٍ وَإنْ أَفْحَلوا ... إذا عَايَنُوا فَحْلَكُمْ بَصْبَصُوا
وإنْ فحصَ النّاسُ عنْ سيِّدٍ ... فَسَيّدُكُمْ عَنْهُ لا يُفْحَصُ
فهلْ تنكرُ الشّمسُ في ضوئها ... أوِ القَمَرُ البَاهِرُ المُبْرِصُ
فَهَبْ لي ذُنُوبي فَدَتْكَ النّفُوسُ ... ولا زلتَ تنمي ولا تنقصُ
أَعَلْقَمَ قد صَيَّرَتْنِي الأُمورُ ... إِلَيْكَ وما أَنْتَ لي مُنْقِصُ

فقال قوم علقمة: اقتله وأرحنا والعرب من شرِّ لسانه. فقال علقمة: إذن تُطلبوا بدمه، ولا ينغسل عنِّي ما قاله، ولا يُعرف فضلي عند القدرة. وقيل: بل دخل علقمة على أمّه وقال لها: لقد أمكنني الله من هذا الأعمى الخبيث ــ لعشو عينيه ــ . قالت: فما تراك فاعلاً به؟. قال: سأقتله شر قتلة. فقالت: يا بني، لقد كنت أرجوك لقومك عامة، وإني اليوم لا أرجوك إلا لنفسك خاصة. وإنما الرأي أن تكسوه وتحمله وتسيِّرَهُ إلى بلاده، فإنه لا يمحو عنك ما قاله إلا هو. ففعل ما أمرَتْهُ به، وحلَّ وثاقه، وألقى عليه حُلَّة، وحمله على ناقة، وأحسن عطاءه. وقال له: انج حيث شئت، ووالله لو قلتَ فيَّ ما قلت في عامرٍ ابنِ عمي لأغنيتك حياتك، ولو قلتَ فيه ما قلته في ما أذاقك بردَ الحياة. وأخرج معه من من يبلغه مأمنه. فجعل بعد ذلك يمدحه. ومن ذلك قوله فيه:

عَلْقَمَ يا خَيْرَ بنى عامِرٍ ... للضَّيْفِ والصاحِبِ والزائِرِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والـضَّاحِكَ الـسِّنِّ عـلى هَمِّـهِ والغـافِرَ العَثْـرَةِ للعـاثِرِ

وقال الأعشى وقدمها بعضهم على وَدِّعْ هريرة، ولم يُصب، وإن كانت هذه اللاميّة تُعَدُّ لوحةٌ تصويريّة قشيبة لحياة البادية الوادعة:

مَـا بُكَـاءُ الكَبِـيرِ بِـالأَطْلاَلِ وَسُـؤَالِي وَمَـا تَـرُدّ سُـؤالي
دِمْنَـةٌ قَفْـرَةٌ تَعَاوَرَهَـا الـصَّيْـ ـفُ بِـرِيْحَيْنِ مِـنْ صَـبَا وَشَـمالِ
لاَتَ هُنّـا ذِكْـرَى جُبَـيرَةَ أَوْ مَـنْ جَـاءَ مِنْهَـا بِطَـائِفِ الأَهْـوَالِ
حَـلَّ أَهْـلي بَطْـنَ الغُمَـيْسِ فَبـادَو لى وَحَلَّـتْ عُلوِيّـةً بالـسِّخالِ
وَسِـقَاءٍ يُـوْكَى عـلى تَـأَقِ المَـلْ ءِ وَسَـيْرٍ ومُـسْتَقَى أَوْشَـالِ
وَادِّلاَجٍ بَعْـدَ الهُـدوءِ وَتَهْجيـ ـرٍ وَقُـفٍّ وَسَبْـسَبٍ وَرِمَـالِ
وَقَلِيـبٍ أَجْـنٍ كَـأَنَّ مِـنْ الرِّيـ ـشِ بِأَرْجَائِـهِ سُـقُوطَ النِّـصالِ
فَلَـئِنْ شَـطَّ بِيَ المَـزَارُ لَقَـدْ أُضـ ـحي قَلِيـلَ الهُمُـومِ نَـاعِمَ بَـالِ
إِذْ هِـيَ الهَـمُّ والحَـدِيثُ وإِذْ تَعْـ ـصِي إِلَيَّ الأَمِـيرَ ذا الأَقْـوَالِ
ظَبْيَـةٌ مِـنْ ظِبَـاءِ وَجْـرَةَ أَدْمَـا ءُ تَـسُفُّ الكَبَـاثَ تَحْـتَ الهَـدَالِ
حُـرَّةٌ طَفْلَـةُ الأَنَامِـلِ تَرْتَـ ـبُّ سُـخاماً تَكُفُّـهُ بِخِـلاَلِ
وكَـأَنَّ الـسُّمُوطَ عاكِفَـةُ الـسِّلْـ ـكِ بِعِطْفَـيْ وِشَـاحِ أُمِّ غَـزَالِ
فَـاذْهَبِي مَـا إِلَيْـكِ أَدْرَكَنِـي الحِـلْ عَـدَاني عَـنْ هَـيجِكم أَشْـغالي
وَعَـسِيرٍ أَدْمَـاءَ حَـادِرَةِ العَـيْـ ـنِ خَنُـوفٍ عَيْرَانَـةٍ شِـمْلاَلِ
مِـنْ سَرَاةِ الهِجَـانِ صَـلَّبَها العُـضُّ وَرَعْـيُ الحِمَـى وَطُـولُ الحِيـالِ
لمْ تَعَطَّـفْ عـلى حُـوَارٍ وَلَمْ يَقْـ ـطَعْ عُبَيْـدٌ عُرُوقَهـا مِـنْ خُمَـالِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قـد تَعَلَّلْتُهـا عـلى نَكَـظِ المَيْـ ... ـطِ وَقَـدْ خَـبَّ لاَمِعَـاتُ الآلِ
فَـوْقَ دَيْمُومَـةٍ تُخَيَّـلُ لِلْـسَّفْـ ... ـرِ قِفَـاراً إلاَّ مِـنَ الآجـالِ
وإذا ما الظِّلاَلُ خَيفَتْ وكان الشُّرْ ... بُ خِمْساً يَرجُوْنَـهُ عـن ضـلالِ
واسـتُحِثَّ المُغَـيِّرُونَ مـن الـرَّكْ ... بِ وكـانَ النِّطـافُ مـا في الغَـزالي
مَرِحَـتْ حُـرَّةً كَقَنْطَـرَةِ الرّومـ ... ـيِّ تَفْـريْ الهَجِـيرَ بِالإِرْقَـالِ
تَقَطَـعُ الأَمْعَـزَ المُكَوْكِـبَ وَخْـداً ... بِنـواجٍ سَرِيعَـةِ الإِيْغـالِ
عَنْـتَرِيسٌ تَعْـدو إذا حُـرِّكَ الـسَّوْ ... طُ كَعَـدْوِ المُصَلْـصِلِ الجَـوَّالِ
لاَحَـهُ الـصَّيْفُ والطِّـرادُ وإشْـفا ... قٌ عَـلَى صَـعْدَةٍ كَقَـوْسِ الـضَّالِ
مُلْمِـعٌ والِـهُ الفُـؤَادِ إلى جَحْـ ... ـشٍ فَـلاهُ عَنْهَـا فَبِـئْسَ الفَـالي
ذو أَذَاةٍ عـلى الخَلِـيطِ خَبِيـثُ النّفـ ... ـسِ يَرمـي عَـدُوَّهُ بالنُّـسالِ
غـادَرَ الـوَحشَ في الغُبَـارِ وعـادا ... هـا حَثِيثـاً لِـصُوّةِ الأَدْحَـالِ
ذَاكَ شَبّهْتُ نَاقَتي عن يَمينِ الرَّعـ ... ـنِ بَعْـدَ الكَـلاَلِ والإِعْـمَالِ
وَتَرَاهَـا تَـشْكُو إليّ وقـد صَـا ... رَتْ طَلِيحاً تُحْذَى صُدورَ النِّعالِ
نَقَـبَ الخُـفُّ لِلـسُّرَى فَـتَرَى الأَنْـ ... ـساعَ مِـنْ حِـلِّ سَـاعَةٍ وارْتِحَـالِ
أَثَّـرَتْ في جَـآجِيءٍ كـإرانِ المَيْـ ... ـتِ عُـولينَ فَـوْقَ عُـوجٍ رِسَـالِ
لاَ تَـشَكَّيْ إليّ مِـنْ أَلـمِ النِّـسـ ... ـعِ وَلاَ مِـن حَفىً ولا مـن كـلالِ
وَلَقَـدْ أَسـتَبي الفَتَـاةَ فَتَعْـصي ... كُـلَّ واشٍ يُرِيـدُ صَرْمَ حِبَـالي
لَمْ تَكُـنْ قَبْـلَ ذَاكَ تَلْهُـو بِغَـيْرِي ... لاَ ولاَ لَهْوُهَـا حَـديثُ الرّجـالِ
ثـمّ أَذْهلْـتُ عَقْلَهـا رُبّـما يَـذْ ... هَـلُ عَقْـلُ الفَتَـاةِ شِـبْهِ الهِـلاَلِ
وَلَقَـدْ أَغْتَـدي إذا صَـقَعَ الدّيـ ... ـكُ بِمُهْـرٍ مُـشَذَّبٍ جَـوّالِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَعْـوَجِي تَنْمِيـهِ عُـوذٌ صَـفَايا ... وَمَـعَ العُـوذِ قِلّـةُ الإِغْفَـالِ
مُدْمَجٌ سابغُ الضّلوعِ طَويلُ الشّـ ... ـخصِ عَبْلُ الشَّوى مُمَرُّ الأعَالي
وَقِيَـامي عَلَيْـهِ غَـيْرَ مُـضيعٍ ... قَـائماً بالغُـدُوّ والآصَـالِ
فَجَلَ الصّونُ وَالمَضامِيرَ عن سِيـ ... ـدٍ جَرَى بَيْنَ صَفْصَفٍ وَرِمَالِ
يَمْـلأُ العَـيْنَ عَادِيـاً وَمَقُـوداً ... وَمُعَـرّىً وصَـافِناً في الجِـلاَلِ
فَعَـدَوْنَا بِمُهْرِنـا إذْ غَـدَوْنَا ... قَارِنِيـهِ بِبَـازِلٍ ذَيَّـالِ
مُسْتَخَفّاً عـلى القِيـادِ ذَفيفـاً ... تَـمّ حُسناً فـصارَ كَالتّمثـالِ
فـإذا نَحْـنُ بـالوُحُوشِ تُرَاعِـي ... صَـوْبَ غَيـثٍ مُجَلْجِـلٍ هَطّـالِ
فَحَملْنـا غُلامَنـا ثـمّ قُلنـا ... هَاجِرِ الصّوْتَ غَيْرَ أَمْرِ احتيالِ
فَجَـرَى بـالغُلامِ شِـبْهَ حَريـقٍ ... في يَبيسٍ تَـذْرُوهُ رِيـحُ الـشَّمالِ
بَـيْنَ عَـيْرٍ ومُلمـعٍ وَنُحُـوض ... ونَعَـامٍ يَـرِدْنَ حَـوْلَ الرّئَـالِ
لَمْ يَكُـنْ غَـيْرُ لَمْحـةِ الطّـرْفِ حتى ... كَـبَّ تِـسْعاً يَعْتَامُهـا كَالمُغَـالي
وَظَلِيمَـيْنِ ثُـمّ أَيَّهْـتُ بِالمُهـ ... ـرِ أُنـادي فـداكَ عَمّـي وَخَـالي
وَظَلَلْنـا مـا بَـيْنَ شـاوٍ، وذِي قِـدْ ... رٍ وَسَـاقٍ ومُـسْمِعٍ مِحْفَـالِ
في شَـبابٍ يُـسْقَوْنَ مِـنْ مَـاءِ كَـرْمْ ... عَاقِـدينَ الـبُرُودَ فَـوْقَ العَـوَالي
ذَاكَ عَـيْشٌ شَـهِدْتُهُ ثـمّ وَلّى ... كُـلُّ عَـيْشٍ مَـصِيرُهُ للـزَّوَالِ

أما خبر هلاكه فمؤسف، نعوذ بالله من الخذلان، ففي سنة صلح الحديبية هَمَّ الأعشى بالإسلام، وأنشأ قصيدة يمدح فيها النبيَّ ﷺ، وتأمل عظيم العبرة في قوله: إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ــ واسأل ربك الثبات

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على الدين حتى المماتِ، وليت شعري ما ذا سيقول غداً؟! ـ قال:

ألـم تَغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمدا ... وبِتَّ كما باتَ السليمُ مُسهَّدا
وما ذاكَ مِن عِشْقِ النِّساءِ وإنَّما ... تَناسَيْتَ قبلَ اليومِ خُلَّةَ مَهْدَدا
ولكنْ أَرَى الدَّهْرَ الذي هو خاتِرٌ ... إذا أَصْلَحَتْ كَفَّايَ عادَ فَأَفْسَدا
شَبابٌ وشَيْبٌ وافْتِقارٌ وثَرْوَةٌ ... فللَّهِ هذا الدَّهرُ كيفَ تَرَدَّدا
أَلاَ أَيُّهذا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّمَتْ ... فإنَّ لها في أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدا
فآلَيْتُ لا أَرْثِي لها مِن كَلالَةٍ ... ولا مِن حَفىً حتَّى تُلاقِي محمَّدا
متى ما تُناخي عند بابِ ابن هاشمٍ ... تُراحي وتلقي من فواضله ندى
نبياً يرى ما لا ترونَ وذكرُهُ ... أغارَ لَعَمري في البلاد وأَنجدا
له صدَقاتٌ ما تُغِبُّ ونائلٌ ... وليس عطاءُ اليوم ما نعَهُ غدا
أجِدَّك لم تَسمعْ وَصاةَ محمدٍ ... نبيِّ الإلهِ حين أوصى وأَشهدا
إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى ... ولاقَيت بعد الموتِ من قد تزوَّدا
ندمت على ألاَّ تكون كمثلهِ ... فتُرصِدَ للموت الذي كان أرصَدا
فإيَّاكَ والمَيْتاتِ لا تَقْرَبَنَّها ... ولا تَأْخُذَنْ سَهْماً حَدِيداً لِتَفْصِدا
وصَلِّ على حين العَشِيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَعبد الشَّيْطانَ، واللهَ فاعْبُدا

وكان سائراً لرسول الله ﷺ بهذه القصيدة ليُسْلِم. فلما كان قريباً من مَكة، وبلغ قريشا خبره وما قد عزمه رصدوا على طريقه، وكان فيهم أبو سفيان بن حرب فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى، والله لئن أتى محمداً واتّبعه ليُضرمن عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مئة من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإبل، ففعلوا. فلما ورد عليهم قالوا: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم هذا ـ يعني النبي عليه الصلاة والسلام ـ لأُسْلِمَ. فقالوا: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وكلها لك موافق. قال: وما هي؟ قالوا: الزنا والقمار والربا والخمر. قال: أما الزنا فلقد تركني، وأما القمار فلعلي إن لقيته أن أصيب منه ما يغنيني عنه، وأما الربا فما دنت وما أدنت، وأما الخمر ـ أَوّه إن في النفس منها لعُلالات ـ فأرجع إلى صُبابةٍ قد بقيت في المهراس فأشربها. فقال أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟ فقال: وما هو؟ قال: نحن الآن وهو في هدنة، فتأخذ مئةً من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا: فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَفًا، وإن ظهر علينا أتيتَهُ. فقال: ما أكره ذلك. ففعلوا. فأخذها وانطلق إلى بلده فلما كان قريباً من بلده منفوحة باليمامة رمى به بعيره فقتله.. ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوَّدا!!

ومن شعره قوله وفيه يفتخر بيوم ذي قار وهو للعرب على الفرس:

لو أن كل معدٍّ كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرفُ
لما أمالوا إلى النشّابِ أيديَهُمْ ... مِلْنَا ببيضٍ فظَلَّ الهام تقتطفُ
وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تطحنهم ... حتى تولّوا وكاد اليوم ينتصفُ

أما معلقته فهي من أفحل قصائدِ البَشَرِ، ومنها:

ودِّعْ هُرَيْرةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وهل تُطيق وَداعاً أيُّها الرجلُ
غَرَّاءُ فَرْعاءُ مصقولٌ عوارضُها ... تمشي الهُوَيْنَى كما يمشي الوَجِي الوَجِلُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تسمع للحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انصرفتْ ... كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

يَكادُ يَصرَعُها لَوْلا تَشَدّدُهَا ... إذا تَقُومُ إلى جَارَاتِهَا الكَسَلُ

إذا تُعالِجُ قِرْناً سَاعةً فَتَرَتْ ... وَاهتَزّ منها ذَنُوبُ المَتنِ وَالكَفَلُ

مِلءُ الوِشاحِ وَصِفْرُ الدّرْعِ بَهكَنَة ... إذا تَأتّى يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ

هركولةٌ فنقٌ درمٌ مرافقها ... كأنّ أخْمُصَهَا بالشّوكِ منتعلُ

إذا تَقُومُ يَضُوعُ المِسْكُ أصْوِرَة ... والزنبقُ الوردُ من أردانها شملُ

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعشبة ... خَضرَاءُ جادَ عَلَيها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ ... مُؤزَّرٌ بِعَمِيمِ النّبْتِ مُكْتَهِلُ

يَوْماً بِأطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَة ... ولا بأحسنَ منها إذْ دنا الأصلُ

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقتْ رجُلاً ... غيري وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجلُ

قالت هريرةُ لمّا جئتُ زائرَها ... وَيْلِي عليك وويلي منك يا رجلُ

لم تمشِ مِيلاً ولم تركب على جملٍ ... ولم تَرَ الشمس إلا دونها الكِلَلُ

وبلدة مثلِ ظهرِ التُّرسِ موحشة ... للجِنّ بِاللّيْلِ في حَافَاتِهَا زَجَلُ

لا يَتَمَنّى لهَا بِالقَيْظِ يَرْكَبُهَا ... إلاّ الذينَ لهُمْ فيما أتوا مهلُ

جاوزتها بطليحٍ جسرة سرحٍ ... في مِرْفَقَيها إذا استَعرَضْتَها فَتَلُ

إمّا تَرَيْنَا حُفَاةً لا نِعَالَ لَنَا ... إنّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَنَنْتَعِلُ

أقول للركب في دُرْنَى وقد ثَمِلوا ... شِيمُوا وكيف يَشِيم الشاربُ الثَّمِلُ

كناطحٍ صخرةً يوماً ليَفْلِقَها ... فلم يَضِرْها وأَوْهَى قَرْنَه الوَعِلُ

أبلغ يزيدَ بني شَيْبانَ مَأْلُكَةً ... أبا ثُبَيتٍ أمَا تَنْفَكُّ تأتكِلُ

إن تركبوا فركوبُ الخيل عادتُنا ... أو تنزلون فإنّا معشرٌ نُزُلُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في فِتْيةٍ كسيوف الهند قد علموا أن ليس يدفَع عن ذي الحيلة الحِيَلُ

وقد كان النابغة الذبياني تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فكان أول من أنشده في أحد المواسم الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء. ثم أتته الخنساء أخت صخر فأنشدته قصيدة منها قولها في أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهُدَاةُ بِهِ كأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

فقال: والله لولا أن أبا بصير ـ يعني الأعشى ـ أنشدني آنفا لقلت: أنك أشعر الجن والإنس. فقام إليه حسان، فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك. فقال له النابغة مفتخراً ببيت قاله في النعمان: يا ابن أخي، إنك لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليلِ الذي هو مُدْرِكِي وإن خِلْتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ

أما عنترة، وما أدراك ما شعر عنترة! فمن تشابيهه الرائقة قوله ـ ولعله لَحَظَ ألوانها المتوهجة المختلفة التي هي عبارة عن سِجلٍّ عمريٍّ لتلك النجوم ـ:

أُراعي نجومَ الليلِ وهيَ كأنَّهَا قوارير فيها زئبقٌ يترجرجُ

وقوله في وصف روضة غنّاء:

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غَرِداً كفعل الشارب المترنِّمِ
هَزِجاً يحكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزَّنادِ الأجذمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومما ينسب إليه وتأمل كيف مزج الفخر بالنسيب:

أحبّكَ يا ظلومُ فأنتِ عندي ... مكانَ الروحِ من جسدِ الجبانِ
ولو أني أقول مكان روحي ... خشيتُ عليك بادرةَ الطِّعانِ

وقال متوعداً الملك النعمان بن المنذر ويفتخر عليه بقومه:

لا يحْمِلُ الحِقْدَ مَنْ تَعْلُو بِهِ الرُّتَبُ ... ولا ينالُ العلى من طبعهُ الغضبُ
ومن يكنْ عبد قوم لا يخالفهمْ ... إذا جفوهُ ويسترضى إذا عتبوا
قدْ كُنْتُ فِيما مَضَى أَرْعَى جِمَاهُمُ ... واليَوْمَ أَحْمي حِمَاهُمْ كلَّما نُكِبُوا
لله دَرُّ بَني عَبْسٍ لَقَدْ نَسَلُوا ... منَ الأكارمِ ما قد تنسلُ العربُ
لئنْ يعيبوا سوادي فهوَ لي نسبٌ ... يَوْمَ النِّزَالِ إذا مَا فَاتَني النَسبُ
إن كنت تعلمُ يا نعمانُ أيُّ فتىً ... يَلْقى أخاك الَّذِي قَدْ غرَّهُ العُصَبُ
فَتًى يَخُوضُ غِمَارَ الحرْبِ مُبْتَسِماً ... وَيَنْثَنِي وَسِنَانُ الرُّمْحِ مُخْتَضِبُ
إنْ سلَّ صارمهُ سالتَ مضاربهُ ... وأَشْرَقَ الجَوُّ وانْشَقَّتْ لَهُ الحُجُبُ
والخَيْلُ تَشْهَدُ لي أَنِّي أُكَفْكِفُهَا ... والطّعن مثلُ شرارِ النَّار يلتهبُ
إذا التقيتُ الأعادي يومَ معركةٍ ... تَركْتُ جَمْعَهُمُ المَغْرُور يُنْتَهَبُ
لي النفوسُ وللطّيرِاللحومُ وللـ ... ـوحْشِ العِظَامُ وَلِلخَيَّالَةِ السَّلَبُ
لا أبعدَ الله عن عيني غطارفةً ... إنْساً إذَا نَزَلُوا جِنَّا إذَا رَكِبُوا
أسودُ غابٍ ولكنْ لا نيوبَ لهم ... إلاَّ الأَسِنَّةُ والهِنْدِيَّةُ القُضبُ
تعدو بهِمْ أعوجيّاتٌ مضَّمرةٌ ... مِثْلُ السَّرَاحِينِ في أعناقها القَبَبُ
ما زلْتُ ألقى صُدُورَ الخَيْلِ منْدَفِقاً ... بالطَّعن حتى يضجَّ السَّرجُ واللَّبُبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فا لعميْ لو كانَ في أجفانهمْ نظروا ... والخُرْسُ لوْ كَانَ في أَفْوَاهِهِمْ خَطَبُوا
والنَّقْعُ يَوْمَ طِرَادِ الخَيْل يشْهَدُ لي ... والضَّرْبُ والطَّعْنُ والأَقْلامُ والكُتُبُ

ويقال: إنه قد سئل عن فرط شجاعته وجندلته الفرسان؟ فقال: لأني إذا ثار الطعان قصدتُ رجلاً جباناً فأعلوه بالسيف أو أدق صلبه بالرمح بقوة مزعجة، فإذا رآني الباسل الشجاع بهذا الحال خافني فأسرعتُ إليه فأعانني عليه خوفه مني فأجندله وأقتله فتفرّ بين يدي الشجعان!

أما معلقته التي أَشْهَرَتْهُ فيقال في سبب نظمها؛ أنه جلس يوما في مجلس بعد ما كان قد أبلى وحسنت وقائعه واعترف به أبوه وأعتقه، فسابَّهُ رجل من بني عبس وعاب عليه سواد أمه وإخوته، وأنه لا يقول الشعر. فسبه عنترة وفخر عليه، ثم قال: وأما الشعر فستعلم. فكان أول ما قال معلقته. وكان قبل ذلك ينظم البيت والبيتين، ومنها:

هَلْ غَادَرَ الشّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفتَ الدّارَ بَعدَ تَوَهّمِ
إلاّ رواكِدَ بَيْنَهُنّ خَصائِصٌ ... وبَقيّةٌ مِنْ نُؤيِها المُجْرَنْثِمِ
دارٌ لآنِسَةٍ غَضيضٍ طَرْفُها ... طَوْعِ العِنانِ لَذيذَةِ المُتَبَسِّمِ
يا دارَ عَبلَةَ بالجِواءِ تَكَلّمي ... وَعِمي صَباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي
فَوقَفتُ فيها ناقَتي وكأَنّها ... فَدَنٌ لأقضِيَ حاجَةَ المُتَلَوِّمِ
وتَحُلّ عَبلةُ بالجواءِ وأَهْلُنا ... بالحَزْنِ فالصَّمّانِ فَالمُتَثَلَّمِ
وَتَظَلّ عَبْلَةُ في الخُزُوزِ تَجُرّها ... وَأَظَلّ في حَلَقِ الحَديدِ المُبْهَمِ
حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقادَمَ عَهْدُهُ ... أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمّ الهَيثَمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حَلّتْ بأرْضِ الزّائرينَ فأَصْبَحَتْ ... عَسِراً عليّ طِلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ
عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتُلُ قَوْمَها ... زَعْماً لَعَمرُ أبيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ
وَلَقَدْ نَزَلتِ فلا تَظُنّي غَيرَهُ ... منّي بِمَنزِلَةِ المُحَبِّ المُكرَمِ
أنّي عَداني أَنْ أَزورَكِ فاعْلَمي ... ما قَدْ عَلِمتِ وبعضَ ما لم تَعْلَمي
يا عَبْلَ لَوْ أَبْصَرْتِني لرأيتني ... في الحربِ أُقدِمُ كالهِزْبرِ الضّيغمِ
كَيفَ المَزارُ وقد تَرَبّعَ أهلُها ... بعُنَيزَتَينِ وأهلُنا بالغَيلَمِ
إن كُنتِ أَزْمعتِ الفِراقَ فإنّما ... زُمّتْ رِكابُكُمُ بِلَيْلٍ مُظلِمِ
مَا رَاعني إلاّ حمولةُ أهلها ... بأَخْذِ الفارسِ المُسْتلئِمِ
إذ تستبيكَ بذي غروب واضحٍ ... عذبٍ مقبلُهُ لذيذُ المطعمِ
وكأنما نظرتْ بعينيْ شادنٍ ... رشأٍ من الغزلانِ ليس بتوأمِ
وكأَنَّ فَارَةَ تاجرٍ بقسيمَةٍ ... سبقتْ عوارضها اليكَ من الفمْ
أوْ روْضَةً أُنُفاً تضمَّنَ نبتَها ... غيْثٌ قليلُ الدِّمن ليسَ بمَعْلَمِ
جادت عليها كلّ عينٍ ثَرَّةً ... فتركنَ كلَّ حديقةٍ كالدرهمِ
سَحّاً وتسْكاباً فَكلَّ عشيَّةٍ ... يجري عليها الماءُ لم يتصرَّمِ
وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ ... غَرِداً كفعلِ الشاربِ المترنمِ
هَزِجاً يحكُ ذراعه بذراعه ... قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ
تمسي وتصبحُ فوق ظهرِ حشيةٍ ... وأبيتُ فوقَ سَرَاةِ أدْهمَ مُلْجَمِ
وحشيتي سرجٌ على عبلِ الشَّوى ... نَهْدٍ مَراكِلُهُ نَبيلِ المحزِمِ
إنْ تغدفي دوني القناعَ فانني ... طبٌّ بأخذِ الفارسِ المستلئمِ
أثني عليَّ بما علِمْتِ فإنني ... سمحٌ مخالطتي إذا لم أظلمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلمـيَ باسـلٌ ... مـرٌّ مذَاقَتُـهُ كَطعـم العَلْقـم
وحليـل غانيـة تركـتُ مجـدلاً ... تَمكـو فريـصتُهُ كـشدْقِ الأَعْلَـمِ
سـبقتْ يـدايَ لـه بعاجـل طعنـة ... ورشـاشِ نافـذَة كلـوْن العَنْـدَمِ
هـلاّ سـأَلتِ الخيـلَ يـا ابنـةَ مالـكٍ ... إن كنـتِ جاهلـةً بـما لم تعلمـي
إذ لا أزالُ عـلى رحالـة سـابح ... نهْـدٍ تعـاوَرُهُ الكُـماةُ مُكَلَّـمِ
طَـوْراً يجَـرَّدُ للطعـانِ وتـارة ... يـأوي الى حـصدِ القـسيِّ عرمـرمِ
يُخـبرْك مـن شَـهدَ الوقيعَـةَ أنني ... أغشى الـوغى وأعـفُّ عند المغنم
ولقـد ذكرْتُـكِ والرِّمـاحُ نواهـلٌ ... مني وبيْضُ الهِنْدِ تقْطرُ منْ دمي
فـوددتُ تقبيـل الـسيوفِ لأنهـا ... لمعـت كبـارق ثغـركِ المتبـسِّم
ومـدَّججٍ كـرِهَ الكُـماةُ نِزَالَـهُ ... لا مُمْعـنٍ هَرَبـاً ولا مُسْتَـسلم
جـادتْ لـه كفـي بعاجـل طعنـة ... بمثَقَّـفٍ صَـدْقِ الكُعُـوبِ مُقَـوَّم
بِرَحِيبَـة الفَـرْعَينِ يهْـدي جَرسُـها ... بالليـل معـتسَّ الـذئابِ الـضرَّم
فـشككتُ بـالرمحِ الأصـمِّ ثيابـهُ ... لـيس الكـريمُ عـلى القَنَـا بمحـرّمِ
فتركتـهُ جـزرَ الـسباع ينـشنهُ ... يقـضمنَ حـسنَ بنانـهِ والمعـصم
وَمِـشَكٍّ سـابغة هَتكـتُ فروجَهـا ... بالسيف عن حامي الحقيقة معلم
لمـا رآني قَـدْ نَزَلْـتُ أُرِيـدُهُ ... أبـدى نواجـذهُ لغـير تبـسُّم
فطعنتـهُ بـالرُّمح ثـم علوتـهُ ... بمهنـدٍ صـافِي الحديـد مخـذَم
عهـدي بـه مَـدَّ النّهـار كـأَنما ... خـضبَ اللبـان ورأسـهُ بـالعظلم
ولقد حفظتُ وصاة عمّي بالضحى ... إذ تقلصُ الشفتانِ عنْ وضح الفم
في حومـةِ الحـربِ التى لا تـشتكي ... غَمَرَاتِهـا الأَبطـالُ غـيْرَ تَغَمْغُـمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذْ يتقُــون بي الأسَّــنة لم أخــمْ ... عنهــا ولكنــي تــضايق مُقــدَمي
لمــا رأيــتُ القــومَ أقبــلَ جمعهُــم ... يتــذَامرونَ كَــرَرْتُ غَــيْرَ مــذَمّم
يــدعون عنــترَ والرِّمــاحُ كأنهــا ... أشــطانُ بئــرٍ في لبــانِ الأدهــم
مــا زلــتُ أرمــيهمْ بثغــرة نحــره ... ولِبانِــهِ حتــى تَــسَرْبلَ بالــدّم
فــازورّ مــن وقــع القنــا بلبانــهِ ... وشــكا إليّ بعَــبْرة وَتَحَمْحُــم
ولقــد شــفى نفــسي وأبــرأ ســقمها ... قيــلُ الفــوارس ويــكَ عنــتر أقــدم
والخيــلُ تقْــتَحِمُ الخَبَــارَ عوابــساً ... مــا بــين شــيْظمة وآخــر شــيْظم
إنّي عَــدَاني أنْ أزوَركِ فــاعْلمي ... ما قد علمتِ وبعضُ ما لم تعلمي
حالــتْ رمــاحُ ابني بغيضٍ دونكــم ... وَزَوَتْ جَوانبي الحربِ مَنْ لم يُجرِمِ
ولقــد خــشيتُ بــأنْ أمــوتَ ولم تــدرْ ... للحربِ دائرةٌ على ابْنَي ضَمْضَمِ
الــشَّاتِمَيْ عِــرْضِي ولم أشْــتِمْهُما ... والنَّــاذِرَيْنِ إذا لم ألقهــا دَمــي
إن يفعــلاَ فلقــد تركــتُ أباهمــا ... جــزرَ الــسباع وكــلِّ نــسرٍ قعــشم

أما الحارث بن حلّزة اليشكري فكان من المقلّين ولولا معلقته لخمل ذكره، ومطلعها:

آذنتنــــا ببينهــــا أســــماءُ ... ربّ ثــاوٍ يمــلّ منــه الثــواءُ

وهو الحارث بن حلزة اليشكري، من بكر بن وائل بن نزار. وهو شاعر جاهلي، كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي الملك عمرو بن هند بالحيرة. جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم حتى صار مضرب المثل في الافتخار، فقيل: أفخر من الحارث بن حلزة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال أبو عمرو الشيباني: كان من خبر هذه القصيدة والسبب الذي دعا الحارث إلى قولها: أن عمرو بن هند لما جمع بكراً وتغلب ابني وائل، وأصلح بينهم، أخذ من الحيّين، رهناً من كل حيّ مائة غلام ليكفّ بعضَهم عن بعض .فكان أولئك الرهن معه في سيره ويغزون معه. فأصابتهم ريح سَمُومٌ في بعض مسيرهم فهلك عامّة التغلبيين، وسلم البكريون. فقالت تغلب لبكر: أعطونا ديات أبنائنا، فإن ذلك لكم لازم، فأبت بكر بن وائل. ثم اجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم وأخبروه بالقصة. فقال عمرو لقومه: بمن ترون بكراً تعصب أمرها اليوم؟ فقالوا: بمن عسى إلا برجل من أولاد ثَعْلَبة. قال عمرو: أرى والله الأمر سينجلي عن أحمر أصلع أصّم من بني يشكر. فجاءت بكر بالنعمان بن هرم: أحد بني ثعلبة، وجاءت تغلب بعمرو بن كلثوم. فلما اجتمعوا عند الملك قال عمرو بن كلثوم للنعمان بن هرم: يا أصمّ جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم وهو يفخرون عليك! فقال النعمان: وعلى من أظلّت السماءُ كلُّها يفخرون، ثم لا يُنكر ذلك. فقال عمرو له: أما والله لو لطمتُك لطمة ما أخذوا لك بها. فجاء جواب النعمان نابياً وبذيئاً. فغضب عمرو بن هند وكان يؤثر بني تغلب على بكر، فقال: يا جارية أعطيه لَحْياً بلسان أنثى ــ أي اشتميه بلسانك ــ فقال: أيها الملك أعط ذلك أحبّ أهلك إليك. فقال: يا نعمانُ أيسرُّك أني أبوك قال: لا ولكن وددت أنّك أميّ! فغضب عمرو بن هند غضباً شديداً حتى همّ بالنّعمان. ثم قام الحارث بن حلّزة من فوره غاضباً لما رآه من تطاول الملك وابن كلثوم واستصغارهما شأن بكر، فارتجل قصيدته المعلقة ارتجالاً، توكّأ على قوسه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأنشدها وانتظم كفّه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها.

وقيل: أنشد الحارث عمرو بن هند هذه القصيدة وكان به وضَح. فقيل لعمرو بن هند: إنّ به وضحاً. فأمر أن يجعل بينه وبينه سبعة ستور وبأن ينضح موطن قدميه بالماء تقذُّراً، فلما تكلّم أعجب بمنطقه، فلم يزل عمرو يقول: أدنوه ويطرح الستور حتى أقعده معه قريباً منه وأطعمه في جفنته وأمر أن لا يُنضح أثره بالماء.

وزعموا أنّ الملك أمر بجزّ نواصي السبعين بكريّاً الذين كانوا رهناً عنده، ودفعها إليه. ومن معلقته الذائعة وتأمل أسماء الوهاد والهضاب التي لم تزل بأسمائها حتى اليوم:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمّاءَ ... فَأَدْنَى دِيارِهَا الخَلْصاءُ
فالمحيّاةُ فالصَّفاحُ فأعنا ... قُ فتاقٍ فعاذبٌ فالوفاءُ
فريَاضُ القطا فأوديةُ الشُّر ... بُبِ فالشُّعْبَتَانِ فالأَبلاءُ
لا أرى من عهِدتُ فيها فأبكي الـ ... ـيومَ دلْهاً وما يحيرُ البكاءُ
وبعينيكَ أوقدتْ هندٌ النا ... رَ أخِيرا تُلْوِي بِهَا العَلْيَاءُ
فتَنَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعِيدٍ ... بخَزازَى هيهاتَ منكَ الصِّلاءُ
أوقَدتْها بينَ العقيقِ فشخصيـ ... ـن بعودٍ كما يلوحُ الضياءُ
غَيرَ أنّي قَد أسْتَعينُ عَلَى الهَمِّ ... إذَا خَفَّ بالثَّوِيِّ النَّجَاءُ
وأتانا منَ الحوادثِ والأنبا ... ءِ خَطبٌ نُعْنَى بِهِ وَنَسَاءُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إِنَّ إِخْوَانَنَـــا الأَرَاقِـــمَ يَغلُـــو ... نَ علينـــا في قيلهـــمْ إحفـــاءُ
يخلطونَ البريءَ منّا بذي الذَّنب ... وَلاَ يَنْفَـــعُ الخَـــلِيَّ الخَـــلاءُ
أَجْمَعُـــوا أَمْـــرهُمْ عِـــشَاءً فَلَـــمَّا ... فآبـــتْ لِخَـــصْمِهَا الأَجْـــلاَءُ
منْ منادٍ ومنْ مجيبٍ ومِنْ تصها ... ل تَصْهَالِ خَيْلٍ خِلاَلَ ذَاكَ رُغاءُ
أَيُّـــها النـــاطقُ المرقِّـــشُ عنّـــا ... عِنْـدَ عَمْـرو وَهَـلْ لِـذَاكَ بَقَـاءُ
لا تَخَلْنَـــا عَـــلى غَرَاتِـــكَ إِنَّـــا ... قبـلُ مـا قـدْ وشـى بنـا الأعـداءُ
فبقينـــا عـــلى الـــشناءة تَنميـــ ... ـــنا حـــصونٌ وعـــزّةٌ قعـــساءُ
قبلَ ما اليومِ بيَّضتْ بعيونِ النـ ... ـــاسِ فيهـــا تغيُّـــظٌ وإبـــاءُ
وَكَـــأَنَّ المَنُـــونَ تَـــرْدي بِنَـــا أَرْ ... عـنَ جَـوناً ينجـابُ عنـهُ العـماءُ
مكفهّـراً عـلى الحـوادثِ لا تـرْ ... تُـــوهُ للـــدَّهْرِ مُؤْيِـــدٌ صَـــمَّاءُ
إِرَمـــيُّ بِمثْلِـــهِ جَالَـــتِ الخيـــ ... ـــلُ وتـأبى لخـصمها الإجـلاءُ
إِنْ نبـشتمْ مـا بـينَ ملحـةَ فالـصّا ... قـبِ فيـهِ الأمـواتُ والأحيـاءُ
أَوْ نَقَـشْتمْ فـالنَّقْشُ يَجْـشَمُهُ النَّـا ... سُ وفيـــه الإســـقام والإبـــراءُ
أَوْ سكتّـــمْ عنّـــا فكنّـــا كمـــنْ أغْـ ... ـــمضَ عينـاً في جفنِهـا الأقـذاءُ
أو منعـتمْ مـا تسألونَ فمـن حُـدِّ ... ثْتُمُـــوهُ لَـــهُ عَلَيْنَـــا العَـــلاَءُ
أيّهـــا النـــاطقُ المبلِّـــغُ عنّـــا ... عِنـدَ عَمْـرٍو وَهَـلْ لِـذاكَ انْتِهَـاءُ
أسـدٌ فـي اللّقـاءِ وردٌ هموسٌ ... وَرَبِيـــعٌ إِنْ شَـــمَّرَتْ غَـــبْرَاءُ
مَا جَزِعْنَا تَحْتَ العَجاجَةِ إِذْ وَلَّـ ... ـــوا شِـلالاً وَإِذ تَلَظَّـى الـصِّلاءُ

أما النابغة الذبياني، فهو فحل مكثر، وكان يكنى: أبا أمامة، وأبا عقرب،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بابنتين كانتا له.

واختُلف في تسمية النابغة نابغة: فقيل: سمي بذلك؛ لأنه قال الشعر بعد ما كبر - يقال نبغ الرجل إذا لم يكن يقول الشعر ثم قاله. ومن روائعه الذائعة قوله في مدح عمرو بن الحارث الغساني، وقد قيل: إنها من أحسن ابتداءات العرب في شعرها، وقد صيّروا ليلته هذه مثلاً فقالوا: أطول من ليلة النابغة، قال ذلك الفحل القطم:

كِلِينِي لهَمٍّ يا أميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ ... وليسَ الذي يرعى النجومَ بآيبِ

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همِّهِ ... تضاعف فيه الحزنُ من كلِّ جانبِ

وراعي النجوم هنا هو الصباح، ومعنى أراح: أي رد، والعازب: البعيد. فجعل الهمّ يأوي إلى قلبه بالليل كالنَّعَم العازبة، تريحها الرعاة مع الليل إلى أماكنها، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل.

لقد كان النابغة بليغاً فصيحاً قد ملك أعنة اللغة. وقد سُئل الأصمعيّ عن شعر النابغة، فقال: إنْ قلت ألينُ من الحرير صدقتَ، وإن قلتَ أشدّ من الحديد صدقت.

وقد اشتهرت اعتذارياته للنعمان بن المنذر حليف الفرس، لما خرج منه لمنافسيه ملوك غسان حلفاء الروم، فأوغره بمدحهم فقال معتذراً:

عفا ذو حُساً مِنْ فَرْتَنى فالفوارعُ ... فجنبا أريكٍ فالتلاعُ الدوافعُ

فمجتمعُ الأشراجِ غَيَّرَ رسمها ... مصايفُ مرتْ بعدنا ومرابعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفتُها ... لِسِتّة أعْوامٍ وذا العامُ سابعُ
رَمادٌ كَكُحْلَ العينِ لأياً أُبينُهُ ... ونؤيٌ كَجذمِ الحوض أثلمُ خاشعُ
كأنّ مجرّ الرامساتِ ذيولها ... عليه حصيرٌ نمّقتهُ الصوانعُ
على ظَهْرِ مِبْنَاة جَديدٍ سُيُورُها ... يَطوفُ بها وسْط اللّطيمة بائِع
فكَفْكفْتُ مني عَبْرَةً فرَدَدتُها ... على النحرِ منها مستهلٌّ ودامعُ
على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا ... وقلتُ أَلَمَّا أصحُ والشيبُ وازعُ
وقد حالَ هَمٌّ دونَ ذلكَ شاغلٌ ... مكان الشغافِ تبغيهِ الأصابعُ
وعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنهِهِ ... أتاني ودوني راكسٌ فالضواجِعُ
فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ ... من الرُّقْشِ في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ
يُسَهَّدُ من لَيلِ التّمامِ سَليمُها ... لحلي النساءِ في يديهِ قعاقعُ
تناذرَها الرّاقُون مِنْ سوء سُمّها ... تُطلّقُهُ طَوراً وطَوراً تُراجِعُ
أتاني أبيتَ اللعنَ أنكَ لُمْتَنِي ... وتلكَ التي تستكّ منها المسامعُ
مَقالةُ أنْ قد قلت سوفَ أنالُهُ ... وذلك من تلقاءِ مثلكَ رائعُ
لعَمْرِي وما عُمْرِي عليّ بهينٍ ... لقد نطقتْ بُطْلاً عليّ الأقارعُ
أقارِعُ عَوْفٍ لا أحاوِلُ غيرَها ... وُجُوهُ قُرُودٍ تَبتَغي منَ تجادِعُ
أتاكَ امرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ ليَ بِغْضَةً ... له من عَدُوٍّ مثل ذلك شافِعُ
أتاكَ بقَوْلٍ هلهلِ النّسجِ كاذبٍ ... ولم يأتِ بالحقّ الذي هو ناصعُ
أتاكَ بقَوْلٍ لم أكُنْ لأقولَهُ ... ولو كبلتْ في ساعديّ الجوامعُ
حلَفْتُ فلم أترُكْ لنَفسِكَ رِيبة ... وهلْ يأثمَنْ ذو أُمةٍ وهوَ طائِعُ
لكلفتني ذنبَ امرئٍ وتركته ... كذي العُرّ يُكوَى غيرُهُ وهو راتعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإن كنتُ لا ذو الضغنِ عني مكذبٌ ... ولا حلفي على البراءة نافعُ
ولا أنا مأمُونٌ بشيءٍ أقُولُهُ ... وأنتَ بأمرٍ لا محالةَ واقعُ
فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْرِكي ... وإنْ خِلْتُ أنّ المُنتأى عنك واسِعُ
خطاطيفُ حجنٌ في جبالٍ متينة ... تمدّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ
أتوعدُ عبداً لم يخنكَ أمانةً ... وتتركُ عبداً ظالماً وهوَ ظالعُ
وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ النّاسَ سَيبُهُ ... وسيفٌ أُعِيرَتْهُ المنيّةُ قاطِعُ
أبى اللهُ إلاّ عدلهُ ووفاءهُ ... فلا النكرُ معروفٌ ولا العرفُ ضائعُ

وهي على جزالتها وفخامتها إلا أنها أزرت به، فالعرب تأنف من مثل هذا، وإن كان قد خفّفَ الأمر أنه مُوَجَّهٌ لملك، والملك مقصد لرعيته جمعاء.

ومن اعتذارياته إليه قوله ـ وتأمل رشاقة العبارات مع عمق المعاني، لذا فعدد من هذه الأبيات سار منفرداً في سراديب الزمن إلى أفواه العامة والخاصة في اعتذاراتهم لمن يحبون ـ:

أتاني أبيتَ اللعنَ أنكَ لمتني ... و تلكَ التي أهتمُّ منها وأَنصَبُ
فبتُّ كأنّ العائداتِ فرَشن لي ... هراساً به يُعلى فِراشي ويُقْشَبُ
حَلَفْتُ فلم أترُكْ لنَفسِكَ ريبَةً ... وليسَ وراءَ اللَّهِ للمَرْءِ مَذهَبُ
لئنْ كنتَ قد بُلّغتَ عني وشايةً ... لَمُبْلِغُكَ الواشي أغَشُّ وأكذَبُ
ولكنني كنتُ امرأً ليَ جانبٌ ... منَ الأرضِ فيه مستراَدٌ ومطلبُ
مُلوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتَيتُهُمْ ... أُحَكَّمُ في أموالهمْ وأُقَرَّبُ
كفعلكَ في قومٍ أراكَ اصطفيتهم ... فلم ترَهُمْ في شكر ذلك أذْنَبُوا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـلا تتركنّـي بالوعيـدِ كـأنني ... إلى النّاسِ مَطليٌّ به القارُ أجْرَبُ
ألـمْ تـرَ أنّ اللهَ أعطـاكَ سـورةً ... تـرى كـلّ مَلْـكٍ دونَهـا يتذَبـذَبُ
فإنـكَ شـمسٌ والملـوكُ كواكـبٌ ... إذا طلعـتْ لم يبـدُ مـنهنّ كوكـبُ
و لـستَ بمـستبقٍ أخـاً لا تلمـهُ ... عـلى شَـعَثٍ أيُّ الّرجـال المُهَـذَّبُ
فـإنْ أكُ مظلومـاً فعبـد ظلمتـهُ ... وإنْ تـكُ ذا عُتَبـى فمثلُـكَ يُعتِـبُ

ومن معلقة النابغة وهي موجهه لأبي قابوس وهو الملك النعمان، وقد اشتملت على ضروب من الوصف، والحكمة، والاعتذار، ولا غرو فهي أميرة شعره:

يـا دارَ مَيّـةَ بالعَلْيـاءِ فالـسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ
وقفـتُ فيهـا أُصَـيلاناً أُسـائِلُها ... عَيّتْ جواباً وما بالرَّبعِ من أحدِ
إلاّ الأواريَّ لأيـاً مـا أُبَيِّنُهَـا ... والنُّؤي كالحَوْضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ
أمستْ خلاءً وأمسى أهلُها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبدِ
كـأنّ رَحْـلي وقـد زالَ النّهـارُ بنـا ... يـومَ الجليـلِ عـلى مُـستأنِسٍ وحِـدِ
لمـا رأى واشـقٌ إقعـاصَ صـاحبِهِ ... ولا سَـبيلَ إلى عَقـلٍ ولا قَـوَدِ
قالـت لـه النفسُ إني لا أرى طمعاً ... و إنّ مـولاكَ لم يـسلمْ ولم يـصدِ
فتلـك تبلغنـي الـنعمانَ إنّ لـهُ ... فضلاً على النّاس في الأدنَى وفي البَعَدِ
و لا أرى فـاعلاً في النـاس يـشبهه ... ولا أُحـاشي مـن الأقـوام مـن أحَـدِ
إلاّ سـليمانَ إذ قـالَ الإلهُ لـهُ ... قُـمْ في البريـة فاحـددها عـنِ الفنـدِ
وخـيّسِ الجِـنّ إنّي قـد أَذِنْـتُ لهـمْ ... يَبْنُـونَ تَـدْمُرَ بالـصُّفّاحِ والعَمَـدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمـن أطاعـكَ فانفعـهُ بطاعتـهِ ... كـما أطاعـكَ وادللـهُ عـلى الرشـدِ
ومـن عَـصاكَ فعاقِبْـهُ مُعاقَبَـةً ... تَنهَى الظَّلومِ ولا تَقعُدْ على ضَمَدِ
إلاّ لِمِثْلِـكَ أوْ مَـنْ أنـتَ سـابِقُهُ ... سبقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ
أعطـى لفارِهَـة حُلـوٍ توابِعُهـا ... مـنَ المَواهِـبِ لا تُعْطَى عـلى نَكَـدِ
الواهِـبُ المئَـةِ المعْكـاء زيّنَهـا ... سَـعدانُ توضِـحَ في أوبارِهـا اللِّبَـدِ
و الأدمَ قـد خيستْ فتلاً مرافقها ... مَـشدودَةً برِحـالِ الحـيرة الجُـدُدِ
و الراكضاتِ ذيولَ الريطِ فانقها ... بـردُ الهـواجرِ كـالغزلانِ بـالجردِ
والخَيـلَ تَمـزَغُ غربـاً في أعِنّتهـا ... كالطيرِ تنجو من الشؤبوبِ ذي البردِ
مـا قلـتُ مـن سيءٍ ممـا أتيـتَ بـه ... إذاً فـلا رفعـتْ سـوطي إليّ يـدي
إلاّ مقالـةَ أقـوامٍ شـقيتُ بهـا ... كانَـتْ مقَـالَتُهُمْ قَرْعـاً عـلى الكَبِـدِ
إذاً فعـــاقبني ربي معاقبـــةً ... قـرتْ بهـا عـينُ مـنْ يأتيـكَ بالفنـدِ
أُنْبِئْـتُ أنّ أبـا قـابوسَ أوْعَـدَني ... ولا قَـرَارَ عـلى زأرٍ مـنَ الأسـدِ
مَهْـلاً فِـداءٌ لـك الأقـوام كُلّهُـمُ ... ومـا أثمـرُ مـن مـالٍ ومـنْ ولـدِ
لا تقـذفني بـركنٍ لا كفـاءَ لـه ... وإنْ تأثّفَـكَ الأعـداءُ بالرِّفَـدِ
فـما الفُـراتُ إذا هبَّـتْ غواربـه ... تَرمـي أواذيُّـهُ العِـبْرَينِ بالزَّبَـدِ
يَمُـدّهُ كـلُّ وادٍ مُـتْرَعٍ لجِـبٍ ... فيـه ركـامٌ مـن الينبـوتِ والحـضدِ
يظَـلّ مـن خوفـهِ المَـلاحُ مُعتـصِماً ... بالخيزرانـة بعـدَ الأيـنِ والنجـدِ
يومـاً بـأجوَدَ منـه سَـيْبَ نافِلَـة ... ولا يَحُـولُ عَطـاءُ اليـوم دونَ غَـدِ
هـذا الثّنـاءُ فـإن تَـسمَعْ بـه حَسَناً ... فلـم أُعـرّض أبَيـتَ اللّعـنَ بالصَّفَدِ
هـا إنّ ذي عِـذرَةٌ إلاّ تكُـنْ نَفَعَـتْ ... فـإنّ صـاحبها مـشاركُ النكـدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكأني بالملك النعمان لا يريد إظهار رضاه عن النابغة ليستزيده من هذه الحُلل الشعرية، وهو ما كان!

وللنابغة وعدّها بعضهم معلقته لجودتها:

عُوجُوا فحَيّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ ... مَاذَا تُحَيَّونَ مِنْ نُؤْيٍ وأَحْجَارِ
أَقْوَى وَأَفْقَرَ مِنْ نُعْمٍ وَغَيَّرَهُ ... هُوْجُ الرِّياحِ بِهَابِيْ التُّرْبِ مَوَّارِ
وَقَفْتُ فيها سَراةَ اليَومِ أَسْأَلُها ... عَنْ آلِ نُعْمٍ أَمُوناً عَبْرَ أَسْفَارِ
فَاسْتَعْجَمَتْ دَارُ نُعْمٍ ما تُكَلِّمُنا ... والدَّارُ لَوْ كَلَّمَتْنَا ذاتُ أَخْبَارِ
فَمَا وَجَدْتُ بها شَيئاً أَلُوذُ بِهِ ... إلاّ الثُّمَامَ وإلاّ مَوْقِدَ النَّارِ
وَقَدْ أَرَانِي وَنُعْماً لاَهِيَيْنِ بها ... وَالدَّهْرُ والعَيْشُ لَمْ يَهْمُمْ بِإِمْرارِ
أَيَّامَ تُخْبِرُني نُعْمٌ وأُخْبِرُها ... ما أَكْتُمُ النَّاسَ مِنْ حاجي وأَسْرارِي
لَوْلاَ حَبَائِلُ مِنْ نُعْمٍ عَلِقْتُ بها ... لأَقْصَرَ القَلْبُ عَنْهَا أَيَّ إقْصارِ
فإنْ أَفاقَ لَقَدْ طَالَتْ عَمَايَتُهُ ... وَالمَرءُ يُخْلِقُ طَوراً بَعْدَ أَطْوَارِ
نُبِّئْتُ نُعْماً على الهِجْرَانِ عَاتِبَةً ... سَقْياً وَرَعْيَاً لِذَاكَ العَاتِبِ الزَّارِي
رَأَيْتُ نُعْماً وَأَصْحابي على عَجَلٍ ... والعَيْسُ لِلْبَيْنِ قَدْ شُدَّتْ بِأَكْوَارِ
فَرِيعَ قَلْبِي وكَانَتْ نَظْرَةٌ عَرَضَتْ ... حَيْناً وتَوْفِيقَ أَقْدارٍ لأَقْدَارِ
بَيْضَاءُ كَالشَّمْسِ وَافَتْ يَوْمَ أَسْعَدِهَا ... لَمْ تُؤْذِ أَهْلاً وَلَمْ تُفْحِشْ على جارِ
تَلُوثُ بَعْدَ افْتِضَالِ البُرْدِ مِئْزَرَهَا ... لَوْثاً على مَثَلِ دِعْصِ الرَّملَةِ الهَارِي
والطِّيبُ يَزْدَادُ طِيْباً أَنْ يَكُونَ بِهَا ... في جِيْدِ وَاضِحَةِ الخَدَّينِ مِعْطَارِ
تَسْقِي الضَّجيعَ إذا اسْتَسْقى بذي أَشرٍ ... عَذْبِ المَذاقةِ بَعْدَ النَّومِ مِخْمَارِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كَـأَنَّ مَـشْمُولَةً صِرْفـاً بِرِيْقَتِهَـا ... مِـنْ بَعْـدِ رَقْـدَتِهَا أَوْ شَـهْدَ مُـشْتَارِ
أَقُولُ والنَّجْمُ قَدْ مَالَتْ أَوَاخِرُهُ ... إلى المَغِيـبِ تَثَبّـتْ نَظـرَةً حَـارِ
أَلْمَحةٌ مِنْ سَنَا بَرْقٍ رَأَى بَصَري ... أَمْ وَجْـهُ نُعْـمٍ بَـدَا لي أَمْ سَـنَا نَـارِ
بَلْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَا واللّيلُ مُعْتَكِرٌ ... فَـلاَحَ مِـنْ بَـيْنِ أَثْـوَابٍ وَأَسْـتَارِ
إنَّ الحُمُولَ التي رَاحَتْ مُهَجِّرَةً ... يَتْـبَعَنَ كـلَّ سَـفِيهِ الـرَّأيِ مِغْيـارِ
نَـواعِمٌ مِثْـلُ بَيْـضَاتٍ بِمَحْنِيَـةٍ ... يَخْفِـزْنَ مِنْـهُ ظَلِـيماً في نَقـاً هَـارِ
إذا تَغَنَّـى الحَـمَامُ الـوُرْقُ هَيَّجَنـي ... وإنْ تَغَرَّبْـــتُ عَنْهَـــا أُمِّ عَـــمَّارِ
وَمَهْمَـهٍ نـازِحٍ تَعْـوِيْ الـذِّئَابُ بِـهِ ... نـائي المِيـاهِ عَـنِ الـوُرَّادِ مِقْفـارِ
جَاوَزْتُـــهُ بِعَلَنْـــدَاةٍ مُنَاقِلَـــةٍ ... وَعْرَ الطَّرِيقِ على الإِحْزانِ مِضْمَارِ
تَجْتَابُ أَرْضاً إلى أَرْضٍ بِذِي زَجَلٍ ... مـاضٍ على الهَوْلِ هـادٍ غيرِ مِحْيَـارِ
إذا الرِّكـابُ وَنَـتْ عَنْهَـا رَكَائِبُهـا ... تَـشَذَّرَتْ بِبَعِيـدِ الفَـتْرِ خَطَّـارِ
كَأَنَّمَا الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ ذِي جُدَدٍ ... ذَبِّ الرِّيـادِ إلى الأَشْـباحِ نَظَّـارِ
مُطَـرَّدٌ أُفـرِدَتْ عَنْـهُ حَلاَئِلُـهُ ... مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ أَوْ مِنْ وَحْشِ ذي قارِ
مُجَـرَّسٌ وَحَـدٌ جـأْبٌ أَطـاعَ لَـهُ ... نَبـاتُ غَيْـثٍ مِـنَ الوَسْـمِيِّ مِبْكَـارِ
سَراتُـهُ مـا خَـلاَ لَبَانَـهُ لَهَـقٌ ... وفي القَـوَائِمِ مِثْـلُ الوَشْـمِ بِالقَـارِ
باتَـتْ لَـهُ لَيلَـةٌ شَـهْبَاءُ تَـسْفَعُهُ ... بِحَاصِـبٍ ذَاتِ إِشْـعانٍ وإِمْطَـارِ
وبـاتَ ضَـيفاً لأَرْطـاةٍ وأَلْجَـأَهُ ... مَـعَ الظَّـلاَمِ إلَيهـا وابِـلٌ سَـارِ
حتى إذا مـا انْجَلَـتْ ظَلْـماءُ لَيْلَتِـهِ ... وأَسْـفَرَ الـصّبحُ عَنْـهُ أَيَّ إِسْـفَارِ
أَهْـوَى لَـهُ قَـانِصٌ يَـسْعَى بِأَكْلُبِـهِ ... عَارِي الأَشَاجِعِ مِنْ قُنَّاصِ أَنْـمارِ
مُحَـالِفُ الـصَّيْدِ هَبَّـاشٌ لَـهُ لَحَـمٌ ... مـا إنْ عَلَيْـهِ ثِيـابٌ غَـيْرُ أَطْـمَارِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَسْعَى بِغُضْفٍ بَرَاها فَهْيَ طَاوِيَةٌ ... طُولُ ارْتِحَالٍ بِهَا مِنْهُ وَتَسْيَارِ
حتى إذا الثَّورُ بَعْدَ النَّفرِ أَمْكَنَهُ ... أَشْلَى وَأَرْسَلَ غُضْفاً كُلُّها ضَارِ
فَكَرَّ مَحْمِيَّةً مِنْ أَنْ يَفِرَّ كَمَا ... كَرَّ المحامي حِفاظاً خَشْيَةَ العارِ
فَشَكَّ بالرَّوْقِ مِنهُ صَدْرَ أَوَّلِها ... شَكَّ المُشَاعِبِ أَعْشاراً بأَعْشارِ
ثُمَّ أَنْثَنَا بَعْدُ لِلثَّاني فَأَقْصَدَهُ ... بِذَاتِ ثَغْرٍ بَعِيدِ القَعْرِ نَعَّارِ
وَأَثْبَتَ الثَّالِثَ الباقي بِنَافِذَةٍ ... مِنْ بَاسِلٍ عالمٍ بالطَّعْنِ كَرّارِ
وظَلَّ في سَبْعَةٍ منها لَحِقْنَ بِهِ ... يَكُرُّ بالرَّوقِ فيها كَرَّ إسْوارِ
حتّى إذا ما قَضَى مِنْها لُبانَتَهُ ... وَعَادَ فيها بإقْبالٍ وإدْبارِ
انقَضَّ كالكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ مُنصَلِتاً ... يَهْوي ويَخْلِطُ تَقْريباً بإحضارِ
فَذَاكَ شِبْهُ قَلُوصيَ إذ أَضَرَّ بها ... طُولُ السُّرَى والسُّرَى مِنْ بَعْدِ أسفارِ
لَقَدْ نَهَيْتُ بَني ذُبْيَانَ عَنْ أُقُرٍ ... وَعَنْ تَرُبُّعِهِمْ في كُلِّ أَصْفَارِ
فَقُلْتُ يَا قَوْمُ إنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ ... على بَرَاثِنِهِ للوثْبَةِ الضَّارِي
لاَ أَعْرِفَنْ رَبْرَباً حُوراً مَدَامِعُهَا ... كَأَنَّهُنَّ نِعاجٌ حَوْلَ دَوَّارِ
يَنْظُرْنَ شَزْراً إلى مَنْ جَاءَ عَنْ عُرُضٍ ... بِأَوْجُهٍ مُنْكِراتِ الرِّقِّ أَحْرَارِ
خَلْفَ العَضارِيْطِ لا يُوقَيْنَ فَاحِشَةً ... مُسْتَمسِكَاتٍ بِأَقْتَابٍ وَأَكْوَارِ
يُذْرِينَ دَمْعَاً على الأَشْفَارِ مُنْحَدِراً ... يَأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابنِ سَيَّارِ
إمَّا عُصِيتُ فإنِّي غَيْرُ مُنْفَلِتٍ ... مِنِّي اللِّصابُ فَجَنْبَا حَرَّةِ النَّارِ
إذْ أَضَعُ البَيْتَ في سَوداءَ مُظْلِمَةٍ ... تُقَيِّدُ العيرَ لا يَسْري بها السَّارِي
تُدافِعُ النَّاسَ عَنَّا حينَ نَرْكَبُها ... مِنَ المَظَالِمِ تُدْعى أُمَّ صَبَّارِ
ساقَ الرُّفَيْدَاتِ مِنْ جَوْشٍ وَمِنْ خَرَدٍ ... وَمَاشَ مِنْ رَهْطِ رِبْعيٍّ وَحَجَّارِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَرْمَيْ قُضَاعَةَ حَلاَّ حَوْلَ حجْرَتِهِ ... مَـدَّا عَلَيْـهِ بِـسُلاَّفٍ وأَنْفَـارِ
حتّى استَقَلّ بِجَمْعٍ لا كِفَاءَ لَـهُ ... يَنْفِيْ الوُحُوشَ عَنِ الصَّحْراءِ جرَّارِ
لا يَخْفِضُ الرِّزَّ عَنْ أَرْضٍ أَلـمَّ بِهَا ... ولا يَضِلُّ على مِصْبَاحِهِ السَّارِي
وَعَيَّرَتْنـي بَنُـو ذُبْيَـانَ خَـشْيَتَهُ ... وَهَلْ عَليَّ بأَنْ أَخْشاكَ مِنْ عَارِ

وبيت القصيد في هذه القصيدة هو الأخير ـ وبيت القصيد هو البيت الذي تقوم عليه القصيدة والغالب أنه يكون جامعاً لمُهِمّاتِها ـ.

ومن المؤكد أن الغساسنة في الشام لم يَحْظَوا بمدح الشعراء كالمناذرة في العراق، ولعل من أسباب ذلك امتداد الحيرة من نجد، وقربها من مضارب أعراب نجد، كذلك سطوة فارس التي يتفيء المناذرة بظلالهم، أضف إلى ذلك تدخّلهم المباشر في أرجاء العرب الكبيرة مما يليهم، كإرسال النواب عليهم كالملوك، وكإصلاح ذات بينهم، مما أوقد المنافرات بين العرب في بلاط ملوك الحيرة، وبخاصة النعمان بن المنذر، ولعل من أكبر الأسباب سخاؤهم، فقد تشنّفت الأعراب لعصافير النعمان ـ وهي الإبل التي يجود بها على من رضي عنه ـ .

ومن رجال المعلقات العشر عبيد بن الأبرص الأسدي. وكان شاعر بني أسد غير مدافع، وهو شاعر قديم الذكر، طائر الشهرة، بالغ الشهامة، وافي الكرم مع ضيق ذات يده.

ويزعمون أنه أقبل ذات يوم بغُنيمةٍ له ومعه أخته ماوية، ليوردا غنمهما، فمنعه رجل من بني مالك بن ثعلبة وجَبَهَهُ، فانطلق حزيناً مهموماً للذي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صنع به المالكي حتى أتى شجرات، فاستظل تحتها، فنام هو وأخته. فزعموا أن المالكي نظر إليه وإلى أخته إلى جنبه، فقال:

ذاك عبيـــدٌ قـــد أصـــاب ميَّـــا يـــا ليتـــه ألقحهـــا صـــبيَّا

فحملت فوضعت ضاويًا

فسمعه عبيد فرفع يديه ثم ابتهل، فقال: اللّٰهم إن كان فلان ظلمني ورماني بالبهتان فَأَدِلْنِي منه ــ أي أمكنّي منه وانصرني عليه، ودعوة المظلوم مجابة ـ ووضع رأسه ونام. ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر. فذكر أنه أتاه آتٍ في المنام بكبة من شعر حتى ألقاها في فيه. ثم قال: قم. فقام وهو شاعر، فهجا المالكي حتى اشتفى، ثم استمر بعد ذلك يقول الشعر، حتى كان شاعر بني أسد.

أما معلقتة ومجمهرته فقد غمسها في بحر الحِكَم والتديِّن، وحشاها من ثمرات التأملات، ويكأنّها قصيدة راهب، ولعل هذا من أسباب اختيارهم لها ومنها:

أَقْفَـــر مـــنْ أَهْلِـــهِ مَلْحُـــوبُ فالقُطَّبِيّـــــاتُ فالـــــذَّنُوبُ
فَـــــرَاكِسٌ فَثُعَيْلِبـــــاتٌ فَـــذاتُ فِـــرْقَيْنْ فالقَلِيـــبُ
فعَـــــرْدَةٌ فَقَفَـــــا حِـــــبرٍ لَـــيْسَ بِهَـــا مِـــنْهُمُ عَرِيـــبُ
وبُـــدِّلَتْ مِـــنْ أَهْلِهـــا وُحوشـــاً وغَـــيّرَتْ حَالَهَـــا الخُطُـــوبُ
أرضٌ تَوَارَثُهـــــا شَـــــعُوبُ وكـــلّ مَـــن حَلّهـــا مَحـــرُوبُ
إمّـــا قَتِيـــلٌ وإمّـــا هَالِـــكٌ والـــشّيبُ شَـــينٌ لمـــن يَـــشيبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عَيْنَـــاكَ دَمْعُهُـــما سَرُوبُ ... كـــأنّ شَـــانَيْهِما شَـــعيبُ
واهِيَـــةٌ أو مَعـــينٌ مُمِعِـــنٌ ... مِـــن هَـــضَبَةٍ دونَهـــا لُهُـــوبُ
أو فَلَـــجٌ مَـــا بـــبَطنِ وادٍ ... للـــماءِ مِـــنْ تَحتِـــهِ قَـــسيبُ
أو فَلَـــجٌ مَـــا بـــبَطنِ وادٍ ... للـــماءِ مِـــنْ تَحتِـــهِ قَـــسيبُ
أو جَـــدْوَلٌ في ظِـــلالِ نَخـــلٍ ... للـــماءِ مِـــن تَحتِـــهِ سُـــكوبُ
تَـــصبُو وأنّـــى لـــكَ التّـــصابي ... أنّـــى وقَـــد راعَـــك المَـــشيبُ
إنْ يَـــكُ حُـــوّلَ منهـــا أهلُهـــا ... فَـــلا بَـــدِيٌّ ولا عَجِيـــبُ
أو يَـــكُ قـــد أقفَـــرَ منهـــا جَوّهـــا ... وعادَهـــا المَحـــلُ والجُـــدُوبُ
فكـــلّ ذي نِعْمَـــةٍ مَخْلُـــوسٌ ... وكـــلّ ذي أمـــلٍ مَكـــذُوبُ
وكـــلّ ذي إبِـــلٍ مَـــوْرُوثٌ ... وكـــلّ ذي سَـــلَبٍ مَـــسْلُوبُ
وكـــلّ ذي غَيْبَـــةٍ يَـــؤُوبُ ... وغائِـــبُ المَـــوْتِ لا يَـــؤُوبُ
أَعَـــاقِرٌ مِثْـــلُ ذاتِ رِحْـــمٍ ... أو غـــانمٌ مِثْـــلُ مَـــنْ يَخِيـــبُ
مَـــنْ يَـــسْأَلِ النَّـــاسَ يَحْرِمُـــوهُ ... وسَـــائِلُ اللَّهِ لا يَخِيـــبُ
بـــاللَّهِ يُـــدْرَكُ كـــلُّ خَـــيْرٍ ... والقَـــوْلُ في بَعْـــضِهِ تَلغيـــبُ
واللَّهُ لَـــيْسَ لَـــهُ شَرِيـــكٌ ... عَـــلاّمُ مـــا أخفَـــتِ القُلُـــوبُ
أَفْلَـحَ بِـمَا شِـئْتَ فَقَـدْ يُبْلَـغُ بالـ ... ـضَّعفِ وقـد يُخْـدَعُ الأرِيـبُ
لا يَعـظُ النّـاسُ مـن لا يعـظُ الـ ... ـــدَّهْرُ ولا يَنْفَـــعُ التَّلبِيْـــبُ
إلاّ سَـــجِيّاتِ مـــا القُلُـــوبِ ... وكَـــمْ يَـــصِيرَنّ شـــانئاً حَبِيـــبُ
ســـاعِدْ بِـــأَرْضٍ إذا كنـــتَ بهـــا ... ولا تَقُـــلْ إنّنـــي غَريـــبُ
قـد يُوصَـلُ النّـازِحُ النّـائي وقـد ... يُقْطَـــعُ ذو الـــسُّهْمَةِ القَريـــبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمَـرْءُ مـا عـاشَ في تكـذيبٍ ... طُـولُ الحَيـاةِ لَـهُ تَعْـذِيبُ
بَـلْ رُبّ مـاءٍ وَرَدْتُ آجِـنٍ ... سَـبِيلُهُ خَـائِفٌ جَـدِيبُ
رِيـشُ الحَـمَامِ عـلى أَرجائِـهِ ... للقَلـبِ مِـن خَوفِـهِ وَجيـبُ
قَطَعْتُـهُ غُـدْوَةً مُـشيحاً ... وصـاحبي بـادِنٌ خَبُـوبُ
عَيرانَـةٌ مُؤجَـدٌ فَقَارُهـا ... كَـأَنّ حَارِكَهـا كَثيـبُ
أَخْلَـفَ مـا بَـازِلاً سَدِيـسُها ... لا حِقَّـةٌ هـيْ ولا نَيُـوبُ
كَأَنَّهـا مِـنْ حَمِـيرِ عانـاتٍ ... جَـوْنٌ بِـصَفْحَتِهِ نُـدُوبُ
أو شَـبَبٌ يَرْتَعـي الرُّخـامَى ... تَلُفّـهُ شَـمْأَلٌ هَبُـوبُ
فـذاكَ عَـصْرٌ وقـد أراني ... تَحْمِلُنـي نَهْـدَةٌ سُرْحُـوبُ
مُـضَبَّرٌ خَلْقُهـا تَـضبيراً ... يَنْـشَقُّ عَـنْ وَجْهِهـا السّبيبُ
زَيْتِيّـةٌ نـائِمٌ عُرُوقُهـا ... وَلَـيّنٌ أَسْرُهـا رَطِيـبُ
كَأَنّهـا لِقُـوَةٌ طَلُـوبُ ... تَخِـرّ في وَكْرِهـا القُلُـوبُ
باتَـتْ عـلى إِرَمٍ عَـذُوباً ... كَأَنّهـا شَـيْخَةٌ رَقُـوبُ
فأَصْـبَحَتْ في غَـدَاةِ قِـرّةٍ ... يَـسْقُطُ عـن رِيـشِها الـضّرِيبُ
فأبـصَرَتْ ثَعْلَبـاً سَريعـا ... ودونَـهُ سَبْـسَبٌ جَـدِيبُ
فَنَفَـضَتْ رِيـشَهَا وَوَلّـتْ ... فَـذَاكَ مِـنْ نَهْـضَةٍ قَريـبُ
فاشـتالَ وارْتَـاعَ مـن حَـسيسٍ ... وَفِعْلَـهُ يَفْعَـلُ المَـذْؤُوبُ
فَنَهَـضَتْ نَحْـوَهُ حَثِيثَـةً ... وَحَـرَدَتْ حَـرْدَهُ تَـسيبُ
فَـدَبّ مِـنْ رَأْيِهـا دَبيبـاً ... والعَـيْنُ حِمْلاَقُهـا مَقْلُـوبُ
فأَدْرَكَتْـهُ فَطَرّحَتْـهُ ... والـصّيدُ مـن تحتِهـا مَكْـرُوبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَجَدَّلَتْـــــــهُ فَطَرَّحَتْـــــــهُ فَكَـــدَّحَتْ وَجْهَـــه الحَبـــوبُ
فَعَاوَدَتْـــــــهُ فَرَفَّعَتْـــــــهُ فَأَرْسَـــلتْهُ وَهُـــوَ مَكْـــرُوبُ
يَـــضغُو ومِخْلَبُهـــا في دَفّـــهِ لا بُـــدّ حَيْزُومُـــه مَنْقُـــوبُ

وقد عُمِّرَ عبيد طويلاً حتى قتله المنذر بن ماء السماء اللخمي. وقيل: قتله النعمان بن المنذر ــ وذلك أنه قد وفد على المنذر في أحدِ أيام بؤسه التي كان يقتل فيها أول من يراه من غير جنده وحاشيته. فقال المنذر: من هذا الشقي؟ فقيل له: عبيد بن الأبرص الشاعر. فقال بعض من حضر المنذر: أبيتَ اللعن، أظن أن عنده من حسن القريض أفضل مما تدرك من قتله، فاسمع منه. فإن سمعت حسناً استزدته، وإن لم يعجبك فما أقدرك على قتله. فقال: هلّا كان الذبح لغيرك يا عبيد. فقال: أتتك بحائنٍ رجلاه. ــ والحَيْنُ هو الموت ــ فأرسلها مثلاً. فقال: ما ترى يا عبيد؟ قال: المنايا على الحوايا ــ والتَّحْوِيةُ هي أَن تُدير كساءً حولَ سَنام البعير ثم تَرْكَبَه ــ فأرسلها مثلاً. فقال: أنشدني فقد كان يعجبني شعرك فقال: حال الجريض دون القريض ــ والجريض هو غصص الموت، والقريض هو الشعر ــ فأرسلها مثلاً. فقال: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب. فقال:

أَقَفْـــرَ مـــن أهلـــه عبيـــدُ فلـــيس يبـــدي ولا يعيـــدُ
عَنـــت لـــه خطـــة نكـــودُ وحـــان منهـــا لـــه ورودُ

فقال المنذر: ما أشد جزعك من الموت! فقال: لا يَرْحَل رحلَك من ليس معك ــ أي لا يعينك في حمل رحلك على البعير من ليس معك ــ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأرسلها مثلاً. فقال له: لا بد من الموت. ولو أن أبي عرض لي يوم بؤسي لذبحته! فاختر: إن شئت الأكحل، وإن شئت الأبجل، وإن شئت الوريد. ـ والأَكْحَلُ هو عِرْق في وسَط الذّراع يَكْثُر فَصْدُه، والأبْجَل: عِرق عريض في الرِّجل، والوَرِيد: عِرق في صفحة العُنُق ـــ فقال عبيد: ثلاث خصال كسحابات عاد، واردها شر وراد، وحاديها شر حاد، ومعادها شر معاد، ولا خير فيه لمرتاد. وإن كنت لا محالة قاتلي فاسقني الخمر، حتى إذا ماتت مفاصلي، وذهلت ذواهلي فافصدني في أكحلي. فأمر المنذر بحاجته من الخمر. حتى إذا أخذت منه وطابت نفسه، دعا به ليقتله فلما مثل بين يديه أنشأ يقول:

ألا أبلغ بنيَّ وأعمامَهم ... بأن المنايا هي الواردة
لها مُدّةٌ فنفوس العباد ... إليها وإن كرهت قاصدة
فلا تجزعوا لِحِمَامٍ دنا ... فللموت ما تلد الوالدة

فأمر به ففصد، فلما مات طلى بدمه الغَرِيَّيْن. والغرىّ واحد الغريّين، وهما بناءان كالصومعتين كانا بظهر الكوفة بناهما المنذر، إذ كان ينادمه رجلان من بني أسد، أحدهما عمرو مسعود، والآخر خالد بن المضلل، فأغضباه يوماً وقت ثملهم وسُكْرِهم، فأمر أن يُحفر لكل واحد منهما حفرة بظهر الحيرة، ويدفنا فيها حيّين، ففعلوا ذلك بهما، فلما أصبح سأل عنهما، فأخبر بهلاكهما، فتندم، ثم ركب حتى نظر إليهما، فأمر ببناء الغريين عليهما، وجعل لنفسه يومين في السنة، يجلس فيهما عند الغريين، سمى أحدهما يوم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النعيم، والأخر يوم البؤس، فأول ما يطلع عليه يوم نعيمه، يعطيه مئة من الإبل، وأول ما يطلع عليه يوم بؤسه يقتله، ويطلى بدمه الغريين. وارتجز خطام المجاشعي:

أَهَلْ عَرَفْتَ الدارَ بالغَرِيَّيْنْ ... لم يَبْقَ مِنْ آيٍ بها يُحَلَّيْنْ

غير خِطامٍ ورَمادٍ كِنْفَيْنْ ... وصالِياتٍ كَكما يُؤَثْفَيْنْ

وقد قطّع النحاة واللغويون أوصال العجز الأخير بحثاً واستشهاداً. ولم يزل المنذر كذلك، حتى مر به رجل من طيئ، يقال له: حنظلة بن أبي عفر، فقال له: أبيتَ اللعن، إني والله أتيتك زائراً، ولأهلي من خيرك مائراً، فلا تكن ميرتهم قتلي.

فقال: لابد من ذلك، فسلني حاجة قبله، أقضها لك. فقال: تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي، وأحكم من أمرهم ما أريد، ثم أصير إليك، فتنفذ في حكمك. فقال: ومن يكفل بك حتى تعود؟! فنظر في وجوه جلسائه، فعرف شريك بن عمرو، أبا الحوفزان بن شريك الشيباني، فقال:

يا شريكٌ بن عمرو ما من الموتِ محالهْ ... يا شريكٌ بن عمروٍ يا أخا منْ لا أخا لهْ

فوثب شريك، فقال: أبيتَ اللعن ــ وهي تحية العرب لملوكها، ومعناها أبيتَ أن تفعل فعلا تُلْعَنُ بسببه وتُذَمُّ ــ يدي بيده، ودمي بدمه، إن لم يعد إلى أجله، فأطلقه المنذر.

فلما كان للعام القابل، جلس في مجلسه، ينتظر حنظلة أن يأتيه، فأبطأ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأمر بشريك، فقرب ليقتله، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم، فتأملوه، فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفِّناً، متحنطاً، ونادبته تندبه، وقد قامت نادبة شريك أيضاً.

فقال له: ما الذي حملك على أن عرضت بنفسك لسفك دمك؟! فقال له: أبيت اللعن، لئلا يقال: مات الكرام، وذهب الكرم. ثم أقبل على حنظلة، فقال له: ما الذي حملك على الرجوع، وقد علمت أنك إنما ترجع إلى الموت؟! فقال: لئلا يقال ذهب الوفاء وأهله. فأطلقهما وأحسن إليهما، وأبطل سُنَّتَهُ الذميمة اللئيمة.

ثم كانت نهاية المنذر أن قتله الحارث بن أبي شمر الأعرج الغساني، ولما خرج ابنه المنذر بطلب دمه قتله أيضاً، أما النعمان بن المنذر ـ وهو صاحب قصر الخورنق ـ فقد قتله أبرويز الفارسي، فانقطع الملك في لخم، وبسبب قتله وقعت حرب ذي قار بين الفرس والعرب.

ولم يفعل المنذر ـ أو ابنه النعمان ـ بنديميه ما فعل سلفه جَذيمَة الأَبْرش ـ قتيل الزبَّاء ـ بنديميه مالكاً وعَقِيلاً، فقد نادمهما حتى فرّق بينهما الموت. ومن أمثال العرب السائرة في الرجلين المتآخيين قولهم: هما كندماني جذيمة.

ولما توفي عبد الرحمن بن أبي بكر تمثلت أخته الصديقة أم المؤمنين بقول مُتَمِّم بن نويرة اليربوعي يرثي أخاه مالكاً:

وكنا كَندمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهر حتّى قِيل لن يتصدّعا

فلما تفرَّقنا كأنِّي ومالكاً ... لِطُول اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتمثل عمر بن الخطاب بهذا في نفسه وأخيه زيد بن الخطاب، وهو يقول: ما هبّت الصَّبا إلا تنسّمت ريح زيد.

ولمّا أنشدها متممٌ عمرَ قال: هذا والله التأبين، ولوددت أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك. فقال متمم: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته، ــ وكان زيد قد قُتل باليمامة شهيداً ــ فكان عمر يقول: ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمّم.

وقيل لمتمم: ما بلغ من وجدك على أخيك؟ فقال: أُصبت بإحدى عيني فما قطرت منها دمعة عشرين سنة، فلما قتل أخي استهلت فما ترقأ.

وقال له عمر: هل كان مالك يحبك مثل محبتك إياه؟ فقال: وأين أنا من مالك، وهل أبلغ مالكاً؟ والله يا أمير المؤمنين لقد أسرني حي من العرب فشدوني وثاقاً بالقيد وألقوني بفنائهم، فبلغه خبري فأقبل على راحلته حتى انتهى إلى القوم وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليّ أعرض عني ونظر القوم إليه فعدل إليهم، وعرفتُ ما أراد، فسلّم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم، فوالله إن زال كذلك حتى ملأهم سروراً وحضر غداؤهم فسألوه ليتغدى معهم فأكل ثم نظر إلي وقال: إنه لقبيح بنا أن نأكل ورجلٌ ملقى بين أيدينا لا يأكل معنا، وأمسك يده عن الطعام، فلما رأى ذلك القوم نهضوا فأطلقوني، ثم جاؤوا فأجلسوني معهم على الغداء فلما أكلنا قال لهم: أما ترون تحرُّمَ هذا بنا وأكلُهُ معنا، إنه لقبيح بكم أن تردوه إلى القيد، فخلّوا سبيلي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما جذيمة بن الأبرش فقد كان ملك الحيرة، وكان ابن أخته عمرو بن عدي قد فُقِدَ دهراً ـ وزعموا أن الجن خطفته ـ ثم إنَّ رجلين يقال لأحدهما مالك والآخر عقيل وَجَدَاه إذ مرّ بهما وهما لا يعرفانه فقدّما له طعاماً فأكله واستزاد، فقالت جارية لهما يقال لها أم عمرو: أُعطِيَ العبد كراعاً فطلب ذراعاً ـ فغدت مثلاً ـ ثم جلس معهما على شراب فجعلت تسقيهما وتدعه فقال عمرو:

تصدّ الكأس عنا أمُّ عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شرُّ الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

ثم عرفاه ففرحا به، ثم قدما به على جذيمة، فعظم موقعهما منه، وقال: سلاني ما شئتما، فسألاه أنَّ يكونا نديمية ما عاش وما عاشا، فأجابهما إلى ذلك. ويزعمون أنه لم ينادمه أحد قبلهما، وكان يزعم أنه ليس في الأرض من يصلح لمنادمته ذهاباً وتيهاً بنفسه، فكان ينادم الفرقدين يشرب قدحاً ويصب لكل كوكب منهما قدحاً حتى نادمه مالك وعقيل، والفرقدان هما نجمتان مشعتان تدوران حول الجدي ولا تغربان، قال حضرمي بن عامر:

وكُلُّ أَخٍ مُفارقُه أَخُوه ... لَعَمْر أَبِيك إلاّ الفَرْقَدانِ

وكان من حديث جذيمة الأبرش والزَّبَّاء، ـــ وهي مليئة بالأمثال السائرة ـ أن الزباء أو زَنُّوبِيَا واسمها هند كانت ملكة تدمر السورية والجزيرة وقنسرين على شطّي الفرات بعد عمّها الذي قتله جذيمة. وقيل: إنها قادت مع زوجها أذينةُ عصياناً على الإمبراطورية الرومانية تمكنا خلاله من السيطرة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على معظم سوريا. ثم بعد وفاة زوجها قادت الإمبراطورية التدمرية إلى غزو مصر لفترة وجيزة قبل أن يتمكن الإمبراطور أوريليان من هزمها وأسرها إلى روما حيث توفيت لأسباب غامضة. ولكن للعرب قصة أخرى، أو امرأة أخرى..

قالوا: وكان جذيمة الأبرش ملكا على الحيرة وما حولها، وكان ينزل الأنبار، وكان من أحسن الناس وجهاً وأجملهم مُحيّا، فذكر الغِرُّ أن يخطبها، وكان له ربيبٌ ومولى يقال له قصير بن سعد، وكان رجلاً لبيباً عاقلاً فنهاه عنها وقال: إنه لا حاجة لها في الرجال. فعصى قصيراً وكتب إليها يخطبها ويرغبها فيما عنده، فكتبت إليه: أن نعم وكرامة، أنا فاعلة، ومثلك يُرغب فيه، فإذا شئت فاشخص إليّ، فدعا قصيراً وسار حتى إذا كان بمكان فوق الأنبار يقال له البَقَّة، دعا نصحاءه فشاوروهم فيها، فنهاه قصير، ورأى أصحابه هواه فزينوها له، فقال قصير حين رآه قد عزم: لا يطاع لقصير أمر ــ فأرسلها مثلاً ــ ومضى إليها في ناس كثير من أصحابه، فأرسل إليها يُعلمها أنه قد أتاها، فهيأت له الخيول وقالت: استقبلوه حين يدنو، وصُفُّوا صفَّين فإذا دخل بين صفيكم فتقوَّضوا عليه، فليَسِرْ من مرَّ عليه خلفه حتى ينتهي إلى باب المدينة.

وقال له قصير حين عصاه: إن استقبلتك الخيلُ فصَفُّوا لك صفين فتقوّض من تمر به من خلفك؛ فإن معك العصا فرسك، وإنها لا يُشق غبارُها ــ فأرسلها مثلاً ــ فتجَلَّلِ العصا ثم انج عليها، فلما لقيته الخيول

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتقوضوا من خلفه عرف الشر، وقيل إن قصيراً قال: أيها الملك إني رأيتُ جنودها لم يترجلوا لك، كما يترجل للملوك، ولست آمن عليك، فاركب العصا وانج بنفسك. فتأخّرَ وتردد حتى حالوا بينه وبين العصا. وبئس الرأي الدَّبَرَى ـ أي الرأي الحازم بعد فوات أوانه ـ ثم إنه قال لقصير: كيف الرأي؟ فقال: ببقّة تركت الرأي ــ وذهب قوله مثلاً ــ فلما حالت الخيل بينه وبين العصا ركبها قصير وهرب فجعلت تهوي به كأنها الريح، ونظر جذيمة إليه مدبراً على ظهرها فقال: ويل أمه حزماً على ظهر العصا ــ فذهبت مثلاً ــ فجرت به إلى غروب الشمس، فنفقت لما أوصلته، فقالت العرب: خير ما جاءت به العصا.

وكانت الزبّاء قد أمرت بأصحاب جذيمة أن يُنْزَلُوا فأُنزِلُوا، وأخذت منهم أسلحتهم ودوابهم ثم قتلتهم، وأذنت لجذيمة، فدخل عليها، وهي في قصر لها ليس فيه إلا الجواري، وهي على سريرها فقالت: خذن بعضدي سيدكن، ففعلن، ثم كشفت له عورتها فإذا هي مضفورةُ شعرِ الفرج، فقالت: يا جذيم، أذات عرسٍ ترى؟ قال: بلغ المدى، وجفَّ الثرى، وأمر غدرٍ أرى. فقالت: لا، وإلهي، ما من عدم مواس، ولا قلة أواس، ولكنّها شيمة من أناس. فأجلسته على نطع، وأمرت بطست من ذهب قد أعدّته له، وسقته من الخمر حتى إذا أخذت منه مأخذها أمرت براهِشَيهِ فقُطعا، فجعلت تشخب دماؤه في الطست، وكانوا يتشاءمون بقطر دم الملك إذا أصاب الأرض أن يقوم ثأره،وكانت الملوك لا تُقتل بضرب الأعناق، إلا في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القتال تكرمةً للملك. فلما ضعفت يداه سقطتا، فقطر من دمه في غير الطست، فنهرت من عندها، فقال جذيمة: لا يحزنك دم هراقه أهله ـــ فأرسلها مثلاً ـ يعني نفسه.

وكان جذيمة قد استخلف على ملكه ابن أخته عمرو بن عدي ـ خطيف الجن ـ فكان يخرج كل غداةٍ يرجو أن يلقى خبراً من جذيمة، فلم يشعر ذات يوم إلا وهو بالعصا عليها قصير، فلما جاءه قال له قصير: أدائرٌ أنت أم ثائر؟ فقال: لا بل ثائر سائر ـ فذهبت مثلاً ـ وأخبره الخبر، فقال: اطلب بثأرك، وتهيأ واستعد، ولا تبطلن دم خالك. قال: كيف أطلب من الزباء وهي أمنع من عقاب الجو ـ فأرسلها مثلاً ـ .

وكانت الزباء قد سألت كاهنةً لها عن أمرها وملكها. فقالت: أرى هلاكك على يدي غلامٍ مهين غير أمين، وهو عمرو بن عدي، ولن تموتي إلا بيده. ولكن حتفك بيدك، ومن قِبَلِهِ يكونُ ذلك فحذرت الزباء عمراً، واتخذت نفقاً من محبسها الذي كانت فيه تجلس إلى حصن لها داخل مدينتها. وقالت: إن فَجَأَني أمرٌ دخلت النفق إلى حصني. ودعت رجلاً مصوّراً من أجود أهل بلادها تصويراً، فجهزته وأحسنت إليه وقالت له: سر حتى تقدم على عمرو بن عدي متنكراً، فتخلو بحشمه، وتنضم إليهم، وأثبت معرفة عمرو بن عدي، فصوّره قائماً وقاعداً وراكباً ومتسلحاً، بهيئته ولبسه وثيابه ولونه، فإذا أحكمت ذلك فأقبل إلي، فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدي، فصنع لها الذي أمرته، ثم رجع إليها بعلم ذلك.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال قصير لعمرو لما رأى خَوَرَهُ: اجدع أنفي، واضرب ظهري، ودعني وإياها. فقال له عمرو: ما أنا بفاعل، وما أنت بالمستحق لذلك، فقال قصير: أما إذا أبيت فإني سأحتال لها، فأعنِّي وخلاك ذم ــ فأرسلها مثلاً ــ فعمد قصير إلى أنفه فجدعه، ثم خرج حتى أتى الزباء، فقيل لها: هذا قصير خازن جذيمة قد أتاك، فأذنت له فقالت لما رأته: لأمرٍ ما جدع قصير أنفه ــ فصارت مثلاً ـ ثم قالت: ما جاء بك؟ فقال: زعم عمرو بن عدي أني غررت خاله، وزينت له المصير إليك، ومالأتُكِ عليه، ففعل بي ما ترين، فأقبلتُ إليكِ، وعرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك. فأكرمَتْهُ وألطفته، وأصابت عنده ما أرادت من الحزم والرأي والمعرفة بأمور الملوك.

فلما عرف أنها قد استرسلت، ووثقت به، قال لها: إن لي بالعراق أموالاً كثيرة، وبها طرائف من ثياب وعطر، فابعثيني إلى العراق، لأحمل لك من بزوزها وطرائف ثيابها، وصنوف ما يكون بها من الأمتعة، والطيب والتجارات فتصيبين في ذلك أموالاً عظاماً وبعض ما لا غناء بالملوك عنه، فإنه لا طرائف كطرائف العراق. فلم يزل يزين لها ذلك حتى سرّحته، ودفعت إليه أموالاً، وجهزت معه عيراً، وقالت: انطلق إلى العراق، فبع ما جهزناك به وابتعْ لنا من طرائف ما يكون بها من الثياب وغيرها. ـ والمرأة مع ضعفها تجاه اللباس والتجمّل تبقى هي المرأة وإن ملكتْ وتسلطت ـ.

فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق وأتى الحيرة متنكراً. فدخل على عمرو بن عدي فأخبره الخبر وقال: جهزني بأصناف الأمتعة والطرائف،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لعل الله تعالى يمكن من الزباء فتصيب ثأرك وتقتل عدوك، فأعطاه عمرو حاجته، وجهّزه بما أراد، فرجع بذلك كله إلى الزباء، فعرضه عليها، فأعجبها ما رأت وسرّها ما أتاها، وازدادت به ثقة، ثم جهزته بعد ذلك بأكثر مما جهزته أول مرة، فسار حتى قدم العراق، فلقي عمراً وحمل من عنده ما ظن أنه موافق للزباء، ولم يترك جهداً. ثم عاد الثالثة إلى العراق، فأخبر عمراً الخبر، وقال له: اجمع لي ثقات جندك، وهيئ لهم الغرائر والمسوح، واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين، واجعل معاقد رؤوس الغرائر من باطنها. فكان أول من جعل الغرائر.

فلما أحكم قصير ما أراد قال لعمرو: إنا إذا دخلنا مدينة الزباء أقمتك على رأس نفقها، وخرج الرجال من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة، فمن قاتلهم قتلوه، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جلّلتها أنت بالسيف. ففعل عمرو ذلك فانتخب ألفي فارس من أصحابه، فخرج وخرجوا معه في الجواليق كل رجل بسيف، وكان يسير النهار فإذا أمسى الليل، فتح الجواليق ليخرجوا ويطعموا ويشربوا ويقضوا حوائجهم، فلما كانوا قريباً منها تقدم قصير فبشرها، وأعلمها كثرة ما حمل إليها من الثياب والطرائف، وسألها أن تخرج فتنظر إلى الإبل وما عليها من الأحمال. فخرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد تسوخ قوائمها من ثقل أحمالها فقالت:

مـــا للجـــمال مـــشيها وئيـــداً أجنـــدلاً يحملـــن أم حديـــداً

أم صرفناً بارداً شديداً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال قصير في نفسه:

بل الرجال قُبَّضاً قعوداً

والصرفان ضرب من التمر، ويقال إنه الرصاص. فدخلت الإبل المدينة، حتى كان آخرها بعيرٌ مرّ على بواب المدينة فنخش الغرارة التي تليه، فأصاب خاصرة الرجل الذي فيها، فضرط فقال: الشر في الجوالق ـ فغدت مثلاً ـ فلما توسطت الإبل المدينة وأُنيخت خرج الرجال من الغرائر، ووضعوا السلاح في أهل المدينة، ودل قصير عمراً على النفق فقام عمرو على بابه، وشدوا على الزباء، فخرجت هاربةً تريد السرب لتدخله، فأبصرت عمراً قائماً، فعرفته بالصورة التي صورها لها المصور، فاستقبلها قصير وعمرو عند باب السرب، فمصَّت خاتمها وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو ـ فأرسلتها مثلاً ـ وتلقاها عمرو فجللها بالسيف فقتلها، وأصاب ما أصاب من أهل المدينة، وانكفأ راجعاً إلى العراق.

وغنم عمرو وأصحابه من مدينتها أموالاً جليلة، وانصرفوا إلى الحيرة، فكان الملك بعد خاله جذيمة. وعمرو هذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي، وصار مُلْكث الحيرة في عمرو بن عدي اللخمي وذريته بعد قتل جذيمة.

وقد قالت العرب في أمرهم هذا الكثير، ومن ذلك قول عدي بن زيد العبادي يخاطب النعمان:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ألا يـــا أيهـــا المثـــري المرجّـــى ألـــم تـــسمع بخطـــب الأوّلينـــا

وقال نهشل بن حري الدرامي في أبيات قويّة جزلة:

ومـــولى عـــصاني واســـتبدَّ بـــأمرِهِ كـــما لم يُطَـــعْ بـــالبَقَّتَينِ قـــصيرُ
فلـما رأى مـا غِـبَّ أمـري وأمـرِهِ وولّـت بأعجـاز المطـيّ صـدورُ
تمنـى بئيـساً أن يكـون أطـاعني وقـد حـدثت بعـد الأمـور أمـورُ

وقد كان انقراض دولة الحيرة بالسيوف المسلمة بقيادة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومن سلالة المناذرة بنو عباد بالأندلس.

أما الغساسنة وهم ملوك بني جفنة فكانوا اثنين وثلاثين ملكاً، وقد دام ملكهم ستمئة سنة وسنة، حتى الفتح الإسلامي للشام، وكانوا لا يستقرون في مدينة يتوارثون فيها الملك مثل بني نصر بالحيرة. بل نزلوا في أول أمرهم بجلّقَ وهي دمشق، ودفن جفنة أول ملوكهم بالبريص، وهي قرية عند وادي الشقراء بظاهر دمشق. ولذلك يقول حسان فيهم في لاميّته العذبة، وقد كان يبكي لاحقاً إذا أُنشدت بين يديه اهتزازاً لذكراهم إذ كانوا يكرمونه للغاية، وفي جبلة بن الأيهم وفيهم يقول حسان:

أســألتَ رســمَ الـدَّارِ أم لم تـسألِ بـينَ الجـوابي فالبـضيعِ فحومـلِ
فـالمرجِ مـرجِ الـصُّفَّرينِ فجاسـمٍ فـــديارِ تبنـــى درَّســـاً لم تحلـــلِ
دارٌ لقـــومٍ قـــد أراهـــم مـــرَّةً فـــوقَ الأعـــزَّةِ عـــزُّهم لم ينقـــلِ
للهِ درُّ عـــــصابةٍ نـــــادمتهمْ يومـــاً بجلَّـــقَ في الزَّمـــانِ الأولِ
أولادُ جفنـةَ حـولَ قـبرِ أبـيهمِ قـبر ابـن ماريـةَ الكـريمِ المفـضلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يسقونَ من وَرَدَ البريصَ عليهم ... بَرَدَى يصفِّقُ بالرّحيقِ السَّلسلِ
يُغْشونَ حتَّى ما تهرُّ كلابهمْ ... لا يسألونَ عن السَّوادِ المقبلِ
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابهمْ ... شمُّ الأنوفِ من الطِّراز الأولِ
فلبثتُ أيَّاماً طوالا فيهمُ ... ثم ادَّكرتُ كأنني لم أفعلِ
إمَّا تريْ رأسي تغيَّر لونهُ ... شمطاً وأصبحَ كالثَّغامِ المحلِ
نسبي أصيلٌ في الكرام ومذوَدي ... تكوي مواسمهُ جنوبَ المصطلي
وفتىً يحبُّ المجدَ يجعلُ مالهُ ... من دونِ والده وإن لم يسألِ

وابنُ مارِيَة هو الحارِثَ بن أبى شمر الغَسّانِىّ، وأُمُّهُ هي مارِيَة بنت ظالِمِ المَعْروفَة بذاتِ القُرْطَيْنِ اللذين يضرب بهما المثل فيقال: خذه ولو بقرطي مارية. وأراد بقوله: عند قبر أبيهم أنهم في مساكن آبائهم ورباعهم التي ورثوها عنهم، لا يحيلهم عنها أحد لعزّهم وغناهم. أما بَرَدَى فهو نهر دمشق، ولم أذق في الدنيا ماءً كعذوبته.

ثم قال صاحبي: والآن عاد بي سياق الحديث إلى عبيد بن الأبرص، فإنه لما اجتمعت بنو أسد بعد قتلهم حجر بن عمرو والد امرئ القيس إلى امرئ القيس عرضوا عليه أن يعطوه ألف بعير دية أبيه ــ ففدية الملك عند العرب ألف بعير ــ أو يُقِيدوه من أي رجل شاء من بني أسد، أو يمهلهم حولاً. قال لهم امرؤ القيس بكل صلف: أما الدية فما ظننت أنكم تعرضونها على مثلي، وأما القَوَد فلو قيد إلي ألف من بني أسد ما رضيتهم، ولا رأيتهم كفؤاً لحجر، وأما النُّظْرة فلكم، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان ــ لأنه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قحطاني وهم عدنانيون ـــ أُحَكِّمُ فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة، حتى أشفي نفسي، وأنال ثأري!

وقد كان قد قال لما جاءه خبر قتل أبيه وهو على شُربه ولهوه: لقد ضيعني أبي صغيراً، وحمّلني دمه كبيراً، لا صَحْوَ اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر.

فلما سمع عبيدٌ كلام امرئ القيس الآنف في قومه وتيهه وتهديده أنشد:

يـــا ذَا المُخَوِّفُنـــا بِقَـــتْ ... لِ أَبِيـــــهِ إِذْلالاً وحَيْنـــــا
إِنَّـــا إِذا عَـــضَّ الثِّقـــا ... فُ بـــرَأْسِ صَـــعْدَتِنا لَوَيْنـــا
نَحْمِـــي حَقِيقَتَنـــا وبَعْـــ ... ـــضُ القَـــوْمِ يَـــسْقُطُ بَـــيْنَ بَيْنـــا
هَـــلاَّ سَـــأَلْتَ جُمُـــوعَ كِنْـــ ... ـــدَةَ يـــومَ وَلَّـــوْا أَيْـــنَ أَينـــا
أَيَّـــامَ نَـــضْرِبُ هـــامَهُمُ ... بِبَـــواتِرٍ حتَّـــى انْحَنَيْنـــا
نحـــنُ الأُلَى فـــاجْمَعْ جُمُـــو ... عَـــكَ ثُـــمَّ وَجِّهْهُـــم إِلينـــا
وجمـــوعُ غـــسَّانَ الملـــو ... كُ أتيـــنهمْ وقـــد انطوينـــا
واعلـــمْ بـــأنَّ جيادنـــا ... آلـــينَ لا يقـــضينَ دينـــا
ولقـــدْ أبحنَـــا مـــا حميْـــتَ ... ولا مُبـــيحَ لمـــا حميْنـــا
لا يبلـــغَ البـــاني ولـــو ... رفـــعَ الـــدَّعائمَ مـــا بنيْنـــا
كـــمْ رئـــيسٍ قـــد قتلْـــ ... ـــناهُ وضـــيمٍ قـــد أبيْنـــا
ولـــربَّ ســـيِّدِ معـــشرٍ ... ضـــخمِ الدَّســـيعةِ قـــد رميْنـــا
عقبانـــهُ بظـــلالِ عقـــ ... ـــبانٍ تُـــيَمَّمُ مـــنْ نويْنـــا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حتَّـــى تركنـــا شـــلوهُ جـــزرَ الـــسِّباعِ وقـــد مـــضيْنا
إنَّـــا لعمـــركَ مـــا يـــضا مُ حليفُنـــا أبـــداً لـــديْنا
وأوانـــسٍ مثـــلِ الـــدُّمى حـــورِ العيـــونِ قـــد اســـتبيْنا

وفي ظني أن معلقتي عبيد بن الأبرص والحارث بن حلّزة لا ترقيان لمستوى شاعرية البقية، ولعل أسباباً أخرى ساعدت في تسنّمها هذه المرتبة. ولعل معلقة عبيد قد راعوا فيها الحكمة وتقدّمه الزمني لمعاصرته الملك الضليل، ومعلقة الحارث لحكمتها.

وقد ذهب وَهَلِي عن حديث صاحبي إذ قال بعد تعليقه على المعلقات كلاماً لا أستحضره لانشغالي بتأمل حال أولئك الملوك الذين بسط الله لهم الدنيا فجمع لهم الجاه والسلطان والمال والقوة المادية وجمع لهم ما يشتهون من منع الحس، مع ذلك فليسوا في نعيمهم على ما يعتقده أكثر الناس!

التفتُّ إلى صاحبي بعدما أنهى حديثه قائلاً: هل تعلم أن ديمومة متع الحس في الدنيا مؤذنة باستحالة لذتها لملال وكآبة؟! قال: بيِّن ذلك. فقلت: ذلك أن المتنعِّم الفاره المترف الغني، الذي أعطاه الله كل متع الحياة الحسية لا يجد لها لذة هل تعلم لماذا؟ ذلك لأن نعيم الحس يُملّ أما نعيم الأرواح فلا.

بيان ذلك: أن النفس إذا كانت قادرة على الشيء فإنها تزهد فيه، لكن مع إفضائها إلى مرغوبها على الندرة تكون لذة الظفر، واعتبر ذلك بنفسك واسألها: أي الأشربة أو الأطعمة أو الألبسة أو المراكب أو الأماكن أحب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إليها وأشوق؟ ثم أتخمها منه ومكنها من بلوغه والنهل منه ـ بالحلال ـ لمدة أسبوعين فقط، وسترى العجب من أنها نفرته وزهدت فيه! جرب ذلك في أحب الأطعمة إليك مثلاً.

ذلك أنها لما كانت محرومة قَبْلاً على الدوام أو على الأحيان، صار لها ذلك المنع سبب لذة متجددة، فكل متع الجسد بلا استثناء هي من هذا القبيل حتى ما كان محرماً ممنوعاً. لذلك نجد أن أهل الغنى الفاحش والثراء الباذخ هم أشد الناس مِلَالاً وسآمة وضيقاً واكتئاباً! لأنهم يبحثون عن لذة «محسوسة» ولا يجدونها، كما نقل عن أحد خلفاء بني أمية قال: أكلت الحلو والحامض حتى لم أَعُدْ أميّز بينهما، وركبت الفارِه ووطئت النساء حتى لا أبالي أوطئت امرأة أو جداراً! ولما رأى أحد الأمراء فقيراً يأكل بلغة الطعام البسيط بلذة واستمتاع انخلع عما كان فيه بحثًا عن السعادة واللذة، فهذا الرجل يبحث عن لذة فقدها، لذلك يُعنِقُ بعضُهم في طِوَل غيِّهِ بالكروع في الحرام من متع الجسد الوقتية اللحظية التي تورثه عاراً وندماً وخيبة وخسراناً! مع أن السعادة بحذافيرها بين يديه واللذة بأزمّتها بين عينيه وهي حلاوة الإيمان بالله، والتلذذ بعبادته، فمن وفقه مولاه الحق فأقبل على مُتعِ روحه لطلّق الدنيا ثلاثاً! إلا ما كان معيناً على لذائذ الأرواح ومُتَعِ الأنفس، ولأصبحت الدنيا كلها عنده بمنزلة الحاجة التي لابد منها لبقاء جسده، مع إعطاء جسده حظه من نعيمه الساعة بعد الساعة بما يعينه على عمارة داره في الآخرة، وعلى سكب الإيمان في فؤاده.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولذة الروح وحلاوة الإيمان والاستمتاع بالعبادة والقرآن ميدان رحيبٌ يحوي أموراً جليلة جميلة، لا يحوطها وصف ولا تنالها عبارة، وهي بحق جنة الدنيا، وهي قطعة وأنموذج من نعيم جنة الآخرة، وكفى!

ورحم الله أبا الفتح البُسْتِي إذ قال:

يَا خادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ ... وتَطلُب الربْحَ مما فيه خُسْرَانُ

أقبلْ على الرُّوحِ فاستكمل فَضَائِلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

وكان ابن حزمٍ ربّما مرّ على فاكهة يشتهيها فيقول لها: موعِدُكِ الجنّة!

وليس ذلك من تحريم الطيّبات في شيء، إنّما قصَدَ رحمه الله قهْرَ شهوته حتى تنقاد نفسه فيسهل قيادها للفلاح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

١٢

خَلِيْلَيَّ هَذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلَا..

أشرقت شمس الصباح على يسارنا ونحن متوجهان لوجهات شتّى، منها عيون الجواء موطن عنترة بن شداد وعبلة الذي قال: يا دار عبلة بالجواء تكلّمي. ولِنَرى حصاة النَّصلة التي يذكرون أنها ملتقى الحبيبين، وميدان حرب داحس والغبراء، ولأثيفية «أُثيثية» في الوشم بلدة جرير الخطفي، ولجبال قَطَن وأبان ومحياة «محيوة» في القصيم، وجبل ثهلان بقرب بلدة الشعراء، وجبلي امرئ القيس الدَّخُولِ وحَوْمَلِ وجبل منخر «المنخرة» والصاقب في طرف عروق سبيع، وجبل مجنون ليلى التّوباد في الأفلاج، وعين صداء بقرب الأفلاج التي قالوا فيها: ماء ولا كصداء. والحِمى، وإذا أُطلق الحمى فهو حمى ضريّة وهو أجمل وأطيب وأعذى بقاع نجد، وهو حمى إبل الصدقة في عهد عمر ومن بعده، وقبله حماه كليب وائل وقتل ناقة البسوس لأنها كسرت بيضة حمامة فيه فقامت الحرب بين قبائل ربيعة أربعين عاماً في العبلة السائحة في ظل جبل الذنائب بقرب عفيف الذي شهد حرب البسوس، وقرية ضرية تقع في وسط هذا الحمى الرائق العذي، ومن جبالها أَمْرَة وسواج قرب الشبيكية، والريان جبل جرير، وطخفة، وخزازَى «خزاز» والنِّير، وجَبَلَة قرب الجِمْشِ وفيه نقرة مُطَيْرٍ ورشاءه، وطميَّة بين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المدينة والقصيم، أما مقلعها الأسطوري فهو «الوعبة» عند أم الدوم، ولها أسطورة تدُلُّكَ على رهافة نفوس أولئك القوم ومحبتهم لأخبار النسيب وأساطير الغرام، فيزعمون عشق طميّة لجبل قطن في الزمان الغابر، ثم إنها رحلت له فمرّت في طريقها بجبل عكّاش العجوز القبيح الذي أقنعها بالزواج منه، فبقيت عنده متحسره على حبيبها قطن ولهذا قال العربي في خرافته:

تـزوج عكّـاشٌ طميّـة بعـدما ... تـأيّم عكـاشٌ وكـاد يـشيبُ

والعامة تزعم أن حبيب طميّة هو أبان، ..والهوى من قبلنا عذّب طمية!

ولا زال مقلعها ـ الأسطوري ـ شاهداً قصة العشق الجبلية السحيقة.

وأثناء السير أتمّ صاحبي كلامه عن أصحاب المعلقات فقال:

أما طرفة بن العبد فاسمه الحقيقي عامر أو عمرو بن العبد، وطرفة كنيته مأخوذةٌ من شجر الطرفاء، وشاعرنا هنا هو الشاعر الشاب الجزل الرصين، ذو الشعر الفخم الفاخر الحكيم، والديباجة الرائقة الشائقة، فمن دستور حِكَمِه:

إذا كنـتَ في حاجـة مرسـلاً ... فأرْسِـلْ حَكِـيماً ولا تُوصِـهِ

وإنْ ناصـحٌ منـكَ يومـاً دنَـا ... فـلا تنـأَ عنـه ولا تُقْـصهِ

وإنْ بـابُ أمـرٍ عليـكَ التَـوَى ... فـشاوِرْ لبيبـاً ولا تعـصهِ

وذو الحـقّ لا تَنْـتَقِصْ حَقَّـهُ ... فـإنَّ الوثيقـةَ في نـصِّهِ

ولا تَـذكُرِ الـدّهْرَ في مجْلِـسٍ ... حـديثاً إذا أنـتَ لم تُحْـصهِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونُـــصَّ الحـــديثَ إلى أهلِـــهِ فـــإن الوثيقـــةَ في نـــصهِ
ولاتحرصَـــنّ فـــرُبَّ امـــرئٍ حَـريصٍ مُـضاعٍ عـلى حِرصِـهِ
وكـــم مِـــن فتًـــى ســـاقِطٍ عَقْلُـــهُ وقد يُعْجَبُ الناسُ من شَخْصِهِ
وآخـــرَ تحـــسبهُ أنْوَكـــاً ويأتِيـــكَ بـــالأمرِ مِـــنْ فَـــصّهِ
لَبِـــسْتُ اللّيـــالي فـــأفْنَيْنَني وسربلَنـــي الـــدهرُ في قُمـــصهِ

وقد كان طرفة لطيف التخيّل، شاعراً فحلاً مطبوعاً، وكلما طالت قصيدته ازدادت رونقاً وحلاوة وطلاوة، وشعره يجمع الجزالة والرواء، ونباهة المقاصد، وعذوبة المآخذ.

وقد صحّح في صِغَرِهِ شعراً لخاله المتلمّس. وقد شهد له لبيد وجرير والأخطل بأنه الشاعر غير مدافع. ويكفيه قوله غناءً وغِنى:

ولا أغـيرُ عـلى الأشـعار أسرقهـا غنيتُ عنها وشر الناس من سرقا
وإن أحـسن بيـت أنـت قائلـه بيـت يقـال إذا أنـشدته صـدقا

ومن شعره قوله مخاطبا أعمامه، وكان أبوه قد مات وهو صغير، فهضموا حق أمه وردة، وانظر قطرات الدم بين حتوف الحروف:

مـا تنظـرون بـمال وردةَ فـيكمُ صغر البنون ورهط وردة غيَّبُ
قد يبعث الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ حتـى تظـلّ لـه الـدماء تـصبَّبُ
والظلـم فـرّق بـين حيَّـي وائـلٍ بكـر تـساقيها المنايـا تغلـبُ

ولما قال في مذهّبته:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثدِ

وجّه ممدوحه إلى طرفة يقول له: أما الولد فالله يعطيكم، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا. ودعا ولده ــ وكانوا سبعة ــ فأمرهم فدفع كل منهم إلى طرفة عشرة من الإبل، ثم أمر ثلاثة من بني بنيه فدفعوا له مثل ذلك. فأتم له المئة بشطر بيت مدحه به.

وقد زعموا أن الملك عمرو بن المنذر ـــ وهو عمرو بن هند قتيل عمرو بن كلثوم ــ وكان باطشاً جباراً، وكان لا يبتسم ولا يضحك، وكانت العرب تسميه مضرط الحجارة، وكانت تهابه هيبة شديدة، وقد ملك ثلاثاً وخمسين سنة، وفيه يقول الذهاب العجلي:

أَبَى القَلبُ أَنْ يَهْوَى السِّدِيرَ وَأَهْلَه وإن قِيل عَيْشٌ بالسَّدير غَرِيرُ
فلا أنذرُوا الحيَّ الذي نَزَلُوا به وإنِّي لِمَن لم يَأْتِه لَنَذِيرُ
به البَقُّ والحُمَّى وَأُسْدُ خَفِيَّة وَعَمرُو بن هِند يَعْتِدِي وَيَجُورُ

وكان عمرو بن هند يرشح أخاه قابوس ليملك بعده، فقدم عليه المتلمِّسُ وطَرَفَةُ فجعلهما في صحابة قابوس، وأمرهما بلزومه، وكان قابوس شاباً يعجبه اللهو، وكان يركب يوماً في الصيد فيتركَّض ويتصيد، وهما معه يركضان حتى يرجعا عشية وقد لغبا، فيكون قابوس من الغد في الشراب فيقفان ببابه النهار كلّه فلا يصلان إليه، فضجر طرفة فقال ساخراً ــ ومقتل الرجل بين فكيه ـ:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكيف صبوت أو ترجو مهاة ... منعّمة تُزارُ ولا تَزُورُ
جلت برداً فهشّ له فؤادي ... فكدت إليه من شوق أطيرُ
فدعها وانحل النعمان قولاً ... كنحتِ الفأس ينجد أو يغورُ
وليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثاً حول قُبَّتِنَا تخورُ
من المزمرات أسبل قادماها ... وضرتها مركنة دروُر
يشاركنا لنا رخلان فيها ... ويعلوها الكباش فما تنورُ
لعمرك إن قابوس بن هند ... ليخلط ملكه نوك كثيرُ
قسمت الدهر في زمن رخي ... كذاك الحكم يقسط أو يجورُ
لنا يوم وللكروان يوم ... تطير البائسات ولا نطيرُ
فأما يومهن فيوم سوء ... تطاردهن بالحدب الصقورُ
وأما يومنا فنظل ركباً ... وقوفاً ما نحل وما نسيرُ
وهل يخشى وعيد الناس إلّا ... كبير السن أو ضرع صغيرُ
ومثلي فاعلمي يا أم عمرو ... إذا ما اعتاده السَّفهُ النعورُ
يطير على مذكرة تسور ... ومفرجة لها نسع وكورُ
فلما أن أنخت على مليك ... مساكنه الخَوَرْنَقُ والسَّدِيْرُ
لينجزني مواعد كاذبات ... بطي صحيفة فيها غرورُ
فأوعدني وأخلف ثم ظني ... وبئس خليقة الملك الفجورُ

والرغوث هي النعجة، والزمرات أي القليلات الصوف وهن أغزر ألباناً، والضرة هي لحم الضرع، ومركنة أي ذات أركان، والرخل هي الأنثى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من ولد الضأن، تنور أي: تنفر، والحدب: ما ارتفع من الأرض. ولعل في الأبيات نحلٌ.

وكان طرفة عدوّاً لابن عمه عبد عمرو بن بشر، وكان عبد عمرو كريماً عند ابن هند، وكان سميناً بادناً فدخل مع عمرو الحمّام، فلما تجرد قال: لقد كان ابن عمك طرفة رآك حين قال ما قال:

ولا خير فيه غير أن قيل واجدٌ ... وأن له كشحاً إذا قام أهضما

له شربتان بالعشيِّ وشربة ... من الليل حتى آض جيشاً مورماً

فلما قال ذلك قال له عبد عمرو: ما قال لك شر مما قال لي، ثم انشده قول طرفة الآنف. فمكث عمرو غير كثير ثم دعا المتلمس وطرفة، وكان طرفه غلاماً معجباً تائهاً بنفسه يتخلّج في مشيته بين يدي عمرو، فنظر إليه نظرة كادت تقتلعه من الأرض ثم قال: لعلكما قد اشتقتما إلى أهلكما، وسركما أن تنصرفا، قالا: نعم، فكتب لهما إلى عامله على هجر أن يقتلهما، وأخبرهما أنه قد كتب لهما بجِبَاءٍ ومعروف، فأعطى كل واحد منهما صحيفة، فخرجا، وكان المتلمس قد أسنّ، فهبطا النجف، ومرّا بنهر الحيرة على غلمان يلعبون فقال لطرفة: إنك غلام غرّ حديث السن، والملك من قد عرفت حقده وغدره، وكلانا قد هجاه، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر، فهلم ننظر في كتابنا، فأبى عليه طرفة، فأعطى المتلمس كتابه بعض الغلمان فقرأه عليه فإذا فيه السوأة، وكان في الصحيفة: باسمك اللّهم. من عمرو بن هند إلى المعكبر: إذا جاءك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يده ورجله وادفنه حياً.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فألقى كتابه في الماء، وقال لطرفة: أطعني وألقِ كتابك، فأبى طرفة ومضى لحتفه بكتابه، حتى أتى به عامله فقتله، ومضى المتلمس حتى لحق بملوك جفنة بالشأم، وفي ذلك يقول المتلمس:

مَنْ مُبلِغُ الشّعراءِ عن أخَوَيْهِمُ ... خَبراً فَتَصْدُقَهُم بذاكَ الأنفُسُ
أودى الذي عَلِقَ الصّحيفَةَ منهما ... ونَجَا حِذارَ حِبائِهِ المُتَلَمّس
ألقِ الصّحيفَةَ لا أَبَا لَكَ إنّهُ ... يُخشَى علَيكَ مِنَ الحِباءِ النِقْرِسُ

وقالوا: قدم طرفة على عامل البحرين فدفع إليه كتاب عمرو بن هند، فقرأه فقال: هل تعلم ما أُمرتُ به؟ قال: نعم! أمرت أن تجيزني وتحسن إلي. فقال: يا طرفة، بيني وبينك خؤولةٌ أنا لها راعٍ حافظٌ، فاهرب في ليلتك هذه، فإني قد أُمِرْتُ بقتلك، فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس. فقال طرفة: اشتدت عليك جائزتي، فأردت أن أهرب، كلا والله لا أفعل ذلك أبداً، فأبى العاثرُ إلا المنيّةَ فقتله، وقيل إن الوالي أبى قتله وترك الولاية فقتلها خليفتُهُ. ولما قرأ العامل الصحيفة عرض عليه فقال: اختر قتلة أقتلك بها، فقال: اسقني خمراً، فإذا ثملت فافصد أكحلي، ففعل حتى مات، وذكر ذلك البحتري بقوله:

وكذاكَ طرفةُ حينَ أوجسَ خيفةَ ... في الرَّأسِ هانَ عليهِ فصدُ الأكحلِ

ومما قاله للنعمان بن المنذر ولا يبعد أنه أرسلها من البحرين، أو أن التلفيق والنحل لحقاها، وقيل: إن طرفة نطق بهذين البيتين لما أيقن بالموت، وقد عدّوه بهما فيمن شعره في رويّته وبديهته سواء عند الأمن والخوف،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقدرته وسكون جأشه وقوة غريزته كقول الآخر وهو يرى شعاع سيف القِصَاص مخاطباً زوجه:

فلا تنكحي إن فرّق الدهر بيننا ... أغم القفا والرأس ليس بأنزعِ

فهنا قد قال طرفة البائس:

أَبا منْذِرٍ أَفْنَيْتَ فاسْتَبْق بَعْضَنا ... حَنانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِن بَعْضِ
أَبا منْذِرٍ كانتْ غُروراً صَحِيفَتِي ... ولَمْ أُعْطِكُمْ في الطَّوْعِ مالِي ولا عِرْضِي
رَدِيتُ ونَجَّا اليَشْكُرِيَّ حِذارهُ ... وحادَ كما حادَ الأَزَبُّ عن الدَّحْضِ

ويروى أن طرفة قال مفتخراً متعزيّاً قبل صلبه:

فمَن مُبلِغٌ أحياءَ بكرِ بن وائلِ ... بأَنّ ابنَ عبد راكبٌ غيرُ راجلِ
على ناقةٍ لم يركبِ الفَحلُ ظَهرَها ... مُشَذَّبةٍ أَطرافُها بالمَناجِلِ

ثم قال المتلمس يحرض أقوام طرفة:

أَبني فُلانَةَ لم تكن عاداتُكُم ... أَخْذَ الدّنيّةِ قبلَ خِطّةِ مَعضَدِ

وقالت أخت طرفة وهي الخرنق، تهجو زوجها عبد عمرو، حين أنشد الملك شعر أخيها طرفة بن العبد:

ألا ثَكِلَتكَ أُمُّكَ عبد عمرٍو ... أبا النّخبَاتِ واخيَتَ المُلُوكَا
هُمُ رَكَلُوكَ للوَرِكَينِ رَكْلاً ... ولو سألُوكَ أعطَيتَ البُرُوكا
فيَومُكَ عندَ زانيَةٍ هَلُوكٍ ... كظِلِّ الرّجعِ مِزْهَرُها ضَحوكا

ثم رثت أخاها بقولها:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَعِمنا بهِ خَمساً وعشرينَ حِجَّةً فلمّا تَوَفَّاها استَوى سيِّداً فَخما
فُجِعْنا بهِ لمّا استَتَمَّ تَمامَهُ على خَيرِ حالٍ لا وَليداً ولا قَحما

ومضى المتلمّسُ هارباً إلى الشام، فكتب فيه عمرو بن هند إلى عماله بنواحي الريف، يأمرهم أن يأخذوا المتلمس إن قدروا عليه يمتار فقال المتلمس محرضاً:

يا آلَ بكرٍ أَلا للّهِ دَرُّكُمُ طالَ الثّواءُ وثوبُ العجزِ ملبوسُ

وقال أيضاً:

أَيُّها السّائلي فإنّي غَريبٌ نازحٌ عن مَحَلّتي وصَميمي

وقال أيضاً يهجو عمرو بن هند، ولعلها التي سببت ذلك الكتاب وفيها ضَعة وإسفاف وفجور:

قُولا لعمرو بن هِنْدٍ غَيرَ مُتّئِبٍ يا أَخْنَسَ الأنفِ والأضراسُ كالعَدَسِ
مَلْكُ النّهارِ وأنتَ اللّيلَ مُومِسَةٌ ماءُ الرِّجالِ على فَخذيكَ كالغَرَسِ
لو كُنْتَ كَلبَ قُنَيْصٍ كُنْتَ ذا جُدَدٍ تكونُ إربَتُهُ في آخرِ المَرَسِ
يَعوي حَريصاً بقَولِ القانصاتِ لهُ قُبِّحْتَ ذا وَجهِ أنفٍ ثمّ مُنْتَكِسِ

والمتلمس خال طرفة، أما عمه فهو المُرَقِّشُ الأصغر، فالتقى الشعر لطرفه من طرفيه، فهو من فحول الشعر الذين لا تُقرعُ آنافُهُم، وتأمل الروعة والعمق في رسالة طرفة لكل ذوي رحم بينهما هنّات:

لِذي الحِلْم قَبلَ اليَوم ما تُقْرَعُ العَصا وما عُلِّم الإنسانُ إلاَّ لِيعْلَما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وما كُنْتَ إلاَّ مِثْلَ قاطِعِ كَفِّه ... بكَفٍّ لهُ أُخْرَى فأصْبح أجْذَما
يَدَاه أصَابَتْ هَذه حَتْفَ هَذه ... فلم تَجِدِ الأخْرَى عَليها تَقَدُّما

قال أبو عبيدة: مر لبيدٌ بمجلسٍ لنهد بالكوفة، وهو يتوكأ على عصاً، فلما جاوز أمروا فتًى منهم أن يلحقه فيسأله: من أشعر العرب؟ ففعل، فقال له لبيدٌ: الملك الضليل، يعني أمرأ القيس، فرجع فأخبرهم قالوا: ألا سألته: ثم من؟ فرجع فسأله: فقال: ابن العشرين، يعني طرفة، فلما رجع قالوا: ليتك كنت سألته: ثم من؟ فرجع فسأله، فقال: صاحب المحجن، يعني نفسه.

قال أبو عبيدة: طرفة أجودهم واحدةً، ولا يلحق بالبحور يعني امرأ القيس وزهيراً والنابغة، ولكنه يوضع مع أصحابه: الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وسويد بن أبي كاهل.

أما معلقته السائرة، وانظر للأعراب كيف طاروا معه في وصفه الوحشي لناقته بعد خولته ثم لهوه، ثم بيانه المرصّع بالحكم الغائرة والمعاني الباذخة والألفاظ الجزلة حتى قطّعت أعناق القصائد المتكاملة سواها، وإنها من نفسي لبالمكان الأرفع، فمنها:

لِخَولَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوُح كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ
وُقُوفاً بها صَحبي عَليّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولونَ لا تَهلِكْ أَسىً وَتَجَلّدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ المالِكيّةِ غُدوَةً ... خَلايا سَفينٍ بالنّواصِفِ مِنْ دَدِ
وفي الحَيّ أَحْوَى يَنفُضُ المَرْدَ شادنٌ ... مُظاهِرُ سِمطَيْ لُؤلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ
خَذُولٌ تُراعي رَبْرَباً بِخَميلَةٍ ... تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وَتَرْتَدِي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَتَبسِمُ عَنْ أَلْمى كَأَنَّ مُنَوَّراً ... تَخَلَّلَ حُرَّ الرّملِ دِعصٍ لهُ نَدِ
سَقَتْهُ إياهُ الشّمسَ إلاّ لِثاتِهِ ... أُسِفّ ولم تَكْدِمْ عَلَيهِ بِإِثْمِدِ
وَوَجهٌ كَأَنَّ الشّمسَ حَلَّتْ رِداءَها ... عَلَيْهِ نَقِيُّ اللّونِ لَمْ يَتَخَدَّدِ
وَإنيّ لأُمضِي الهَمّ عِنْدَ احْتِضارِهِ ... بِهَوجَاءَ مِرقالٍ تَروحُ وَتَغْتَدِي
تُباري عِتاقاً ناجِياتٍ وَأَتبَعَتْ ... وظيفاً وَظيفاً فَوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ
تَرَبّعَتِ القُفَّينِ في الشَّوْلِ تَرتَعي ... حَدائِقَ مَولِيِّ الأسِرّةِ أَغْيَدِ
تَريعُ إلى صَوتِ المُهيبِ وَتَتَّقي ... بذي خُصَلٍ رَوْعَاتِ أَكْلَفَ مُلْبِدِ
كَأَنّ جَنَاحَيْ مَضْرَحيّ تَكَنّفَا ... حِفافَيْهِ شُكّا في العَسيبِ بِمسْرَدِ
فَطَوراً بِهِ خَلفَ الزَّمِيلِ وتارَةً ... على حَشَفٍ كالشَّنّ ذاوٍ مُجَدَّدِ
لها فَخِذانِ أُكْمِلَ النَّحضُ فِيهِما ... كأَنّهُما بابا مُنيفٍ مُمَرَّدِ
وطَيُّ مَحالٍ كالحَنيّ خُلُوفُهُ ... وأجْرِنَةٌ لُزّتْ بدأيٍ مُنَضَّدِ
كَأَنّ كِناسَيْ ضَالَةٍ يَكْنُفانِها ... وَأَطْرَ قِسيٍ تَحْتَ صُلبٍ مُؤَيَّدِ
لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلانِ كَأَنَّها ... تَمُرُّ بِسَلْمَيْ دالِجٍ مُتَشَدِّدِ
كَقَنْطَرَةِ الرّومِيّ أَقْسَمَ رَبُّها ... لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَادَ بِقَرْمَدِ
صُهابيّةُ العُثْنُونِ مُوجَدَةُ القَرَا ... بَعيدَةُ وَخْدِ الرِّجلِ مَوّارَةُ اليَدِ
جَنُوحٌ دِفاقٌ عَنْدَلٌ ثُمّ أُفْرِعَتْ ... لَهَا كَتِفاها في مُعالىً مُصَعَّدِ
أُمِرّتْ يَداها فَتلَ شَزْرٍ وأُجنِحَتْ ... لَهَا عَضُداها في سَقيفٍ مُسَنَّدِ
كَأَنّ عُلُوبَ النِّسْعِ في دَأياتِها ... مَوارِدُ مِنْ خَلقاءَ في ظَهرِ قَرْدَدِ
تَلاقَى وأَحياناً تَبِينُ كأنّها ... بَنائِقُ غُرٌّ في قَميصٍ مُقَدَّدِ
وَأَتْلَعُ نَهّاضٌ إذا صَعّدَتْ بِهِ ... كَسُكّانِ بُوصيّ بِدِجلَةَ مُصعِدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجُمجُمَــةٌ مِثــلُ العَــلاةِ كَــأنّما ... وَعَى المُلتَقَى منها إلى حَرْفِ مِبرَدِ
وَخَـدٌّ كَقِرْطَـاسِ الـشّامي ومِـشفَرٌ ... كَــسِبتِ الــيَماني قَــدُّهُ لمْ يُجَــرَّدِ
وعَينــانِ كالمَــاوِيّتَينِ اســتَكَنَّتَا ... بكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صَخْرَةٍ قَلتِ مَوْرِدِ
طَحُـوران عُـوّارَ القَـذَى فَتراهُمـا ... كَمَكحُـولَتَيْ مَـذعورَةٍ أُمِّ فَرْقَـدِ
وصادِقَتا سَمعِ التّوجّسِ بالسُّرَى ... لِهَمْـسٍ خَفـيٍ أَوْ لِـصَوْتٍ مُنَـدِّدِ
مُؤَلَّلَتــانِ تَعــرِفُ العِتْــقَ فــيهِما ... كَــسَامِعَتَيْ شــاةٍ بِحَوْمَــلَ مُفــرَدِ
وَأَرْوَعُ نَبّــاضٌ أَحَــذُّ مُلَملَــمٌ ... كَمِـرْداةِ صَـخْرٍ في صَـفيحٍ مُـصَمَّدِ
وإن شِئْتُ سامَى واسطَ الكُورِ رأسُها ... وعامَـتْ بِـضَبْعَيْهَا نَجـاءَ الخَفَيْـدَدِ
وإن شئتُ لم تُرْقِلْ وإن شِئْتُ أَرْقَلَتْ ... مَخَافَـةَ مَلـوِيٍ مِـنَ القَـدِّ مُحْـصَدِ
وَأَعلَـمُ مَخـرُوطٌ مِـنَ الأنـفِ مَـارِنٌ ... عَتيقٌ متى تَرْجُم به الأرضَ تَزْدَدِ
إذا أَقْبَلَــتْ قــالُوا تَــأخّرَ رَحْلُهــا ... وإنْ أَدْبَـرَتْ قـالُوا تَقَـدّمَ فاشْـدُدِ
وتُضْحي الجِبَالُ الغُبْرُ خَلفي كَأنّها ... مِـنَ البُعْـدِ حُفّـتْ بـالمُلاءِ المُعَضَّدِ
وَتَشْرَبُ بالقَعْبِ الصّغِيرِ وإنْ تُقَدْ ... بِمِـشْفَرِهَا يَوْمـاً إلى اللّيـلِ تَنْقَـدِ
على مِثلِها أَمضي إذا قالَ صاحبي ... أَلا لَيتَنـي أَفـديكَ مِنهـا وَأَفْتَـدِي
وجاشَتْ إلَيهِ النَّفسُ خَوْفاً وَخَالَهُ ... مُصاباً ولو أَمسَى على غَيرِ مَرْصَدِ
إذا القومُ قالوا مَن فتىً خِلتُ أَنَّني ... عُنيــتُ فَلَــمْ أَكْــسَلْ ولم أَتَبَلَّــدِ
أَحَلْـتُ عَلَيْهَـا بـالقَطِيعِ فأَجْـذَمَتْ ... وَقَـدْ خَـبَّ آلُ الأمعَـزِ المُتَوقَّـدِ
فَـذَالَتْ كَـما ذَالَـتْ وَلِيـدَةُ مَجْلِـسٍ ... تُـرِي رَبَّهـا أَذْيَـالَ سَـحْلٍ مُمَـدَّدِ
ولَــسْتُ بِحَــلاَّلِ الــتّلاعِ مَخَافَــةً ... ولكِـنْ متـى يَسترْفِدِ القـومُ أَرفِـدِ
وإنْ تَبغني في حَلَقَـةِ القَـوْمِ تَلْقَني ... وإنْ تَقتَنِصْني في الحَوانيتِ تَصطَدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متى تـأتِين أُصْبَحْكَ كَأْساً رَوِيّـةً ... وإنْ كنتَ عَنْهَا غانِياً فاغنَ وازْدَدِ
وإنْ يَلتَـقِ الحَـيُّ الجَميـعُ تُلاقِنـي ... إلى ذِرْوَةِ البَيـتِ الرَّفِيـعِ المُـصمَّدِ
نَـداماىَ بِـيضٌ كَـالنُّجومِ وَقَينَـةٌ ... تَـرُوحُ عَلَينـا بَـيْنَ بُـرْدٍ وَمُجْـسَدِ
إذا رَجَّعَتْ في صَوتِهَا خِلْتَ صَوْتَها ... تَجَـاوُبَ أَظْـآرٍ عـلى رُبَـعٍ رَدِ
إذا نحـنُ قُلْنـا أَسْـمِعينا انْبَرَتْ لَنـا ... عـلى رِسْـلِها مَطْرُوقَـةً لم تَـشَدَّدِ
رَحيبٌ قِطابُ الجَيبِ منها رَفيقَةٌ ... لِجَـسّ النّـدامَى بَـضّةُ المُتَجَـرَّدِ
ومـا زالَ تَـشرابي الخُمُـورَ ولَـذّتي ... وبَيعـي وإنفـاقي طَريفـي ومُتلَـدِي
إلى أَنْ تَحَـامَتني العَـشِيرةُ كلُّهـا ... وأُفـرِدْتُ إفـرادَ البَعـيرِ المُعَبَّـدِ
رأيـتُ بَنـي غَـبراءَ لا يُنكِرُونَنـي ... ولا أَهْـلُ هـذاكَ الطِّـرافِ المُمَـدَّدِ
أَلاَ أَيُّهَـا اللَّائِمِـي أَحْـضُرُ الـوَغَى ... وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أَنتَ مُخْلِدِي
فـإِنْ كنـتَ لا تَـسْتطِيعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِـي ... فـدَعْنِي أُبادِرْهـا بـما مَلَكَـتْ يَـدِي
فلَـوْلا ثَـلاثٌ هُـنَّ من عِيشَةِ الفَتَى ... وجَـدِّكَ لم أَحْفِـلْ متى قـام عُـوَّدِي
فمـنهنَّ سَـبْقِى العـاذِلاتِ بـشَرْبَةٍ ... كُمَيْـتٍ متى مـا تُعْـلَ بالمـاءِ تُزْبِـدِ
وكَـرِّى إذا نـادَى المُـضافُ مُحَنَّبـاً ... كَـسِيدِ الغَـضَا نَبَّهْتُـهُ المُتَـوَرِّدِ
وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... ببَهْكَنَـةٍ تَحْـتَ الخِبـاءِ المُعَمَّـدِ

ثم تأمّل هذا العمق التأملي في تمام هذه القصيدة الفاخرة، والديباجة الهائلة، واللون الساحر، والجسارة الساحقة، ولكأن لقمان الحكيم يتكلم على لسانه خلا بعض هَنَّاتٍ إذ يقول:

أَرَى قَـبْرَ نَحَّـامٍ بَخِيـلٍ بِمالِـهِ ... كقَـبْرِ غَـوِيٍّ في البطَالَـةِ مُفْـسِدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَرَى المَوْتَ يعْتامُ الكِرامَ ويَصْطَفى ... عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أَرَى الدَّهْرَ كَنْزاً ناقِصاً كُلَّ ليلةٍ ... وما تَنْقُصِ الأَيَّامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْت ما أَخْطَأَ الفَتى ... لكا لطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ
إذا شاءَ يَوْماً قادَهُ بِزِمامِهِ ... ومَنْ يَكُ في حَبْلِ المَنيّةِ يَنْقَدِ
فَما لي أراني وابنَ عَمّيَ مالِكاً ... متى أَدْنُ منهُ يَنْأَ عَني ويَبْعُدِ
يَلُومُ وما أدري عَلامَ يَلُومُني ... كما لامَني في الحَيِّ قُرْطُ بن معبَدِ
وَأَيأَسَني مِنْ كلِّ خَيرٍ طَلَبْتُهُ ... كأَنّا وَضَعناهُ إلى رَمْسِ مُلْحَدِ
على غَيرِ ذَنْبٍ قُلتُهُ غَيرَ أَنَّني ... نَشَدْتُ فلَم أُغفِلْ حَمُولَةَ مَعبَدِ
وإن أُدْعَ للجُلَّى أَكُنْ من حُماتِها ... وإنْ يَأْتِكَ الأَعْداءُ بالجَهْدِ أَجْهَدِ
وإنْ يَقْذِفُوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ ... بكأْسِ حِياضِ المَوْتِ قَبْلَ التَّهَدُّدِ
وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً ... على المَرْءِ مِن وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ
فَذَرْني وخُلقي إنّني لكَ شَاكِرٌ ... وَلَو حَلَّ بَيتي نائياً عِندَ ضَرْغَدِ
فَلَوْ شَاءَ رَبِّيّ كنتُ قَيسَ بن خالِدٍ ... ولو شاءَ رَبِّيّ كنتُ عَمرَو بن مَرْثَدِ
فأُلفيتُ ذا مالٍ كَثيرٍ وعادَني ... بَنُونَ كِرامٌ سادَةٌ لِمُسَوَّدِ
أَنَا الرَّجلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ ... خَشاشٌ كَرأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ
فآلَيْتُ لا يَنْفكُّ كَشْحِي بِطانَةً ... لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
حُسامٍ إذا ما قُمْتُ مُنْتَصِراً بِه ... كَفَى العَوْدَ مِنْه البَدْءُ لَيْسَ بمُعْضَدِ
أَخِي ثِقَةٍ لا يَنْثَنِي عن ضَرِيبَةٍ ... إذَا قِيلَ مَهْلاً قال حاجزُهُ قَدِ
إذا ابْتَدَرَ القَوْمُ السِّلاحَ وَجَدْتَنِي ... مَنِيعاً إذا ابْتَلَّتْ بقائِمِهِ يَدِي
فإنْ مُتُّ فانْعَيْنِي بما أَنا أَهْلُهُ ... وشُقِّي عليَّ الجَيْبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا تَجْعَلِينِي كـامْرِىءٍ لَـيْس هَمُّـهُ ... كَهَمِّي ولا يُغْنِي غَنائِي ومَشْهَدِي
بَطِيءٍ عـن الجُلَّى سَرِيعٍ إِلى الخَنا ... ذَلِيـلٍ بأَجْمـاعِ الرِّجـالِ مُلَهَّـدِ
ولكنْ نَفَى عنِّي الأَعادِيَ جُرْأَتِي ... عليهمْ وإِقْدامِي وصِدْقِي ومَحْتِدِي
ويَوْمَ حَبَسْتُ النَّاسَ عندَ عِراكِهِ ... حِفاظـاً عـلى عَوْراتِـهِ والتَّهَـدُّدِ
على مَوْطِنٍ يَخْشَى الفَتى عندَه الرَّدَى ... مَتَى تَعْتَرِكْ فيه الفَرائِصُ تُرْعَدِ
أَرى الموتَ لا يرعى على ذي جلالةٍ ... وإِنْ كـان في الـدُّنيا عزيـزاً بِمقْعَدِ
ستُبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهِلاً ... وَيَأْتيـكَ بالأخبـارِ مَـنْ لَمْ تُـزَوَّدِ
ويأتيـكَ بالأنبـاءِ مَـنْ لَمْ تَبِـعْ لَـهُ ... بَتاتـاً ولم تَضرِبْ لـهُ وَقتَ مَوعِدِ
لَعَمـرُكَ مـا الأيّـامُ إلاّ مُعـارَةٌ ... فما اسْطَعْتَ مِن مَعرُوفِها فتَزوّدِ
ولا خيرَ في خيرٍ تَرَى الشَّرَّ دُوْنَهُ ... ولا نائـلٌ يأْتيـكَ بَعْـدَ التَّلـدُّدِ
عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَأَبصِرْ قَرينَهُ ... فكُـلُّ قَـرينٍ بالمُقـارِنِ مُقتَـدِ
لَعَمـرُكَ مـا أَدري وإِنّي لَواجِـلٌ ... أَفي اليَـوم إِقْـدامُ المَنيّـةِ أَمْ غَـدِ
فإِنْ تَـكُ خَلفي لا يَفُتها سَوادِيا ... وإِنْ تَـكُ قُدّامي أَجِدْها بِمَرْصَدِ
إِذا أَنـتَ لم تَنفَـعْ بـوُدِّكَ أَهْلَـهُ ... ولم تَنْكِ بالبُؤسَى عَدوَّكَ فابْعدِ

أما الملك الضلّيل فَهَاكِهِ لاهياً عابثاً، عزيزاً فارساً، قد تربع على عرش ديوان شعراء الجاهلية، فهو أسبق أصحاب المعلّقات زماناً وحتى من عاصره منهم فليس في طبقته الشعرية، وانظره وقد حفّت به فحول القريض، وتناثرت على بلاطه مُرُط العسجديات الشعرية وهو يقول في مذهبته الفارهة:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حبيبٍ ومَنزِلِ بسقط اللّوى بين الدّخول فحَوْمَلِ

إلى أن هبط بين الثغر والصدر متهتّكاً ماجناً خالعاً:

تُـدارُ علينَـا بالـسّدِيفِ صِـحافُها ويُـؤتَى إلينـا بـالعَبيطِ المُثَمَّـلِ
ويَـومَ دَخَلـتُ الخِـدْرَ خِـدْرَ عُنَيـزَةٍ فقالـتْ لَكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي
تَقـولُ وَقَـدْ مـالَ الغَبِـيْطُ بنـا مَعـاً عَقَرْتَ بَعيرِي يا امرأ القيسِ فانْزِلِ
فقُلـتُ لها سِيري وأَرْخـي زِمامَـهُ ولا تُبعِـديني مِـنْ جَنَـأكِ المُعَلَّـلِ
دَعي البَكرَ لا تَرثي لهُ من رِدافِنا وهـاتي أذِيقينَـا جَنَـاةَ القَرَنْفُـلِ
بِثَغـرٍ كَمِثـلِ الأُقحُـوانِ مُنَـوِّرٍ نَقـيِّ الثّنايـا أشـنَبٍ غَـير أثْعَـلِ
فمِثلِكِ حُبْلى قدْ طَرَقتُ ومُرْضِعٍ فألهَيْتُهـا عـنْ ذي تمـائِمَ مُغْيَـلِ
إذا ما بكَى من خَلفِها انصَرَفَتْ لَهُ بِـشِقٍّ وَتَحتـي شِـقُّها لم يُحَـوَّلِ
ويَوْماً على ظَهْرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَتْ عَـليّ وآلَـتْ حَلْفَـةً لم تُحَلَّـلِ
أفـاطِمَ مَهْـلاً بَعْـضَ هـذا التَّـدَلُّلِ وإن كُنْتِ قد أَزْمَعتِ صَرْميَ فاجْمِلي
أَغَـرَّكِ منّـي أنّ حُبَّـكِ قـاتلي وأنَّكِ مَهما تـأْمُري القَلبَ يَفعَلِ
وأنّـكِ قَـسّمتِ الفُـؤادَ فنِـصفُهُ قَتيـلٌ ونِـصفٌ بالحَديـدِ مُكَبَّـلِ
فإنْ تَـكُ قَدْ سَاءَتْكَ منّي خَليقَةٌ فَـسُلِّي ثِيـابي مـنْ ثيابِـكِ تَنْـسُلِ
ومـا ذَرَفَـتْ عَينـاكِ إلاّ لتَـضْرِبي بِـسَهْمَيكِ في أَعْـشَارِ قَلـبٍ مُقَتَّـلِ
وبَيـضَةِ خِـدْرٍ لا يُـرامُ خِباؤُهـا تَمَتَّعْـتُ مِـن لَهـوٍ بهـا غَـيرَ مُعجَـلِ
تَجـاوَزْتُ أَحْرَاسـاً إلَيهـا ومَعـشَراً عَـليَّ حِرَاصـاً لـو يُـسِرُّونَ مَقتَلي
إذا مـا الثُّرَيّـا في الـسَّماءِ تَعَرَّضَـتْ تَعَـرُّضَ أثنـاءِ الوِشـاحِ المُفَـصَّلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثِيابَهَا ... لَدَى السِّترِ إلاّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
فَقالَتْ يَمينَ اللَّهِ ما لَكَ حِيْلَةٌ ... وما إنْ أَرَى عَنكَ الغَوَايةَ تَنْجَلي
خَرَجْتُ بها أَمشي تَجُرُّ وَرَاءَنا ... على أثَرينا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وانتَحَتْ ... بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عقَنقَلِ
هَصَرْتُ بفَودَيْ رأْسِها فتَمايَلَتْ ... عليَّ هَضِيْمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلخَلِ
مُهَفهَفَةٌ بَيضاءُ غَيرُ مُفَاضَةٍ ... تَرائِبُها مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ
كَبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بِصُفْرَةٍ ... غَذاها نَميرُ المَاءِ غَيرُ المُحَلَّلِ
تَصُدّ وتُبدي عَنْ أَسِيْلٍ وَتَتّقي ... بناظِرَةٍ منْ وَحشِ وَجرَةَ مُطْفِلِ
وَجِيْدٍ كَجِيْدِ الرِّيمِ ليسَ بِفاحِشٍ ... إذا هيَ نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ
وفَرْعٍ يَزينُ المَتنَ أَسْوَدَ فاحِمٍ ... أَثيثٍ كَقِنْوِ النّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ
غَدائِرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلاَ ... تُضِلُّ المدارَى في مُثَنّىً ومُرْسَلِ
وكَشْحٍ لَطيفٍ كالجَديْلِ مُخَصَّرٍ ... وَسَاقٍ كأُنْبوبِ السَّقيِّ المُذَلَّلِ
وتُضحي فُتِيْتُ المِسكِ فوقَ فِراشِها ... نَؤُومُ الضُّحَى لم تَنتَطِقْ عن تَفَضُّلِ
وتَعطُو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأَنَّهُ ... أَساريعُ ظَبيٍ أو مَساويكُ إسْحِلِ
تُضيءُ الظّلامَ بالعِشاءِ كأَنَّها ... مَنارَةُ مُمْسَى رَاهبٍ مُتَبَتِّلِ
إلى مِثلِها يَرنُو الحَليمُ صَبابَةً ... إذا ما اسبَكَرَّتْ بينَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ
تَسَلَّتْ عَمَاياتُ الرِّجالِ عنِ الصِّبَا ... ولَيسَ فؤاديْ عنْ هَواها بمُنسَلِ
ألا رُبَّ خَصْمٍ فيكِ أَلْوَى رَدَدْتُهُ ... نَصيحٍ على تَعذالِهِ غَيرِ مُؤتَلِ
ولَيلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدولَهُ ... عَليّ بأَنْواعِ الهُمُومِ لِيَبتَلي
فَقُلْتُ لَهُ لمّا تَمَطَّى بِصُلبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجازاً ونَاءَ بِكَلْكَلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَلا أَيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلِ ... بِصُبْحٍ وما الإصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدّتْ بِيَذْبُلِ
كَأنّ الثُّرَيّا عُلّقَتْ في مَصابِها ... بأمراسِ كَتّانٍ إلى صُمّ جَنْدَلِ
وقِرْبَةِ أَقْوامٍ جَعَلْتُ عِصامَها ... على كاهِلٍ مِنّي ذَلُولٍ مرَحَّلِ
وَوَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ ... بِهِ الذّئبُ يَعوي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ
فَقُلْتُ لَهُ لمّا عَوَى إنَّ شَأْنَنا ... قَليلُ الغنى إنْ كنتَ لَمّا تَمَوَّلِ
كِلانا إذا ما نالَ شَيْئاً أَفَاتَهُ ... وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثي وَحَرْثَك يَهْزِلِ
وقد أغتَدي والطّيرُ في وُكُناتِها ... بمُنجَرِدِ قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حاذِ مَتْنِهِ ... كَمَا زَلَّتِ الصّفْوَاءُ بِالمُتَنَزِّلِ
على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَنَّ اهْتِزامَهُ ... إذا جاشَ فيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ
مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحَاتُ على الوَنَى ... أَثَرْنَ غُبَاراً بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ
يُزِلُّ الغُلامَ الخِفَّ عَنْ صَهَواتِهِ ... ويُلْوي بأَثوابِ العَنِيفِ المُثَقَّلِ
دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ أَمَرَّهُ ... تَتَابُعُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ
لَهُ أَيْطَلا ظَبْيٍ وَساقَا نَعَامَةٍ ... وإرْخَاءُ سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
ضَليعٍ إذا استدبَرْتَهُ سَدَّ فَرجَهُ ... بِضَافٍ فُوَيقَ الأرضِ لَيسَ بِأَعْزَلِ
كأنّ سَراتَهُ لدَى البَيتِ قَائماً ... مَداكُ عَرُوسٍ أَوْ صَلايَةُ حَنْظَلِ
كأنّ دِماءَ الهادِيَاتِ بِنَحْرِهِ ... عُصارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ
فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ ... عَذَارَى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ
فَأَدْبَرْنَ كَالجِزْعِ المُفَصَّلِ بَيْنَهُ ... بِجِيْدٍ مُعَمٍّ في العَشِيرَةِ مُخْوَلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَأَلْحَقَنَـــا بالهَادِيـــاتِ وَدُونَـــهُ ... جواحِرُهـــا في صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّـــلِ
فَعَـادَى عِـداءً بَـيْنَ ثَـوْرٍ ونَعْجَـةٍ ... دِرَاكـاً ولَمْ يَنْـضَحْ بِـمَاءٍ فَيُغْـسَلِ
فظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ ما بَيْنَ مُنْضِجٍ ... صَـفِيفَ شِـواءٍ أَوْ قَـدِيرٍ مُعَجَّـلِ
وَرُحْنا يَكـاد الطَّرْفُ يَقْصُرُ دُونَـهُ ... متـى مـا تَـرَقَّ العَـيْنُ فِيـهِ تَـسَفَّلِ
فَبَـاتَ عَلَيْـهِ سَرْجُـهُ وَلِجَامُـهُ ... وَبَـاتَ بِعَيْنِـيَ قَـائِماً غَـيْرَ مُرْسَـلِ
أَصَـاحِ تَـرَى بَرْقـاً أُرِيـكَ وَمِيْـضَهُ ... كَلَمْـعِ اليَـدَيْنِ في حَبِـيٍّ مُكَلَّـلِ
يُـضِيءُ سَـنَاهُ أَوْ مَـصَابِيحُ رَاهِـبٍ ... أَهَـانَ الـسَّلِيطَ بِالـذُّبَالِ المُفَتَّـلِ
قَعَـدْتُ وأَصْـحَابِي لَـهُ بَـيْنَ ضَـارِجٍ ... وبَـيْنَ العُـذَيْبِ بُعْـدَ مـا مُتَـأَمَّلِي
عـلى قَطَـنٍ بِالـشَّيْمِ أَيْمَـنُ صَـوْبِهِ ... وأَيْـسَرُهُ عَـلى الـسِّتَارِ فَيَـذْبُلِ
فَأَضْـحَى يَـسُحُّ حَـوْلَ كُتَيْفَـةٍ ... يَكُـبُّ عـلى الأَذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ
وَمَـرَّ عَـلى القَنَـانِ مِـنْ نَفَيَانِـهِ ... فَـأَنْزَلَ مِنْـهُ العُـصْمَ مِن كـلّ مَوئِلِ
وَتَـيْمَاءَ لَمْ يَـتْرُكْ بِهَـا جِـذْعَ نَخْلَـةٍ ... وَلاَ أُطُـماً إلاّ مَـشِيْداً بِجَنْـدَلِ
كـأَنَّ ثَبِـيراً في عَـرَانِينِ وَبْلِـهِ ... كَبِـيرُ أُنَـاسٍ في بِجَـادٍ مُزَمَّـلِ
كَـأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيمِـرِ غُـدْوَةً ... مِـنَ الـسَّيلِ والغُثَّـاءِ فَلْكَـةُ مِغْـزَلِ
وَأَلْقَـى بِـصَحْرَاءِ الغَبِـيْطِ بَعَاعَـهُ ... نُـزُولَ اليَمَانِيْ ذي العِيَابِ المُحَمَّلِ
كَـأَنَّ مَكَـاكِيَّ الجِـوَاءِ غُدَيَّـةً ... صُبِحْنَ سُلافاً مِن رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ
كَـأَنَّ الـسِّبَاعَ فيـهِ غَرْقَـى عَـشِيَّةً ... بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيْشُ عُنْصُلِ

وقد ذكر امرؤ القيس في هذه المعلقة وحش وَجْرَة وشبّه عيني صاحبته بظباء ذلك الريف الفريد، فوجره هي أمثل مراعي الظباء في جزيرة العرب،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد تعاور الشعراء الفحول على التغني بذكر ظبائها كالنابغة والأعشى ولبيد وجرير، وهي أرض كثيفة الشجر مخصبة المرعى على مدار العام حتى هذه الساعة، وأمثل ما يرعاها الغنم (فهي ظباء مستأنسة!) وبعضهم يسميها السِّي، وهي معدودة من عالية نجد، وهي على الشمال الشرقي من ميقات ذات عرق، على طريق الحج البصري، وبينها وبين مكة قرابة مئة وثمانين كيلاً، والمسافر على طريق الرياض الطائف السريع يمرّ على طرفها الشرقي بمحاذاة العطيف وما قبله وما بعده. قال النابغة:

من وحش وَجْرَة موشّى أكارعه طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

وقال لبيد:

زَجَلاً كأنّ نِعاجَ تُوضِحَ فوقها وظبـــاءُ وَجْـــرَة عُطَّفاً آرامُها

أما شاعر الحكمة فهو زهير بن أبي سلمى، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني. وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، وقد اختلفوا في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه، وعندي أنهم سواء فلكل واحد منهم مزية ليست لصاحبيه.

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عن زهير بعضَ ولد هرم الذي أرسل له المدائح المدبجات: أنشدني بعض مدح زهير أباك، فأنشده. فقال: إنه كان ليحسن فيكم المدح. قال: ونحن والله كنا لنحسن له العطية. قال: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان لزهير أخلاق عالية، ونفس كبيرة، مع سعة صدر وحلم وشيمة، فرفع القوم منزلته وجعلوه سيداً، وكثر ماله واتسعت ثروته. وكان مع ذلك عريقاً في الشعر. قال ابن الأعرابي: لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره؛ كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وأخته الخنساء شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وابن ابنه المضرب بن كعب شاعراً.

وقد كان لشعره تأثير عظيم في نفوس العرب، فهو واسطة عقد الفحول من شعراء الطبقة الأولى، ومن حكيم شعره:

ولا تكثر على ذي الضغن عتباً ... ولا ذكر التجرّمِ للذنوبِ
ولا تسألْهُ عما سوف يُبدي ... ولا عن عيبِهِ لك في المغيبِ

وكان زهير شديد العناية بتنقيح شعره، حتى ضرب به المثل، وسميت قصائده بالحوليات، نسبة إلى الحول أي السنة، وذلك لأنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها بنفسه في أربعة أشهر، ويعرضها على أصحابه الشعراء في أربعة أشهر. فلا يشهرها حتى يأتي عليها حول كامل.

ويُذكر أنه في آخر حياته رأى في منامه أن سبباً ــ أي حبلاً ــ تَدَلّى من السماء إلى الأرض كأن الناس يمسكونه. وكلّما أراد أن يمسكه تقلّص عنه. فأوَّلَهُ بنبيٍّ آخر الزمان، فإنه واسطة بين الله وبين الناس، وأن حياته لن تصل إلى زمن مبعثه. فأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره.

أما معلقته فهي مَلِكَةُ شعره، وقد ظهرت فيها فحولته الشعرية كاسرة عين القصائد، ففيها الحكمة البالغة، والأخلاق الجميلة، والمعاني العالية،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بأسلوب بليغ، ولفظٍ جزْلٍ. وقد أنشأها يمدح بها الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرّيّين، ويذكر سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان وتحملهما الديات من أموالهما.

ثم إن ورد بن حابس العبسي كان قد قتل هرم بن ضمضم المرّي في حرب داحس والغبراء. فلما اصطلح الناس ووضعت الحرب أوزارها تخلّف حصين بن ضمضم أخو هرم عن الدخول فيما دخل فيه الناس. وحلف أن لا يغسل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلاً من بني عبس، ثم من بني غالب، ولم يطلع على ذلك أحد. ثم إن رجلاً من بني عبس أقبل حتى نزل بحصين بن ضمضم. فقال له: من أنت أيها الرجل؟ قال: عبسي. فقال: من أي عبس؟، فلم يزل ينتسب حتى انتسب إلى غالب، فقتله حصين غدراً. وبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان، فاشتد عليهما ذلك. وبلغ الأمر بني عبس فركبوا نحو الحارث، فلما بلغه ركوبهم إليه وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم وأنهم يريدون قتل الحارث. بعث إليهم بمئة من الإبل ومعها ابنه. وقال للرسول: قل لهم الإبل أحب إليكم، أم أنفسكم؟ فأقبل الرسول حتى قال لهم ذلك. فقال الربيع بن زياد: يا قوم، إن أخاكم قد أرسل إليكم يقول: الإبل أحب إليكم، أم ابنه تقتلونه مكان قتيلكم؟ فقالوا: بل نأخذ الإبل ونصالح قومنا. فجللهما زهير بطنافس وإستبرقات معلقته التي طارت بها الركائب بين الفدافد والوهاد، وحق لهما ولمن فعل فعلهما في إصلاح ذات البين أن يمدح، فلعمر الحق لقد صدق ونصح من مدح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مصلحي ذات البين. ولقد قال الله جل وعز: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ١].

وزهير بن أبي سلمى هو حكيم العشرة، وشعره نسيجٌ وَحْدَهُ، بل هو مدرسة مستقلّة أسسها قبله أستاذُهُ أوس بن حجر التميمي فنقّحها وهذبها وأقامها، كذلك كان متأثراً بخاله بَشَامة بن الغدير شاعر غطفان، ثم مشى على سَنَنِ مدرسته الشعريّة ابنه كعب بن زهير والحطيئة وآخرون، فقد تربّع زهير على ذُرى الشاعريّة، فاجتمعت الحكمة المُحنّكة مع السلاسة المشرقة إلى العاطفة الجيّاشة، حتى كان خليط ذلك منسوجة سندسية مذهّبة.

ومن معلقته الرائقة التي كان يتمثل بكثير منها المصلحون بين الفُرقاء، وأُم أوفى هي زوجته التي طلقها وندم على فراقها:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكلّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدّرَاجِ فالمُتَثَلَّمِ
دِيَارٌ لها بالرَّقْمَتَينِ كَأَنَّها ... مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلفَةً ... وَأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشرينَ حِجَّةً ... فَلأْيَاً عَرَفْتُ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
أَثَافِيَّ سُفْعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤياً كَجِذْمِ الحَوضِ لم يَتَثَلَّمِ
فَلَمّا عَرَفْتُ الدّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا ... أَلاَ انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ واسْلَمِ
تَبَصَّرْ خَليلي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بالعَلياءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ
جَعَلْنَ القَنَانَ عَنْ يَمينٍ وحَزْنَهُ ... وَكَمْ بالقَنانِ مِنْ مُحِلٍ وَمُحْرِمِ
عَلَوْنَ بِأَنْماطٍ عِتاقٍ وَكِلَّةٍ ... وِرَادٍ حَواشِيهَا مُشاكِهَةِ الدّمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبانِ ثمّ جَزَعْنَهُ ... عَلى كلِّ قَيني قَشيبٍ ومُفْأَمِ
وَوَرّكْنَ في السّوبانِ يَعلُونَ مَتْنَهُ ... عَلَيهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ المُتَنَعّمِ
بَكَرْنَ بُكُوراً واستَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فَهُنَّ وَوادي الرسِّ كاليَدِ للفَمِ
وَفيهِنَّ مَلْهىً لِلَّطيفِ وَمَنظَرٌ ... أَنيقٌ لِعَينْ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ
كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ
فَلَمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْنَ عِصيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ
تُذَكّرُني الأحلامَ لَيْلَى وَمَنْ تُطِفْ ... عَلَيْهِ خَيَالاتُ الأَحِبَّةِ يَحْلُمِ
يَميناً لَنِعْمَ السَّيدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحيلٍ وَمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُما عَبْساً وذُبْيَانَ بَعْدَما ... تَفَانَوْا وَدَقّوا بَيْنَهم عِطرَ مَنْشَمِ
وَقَد قُلتُما إنْ نُدرِكِ السّلمَ واسِعاً ... بِمَالٍ وَمَعْرُوْفٍ مِنَ الأمرِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْها على خَيرِ مَوْطِنٍ ... بَعيدَيْنِ فيها مِنْ عُقُوقٍ وَمَأثَمِ
عَظِيْمَينْ في عُليا مَعَدٍّ هُدِيْتُمَا ... وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنزاً مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ
وَأَصْبَحَ يُحْدَى فيهِمُ مِنْ تِلادِكُمْ ... مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إفالٍ مُزَنَّمِ
تُعَفّى الكُلُومُ بالمئينَ وَأَصْبَحَتْ ... يُنَجِّمُها مَنْ لَيْسَ فِيهَا بمُجْرِمِ
يُنَجِّمُها قَومٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةً ... وَلَمْ يُهْرِيقوا بَيْنَهُمْ مِلءَ مِحْجَمِ
أَلاَ أَبْلِغِ الأَحْلافَ عَنِّي رِسَالةً ... وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ
فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللَّهَ ما في صُدُورِكُمْ ... لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ الحِسابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ
وَمَا الحَرْبُ إلاّ ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بالحَديثِ المُرَجَّمِ
متى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوهَا ذَمِيْمَةً ... وَتَضْرَ إذا ضَرّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَتَعْـرِكُكُمْ عَـرْكَ الرَّحَـى بِثِفَالِهَـا ... وَتَلْقَـحْ كِـشَافاً ثُـمَّ تُنْـتَجْ فَتُتْـئِمِ
فَتُنْـتِجْ لَكُـمْ غِلْـمَانَ أَشْـأَمَ كَلُّهُـمْ ... كَـأَحْمَرِ عَـادٍ ثُـمَّ تُرْضِـعْ فَـتَفْطِمِ
فَتُغْلِـلْ لَكُـمْ مـا لا تُغِـلُّ لأَهْلِهَـا ... قُـرىً بِـالعِراقِ مِـنْ قَفِيْـزٍ وَدِرْهَـمِ
لَحَيٍّ حِلاَلٍ يَعْـصِمُ النّاسَ أَمْرُهُمْ ... إذا طَرَقَتْ إحدى اللّيالي بِمُعْظَمِ
كِـرامٍ فَـلا ذُو الـضِّغْنِ يُـدْرِكُ تَبْلَـهُ ... وَلاَ الجارِمُ الجَاني عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ
رعَوا ما رَعَوا مِنْ ظِمئِهِم ثُمَّ أَصْدَروا ... إلى كَـــلأٍ مُـــسْتَوبَلٍ مُتَـــوَخِّمِ
لَعَمْـري لَـنِعْمَ الحـيُّ جَـرَّ عَلَـيْهِمُ ... بِما لا يُؤاتِيهِمْ حُصَيْنُ بن ضَمْضَمِ
وكـانَ طَـوَى كَـشحاً عـلى مُـسْتَكِنَّةٍ ... فَـــلاَ أَبْـــدَاهَا وَلَمْ يَـــتَجَمْجَمِ
وَقَـالَ سَأَقـضِي حَـاجَتي ثُـمَّ أَتَقَّـي ... عَـدُوِّي بِـأَلْفٍ مِـنْ وَرائِـيَ مُلْجَـمِ
فَـــشَدَّ وَلَمْ يَنْظُـــرْ بُيُوتـــاً كَثِـــيرَةً ... لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ
لَدَى أَسَدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لَـــهُ لِبَـــدٌ أَظْفَـــارُهُ لَمْ تُقَلَّـــمِ
جَرِيءٍ مَتَى يُظْلَمْ يُعَاقِبْ بِظُلْمِهِ ... سَريعـاً وإلاّ يُبْـدَ بـالظُّلْمِ يَظْلِـمِ
لَعَمْرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ ... دَمَ ابـنِ نَهَيْـكٍ أَوْ قَتِيـلِ المُـثَلَّمِ
ولا شَارَكَتْ في الحَربِ في دَمِ نَوْفلٍ ... ولا وَهَـبٍ فيهـا ولا ابـنِ المُخَـزَّمِ
فَكُـلاً أَراهُـمْ أَصْـبَحُوا يَعْقِلُونَـهُ ... صَحِيحَاتِ مالٍ طَالِعاتٍ بِمَحْرِمِ
تُـسَاقُ إلى قَـومٍ لِقَـوْمٍ غَرَامَـةً ... عُلالَـةَ أَلْـفٍ بَعْـدَ أَلْـفٍ مُـصَتَّمِ
ومَـنْ يَعصِ أَطْرَافَ الزِّجاجِ فإنَّهُ ... يُطيعُ العَـوَالي رُكِّبَـتْ كُـلَّ لَهْـذَمِ
وَمَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُفْضِ قَلْبُه ... إلى مُطْمَـئِنِّ الـبِرِّ لا يَـتَجَمْجَمِ
وَمَـنْ هـابَ أَسـبابَ المَنايـا يَنَلْنَـهُ ... وَلَـو رَامَ أَسْـبَابَ الـسَّماءِ بِـسُلَّمِ
وَمَـنْ يَـكُ ذَا فَـضْلٍ فَيَبْخَـلْ بِفَـضلِهِ ... عـلى قَوْمِـهِ يُـسْتَغْنَ عَنْـهُ وَيُـذْمَمِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَمَنْ لا يَزَلْ يَسْتَرْحِلُ النّاسَ نَفْسَهُ ... وَلاَ يُعْفِهَا يوماً من الذُّلّ يَنْدَمِ
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوّاً صَدِيْقَهُ ... وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَه لا يُكَرَّمِ
وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظلِمِ النّاسَ يُظْلَمِ
وَمَنْ لَمْ يُصانِعْ في أُمُورٍ كَثيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ المَعروفَ في غَيرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امرِىءٍ مِنْ خَلِيْقَةٍ ... وإنْ خَالَهَا تَخْفَى على النَّاسِ تُعلَمِ
وكَائِنْ تَرَى مِنْ صامِتٍ لكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ
لِسانُ الفَتى نِصْفٌ وَنِصفٌ فُؤادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إلاّ صُورَةُ اللّحمِ والدّمِ
وَإنَّ سَفاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ ... وإنَّ الفَتى بَعْدَ السَّفاهَةِ يَحْلُمِ
سَئِمْتُ تَكَالِيْفَ الحَيَاةِ ومَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ
وأَعْلَمُ مَا في اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّني عَنْ عِلمِ ما في غَدٍ عَمِ
رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشواءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِىءْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ
سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمُوَ ... ومَنْ يُكْثِرِ التِّسْآلَ يَوماً سَيُحْرَمِ

وهي أول قصيدة مدح بها هرم بن سنان، ثم مدح هرمًا بقصائد كثيرة حتى حلف هرم ألا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عموا صباحًا غير هَرِم، وخيركم استثنيتُ.

وكان عمرو بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معجباً بشعر زهير، قال ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عليه ـ بناء على لسان بني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كعب بن ربيعة بن عامر، فقد كانوا يقولون: رضي الله عليك، فيُعدُّون الترضِّي بعلى خلاف الشائع بالعنعنة ـ في أول غزاة غزاها فقال لي: أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سلمى، قلت: وبم صار كذلك؟ قال: لا يتبع حوشي الكلام، ولا يُعاظل في المنطق، ولا يقول إلا ما يعرف، ولا يمتدح أحداً إلا بما فيه. وتابعه على التفضيل عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعبد الملك بن مروان، وآخرون، واتفقوا على أنّ زهيراً صاحب أمدح بيت، وأصدق بيت، وأبين بيت. فالأمدح قوله:

تــراهُ إذا مــا جئْتَــه مُــتَهَلِّلا كأنَّك تُعطيه الذي أنتَ سائلُهْ

والأصدق قوله:

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ وإنْ تَخْفَــى عــلى النــاس تُعْلَــمِ

وأما ما هو أبين فقوله يرسم حدود الحق، ويعرف هذا القضاةُ، وتأمله كيف أجاد الحزّ، وطَبَّقَ المفصل:

فــإنّ الحــقّ مقطعُــه ثــلاثٌ يمــينٌ أو نفــارُ أو جــلاءُ

ولئن أخصب زهير بمدائحه لقد خاب أبو الشمقمق البصري من جوائز المُمَدَّحِين ـ ولعل الله ادّخر له خيراً في الآخرة ـ ذاك أنه كان دميماً سليط اللسان شديد الهجاء فتحاماه الناس وازورّوا عنه، فلم يفتحوا له أبوابهم ونواديهم إلا القليل الذي لا يغني. وقد كان مع حاله المزري شاعرًا شعبياً سهل المآخذ بديع التصاوير طريف التشبيهات، فمن ذلك قوله في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بخيل هجاه:

كَفَّــاهُ قفــلٌ ضــاع مفتاحــه ... قــد يــئس الحــدَّادُ مــن فتحــه

وقال في آخر وهجاه واصفاً إياه بالثقل:

أسْــمَجَ النــاس كلِّهِــمُ ... كــذُبابٍ ســاقطٍ في مَرَقَــة

ويروى أن بعض إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله، فأراد تسليته والتخفيف عليه فقال: أبْشِرْ أبا الشمقمق، فإن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة. فقال ضاحكاً: إن كان حقاً ما تقول، لأكونَنَّ بَزَّازاً يوم القيامة! ثم أنشأ يقول:

أنــا في حــال تعــالى الله ... ربِّي أيَّ حــالِ

لــيس لي شيء إذا قيــل ... لمــن ذا قلــت ذا لي

ولقــد أُهزلــتُ حتــى ... مَحَــتِ الــشمس خيــالي

ولقــد أفلــستُ حتــى ... حَــلَّ أكــلي لعيــالي!

وهذا من طرافته وخِفَّة ظِلِّهِ، وقال واصفاً حال عياله وصراعهم مع الجوع:

فلــو رأوا خُبــزاً عــلى شــاهقٍ ... لأسرعــوا للخبــز بــالجَمْزِ

ولــو أطــاقوا القفــز مــا فــاتهم ... وكيــف للجــائع بــالقفز؟

وقال واصفاً هروب السِّنَّوْرِ ـ وهو القط ـ من منزله إذ لم يجد ما يأكله:

وأقــام الــسِّنَّوْرُ فيــه بــشرٍّ ... يــسأل الله ذا العُــلا والجلالــة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يـرى فـأرةً فلـم يـر شـيئاً ... ناكـساً رأسـه لطـول الملالـة
قلـت صـبراً أيـا رأس الـسنانير ... وعلَّلْتَـــهُ بحـــسن المقالـــة
قـال لا صـبر لي وكيـف مقـامي ... في قفـــارٍ كمثـــل بِيْـــدِ تَـــبَالَة
ثـــم ولّى كأنـــه شـــيخ ســـوء ... أخرجـوه مـن محـبسٍ بكفالـة

أمـا لبيـد العـامري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فهـو الـشاعر المحكّـك والفحـل المفلّـق، والسيل المنحدر، وهو القائل:

فـاقنع بـما قَـسَمَ المليـكُ فـإنّما ... قَـسَمَ الخلائـق بيننـا عَلَّامُهَـا
وإذا الأمانـة قُـسِّمَتْ في معـشرٍ ... أوفى بـأعظمِ حَظِّنـا قُـسَّامُهَا

وقد كان أول أمره أن وفد عمه أبو براء ــ ملاعب الأسنة ــ وإخوته طفيل ومعاوية وعبيدة، ومعهم لبيد وهو غلام على النعمان بن المنذر، فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي، وكان الربيع ينادم النعمان مع رجل من أهل الشام تاجر، يقال له سرجون بن نوفل يبايعه، وكان أديباً حسن الحديث والمنادمة، فاستخفّه النعمان، وكان إذا أراد أن يخلو على شرابه بعث إليه وإلى النطاسي ــ متطبب كان له ــ وإلى الربيع بن زياد، وكان يدعى الكامل. فلما قدم الجعفريون كانوا يحضرون النعمان لحاجتهم، فإذا خلا الربيع بالنعمان طعن فيهم، وذكر معايبهم، ففعل ذلك بهم مراراً، وكانت بنو جعفر ـ قوم لبيد ــ له أعداء فصدّه عنهم، فدخلوا عليه يوماً فرأوا منه تغيراً وجفاء، وقد كان يكرمهم قبل ذلك ويقرب مجلسهم، فخرجوا من عنده غضاباً، ولبيد في رحالهم يحفظ أمتعتهم، ويغدو بإبلهم كل صباح فيرعاها،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإذا أمسى انصرف بإبلهم، فأتاهم ذات ليلة فألفاهم يتذاكرون أمر الربيع وما يلقون منه؛ فسألهم فكتموه، فقال لهم: والله لا أحفظ لكم متاعاً، ولا أسرح لكم بعيراً أو تخبروني. وكانت أم لبيد امرأة من بني عبس، وكانت يتيمة في حجر الربيع، فقالوا: خالك قد غلبنا على الملك وصدَّ عنّا وجهه، فقال لهم لبيد: هل تقدرون على أن تجمعوا بينه وبيني فأزجره عنكم بقول مُمِضٍّ، ثم لا يلتف النعمان إليه بعده أبداً. فقالوا: وهل عندك من ذلك شيء؟ قال: نعم، قالوا: فإنا نبلوك بشتم هذه البقلة ــ لبقلة قدّامهم دقيقة القضبان قليلة الورق لاصقة فروعها بالأرض، تدعى التربة ــ فقال على البديهة: هذه التربة التي لا تُذكي ناراً، ولا تؤهل داراً، ولا تسر جاراً، عودها ضئيل، وفرعها كليل، وخيرها قليل، بلدها شاسع، ونبتها خاشع، وآكلها جائع، والمقيم عليها ضائع، أقصر البقول فرعاً، وأخبثها مرعى، وأشدها قلعاً، فتعساً لها وجدعاً، ألقوا بي أخا بني عبس، أرجعه عنكم بتعس ونكس، وأتركه من أمره في لبس. فقالوا: نصبح فنرى فيك رأينا.

فقال لهم عمه عامر بن مالك: انظروا غلامكم؛ فإن رأيتموه نائماً فليس أمره بشيء وإنما يتكلم بما جاء على لسانه، ويهذي بما يهجس في خاطره، وإذا رأيتموه ساهراً فهو صاحبكم. فرمقوه بأبصارهم، فوجدوه قد ركب رحلاً فهو يكدم بأوسطه حتى أصبح. فلما اصبحوا قالوا: أنت والله صاحبنا، فحلقوا رأسه، وتركوا ذؤابتين، وألبسوه حُلَّةً، ثم غدوا به معهم على النعمان، فوجدوه يتغذى ومعه الربيع وهما يأكلان وليس معه غيره، والدار

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمجالس مملوءة من الوفود.

فلما فرغ من الغداء أذن للجعفريين فدخلوا عليه، وقد كان تقارب أمرهم، فذكروا للنعمان الذي قدموا له من حاجتهم، فاعترض الربيع في كلامهم، فقام لبيد يرتجز، ويقول:

أكل يوم هامتي مقزّعة ... يا رُبّ هيجاً هي خير من دعة
ومن خيارِ عامر بن صعصعة ... نحن بنو أم البنين الأربعة
والضاربون الهام تحت الخيضعة ... المطعمون الجفنة المدعدعة
إليك جاوزنا بلاداً مَسْبَعَة ... يا واهب الخير الكثير من سعة
يخبر عن هذا خبيرٌ فاسمعه ... مهلاً أبيتَ اللعن لا تأكلْ معه
إن استه من بَرَصٍ مُلَمّعَة ... وإنه يُدخل فيها إصبعه
كأنّما يطلب شيئاً أطعمه ... يُدخلها حتى يواري أشجعه

فلما فرغ من إنشاده التفت النعمان إلى الربيع شزراً يرمقه، فقال: أكذا أنت؟ قال: لا والله، لقد كذب علي ابن الحمق اللئيم! فقال النعمان: أُفّ لهذا الغلام، لقد خبث علي طعامي. فقال: أبيتَ اللعن، أما إني قد فعلت بأمه. فقال لبيد: أنت لهذا الكلام أهل، وهي من نساء غير فُعْلٍ، وأنت المرءُ فعل هذا بيتيمةٍ في حجره. فأمر النعمان ببني جعفر فأخرجوا.

وقام الربيع فانصرف إلى منزله، فبعث إليه النعمان بضعف ما كان يحبوه به، وأمره بالانصراف إلى أهله. وكتب إليه الربيع: إني قد تخوّفت أن يكون قد وقر في صدرك ما قاله لبيد، ولست برائمٍ حتى تبعث من يجردني فيعلم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من حضرك من الناس أني لست كما قال. فأرسل إليه: إنك لست صانعاً بانتفائك مما قال لبيد شيئاً، ولا قادراً على ما زلّت به الألسن، فالحق بأهلك. فانظر كيف انتصر؟!

ومن معلقته الفريدة العتيقة:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها ... بِمنىً تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهَا

فَمَدَافِعُ الرّيّانِ عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقاً كما ضمِنَ الوُحِيَّ سِلاَمُهَا

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِها ... حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلاَلُها وَحَرامُهَا

رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النّجومِ وَصَابَها ... وَدْقُ الرّواعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُها

مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ ... وَعَشِيّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا

فَعَلا فُرُوعَ الأَيْهُقانِ وَأَطْفَلَتْ ... بِالجَلْهَتَينِ ظِبَاؤُها وَنَعَامُهَا

وَالعِينُ سَاكِنَةٌ على أطلائِها ... عُوذاً تَأَجَّلُ بالفَضاءِ بِهَامُهَا

وَجَلاَ السّيولُ عَنِ الطّلُولِ كَأَنّها ... زُبُرٌ تُجِدّ مُتُونَها أَقْلامُهَا

أَوْ رَجْعُ واشِمَةٍ أُسِفَّ نؤورُها ... كِفَفاً تَعَرّض فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيفَ سُؤَالُنا ... صُمّاً خَوَالِدَ ما يَبِينُ كَلامُهَا

عَرِيَتْ وكَانَ بِهَا الجَمِيعُ فأَبْكَرُوا ... مِنْهَا وغُودِرَ نُؤْيُها وثُمَامُهَا

شَاقَتْكَ ظُعْنُ الحَيّ حِينَ تَحَمّلوا ... فَتَكَنّسُوا قُطُناً تَصِرّ خِيَامُها

مِنْ كُلّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ ... زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلّةٌ وَقِرَامُهَا

زَجَلاً كأَنّ نِعاجَ تُوضحَ فَوْقَهَا ... وَظِبَاءَ وَجْرَةَ عُطَّفاً آرامُهَا

حُفِزَتْ وَزَايَلَها السّرَابُ كَأَنّها ... أَجْزَاعُ بِيشَةَ أَثْلُها وَرِضامُهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بَلْ مَا تَذَكّرُ مِنْ نَوَارَ وَقَدْ نَأَتْ ... وَتَقطّعَتْ أَسْبابُهَا وَرِمَامُهَا
مُرِّيّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدَ وَجَاوَرَتْ ... أَهْلَ الحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا
فاقطَعْ لُبانَةَ مَنْ تَعَرّض وَصْلُهُ ... وَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلّةٍ صَرَّامُهَا
واحْبُ المُجَامِلَ بِالجَزِيلِ وَصَرْمُهُ ... بَاقٍ إذا ظَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا
بِطَلِيحِ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيّةً ... منها وأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا
فإذا تَغَالَى لَحْمُهَا وَتَحَسَّرَتْ ... وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ الكَلاَلِ خِدَامُهَا
فَلَهَا هِبَابٌ فِي الزِّمَامِ كَأَنّهَا ... صَهْبَاءُ مَعَ الجَنُوبِ جَهَامُهَا
أَوْ مَلمِعٌ وَسَقَتْ لأَحْقَبَ لاَحَه ... طَرْدُ الفُحُولِ وَضرْبُهَا وَكِدَامُهَا
يَعْلُو بها حُدْبَ الإِكَامِ مُسَحَّجٌ ... قَدْ رَابَهُ عِصْيَانُهَا وَوِحَامُهَا
بِأَحِزَّةِ الثَّلْبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَهَا ... قَفْرَ المَرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا
حَتى إذا سَلَخَا جُمَادَى سِتّةً ... جَزْءاً فَطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا
رَجَعَا بِأَمْرِهِما إلى ذي مِرَّةٍ ... حَصِدٍ وَنُجْحُ صَرِيمَةٍ إبرامُهَا
وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّفَا وَتَهَيّجَتْ ... رِيحُ المَصايِفِ سَوْمُهَا وَسِهَامُهَا
فَتَنَازَعَا سَبِطاً يَطِيرُ ظِلاَلُهُ ... كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبّ ضِرَامُهَا
مَشْمُولَةٍ غُلِثَتْ بِنَابِتِ عَرْفَجٍ ... كَدُخَانِ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا
فَمَضى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً ... مِنْهُ إذا هِيَ عَرَّدَتْ إقْدَامُهَا
فَتَوسطَا عُرْضَ السَّرِيّ وَصَدَّعَا ... مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلاّمُهَا
مَحْفُوفَةً وَسْطَ اليَرَاعِ يُظِلُّهَا ... مِنْهَا مُصَرَّعُ غَابَةٍ وَقِيامُهَا
أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيّةٌ مَسْبُوعَةٌ ... خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصّوَارِ قِوَامُهَا
خَنْسَاءُ ضَيّعَتِ الفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ ... عُرْضَ الشّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لِمُعَفَّـــرٍ قَهْـــدٍ تَنَـــازَعَ شِـــلْوَهُ ... غُبْسٌ كَوَاسِبُ مَا يُمَـنّ طَعَامُهَا
صَـادَفْنَ مِنْهَـا غِـرّةً فَأَصَـبْنَهَا ... إنّ المَنَايـا لا تَطِـيشُ سِـهَامُهَا
بَاتَتْ وَأَسْبَلَ وَاكِفٌ مِن دِيمَةٍ ... يُـرَوي الخَمَائِلَ دَائِماً تَسْجَامُهَا
تَجْتَـافُ أَصْـلاً قَالِـصاً مُتَنَبِّـذاً ... بِعُجُـوبِ أَنقـاءٍ يَمِيـلُ هُيَامُهَـا
يَعْلُـو طَرِيقَـةَ مَتْنِهـا مُـواتِراً ... فِي لَيْلَـةٍ كَفَـرَ النّجُـومَ غَمَامُهَـا
وَتُـضِيءُ فِي وَجْـهِ الظّـلامِ مُنِـيرَةً ... كَجُمَانَـةِ البَحْـرِيّ سُـلَّ نِظَامُهَـا
حَتى إذا انْحَسَرَ الظّلامُ وَأَسْفَرَتْ ... بَكَـرَتْ تَـزِلُّ عَـنِ الثَّـرَى أَزْلاَمُهَـا
عَلِهَـتْ تَبَلَّـدُ فِي نِهـاءِ صَـعَائِدٍ ... سَـبْعاً تُؤامـاً كَـاملاً أَيّامُهَـا
حتَى إذا يَئِسَتْ وأَسْحَقَ حَـالِقٌ ... لَمْ يُبْلِـهِ إرْضَـاعُها وَفِطَامُهَـا
وَتَـسَمْعَتْ رِزَّ الأَنِـيسِ فَرَاعَهـا ... عَنْ ظَهْرِ غَيبٍ والأَنيسُ سَقَامُهَا
فَعَدَتْ كِلا الفَرجَينِ تَحْسِبُ أَنّه ... مَـوْلى المَخَافَـةِ خَلْفُهـا وَأَمَامُهَـا
حَتـى إذا يَـئِسَ الرّمَـاةُ وأَرْسَـلُوا ... غُـضفاً دَوَاجِـنَ قَـافِلاً أَعْـصَامُهَا
فَلَحِقْـنَ واعْتَكَـرَتْ لَهـا مَدَرِيّـةٌ ... كالـسَّمْهَرِيّةِ حَـدُّها وَتَمَامُهَـا
لِتَـذُودَهُنّ وَأَيقَنَـتْ إنْ لَمْ تَـذُدْ ... أَنْ قَـدْ أُحَـمَّ مَعَ الحُتُوفِ حِمَامُهَا
فَتَقَصّدَتْ منها كَسابِ فضرِّجتْ ... بِـدَمٍ وَغُـودِرَ فِي المَكَـرّ سُـخَامُهَا
فَبِتِلكَ إذْ رَقَصَ اللّوامِعُ بِالضّحى ... وَاجْتَـابَ أَرْديَـةَ الـسّرابِ إكامُهَـا
أَقْـضِي اللُّبانَـةَ لا أُفَـرّطُ رِيبَـةً ... أَوْ أَنْ يَلُـومَ بِحَاجَـةٍ لُوّامُهَـا
أَوَلَمْ تَكُـنْ تَـدري نَـوارُ بِـأَنّني ... وَصّـالُ عَقْـدِ حَبَائِـلٍ جَـذّامُهَا
تَـرّاكُ أَمكِنَـةٍ إذا لَمْ أَرْضِـها ... أَو يَـرْتَبِطْ بَعْـضَ النّفوسِ حِمَامُهَا
لْأَنْـتِ لاَ تَـدْرِينَ كَـمْ مِـنْ لَيْلَـةٍ ... طَلْـقٍ لَذِيـذٍ لَهْوهَـا وَنِـدَامُهَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَـدْ بِـتُّ سَـامِرَها وغَايَـةَ تَـاجِرٍ ... وَافَيْـتُ إذ رُفِعَـتْ وَعـزّ مُـدَامُهَا
وَغَـدَاةِ رِيـحٍ قَـدْ وَزَعـتُ وَقِـرّةٍ ... إذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمالِ زِمَامُهَا
وَلَقَدْ حَمَيتُ الخَيْلَ تَحْمِلُ شِكّتي ... فُرْطٌ وِشاحي إذ غَدَوْتُ لِجَامُهَا
فَعَلَـوْتُ مُرْتَقِبـاً عـلى ذي هَبْـوَةٍ ... حَـــرِجٍ إلى أَعلامِهِـــنّ قَتَامُهَـــا
حَتـى إذا أَلْقَـتْ يَـداً في كَـافِرٍ ... وَأَجَـنَّ عَـوْرَاتِ الثّغُـورِ ظَلامُهَـا
أَسْهَلْتُ وانْتَصَبَتْ كَجِذْعِ مُنِيفَةٍ ... جَـرْدَاءَ يَحْـصَرُ دُونَهَـا جُرّامُهَـا
رَفَّعْتُهَـا طَـرَدَ النَعـامِ وَفَوْقَـهُ ... حَتّى إذا سَخِنَتْ وَخَفّ عِظَامُهَا
قَلِقَـتْ رِحَالَتُهـا وَأَسْـبَلَ نَحْرُهـا ... وابْتَـلّ مِـنْ زَبَـدِ الحَمِيمِ حِزَامُهَا
تَرْقَى وَتَطْعَنُ في العِنَانِ وَتَنْتَحي ... وِرْدَ الحِمَامَـةِ إذْ أَجَـدَّ حَمَامُهَـا
وَكَثِـيرَةٍ غُرْبَاؤهَـا مَجْهُولَـةٍ ... تُرْجَـى نَوَافِلُهـا وَيُخْـشَى ذَامُهَـا
غُلْـبٌ تَـشَذَّرُ بالـذُّحُولِ كَأَنَّهـا ... جِـنُّ البَـدِيّ رَوَاسِـياً أَقْـدَامُهَا
أَنْكَـرْتُ بَاطِلَهـا وبُـؤتُ بِحَقّهـا ... يَومـاً ولم يَفْخَـرْ عَـلَيّ كِرَامُهَـا
وَجَـزُورِ أَيْـسَارٍ دَعَـوْتُ لَحَتْفِهـا ... بِمَغَـالِقٍ مُتَـشَابِهٍ أَعْلاَمُهَـا
أَدْعُـو بِهِـنَّ لِعَـاقِرٍ أَوْ مُطفِـلٍ ... بُـذِلَتْ لِجِـيرانِ الجَمِيعِ لِحَامُهَـا
فالـضّيفُ والجارُ الغَرِيبُ كأنما ... هَبَطـا تَبَالَـةَ مُخْـصِباً أَهْـضَامُهَا
آوَى إلى الأَطنَـابِ كُـلُّ رَذِيّـةٍ ... مِثْـلِ البَلِيّـةِ قَـالِصٍ أَهْـدَامُهَا
وَيُكَلِّلُـونَ إذا الريـاحُ تَنَاوَحَـتْ ... خُلُجـاً تُمَـدّ شَـوَارِعاً أَيْتَامُهَـا
إنَّـا إذا التْقَـتِ المَجَـامِعُ لَمْ يَـزَلْ ... مِنّـا لِـزَازُ عَظِيمَـةٍ جَـشّامُهَا
وَمُقَـسِّمٌ يُعْطِـي العَـشِيرةَ حَقَّهـا ... وَمُغَـذْمِرٌ لِحُقُوقِهـا هَـضَّامُهَا
فَضلاً وذو كَرَمٍ يُعِينُ على النّدى ... سَـمْحٌ كَـسُوبُ رَغائـبٍ غَنّامُهَـا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِـنْ مَعـشَرٍ سَـنَّتْ لَهُـمْ آبـاؤُهُمْ ... ولِكُـلِّ قَـوْمٍ سُـنّةٌ وَإِمَامُهَـا
إنْ يَفْزَعُـوا تُلْـقَ المَغَـافِرُ عِنْـدَهُم ... والـسِّنُّ تَلْمَـعُ كَالكَواكـبِ لاَمُهَا
لا يَطبَعُـونَ ولا يَبُـورُ فِعَـالُهُمْ ... إذْ لاَ تَمِيـلُ مـعَ الهَـوَى أَحْلاَمُهَـا
فَبَنَـوْا لَنـا بَيتـاً رَفيعـاً سَـمْكُهُ ... فَـسَمَا إِلَيـهِ كَهْلُهـا وغُلامُهَـا
فـاقنَعْ بِـمَا قَـسَمَ المَلِيـكُ فـإنّما ... قَـسَمَ الخَلاَئِـقَ بَيْنَنـا عَلاّمُهَـا
وإذا الأمانَـةُ قُـسّمتْ في مَعْـشَرٍ ... أَوْفَى بِـأَعْظَمِ حَظِّنـا قَـسَّامُهَا
فَهُـمُ السُّعاةُ إذا العَشيرَةُ أُفظِعَتْ ... وَهُـمُ فَوارِسُـها وَهُـمْ حُكّامُهَـا
وهُـمُ رَبِيـعٌ للمُجـاوِرِ فـيهِمُ ... والمُـرْمِلاتِ إذا تَطَـاوَلَ عَامُهَـا
وَهُـمُ العَشِيرَةُ أَنْ يُبَطَّـىء حاسِدٌ ... أَوْ أَنْ يَمِيـلَ مَـعَ العَـدُوِّ لِئَامُهَـا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٣

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا...

وصلنا جَبَلَة وتنقّلنا بين هضابها ووهادها وطلحها ونقاها، ونحن نتأمل عظيم خلق الله وجميل صنعه وإبداعه، ثم نتذاكر شهودها لحال العرب الأقدمين وأيامهم وأحوالهم منذ التاريخ الغابر البعيد، وإيمان من آمن منهم وكفر من كفر، ومثُلات الجبار بهم وإنعامه وإمهاله، ثم تفرقهم وحروبهم وأكل بعضهم بعضاً، ثم رحمة الله ببعثة سيد الأولين والآخرين عليه الصلاة والسلام وإتمام نعمته بالإسلام المُرتَضى الكامل، وإنزال القرآن الكريم وما فيه من صراط السعادة بتفاصيلها، وسبيل الفلاح بحذافيره.

ثم تأملنا دِقَّةَ العرب في لغتهم وأصواتهم وتسمياتهم، فترى الشِّعب أو الجبل أو الهضبة بل حتى الأدوات والأواني والبهائم لمسماها علاقة بمبناها وحقيقتها صوتاً أو شكلاً أو غاية ونحو ذلك، فلم تغب عنهم حتى الأمور الصغيرة فسمّوها بسجيّتهم وطبيعتهم اتفاقاً وتعاوراً دون اجتماع وتشاور، ومن أمثلة الأمور الدقيقة على سبيل المثال تسميتهم أسنان الإنسان الاثنين والثلاثين، فهي عندهم كالتالي: فالأسنان أربع ثنايا، وأربع رباعيات، وأربعة أنياب، وأربعة ضواحك، واثنتا عشرة رحى، ثلاثٌ في كل شقٍّ، وأربعة نواجذ، وهي أقصاها. والناجذ: ضرس الحلم، ومنه أخذ رجلٌ منجذٌ إذا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أحكم الأمور. فخذ هذا مثالاً وقس عليه، وفي ضبطه تسهيل لكثير من أمور اللغة، هذا في الشكل والآلة أما الأصوات فأكثر وأبدع، خذ مثلاً كلمة جَرّ، كيف اشتقّوها من صوتها جرر، كذلك خرير وهديل وهواء وصهيل ونهيق وعواء..وبالاعتبار يكون الاستبصار.

ثم ختمنا الرحلة بهضبتَي الدّخول وحومل وما حولهما من جبال وهضاب حمر شامخة راسخة، نزلناها ثم أطلقنا عنان المشي على الأقدام حتى رقينا طرفاً من هضبة حومل وبها نقرةٌ فيها ماءٌ كالزجاج الأزرق على إثْرِ سماءِ البارحة، كأنّما وَصَفَها لبيدٌ إذ يقول:

مـن كـل سـاريةٍ وغـادٍ مُـدْجِنٍ وَعَـشِيَّةٍ مُتَجَـاوِبٍ إِرْزَامُهَـا

ونحن نتأمل حال الملك الضليل وديارِه وغدير بناته، والدَّار لو كَلَّمْتنا ذاتُ أخبارِ! وعلى مدِّ البصر كثبانٌ كأنها كافور منثور، ودونها روضة كثوبٍ موشّى بألوان النواوير، بأرج رياحين الزهور، وقد توسطها غدير كعين الشمس ترقرقت فيه دموع السحائب. وتذكرت قول يونس الرصافي:

وكـأنّ سوسَـنَهُ مـداهن فـضّةٍ تحـوي خلوقـاً بـالعبير مُطيّبـا
وتخـال نرجـسه بهـا تِـبْراً عـلى قـضب الزمـردِ حـين قـام مركّبـا
وكـأن أعينـه عيـون خرائـدٍ قـد أبـصرت يـوم النـدى مترقّبـا
والـورد تحـسبه خـدود كواعـبٍ كـادت مـن التوريـد أن تتلهّبـا
وكـأنما الخـيري خـدٌّ عـضَّهُ لَحْـظُ الحبيـبِ صـبابةً وتحبّبـا

كذلك أبيات لحاجب أبي الحسن جعفر المصحفي وفيها تشبيهات عذبةٌ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رائقة:

انظر إلى الروض الأريض تخاله ... كالوشي نمق أحسن التنميقِ
وكأنما السوسان صبٌّ مدنف ... لعبت يداه بجيبه المشقوقِ
يوم الوداع ومزقت أثوابه ... جزعاً عليه أيّما تمزيقِ
والنرجس الغض الذكي محاجر ... تعبت من التسهيد والتأريقِ
يحكي لنا لون المحب بلونه ... وإذا تنسّم نكهة المعشوقِ
وكأن دائرة الحديقة عندما ... جاد الغمام لها برشف الريقِ
فَلَكٌ من الياقوت يسطع نوره ... فيه كواكب جوهر وعقيقِ

ثم قال صاحبي: يا رفيقي ما ترى في التربيعات والشعر العمودي؟ قلت: لئن كانوا يقولون: الرجز حمار الشعر، فالتربيعات بغلته، فهي أهون الشعر وليس فيها كبير مشقة، أما الشعر العمودي الحر فهو لِفِرَاشِ النثر أما نسبته للشعر فأشبه به السفاح! لأنه يولد على فراش النثر فلا وزن له ولا قافية، إنما هو السجع بعد الجُمَلِ، وهذا نثر محض حتى وإن كتبوه عمودياً فلا يغير من حاله شيئاً، وإني لست ضدّه من حيث الفن، فهو لطيف المأخذ والمسمع، وله رواده ومتذوقته، لكن يعزّ علي أن ينسب للشعر ما ليس منه، وهو ذريعة لهدم الأوزان والقوافي. ومن التربيعات قولي:

يا صاح ما هذا حسنْ ... تروي الصبابة بالعفنْ
ما هكذا يُرقى الشَّجنْ ... تُطفي اللظى زعموا بفنْ
يا صاح هذا الصبح لاحْ ... قم للمعالي وللفلاحْ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واغنم سويعات الصباحْ ... فالرزق يا هذا حَزَنْ
أَتُراكَ من عُشاقها ... أعني الدُّنا وفُتاتَها
ما بالهُم عُشَّاقها ... جزعوا إذا حُطَّ الكَفَنْ
إنّي أرى الدنيا صغيرةْ ... وهُنيهاتٍ يسيرةْ
ونهاياتٍ مريرةْ ... فاغتنمها قبل أنْ!
قبل أن تسكُنَ لحْدَكْ ... وتوارى فيه وحدكْ
فاغتنم يا صاحِ عمركْ ... آه ما أدهى الفتنْ!
يا بن الجزيرة مالكا؟ ... أفخفتهم عُذَّالكا؟
أفرحتهم حُسَّادكا ... أذهبت من عيني الوسنْ
أنسيته الجبَّارا؟ ... أوَقَدْ أَمِنتَ النَّارا؟
أوَما تخافُ العارا؟ ... عُد يا حبيبي قبل أن!

ثم قلت: هات من عندياتك أشعاراً وأخباراً مقولة أو منقولة: قال: على الرَّحب يا رحيب، فمن ذلك قول البحتري:

إذا ارتفق المشتاقُ كان سهادُهُ ... أحقّ بجفني عينِه من هجوعهِ

ولتميم بن المعز، وهذا أحلى أبياته وقد وقع فيه على فتحة القلب:

في وجهه شافعٌ يمحو إساءته ... من القلوب وجيهٌ حيثما شفعا

وتشبيبُ ذي الرمّة:

تزدادُ في العينِ إبهاجاً إذا سَفَرَتْ ... وتَخْرَجُ العينُ فيها حين تنتقبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولأبي الشيص الخزاعي:

دمـــوع العاشـــقين إذا تلاقـــوا بظهـــر الغيـــب ألـــسنة القلـــوبِ

وقال كشاجم في خيال عجيب:

أيـــا نـــشوان مـــن خمـــرٍ بفيـــهِ متى تـصحو وريقـك خنـدريسُ
أرى بـــك مـــا أراه بـــذي انتـــشاء ألـــحّ عليـــه بالكـــأس الجلـــيسُ
تـــورد وجْنَـــةٍ وفتـــور لحْـــظٍ تُمرّضـــــه وأطـــــراف تمـــــيسُ

ولعباس بن مرداس في الجسارة وهو من أشجع الأبيات قاطبة ولا يستحقه إلا من توقّد في عينيه احمرار الشجاعة:

أكـــرّ عـــلى الكتيبـــة لا أُبـــالي أحتفـــي كـــان فيهـــا أم ســـواها

وللطُّغْرَائي وفيه رقَّةٌ ذائبة:

إني لأذكـــركم وقـــد بلـــغ الظـــما منـــي فـــأشرقُ بـــالزلال البـــاردِ

ولصقر قريش عبد الرحمن الداخل الأُموي في تشبيه رائق ومعنىً بديع:

أيهـــا الراكـــب المـــيمّم أرضي أقري السلام من بعضي لبعضي
فـإن جـسمي كـما تـراه بـأرضٍ وفـــؤادي ومالكيـــه بـــأرضٍ

ولحافظ إبراهيم من قصيدته الماتعة العمرية وبيت قصيدته:

قد كنتَ أعدى أعاديها فصرت لها بفضل ربك حصناً من أعاديها

ولمعن بن أوس في جزالة فاخرة، وعزّةٍ باذخة:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي الناس إن رثّتْ حبالُك واصلٌ ... وفي الأرض عن دار القلى متحوّلُ
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقلُ
ويركب حدّ السيف من أن تضيمُه ... إذا لم عن شفرة السيف مَزحلُ
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... عليه بوجهٍ آخر الدهر تقبلُ

وللجُرْهُمي في رثاء قومه الذين طُرِدُوا من أقدس بقعة بعد أن أخرجتهم خزاعة وحق لمن أخرج منها أن يبكيها «**ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجتُ**»:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسمُرْ بمكَّةَ سَامِرُ
وأبدلنا ربّي بها دار غُرْبةٍ ... بها الذئبُ يعوي والعدوُّ المحاصرُ

وقال الإمام الشافعي أو الخواص:

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجبْهُ ... فخيرٌ من إجابتِه السكوتُ
سَكَتُّ عن السفيهِ فظنَّ أني ... عييت الجوابِ وما عييتُ
فإن كَلَّمْتهُ فَرَّجْتَ عنه ... وإن خليته كمداً يموتُ

وللمتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ ... أدنى إلى شرف من الإنسانِ
ولربّما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقرانِ

ولزهير:

وذي خطل في القول يحسب انه ... مصيب فما يُلممْ به فهو قائلُه
عَبَأتُ له حلماً وأكرمتُ غيره ... وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتلُه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولله من قال:

سأترك ماءكم من غير وِرْدٍ ... وذاك لكثرة الورّاد فيهِ
اذا سقط الذبابُ على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلاب ولغن فيهِ

وللميداني في تشبيه أليم:

تنفّسَ صبحُ الشيب في ليل عارضي ... فقلت عساه يكتفي بعذاري
فلما فشا عاتبته فأجابني ... ألا هل يُرى صبحٌ بغير نهارِ

ولكعب الطائي:

يُبَيِّنُ طرْفانا الذي في نفوسنا ... إذا استعجمت بالمنطق الشفتانِ

وقال أبو تمام الطائي في تشبيهٍ أخّاذ للدِّيَم:

كأن الغمام الغر غَيَّبْنَ تحتها ... حبيباً فما ترقى لهن مدامعُ

أما الهجَّاءُ الحطيئةُ فله بيتين صالحين ذائعين على ألسنة الوعَّاظ، ولا يَدرِي الأكثرون أنهما له وهما:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ... ولكن التقيّ هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيدُ

وقال أبو عمرو بن العلاء: أصدق بيت قالته العرب بيت الحطيئة:

من يفعل الخيرَ لا يُعدم جوازيَهُ ... لا يذهبُ العرف بين الله والناسِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الحطيئةُ مفتخراً بالثبات عند الفزع والفرح والشهوة:

وإن جيـاد الخيـل لا تـستفزّنا ولا واضعات العاج فوق المعاصمِ

ومعنى لا تستفزنا أي لا تخرجنا عن طورنا ورزانتنا.

وللرائع جرير:

يكلفنـي رد العواقـب بعـدما سبقن كسبق السيف ما قال عاذلُهُ

ولامرئ القيس الكندي في ألم وشدة ضنى:

فلـو أنهـا نفـس تمـوت سـويةً ولكنهـا نفـسٌ تُـساقطُ أنفـساً

وللحصين بن الحمام وقد بين حدبه على من حاربهم من قومهم وتأمل إنصافه:

يفلّقـن هامـاً مـن رجـال أعـزَّةٍ علينـا وهـم كـانوا أعـقّ وأظلـما
نحـاربهم نـستودع البيض هـامهم ويـستودعونا الـسمهريّ المقوّمـا
ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكـن عـلى أقـدامنا تُقطـرُ الـدِّما

ولحسان في قومه الأنصار الغطاريف في تشبيه حسن:

يتطهـرون كأنـه نـسك لهـم بـدماء مـن علقـوا مـن الكفـارِ
ورثـوا الـسيادة كـابراً عـن كـابر إن الكـرام هـمُ بنـو الأخيـارِ

ولكعب بن زهير بن أبي سلمى محذِّراً:

مقالـة الـسوء إلى أهلهـا أسرع مـن منحـدر سـائلِ
ومـن دعـا النـاس إلى ذمِّـه ذمـوه بـالحق وبالباطـلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الرياشي في وصف المسوّف النادم، كما قالت العرب: أخزى الله الرأي الدَّبَرى، أي الرأي القوي الجيد لكن بعد فوات أوانه:

وعاجزُ الرأيِ مِضْياعٌ لفرصتِه ... حتى إِذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القدرا

وللبيد العامريّ:

واكْذِبِ النفس إذا حدَّثْتَهَا ... إنّ صدق النفس يزري بالأملِ

وقال الفرزدق واصفاً طعنة:

يودّ لك الأدنون لو مُتَّ قبلها ... يرون بها شراً عليك من القتلِ

وقال الكُمَيْتُ الأسدي في براعة هجاء ونضج تجربة، والعجيب أنّه واقعٌ في ما نهى عنه، فهو مبتدع شيعي! والأعجب أنه مخالِلٌ للطرماح الخارجي!:

لهم كل عام بدعة يحدثونها ... أزلوا بها أتْبَاعَهم ثم أوحلوا

كما ابتدع الرهبانُ ما لم يجىءْ به ... كتابٌ ولا وحي من الله منزلُ

وللفحل الوحشي ذي الرِّمة العدوي التميمي واسمه غيلان بن عقبة، وهو وإن كان معاصراً لشعراء الأمويين إلا أن طابع الشعر الجاهلي مختوم في قصائده، وهو من شعراء البادية. لذا فقد قال بعض النقاد الأقدمين: فُتح الشعر بامرئ القيس، وخُتم بذي الرمة.

قلت: لقد غلب ذو الرمَّة فحْلَي تميم ـ الفرزدق وجرير ـ وفحْلَي طيّء أبا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تمام والبحتري ـ لولا تأخره عنهم في الهجاء والمديح، أما الوصف والتشبيه فقد علاهما. وقد اشتهر ببائيته ولو تقدّم زمنه لعدوها معلّقة.

وبائيةُ ذي الرمّة المذكورة هي وصف البادية ومرابعها وفتياتها وصيدها ومياهها وكثبانها وهي كالصورة الشمسية وصفٌ دقيق خالٍ من عاطفة، ومنها:

ما بالُ عَينِكَ مِنها الماءُ يَنْسَكِبُ ... كَأَنّه من كُلى مَفْرِيّةٍ سَرَبُ

أَستحدثَ الركبُ عَنْ أشياعِهِمْ خبراً ... أَمْ رَاجَعَ القلْبَ من أَطْرَابِهِ طَرَبُ

مِن دِمْنَةٍ نَسَفت عَنْهَأ الصَّبا سُفَعاً ... كما يُنَشَّرُ بَعْدَ الطِيَّةِ الكُتُبُ

سَيْلاً مِنَ الدعْصِ أَغْشَته مَعَارِفَها ... نَكْبَاءُ تَسْحَبُ أَعْلاَهُ فَيَنْسَحِبُ

لاَ بَلْ هُوَ الشّوْقُ مِنْ دارٍ تَخَوّنَها ... مَرّاً سَحابٌ ومَرّاً بَارِحٌ تَرِبُ

بِبُرْقَةِ الثّوْرُ لم تَطْمِسْ معالِمَها ... دَوارِجُ المُور والأمطارُ والحِقَبُ

يَبْدُو لِعَيْنَيْكَ منها وَهِيَ مُزمِنةٌ ... نُؤيٌ ومُسْتَوْقَدٌ بالٍ ومُحْتَطَبُ

إلى لوائحَ من أَطلالِ أَحْوِيةٍ ... كَأَنّها خِلَلٌ مَوْشِيّةٌ قُشُبُ

دَارٌ لِمَيّةَ إذْ مَيٌّ تُسَاعِفُنَا ... ولا يَرَى مِثْلَها عُجْمٌ ولا عَرَبُ

عَجْزَاءُ مَكْورَةٌ خُمْصَانةٌ قَلِقٌ ... منها الوِشَاحُ وَتَمّ الجِسْمُ وَالقَصَبُ

زَينُ الثّيَابِ وَإنْ أَثْوَابُها اسْتُلِبَتْ ... على الحَشيّةِ يوماً زانَها السّلَبُ

بَرّاقَةُ الجِيدِ وَاللّبّاتُ واضِحَةٌ ... كَأَنّها ظَبْيَةٌ أَفْضَى بِهَا لَبَبُ

بَيْنَ النهارِ وبينَ اللّيلِ من عَقَدٍ ... على جوانِبِهِ الأسباطُ والهُدَبُ

لَمْيَاءُ في شَفَتَيْها حُوّةٌ لَعَسٌ ... وَفي اللّثاتِ وفي أنيابِها شَنَبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كَحْلاءُ في دَعَجٍ صَفْراءُ في بَرَجٍ ... كَأَنّها فِضّةٌ قد شَابَها ذَهَبُ
تُريكَ سُنّةَ وَجْهٍ غيرَ مُقرِفةٍ ... مَلْساءَ لَيْسَ بها خالٌ ولا نَدَبُ
تَزْدَادُ في العينِ إبهاجاً إذا سَفَرَتْ ... وَتَحْرَجُ العينُ فيها حِينَ تَنْتَقِب
والقِرْطُ في حُرّةِ الذِّفرَى مُعَلَّقَةٌ ... تَبَاعَدَ الحبل فيه فهو يضْطَرِبُ
إذا أخو لَذّةِ الدّنْيا تَبَطّنَهَا ... وَالبَيْتُ فَوْقهما باللّيلِ مُحْتَجَبُ
سافَتْ بطيّبَةِ العِرْنِينِ مارِنُهَا ... بالمِسْكِ وَالعَنْبَرِ الهِنْدِيّ مُخْتَضَبُ
تِلْكَ الفتاةُ التي عُلّقْتُها عَرَضاً ... إنّ الكريمَ وذا الإسلامِ يُخْتَلَبُ
لَيالِيَ الدّهْرُ يَطْبِيني فأَتْبَعُه ... كأنّني ضاربٌ في غَمْرَةٍ لَعِبُ
لا أَحْسَبُ الدهْرَ يُبلي جِدّةً أَبَداً ... ولا تُقَسِّمُ شَعْباً واحِداً شُعَبُ
زارَ الخيالُ لِمَيٍّ هاجعاً لَعِبَتْ ... بِه المَفاوِزُ والمَهرِيّةُ النُّجُبُ
مُعرِّساً في بَيَاضِ الصّبْحِ وَقْعَتُهُ ... وَسَائِرُ اللّيْلِ إلاّ ذَاكَ مُنْجَذِبُ
أَخَا تَنَائِفَ أَغْفى عِنْدَ سَاهِمَةٍ ... بِأَحْلَقَ الدّفّ من تَصْدِيرِهَا جَلَبُ
تشكو الخَشاشَ ومجْرى النّسعتَينِ كما ... أنّ المريضَ إلى عُوّادِهِ الوَصَبُ
كَأَنّها جَمَلٌ وَهْمٌ وما بَقِيَتْ ... إلاّ النّحيزَةُ والألواحُ والعَصَبُ
لاَ يَشْتَكي سقطةً منها وإن رَقَصَتْ ... بِهَا المعاطسُ حتى ظهْرُها حَدِبُ
كَأَنّ راكِبَها يَهْوي بِمُنْخَرِقٍ ... مِنَ الجَنُوبِ إذا ما صَحَبُه شَحَبوا
تُصْغي إذا شدّهَا بالكُور جانِحَةً ... حتى إذا ما اسْتَوى في غَرْزِهَا تَثِبُ
وَبِالشَمَائِلِ من جَلاّنَ مُقْتَنِصٌ ... رثُّ الثيابِ خَفِيُّالشخص مُنْزَرِبُ
يَسْعَى بِزُرْقٍ هَدَتْ قُضْباً مُصَدَّرةً ... مُلسَ البطونِ حَدَاها الرّيشُ والعَقَبُ
كَانَتْ إذا وَدَقَتْ أَمْثَالُهُنّ له ... فَبَعْضُهُنّ عَنِ الآلاف مُنْشَعِبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حَتّى إذا لَحِقَتْ أَهْضَامَ مَوْرِدِهَا ... تَغَيَّبَتْ رَابَهَا مِنْ خِيفَةٍ رِيبُ
فَعَرّضَتْ طَلَقاً أَعْنَاقَهَا فَرَقاً ... ثُمّ اطَّبَاهَا خَرِيرُ الماءِ يَنْسَكِبُ
فَأَقْبَلَ الحُقْبُ والأكبادُ ناشِزَةٌ ... فَوقَ الشّراسيفِ من أَحشائها تَجبُ
حَتّى إذا زَجَحَتْ عن كلّ حَنْجَرةٍ ... إلى الغَلِيلِ وَلَمْ يَقْصَعْنَه نُغَبُ
رَمى فأَخطَأَ والأقْدَارُ غَالِبَةٌ ... فَأَنْصَعْنَ والوَيْلُ هِجّيراهُ والحَرَبُ
يَقَعْنَ بِالسّفْحِ مما قد رَأَيْنَ بِهِ ... وَقعاً يَكادُ من الإلهابِ يَلْتَهِبُ
كأَنّهُنّ خَوافي أَجْدَلٍ قَرِمٍ ... وَلّى ليسبقَهُ بالأمعَزِ الخَرَبُ
أَذَاكَ أَمْ نَمِشٌ بِالوَشي أَكْرُعُهُ ... مُسَفَّعُ الخدِّ عارٍ ناشطٌ شَبَبُ
تَقَيّظَ الرّمْلَ حَتّى هَزَّ خِلْفَتَهُ ... تَرَوَّحُ البردِ ما في عَيْشِهِ رَتَبُ
رَبْلاً وَأَرطَى نَفَتْ عَنْهُ ذَوَائِبُهُ ... كَواكِبَ القَيْظِ حتى ماتَتِ الشُّهُبُ
أَمْسَى بِوَهْبِينَ مجتازاً لِمَرْتَعِهِ ... مِنْ ذي الفوارِسِ تَدْعُو أَنْفَهُ الرِّبَبُ
حتى إذا جَعَلْتَهُ بين أَظْهُرِها ... مِنْ عُجْمةِ الرملِ أَثْباجٌ لها خِبَبُ
ضَمّ الظَّلامُ على الوحشيّ شَمْلَتَه ... ورائحٌ من نِشاصِ الدّلوِ مُنْسَكِبُ
وَبَاتَ ضَيْفاً إلى أرطاةِ مُرتَكِمٍ ... مِنَ الكَثيبِ لها دَفٌّ وَمُرْتَقَبُ
مَيْلاَءَ مِنْ مَعْدِنِ الصِّيرانِ قَاصِيَةٍ ... أَبْعَارُهُنّ على أَهْدافِها كُثَبُ
وحَائِلٌ مِنْ سَفِيرِ الحَوْلَ حَائِلَةٌ ... حَوْلَ الجراثِيم في أَلْوَانِهِ شَهَبُ
كَأَنّما نَفَضُ الأَحْمَالِ ذَاوِيَةٌ ... عَلَى جَوَانِبِها الفِرْصَادُ والعِنَبُ
كَأَنّهَا بَيْتُ عَطّارٍ تَضَمّنَهُ ... لَطَائِمَ المِسْكِ يَحْوِيها وَيَنْتَهِبُ
إذا اسْتَهَلّتْ عليهِ غَبيةً أَرِجَتْ ... مرابِضُ العين حتى تَأَرَجَ الخَشَبُ
وَالوَدَقُ يَسْتَنُّ في أَعْلَى طَرِيقَتِهِ ... حولَ الجُمَانِ جَرَى في سِلكه النُّقَبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يغشى الكِنَاسَ بِرَوْقَيْهِ وَيَهْدِمُه ... من هائلِ الرّملِ مُنْقَاضٌ وَمُنْكَثِبُ
إذا أراد انْكِراساً فيه عَنَّ له ... دونَ الأرومةِ من أَطْنَابِها طُنُبُ
حَتى إذا ما انجلى عن وَجْهِهِ فَرَقٌ ... هَادِيهِ في أُخْرياتِ اللّيلِ مُنْتَصِبُ
أَغْبَاشُ ليلٍ تمامٍ كان طَارِقَه ... تَطخْطُخُ الغَيْبِ حتى ما لَهُ جُوَبُ
غدا كَأَنَّ به جنّاً تذاؤُبُهُ ... مِنْ كلّ أَقْطَارِهش يُخْشى وَيُرتَقَبُ
حتى إذا ما لها بالجَدْرِ واتّخَذَتْ ... شمس الذُّرورِ شُعاعاً بَيْنَهُ قُبَبُ
وَلاَحَ أَزْهَرُ مَعْروفٌ بِنُقْبَتِهِ ... كَأَنّه حين يعلو عاقراً لَهَبُ
هَاجَتْ بِهِ جُوَّعٌ زُرْقٌ مُخَصَّةٌ ... شَوازِبُ لاحَها التّقريبُ والخَبَبُ
غُضْفٌ مُهَرّتهُ الأشْدَاقِ ضَارِيَةٌ ... مِثْلُ السّراحِينِ في أَعْنَاقها العَذَبُ
وَمُطْعَمُ الصّيدِ هَبّالٌ لبُغْيَتِهِ ... ألفى أباه لذاكَ الكَسْبِ يكتسب
كَأَنّهُ كَوْكَبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ ... مُسَوَّمٌ في سَوَادِ الليلِ مُنْقَضِبُ
فَهُنّ مِنْ واطِيءٍ ثِنْيَي حَوِيَّتِهِ ... وَنَاشِجٍ وَعَواصي الجَوْفِ تَنْشَخِبُ
أذاك أَمْ خاضِبٌ بالسِّيّ مَرْتَعُهُ ... أَبو ثلاثينَ أمسى وهو مُنْقَلِبُ
شَخْتُ الجُزارةِ مِثْلُ البيتِ سائرهُ ... مِنْ المُسُوحِ خِدَبٌّ شَوْقَبٌ خَشِبُ
كَأَنَّ رِجْلَيْهِ مِسماكانِ من عُشَرٍ ... صَقْبَانِ لم يتقشّرْ عَنْهُما النَّجَبُ
أَلْهَاهُ آءٌ وَتَنُّومٌ وَعُقْبَتُهُ ... من لائحِ المَرو والمرعى له عُقَبُ
فَظَلّ مُخْتَضِعاً يَبْدو فَنُنْكِره ... حيناً وَيَزْمُرُ أحياناً فَيُنْتَسَبُ
كَأَنّهُ حَبَشِيٌّ في خَمَائِلِهِ ... أَوْ مِنْ مَعَاشِرَ في آذانها الخُرَبُ
أَضَلَّهُ راعيا كَلْبِيّةٍ غَفَلا ... عَنْ صادرٍ مُطلِبٍ قُطْعَانُهُ عُصَبُ
فَأَصْبَحَ البَكْرُ فرداً من صَواحِبِهِ ... يَرْتادُ أَحلِيَةً أَعْجَازُها شَذَبُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كـلُّ مـنَ المَنْظَـرِ الأعـلى لَـهُ شَـبَهٌ ... هـذا وهـذانِ قَـدُّ الجِسْمِ وَالنَّقَـبُ
حَتّى إذا الهِيقُ أَمْسى سامَ أَفْرُخَهُ ... وَهُـنّ لا مُـؤيِسٌ منـه ولا كَثَـبُ
يَرْقَـدُّ في ظـلّ عَـرَّاصٍ ويلفحُـهُ ... حَفِيـفُ نَافِحَـةٍ عُثْنُونُهـا حَـصَبُ
تـبري لَـهُ صَـعْلَةٌ أَدْمـاءُ خَاضِـعَةٌ ... فَـالخَرْقُ بَـيْنَ بنـاتِ القَفْـرِ مُنْتَهَـبُ
كَأَنّـه دَلْـوُ بِئْـرٍ جَـدّ مَائِحُهـا ... حتـى إذا مـا رآهـا خانَـهُ الكَـرَبُ
فَرَوَّحـا رَوْحَـةً وَالـرِيحُ عَاصِـفَةٌ ... والغَيْـثُ مُرْتَجِـزٌ واللّيـلُ مُرْتَقَـبُ
لاَ يَـذْخَران مـن الإيغـالِ باقيـةً ... حَتـى تكـادُ تَفَـرّى منـهما الأَهَـبُ
فَكلّـما هَبَطـا في شـأوِ شـوطِهما ... مِـنَ الأماكنِ مفْعـولٌ بِـهِ العَجَـبُ
لا يَأمَنـانِ سِـباعَ اللّيـل أو يَـرِدا ... إن أهبَطـا دون أطـلاءٍ لَهَـا لَجَـبُ
كَـأَنّما فُلِقَـتْ عَنْهَـا ببَلْقَعَـةٍ ... جَمَـاجِمٌ يُـبَّسٌ أَو حَنْظَـلٌ خَـرِبُ
مِمّـا تَقَـيَّضَ عَـنْ عُـوجٍ مُعَطَّفَـةٍ ... كَأَنّهـا شَـامِلٌ أَبْـشَارَها جَـرَبُ
جَاءَتْ مِنَ البَيْضِ زُعراً لا لِبَاسَ لها ... إلاّ الـدَّهاسُ وَأُمٌّ بَـرَّةٌ وأَبُ
أَشْـدَاقُهَا كَـصُدُوعِ النّبْـعِ في قُلَـلٍ ... مِثْلِ الدَّحارِيجِ لَمْ يَنْبُتْ لها زَغَبُ
كَـأَنّ أَعْنَاقَهـا كُـرَّاثُ سَـائِفَةٍ ... طَـارَتْ لَفَائِفُـهُ أَوْ هَيـشَرٌ سُـلُبُ

وقـال جريـر: مـا تمنيـت مـن شـعر ذي الرمّـة إلا قـصيدته: مـا بـال عينك..فإن شيطانه كان له فيها ناصحاً!

وهذه الشيطنة هي من خرافات العرب، فقد كانوا يظنون أن للشاعر رئياً من الجن يلقِّنه القصائد. وكان الشاعر إذا أراد الهجاء لبس حُلَّةً خاصة، ولعلّها كحلل الكهان، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شقي رأسه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وانتعل نعلًا واحدة استحضاراً للجانّ! وقد ادَّعى بعض فحول الشعراء أنه له رئياً يلقي الشعر على فيه، ولكل رئي اسم معروف، ومن ذلك مسحل شيطان الأعشى وفيه يقول:

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام جدعاً للهجين المذمّمِ

وذكروا أن خال مسحل هميم شيطان الفرزدق! وقد قال عمرو بن كلثوم:

إني وإن كنت صغيراً سني فإن شيطاني كبير الجنِّ

ومن طرائفهم أن أبا النجم الفضل بن قدامة العجلي راجز العَجَّاجَ يوماً في المربد، فخرج العجّاج على ناقةٍ له كوماء، وعليه ثياب حسان، وخرج أبو النجم على جملٍ مهنوءٍ ــ أي مطلي بقطران ــ وعليه عباءةٌ، فأنشد العجاج أرجوزته: قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهُ فجَبَرْ، فأجابه أبو النجم: تَذَكَّرَ القَلْبُ وجَهْلاً ما ذَكَرْ..حتى إذا بلغ إلى قوله:

إِنِّي وكُلُّ شَاعِرٍ مِنَ البَشَرْ شَيْطَانُهُ أُنْثَى وشَيْطَانِي ذَكَرْ
فما رَآني شَاعِرٌ إلاَّ اسْتَتَرْ فِعْلَ نُجُومِ اللَّيلِ عايَنَّ القَمَرْ

فلما فرغ من إنشاده حمل جمله على ناقة العجاج يريدها! فضحك الناس وانصرفوا وهم ينشدون قوله: شَيْطَانُهُ أُنْثَى وشَيْطَانِي ذَكَرْ!

وأنشد أبو النجم هشام بن عبد الملك أرجوزته التي أولها:

الحَمْدُ للهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ أعطَى فَلَمْ يَبْخَلْ ولم يُبَخِّلِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهي أجود أرجوزةٍ للعرب، وهشام يصفق بيديه من استحسانه لها، فلما بلغ قوله في الشمس:

حَتَّى إِذا الشَّمْسُ جَلاَها المُجْتَلى ... بَيْنَ سِمَاطَيْ شَفَقٍ مُرَعْبَلِ

صَغْوَاءَ قد كادَتْ ولَمَّا تَفْعَلِ ... فَهِيَ على الأُفْقِ كَعَيْنِ الأَحْوَلِ

أَمَرَ هشامٌ بوجءِ رقبته وإخراجه، إذ ظنّ أنه يعرِّض به.

وهناك من الشعراء من أشهرته قصيدة واحدة، ولولا أن الله أجراها على ألسنة الركبان لخمل ذكره، كأبي البقاء الرّندي في بكائيته ذائعة الصيت، التي تتجدد مع لوعات المسلمات وصراخ العفيفات من أسنان أهل الصليب، وقد قالها حَدَباً على أهل الإسلام، ورثاءً لبعض ممالك الأندلس، وما أشبه الليلة بالبارحة!:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ ... فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ ... مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

يُمزق الدهر حتمًا كل سابغةٍ ... إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ

وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْ ... كان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان

أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ

أتى على الكُل أمر لا مَرد له ... حتى قَضَوا فكأن القوم ما كانوا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك ... كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ

دارَ الزّمانُ على دارا وقاتِلِه ... وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ

كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببُ ... يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة ... وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ

وللحوادث سُلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له ... هوى له أُحدٌ وانهدَّ ثهلانُ

أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ ... حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ

فاسأل بلنسيةً ما شأنُ مُرسيةً ... وأينَ شاطبةٌ أمْ أينَ جَيَّانُ

وأين قُرطبةٌ دارُ العلوم فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ

وأين حمصُ وما تحويه من نزهٍ ... ونهرُها العَذبُ فياضٌ وملآنُ

قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما ... عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ

تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ

حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ ... إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ

وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ ... أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ

تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها ... وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ

يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً ... كأنها في مجال السبقِ عقبانُ

وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفةً ... كأنها في ظلام النقع نيرانُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ ... فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسانُ
ماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ ... وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ
ألا نفوسُ أُبَاةٍ لهاهممٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ ... أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ ... عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ ... لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ
يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما ... كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةً مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت ... كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

والأبيات الأخيرة هائلة جداً! والآن يا صاحبي فلنُلِمّ ببديع النثر وقويمه، فمن ذلك ما حدّث به الأصمعي قال: اجتزت ببعض أحياء العرب، فرأيت صبية معها قربةٌ فيها ماءٌ وقد انحلّ وكاء فمها. فقالت: يا عمّ، أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها. فأعَنْتُهَا وأنا أتعجب كيف جمعت العربية في ثلاث! ثم قلت: يا جارية، ما أفصحك ! فقالت يا عمّ، وهل ترك القرآن لأحدٍ فصاحةً؟ وفيه آيةٌ فيها خبران وأمران ونهيان

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبشارتان، قلت: وما هي؟ قالت: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. قال: فرجعت بفائدةٍ، وكأنّ تلك الآية ما مرّت بمسامعي.

ثم تأمل فصاحة أعرابية أخرى، فقد ذكروا أن رجلاً من الأعراب ضرير البصر قال لابنته، وهي تقوده في المرعى: يا بنية انظري كيف ترين السماء؟ قالت كأنها قرون المعزى. قال: ارعي. فرعت ساعة، فقال: انظري كيف ترين السماء؟ قالت كأنها خيل دهم تجرّ جلالها. قال:ارعي. فرعت ساعة ثم قال: انظري كيف ترين السماء؟ قالت: كأن الرّباب نعام تعلّق بالأرجاء من السماء، قال: ارعي. ثم قال: انظري كيف ترين السماء؟ قالت: ابيضت واسودت ودنت، فكأنها عينُ نفسٍ تطرف. قال: انجي ولا أراك ناجية!

وكان عمرو بن حجر ملك كندة، وهو جد امرئ القيس، أراد أن يتزوج ابنة عوف من محلم الشيباني الذي يقال فيه: لا حر بوادي عوف؛ لإفراط عزه. وهي أم إياس، وكانت ذات جمال وكمال. فوجه إليها امرأة يقال لها عصام، ذات عقل وبيان وأدب لتنظر إليها، وتمتحن ما بلغه عنها. فدخلت على أمها أمامة بنت الحارث، فأعلمتها ما قدمت له. فأرسلت إلى ابنتها: أي بنية، هذه خالتك، أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق، وناطقيها فيما استنطقتك فيه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فدخلت عصام عليها، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط، بهجةً وحسناً وجمالاً. فإذا هي أكمل الناس عقلاً، وأفصحهم لساناً. فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع. فذهبت مثلا. ثم أقبلت إلى الحارث، فقال لها: ما وراءك يا عصام؟ فأرسلها مثلاً. قالت: صرح المخض عن الزبدة. فذهبت مثلاً. قال: أخبريني، قالت: أخبرك صدقاً وحقاً، رأيت جبهةً كالمرآة الصقيلة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم، أو سودا بحمم، قد تقوسا على مثل عين العبهرة التي لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة، بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يخنس به قصر، ولم يمعن به طول، حفت به وجنتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان، شق فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غر، ذوات أشر، وأسنان تعد كالدر، وريق تنم إليك منه ريح الخمر، أم نشر الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يقلبه عقل وافر، وجواب حاضر، يلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقاً كالشهد، تحت ذاك عنق كإبريق الفضة، ركب في صدر تمثال دمية، يتصل به عضدان ممتلئان لحماًمكتنزان شحماً، وذراعان ليس فيهما عظم يحس، ولا عرق يجس، ركبت فيهما كفّان رقيقٌ قصبهما ليّنٌ عصبهما، تعقد إن شئت منها الأنامل، وتركب الفصوص في حفر المفاصل، وقد تربع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان. من تحت ذلك بطن طوي كطي القباطي المدمجة، كسي عُكَنًا كالقراطيس المدرجة. تحيط تلك العكن بِسُرَّةٍ كمدهن العاج المجلو، خلف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ظهرٍ كالجدول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانخزل، تحته كفل يقعدها إذا نهضت، وينهضها إذا قعدت، كأنه دعص رمل، لبده سقوط الطل، يحمله فخذان لفّاوان كأنهما نضيد الجمّار، تحملهما ساقان خُدُلُّجَتَانِ كالبردى، ويحمل ذلك قدمان كحدّ السِّنان تبارك الله في صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما، فأما سوى ذلك فتركتُ أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر. قال: فأرسل إلى أبيها يخطبها فزوجه إياها.

لقد كان العرب ملوك أعنّةِ الفصاحة، وهم من فتقوا بديع البلاغة شعراً وخطابة، ولم تجارهم في ذلك أُمَّة، وقد سأل رسول الله ﷺ عمرو بن الأهتم التميمي عن الزبرقان بن بدر فقال: إنه لمانعٌ في حوزته، مطاع في أدنيه. فقال الزبرقان: يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني في شرفي فقصَّر بي. فقال عمرو: أنا أحسدك، أما وقد قال ما قال؛ فهو والله زَمِرُ المروءة، ضيِّقُ العَطَن، لئيمُ الخال، حديث الغنى. فلما رأى الإنكار في عين النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الآخرة. فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**» رواه الحاكم، واتفق الشيخان على آخره.

ومن نسل ابن الأهتم خالد بن صفوان بن الأهتم بليغ دولة بني أمية، ولم يُحفظ له لفظٌ مولّد، ومن درر كلامه: نظرت في أمري فوجدت الذي منعنيه القدرُ ــ أي بأمر الله ــ لا سائق له، ووجدت الذي أعطانيه لا حابس

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

له، فعلام أُعنّي نفسي؟!

وقال أيضاً: بِتُّ ليلتي كلّها أتمنّى، فكسيت البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران!

وقال: احترزوا من العين، فإنها أنمُّ من اللسان. وقال: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة. ومن حِكَمِه: من لم بين له سبب دائه، كثرت ألوان دوائه.

وذكر عنده المزاح فقال: يصكُّ أحدكم قفا أخيه بأصلب من الجندل، ويُنْشِقه أحرّ من الخردل، ويُفرغ عليه أحرّ من المِرْجَل، ثم يقول: أنا أمازحك!

وقال في وصف النخل: هن الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، تخرج أسفاطاً عظاماً وأوساطاً، كما ملئت رياطاً، ثم تتفرى عن قضبان اللجين منظومة باللؤلؤ الأبيض، وتصير ذهباً أحمر منظوماً بالزبرجد الأخضر، ثم تصير عسلاً في نحاء، معلقاً بالهواء، ليس في مسك ولا سقاء، بعيداً من التراب، لا يقربه الذباب، دونه الحراب، ثم يصير ورقاً في كيس الرجال، يستعان به على العيال.

وقد كان خالد بن صفوان من سمار أبي العباس، ففخر ناس من اليمانيّة وأكثروا، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟ قال: أخوال أمير المؤمنين وأهله؛ قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته ـ يشير إلى جَدَيّهِمَا الشقيقين طابِخَة واسمه عامر (جدّ تميم) ومُدّرِكة واسمه عمرو (جدّ قريش) ـ فقال

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خالد: ما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد، وقائد قرد، ودابغ جلد، دل عليهم هدهد، وغرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة.

ودخل خالد الحمّام وفيه رجل مع ابنه، فأراد أن يعرّف خالداً ببلاغته فقال لابنه: يا بني، ابدأ بيداك وثن برجلاك، ثم التَفَتَ إلى خالد وقال: يا ابن صفوان، هذا كلام قد ذهب أهله، فقال خالد: هذا كلام ما خلق الله له أهلاً!

وتكلم أبو حاضر الأسيدي في وجوه أهل البصرة بين يدي ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: اسكت، فو الله لوددت أن لي بكل عشرة من العراق رجلاً من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم! فقال: يا أمير المؤمنين، إن لنا ولك مثلاً أفتأذن في ذكره. قال: نعم. قال: مثلُنا ومثلُك ومثلُ أهل الشام قولُ الأعشى:

عُلّقتُها عَرَضا وعُلِّقتْ رجلاً غيري وعُلِّقَ أخرى غيرَها الرجلُ

أحبك أهل العراق، وأحببت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك بن مروان!

ومن بديع الكتب السلطانية؛ أنه لما بايع الناس يزيد بن الوليد، وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكؤ؛ كتب إليه: أما بعد، فإني أراك تُقَدِّم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت، والسلام.

وكتب آخر متوعِّداً وهذا من الإيجاز المروّع: عما قليل تجني ثمرة ما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جنيت، والسلام عليك، تسليم سُنَّةٍ لا تسليم رضا.

وقال زياد بن أبيه ــ وهو من عجائب الناس في الفصاحة والحزم ــ: ما قرأت كتاب رجل قط إلا عرفت عقله فيه.

وكتب الحجاج إلى المهلب في حرب الأزارقة فأسمعه قارص الكلام، فردّ المُهَلَّبُ: إن البلاء، كلّ البلاء؛ أن يكون الرأي عند من يملكه دون من يبصره. وبنو المهلب عند بني أمية كالبرامكة عند بني العباس.

وهذا يذكرنا بما نقله الجاحظ عن بعضهم في بيانه: المعاني إذا كُسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة؛ تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زُيِّنَتْ، وعلى حسب ما زُخرفت.

ولما نظر النعمان بن المنذر إلى دمامة وقِلّة ضمرة بن ضمرة قال ساخراً: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. فقال: أبيتَ اللعن، إن الرجال لا تُكال بالقُفْزَان، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فينطق ببيان ويصول بجنان.

وكتب الحسن لعمر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل، والسلام. وصدق رَحِمَهُ اللهُ في هذا الإيجاز والإعجاز، ولا جرم فعقل المرء مدفون بلسانه.

وكثير من المبتدعة إنما صالت عليهم الشبهات من قبل ضعفهم في العربيّة، فلا تستغرب إذن حِرْصَ الأئمة على تعليمها الناس. قال الحسن عن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبب ابتداع كثير من الناس في زمنه: انما أُتوا من العُجْمَةِ. وقال النحوي: أكثر زندقة أهل العراق بسبب العجمة. وقال أبوعمر بن العلاء لعمرو بن عبيد وقد احتج الأخير بآية وعيدٍ في إنفاذ الوعد: من العجمة أُتيتَ، ألم تسمع قول الشاعر:

وإنِّيَ إن أوعدتُـــهُ أو وَعَدْتُـــهُ لمُخْلِف إيعَادِي ومُنْجز موعِدِي

وأكثر علماء اللغة سنة ليسوا مبتدعة وخَطَل من قرّر غير ذلك.

وقال الفضل بن سهل الفارسي ذو الرياستين ـــ وكان يتقلد بسيفين أحدهما أحمر الجفر مكتوب عليه رياسة الحرب والآخر أسود الجفر مكتوب عليه رياسة التدبير ولهذا سمى ذو الرياستين ـــ وهو من وزراء المأمون وجلسائه: الرأي يسدّ ثلم السيف، والسيف لا يسد ثلم الرأي.

وقال الحسن بن سهل وزير المأمون وجليسه ولقب بذي الرياستين كأخيه الفضل: كُتب الشفاعات زكاة الجاه. وقال أيضاً: ما زلت أدخل فيما يرغب بي عنه حتى استغنيت عمّا يرغب لي فيه. وقال: من ثقل نفسه عليك وغمك بسؤاله فأعره أذناً صماء وعيناً عمياء. قلت: وقد نَثَرَ هنا ما نظمه الشافعي رحمه الله بقوله:

وإذا بُليتَ بشخصٍ لا خلاق له فكُـن كأنّـك لم تـسْمَعْ ولم يَقُـلِ

وقال: يجب على كلّ مبتدئ مقالةً أن يبتدئَ بحمدِ الله قبل استفتاحها، كما بُدئ بالنعمة قبل استحقاقها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال أيضاً: ثلاثةُ عقلاء يعودون إلى أجَنّ المجانين؛ الغضبان، والغيران، والسكران. فقال له أبو عبدان: ما تقول في المُنْعِظ؟ فضحك حتى استلقى وقال:

وما شرُّ الثلاثة أمّ عمرو ... بصاحبك الذي لا تُصبِحِينا

ومن الأدباء الوزراء لبني العباس محمد بن عبد الملك الزيات وله كتابات وتوقيعات عالية البلاغة والإيجاز.

وقال أبو الأسود الدؤلي: إذا أردت أن تعظُم فَمُت! وصدق رحمه الله، فالنفوس لا تُحْضَرُ الشّحّ والحسد للأموات، وكم خاملٍ في حياته، قد رفعهُ مماتُه!

ومهما بسطنا فما من عربي أفصح وأبلغ من رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه.

ومن خطبة زياد بن أبي سفيان البتراء لأهل البصرة وقد كثر فيهم الفسق ـ والبتراء هي التي لم تبتدأ بالحمد أما الشوهاء فهي الخالية من القرآن ـــ قال: وإني اقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالضاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، حتى يلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول: انج سعدُ فقد هلك سعيد، وإيّايَ ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة؛ فمن غرّق قوماً غرّقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه!

فارتاع الناس لمقوله وفزعوا، ورب قولٍ أنفذ من صولٍ. وقد ساسهم زياد بهذه السياسة قولاً وفعلاً، حتى إذا هَلك رتعوا في الفتن، حتى سفَكَهُم الحجاج. قال الحسن: تشبّه زياد بعمر فأفرط، وتشبّه الحجاج بزياد فأهلك الناس.

نعم قد أهلك الناس، لأنه ـ كما قيل ـ قد وضع سيفه موضع سوطه، وسوطه موضع قوله وأخذ بالظِّنَّةِ، وأنهرَ العَنْدَمَ الحرام.

وقد خَرج الحجّاج يريد العراق والياً عليها في اثني عشر راكباً على النَّجائب، حتى دَخل الكوفة حين انتشر النهار، وقد كان بِشْر بن مَرْوان بَعث المُهلَّب إلى الحَرُوريَّة، فبدأ الحجّاج بالمسجد فدخله، ثم صَعِد المِنْبر وهو مُلَثَّم بعمامة حمراء، فقال: عليّ بالناس، فحَسبوه وأصحابَه خوارج، فَهمُّوا به، حتى إذا اجتمع الناس في المَسجد قام، ثم كَشف عن وجهه، ثم قال:

أنا ابن جَلا و طلّاعُ الثَّنَايَا ... متى أضَع العِمامةَ تَعْرِفُوني
صَليب العُود مِن سَلَفي رباحٍ ... كنَصْل السَّيف وضّاح الجَبِينَ

إنّي والله يأهل العِراق، ومَعْدِنَ الشِّقاقْ والنِّفاق، ومَساوِئ الأخلاق، لا يُغْمَز جانبي كَتغْماز التّين، ولا يُقَعْقع لي بالشِّنان، ولقد فُرِزْتُ عِن ذكاء، وفُتشت عن تَجْربة، وأجْرِيت إلى الغاية القُصْوى، وإنّ أميرَ المُؤمنين نثر كِنَانته بين يديه، ثم عَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأشدَّها مَكْسِراً، فَوَجهني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إليكم، ورَماكم بي، فإنّه قد طالما أوضعتم في الفتن، وسنَنْتم سُنَن الغَي، وايم اللهِ لأحْونكم لَحْو العصا، ولأقرعنّكم قَرْع المَرْوَة، ولأعْصِبنّكم عَصْب السَّلَمة، ولأضْربنكم ضَرْب غَرائب الإبل.

أمَا والله إني لأَحْمِلُ الشرّ بَحْملَه، وأحذوه بنَعْله، وأجْزيه بمثله، وإنّي لأرى رءوساً قد أيْنعَت وحان قِطافها، وإني لصاحبها، وإنِّي أنْظر إلى، الدِّماء بين العمائم واللحى تَتَرقرق: قد شَمَّرت عن ساقها فشَمِّري. ثم قال:

هـذا أوانُ الـشَّد فاشـتدِّي زِيَـم ... قـد لَفّهـا الليـلُ بـسَوَّاق حُطَـمْ
لـيس براعِـي إبـلٍ ولا غَـنـم ... ولا بجـزّار عـلى ظَهَـر وَضَـم

ثم قال:

قـد لَفّهـا الليـلُ بعَـصْلبي ... أروَع خَـرّاج مِـن الـدَويّ

مُهاجِر ليس بأعْرابيّ

ثم قال:

قـد شَـمَّرتْ عـن سـاقها فَـشُدوا ... مـا عِلَّتـي وأنـا شَـيْخ إدُّ
والقَـوْس فيهـا وَتـر عُـردُ ... مثـلُ ذِراع البَكْـر أو أشَـدُّ

أمَا والله لا أعد إلّا وَفَّيت، ولا أخلُق إلّا فَريْت. وإياي وهذه الشُفَعاء والزَّرافات والجماعات، وقالًا وقيلاً، وما يقولون، وفيم أنتم وذاك؛ الله لتَسْتقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعنّ لكُل رجل منكم شُغلاً في جَسده، مَن وجدتُه بعد ثالثة من بَعْث المُهلّب سفكتُ دمَه، وانتهبت مالَه، وهدمتُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منزله، فشمَّر الناس بالخُروج إلى المهلَّب. فلما رأي المُهلّب ذلك قال: لقد وَلِي العراق خيرُ ذكر.

وقال الحجاج على منبره وقد سمع في السوق تكبيراً: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق؛ إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يُراد به الله في الترغيب، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف فتنة، أي بني اللكيعة وعبيد العصا وبني الإماء، والله لئن قَرَعْتُ عصاً لأتركنّكم كأمس الدابر، فإنكم لكأهلِ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال مالك بن دينار: ربما سمعت الحجاج يخطب، ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج!

ولما مات ولده محمد وأخوه محمد في يوم واحد خطب فقال: أيها الناس، محمّدان في يوم واحد، أما الله لقد كنتً أحِبَّ أنهما معي فِي الدنيا، مع ما أرجو لهما من ثواب الله يا الآخرة، وايم الله، ليُوشكنَّ الباقي منَا ومنكم أن يَفْني، والجديدُ منَّا ومنكم أن يَبلى، والحيّ منَّا ومنكم أن يموت، وأن تُدال الأرض منّا كما أدِلنا منها؛ فتأكل من لحومنا، وتَشْرب من دمائنا، كما مَشَينا على ظَهرها، وأكلْنا من ثمارها، وشربنا من مائها، ثم يكون كما قال الله:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] ثم تمثل بهذين البيتين:

عَزَائي نبي الله مِنْ كُل مَيتٍ ... وحَسْبي ثوابُ الله مِن كُلّ هالِك
إذا ما لقيتُ الله عنِّيَ راضِياً ... فإن سرُورَ النَّفس فيما هُنالِك

وخطب مرّة فقال: سَوْطي سَيْفي، ونجاده في عُنقي، وقائمُه في يَدي، وذُبابه قِلادة لمن اغترّ بي. فقال الحسن: بُؤساً لهذا، ما أغَرّه بالله!

وحلف رجل بالطلاق: إن الحجّاج في النار. ثم أتي زوجتَه، فمنعتهُ نفسها، فأتى ابن شُبرمة يَستفتيه، فقال: يا بن أخي، امض فكُن مع أهلك، فإنّ الحجاج إن لم يكن من أهل النار، فلا يَضرُك أن تَزْني!

وحينما أدركته الوفاة سُمع يدعو ربه فكان مما قال: اللّهم إنهم يزعمون أنك لن تغفر لي، اللّهم فاغفر لي. وهذا من عظيم فقه الدعاء.

وإني لأدعو الله حتى كأنما ... أرى بجميل الظن ما الله صانعُ

وتأمل حاله مع هذا الجبروت وكيف أذله الله تعالى بامرأة! فقد حُكي أنّ هِندَ ابنةَ المُهَلَّب ـ وقيل: ابنة النعمان بن المنذر ولا يستقيم لهلاك النعمان قبل الإسلام ـ كانتْ أحَسَنَ أهلِ زَمانِها فوُصِفَ للحَجّاج حُسنُها فأَنفذَ إليها يَخطِبها، وبَذَلَ لَها مالاً جَزيلاً وتَزوّجَ بها، وشُرِطَ لَها عَليهِ بَعدَ الصداقِ مائتي ألف دِرهَم، ودَخَلَ بِها، ثم إنها انحدرت مَعَهُ إلى بلدِ أبيها المعرّة، وكانت هِندُ فَصيحةً أديبةً فأقام بِها الحجاج بالمعرةِ مدةً طَويلةً، ثم إنّ الحجاج رحل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعضِ الأيامِ وهي تَنظُرُ في المرآةِ وتقول:

وما هندُ إلا مُهرَةٌ عَرَبِيَّةٌ ... سَليلَةُ أفراسٍ تَحلّلَها بَغلُ

فإن وَلَدَتْ فَحلاً فللهِ دَرُّها ... وإن وَلَدَتْ بَغلاً فَجاءَ بِه البَغلُ

فانصرفَ الحجاجُ راجعاً ولَمْ يَدخُلْ عَليها، ولَمْ تَكنْ عَلِمت بِه، فأرادَ الحجاجُ طَلاقَها فأَنفَذَ إليها عبد الله ابن طاهر وأَنفَذَ لَها مَعَهُ مائتي الفِ درهم وهي التي كانت لَها عليه وقال: يا ابن طاهر طَلِّقها بِكَلِمَتينِ ولا تُزِدْ عَليهِما، فَدخَلَ عبد اللهِ بن طاهر عَليها فقال لها يَقولُ لَكِ أبو مُحمدٍ الحجاجُ: كُنْتِ فَبِنْتِ، وهذهِ المئتا ألفِ دِرهم التي كانت لَكِ قبله، فقالت إعلم يا ابن طاهر أنّا والله كُنّا فَما حَمدنا، وبِنّا فما نَدِمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جِئتَ بِها بِشارةُ لَكَ بِخلاصي مِن كَلبِ بني ثقيف.

ثُمّ بعد ذلك بَلغَ أميرُ المؤمنين عبد الملك بن مروان خَبرُها ووُصِفَ لَهُ جَمالُها فأرسَلَ إليها يَخطِبُها، فأرسلتْ إليه كتاباً تقولُ فيه بعدَ الثناءِ عليهِ: اعلمْ يا أميرَ المؤمنين أنَّ الإناءَ وَلَغَ فِيهِ الكَلبُ. فَلمّا قَرأَ عبد الملكِ الكتابَ ضَحِكَ مِن قَولِها وَكَتَبَ إليها يقول: إذا وَلَغَ الكَلبُ في إناءِ أَحَدِكُم فَلَيغسِلْهُ سَبعاً إحداهُنَّ بالترابِ، فاغسلي الإناءَ يَحلُّ الاستعمالُ، فَلمّا قَرَأَتْ كِتابَ أميرِ المؤمنين لَمْ يُمكِنها المخالفةُ، فَكَتَبَت إليهِ بعدَ الثناءِ عليهِ: يا أميرَ المؤمنين واللهِ لا أَحُلُّ العقدَ إلا بشرط، فَإنْ قُلتَ: ما هوَ الشرط؟ قُلتُ: أنْ يَقودَ الحجاجُ مَحمَلي مِن المَعرَّةِ إلى بَلدكِ التي أَنتَ فيها، ويكُونُ ماشياً حافياً بِحليتهِ التي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان فيها أولاً. فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفَذَ إلى الحجاجِ وأمَرَهُ بذلك، ــ وسبحان المعزّ المذلّ ــ فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجابَ وامتثلَ الأمر ولم يُخالف ـ فطاعةُ الحجاج للأمير شاميّة ـ، وأنفذ إلى هندٍ يأمُرُها بالتَّجَهُّز فَتَجَهَّزَت، وسار الحجاجُ في مَوكبهِ حتى وصلَ المَعرَّةَ بَلدُ هِندٍ، فَرَكِبَتْ هِندُ في مَحمَلِ الزِفَافِ وَرَكِبَ حَولُها جواريَها وخَدَمُها، وأخذَ الحجاج بزمام البعير يقودهُ ويسيرُ بها، فَجَعلَتْ هِندُ تَتواغَدُ عليهِ وتَضحَكُ مع الهيفاءِ دايَتُها، ثم إنّها قالت للهيفاءِ: يا دايةُ اكشِفي لي سَجفَ المَحمَل، فَكَشَفَتهُ فَوَقَعَ وَجهُها في وجه الحجاجِ فَضَحِكَت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مِنّي فيا طولُ ليلةِ ... تَرَكتُكِ فيها كالقِباءِ المُفَرّجِ

فأجابته هند تقول:

وما نُبالي إذا أرواحُنا سَلِمَتْ ... بِما فَقَدناهُ مِن مَالٍ ومِن نَشَبِ
فالمالُ مُكتَسَبٌ والعِزُّ مُرتَجَعٌ ... إذا النُفوسُ وقاها الله مِن عَطَبِ

ولَم تزلْ كذلكَ تَضحَكُ وتلعب إلى أن قَرُبَتْ مِن بَلدِ الخليفةِ، فَرَمَت بدينارٍ على الأرضِ ونادتْ: يا جَمّال، إنَّهُ قَد سَقَطَ مِنّا دِرهَمٌ فارفَعهُ إلينا، فَنَظَرَ الحجاجُ إلى الأرضِ فَلم يَجد إلا ديناراً فقال: إنّما هو دينارٌ! فقالت: بَلْ هُوَ دِرهمٌ، قال: بل دينار، فقالت: الحمدُ للهِ، سَقَطَ مِنّا دِرهَمٌ فَعَوَّضنا الله ديناراً! فَخَجِلَ الحجاج وسَكَتْ ولَم يَرُدّ جواباً. وقيل: إن القصة قد كذبها عليه خصومه، والله أعلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كذلك فقد قدم الحجاج يوماً على الوليد بن عبد الملك، وركب الوليد فمشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد، فقال: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمناً طويلاً، فعزم عليه الوليد أن يركب فركب مع الوليد، فبينا هو يتحدث ويقول: فعلت بأهل العراق وفعلت، أقبلتْ جاريةٌ فنادت الوليد ثم انصرفت، فقال الوليد: يا أبا محمد، أتدري ما قالت الجارية؟ قال: لا، قال: قالت: أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان تسألك عن مجالستك هذا الأعرابي المستلئم في سلاحه وأنت في غلالة غرر، فأرسلت إليها أنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك وقالت: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج وقد قتل أحباء الله وأهل طاعته ظلماً وعدواناً.

فقال الحجاج مازحاً: يا أمير المؤمنين، دع عنك مُفاكهة النساء بزُخرف القول، فإنما المرأة رَيحانة، ولست بقَهْرمانة، فلا تطْلعها على سرِّك، ومُكايدة عدوّك. فلما دخل الوليدُ عليها أخبرها بمقَالة الحجاج. فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً يأتيني مُستلئما، ففعل ذلك، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: فلتفعلن. وأتى الحجاج فَحجبته، فلم يزل قائماً، ثم قالت له: إيه يا حجاج، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقَتْلك عبد الله بن الزَّبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شِرار خَلقه ما ابتلاك برَمْي الكَعبة، وقَتْل ابن ذاتِ النِّطاقين، وأوَّل مولود وُلد في الإسلام. وأما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَهْيك أمير المؤمنين عن مُفاكهة النساء وبُلوغ أوطاره منهن، فإنْ كُنّ يَنْفرجن عن مِثلك، فما أحقه بالأخذ عنك، وإن كن يَنْفرجن عن مِثله فغيرُ قابل لقولك. أما والله لقد نَقَص نساء أمير المؤمنين الطيّبَ عن غدائرهن، فبِعنه في أَعطية أهل الشام حين كنتَ في أَضيق من القَرَن قد أَظلّتك رماحُهم، وأثخنك كِفاحهم، فلعمري لقد استعلى عليك حتى عجعجت، ووالى عليك الهرار حتى عويت، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، فما نَجّاك بعد الله إلا بحبّهم أمير المؤمنين، وإلا لكنتَ مأسوراً قد أُخذ الذي فيه عيناك، وأما أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذّاته وبلوغ أوطاره من نسائه؛ فإن يَكُنَّ إنّما ينفرجْنَ عن مثل أمير المؤمنين فغير مجيبك إلى ذلك، وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمُّك عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخَلْقِ والخُلُقِ يا لكع؛ فما أحقه أن يقتدي بقولك، ولله دَرّ القائل إذ نظر إليك، وسنان غَزالة بين كَتفيك:

أَسَدٌ عليّ وفي الحُروب نعامةٌ ... رَبداءُ تَجْفِل من صفير الصافرِ
هلاّ برزتَ إلى غزالةَ في الوَغى ... بل كان قَلبُك في مخالبِ طائرِ
صَدعت غزالةُ جمعَه بعساكر ... تركتْ كتائبَه كأمس الدابرِ

ثم أمرت جارية لها فأخرجته، فلما دخل على الوليد قال: ما كنت فيه يا أبا محمد؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظهرها. قال: إنها بنت عبد العزيز.

وغزالة المذكورة هي غزالة الحرورية امرأة شبيب الخارجي، فقد نذرت

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن تصلي الضحى بسورة البقرة في مسجد الكوفة عند قصر الحجاج استخفافاً به وإذلالاً! فدخل شبيب بها الكوفة وحرسها بعمود حتى قضت صلاتها، والحجاج قد تحصن منها وأغلق عليه قصره، فكتب إليه عمران بن حطان بتلك الأبيات معيّراً وشامتاً، وقد كان الحجاج لج في طلبه.

هذا ومما لا يسع تركه في هذا الموضع صحيفة كتبها بشر بن المعتمر، ذكر فيها البلاغة، ودل على مظانّ الكلام والفصاحة، يقول فيها: خذ من نفسك ساعة فراغك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قلبك تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسّاً، وأحسنُ في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكدّ والمجاهدة، وبالتكلف والمعاندة، ومهما أخطأك لن يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، أو خفيفاً على اللسان سهلاً كما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه. وإياك والتوعُّرَ، فإن التّوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلِكُ معانيك، ويشين ألفاظك، ومن رام معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً؛ فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أسوأ حالاً منك من قبل أن تلتمس إظهارهما، وترهن نفسك في ملابستهما وقضاء حقهما.

وكُنْ في إحدى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً؛ إما عند

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما للعامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة، ومع موافقة الحال، ومع ما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامّي والخاصّي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك في نفسك على أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء؛ فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك، ولا تسمحُ لك عند أول نظرك في أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها؛ فلا تُكْرِهْهَا على اغتصاب مكانها، والنزول في غير أوطانها؛ فإنك إذا لم تتعاط قرْضَ الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعِبْكَ بترك ذلك أحد؛ فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لشأنك، بصيراً بما عليك ولك؛ عابك من أنت أقلّ منه عيباً، ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن أنت ابتُليتَ بأن تتكلّف القول وتتعاطى الصّنعة، ولم تسمح لك الطباع؛ فلا تعجل، ولا تضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تُعْدَمَ الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة، أو جريتَ في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصناعة على عرق.

فإن تمنّعَ عليك بعد ذلك من غير حادث شغل، ومن غير طول إهمال؛ فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك؛ فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في صفات، والنفوس لا تجود بمكنونها إلا مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة.

ومن فصحاء العرب وخطبائهم المبرَّزين قس بن ساعدة الإيادي، وهو المضروب به المثل في البلاغة والحكمة، وقد كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف على الأوثان ويرشدهم إلى عبادة الله وحده.

ويقال: إنه أول من خطب على شرف، وأول من قال في خطبه «أما بعد» وأول من اتكأ على سيف أو عصا في خطابته، وكان الناس يتحاكمون إليه، وهو القائل: البيّنة على من ادعى، واليمين على من أنكر. ومن خطبته في سوق عكاظ: أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت. ليلٌ داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مُدْحاة، وأنهار مجراه. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يقسم قسّ بالله قسماً لا إثم فيه: إن لله ديناً هو

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، ثم أنشأ بعد ذلك يقول:

في الـــــذَّاهبين الأوّلـــــين ... مـــن القـــرون لنـــا بـــصائرُ
لمّـــــا رأيـــــت مـــــواردا ... للمـــوت لـــيس لهـــا مـــصادرُ
ورأيـــــت قـــــوميَ نحوهـــــا ... تمـــضي الأكـــابر والأصـــاغرُ
لا يرجـــــع المـــــاضي إليّ ... ولا مـــــن البـــــاقين غـــــابرُ
أيقنـــــت أني لا محالـــــة ... حيـــث صـــار القـــومُ صـــائرُ

وبعد هذا التطياف الأدبي؛ نزلتُ وصاحبي إلى رَحْلِنَا فأصلحنا من شأنه، ومضى النهار في تعلّلٍ وتريّض حتى أقبل المساء، فأشعلنا حطب السمر وقت الأصيل، والشمس تتهادى للمغيب كأنها من مراكب الملوك الأقدمين، مُدبرة منحدرة من كثيب ذهبي مهيل قد انكسر طرفه فخرج من تحت رمله عود طريّ نمت خضر أوراقه إيذاناً بنفخ صور حياته. وإيماءً لذوي الآمال أن لا ييأسوا فمهما علا التّربُ عِرقَ العضاةِ إلا أنّ لها يومًا مع لين الربيع، وخضرة الأمل، وتسنيمِ الحياة الجميلة تَحُفُّ الشّمسَ المنكسرة حاشيتُها من الغيوم المذهّبة المسلسلة بالعسجد الساطع الصافي البهيّ.

وامتد بنا المجلس حتى أكنَّتنا ليلةٌ صافيةُ الأديم، متلألئةُ نجومِ السماء تحت قبّة الفلك البهيم، لم يقطعها إلا ما لا بدّ منه. فقلت له بعدما انتهى من ورد ذكره: هلّا حدثتني قبل الرحيل عن شيء من الوداع الأخير؟ فقال ــ وهو يرشُف كأساً من الشاي ـ:

حضَرَتْ الصديقة أباها الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يجود بنفسه فقالت:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا والله كما قال حاتم:

أماوّي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فقال لها أبو بكر: يا بنيةّ، لا تقولي هكذا، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] ولأبي العتاهية يرثى عليَّ بن ثابت وكان مؤاخيا له، وكان عليٌّ أديباً ناسكاً شاعراً ظريفاً:

ألا مَنْ لي بأنسك أيْ أُخيّا ومن لي أن أبثك ما لديّا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر كذاك خطوبه نشراً وطيّا
فلو نشرت قواك لي المنايا شكوت إليك ما صنعت إليّا
وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيّا

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك وهو يجود بنفسه، فقال: كيف تجدك يا بني؟ قال: أجدني في الموت، فاحتَسِبْني يا أمير المؤمنين، فإن ثواب الله خيرٌ لك مني. قال: رضي الله عنك يا بني، فإنك لم تزل تسرّ أباك وأنت في الخِرَقِ، وما كنتُ قط أسرّ إلي منك حيث يُصيّرك الله في ميزاني، فرضي الله عنك وعن كل شاهد وغائب دعا لك بخير. فجعل الناس يدعون له رجاء أن يدخلوا في دعوة عمر. وعاش عمر بعده أربعين يوماً ثم هلك.

وتُوفِّي رجلٌ وكان مُسرفاً على نفسه، فرَفع برأسه وهو يجود بِنَفْسِه، فإذَا أبواه يَبْكِيَان عند رأسه، فقال: ما يُبْكِيكما؟ قالا: نَبْكي لإسرافك على نفسك؛

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: لا تَبْكيا، فوالله ما يَسُرُّني أن الذي بيد الله من أمري بأيديكما، ثم مات. ألا ما أعظمه من رجاء، وأحمده من ثناء، والله عند ظنّ عبده به.

ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال: إن أمراً هذا آخره، لجدير بأن يزهد في أوله، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره.

وتأمل حسن وصف أحد الخطباء لقتلاه ــ وللأسف أنهم من الخوارج المارقة، عياذاً بربي من الضلال ــ: تخضَّبت بالدماء محاسن وجوههم، فأسرعت إليهم سِباع الأرض وطيور السماء، فكم من عين في مناقير طير طال ما بكت في جوف الليل من خشية الله! وكم من كف زالت عن معصمها طال ما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل من السجود لله! شبابٌ مكتهلون في شبابهم، غضيضةٌ عن الشر أعينهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلهم.

وقال ابن دحية: دخلت على الفقيه ابي بكر السلمي منزله بمدينة شاطبة في اليوم الذي توفي فيه وهو يجود بنفسه، فأنشد بديهاً:

أيها الواقف اعتباراً بقبري ... استمع فيه قول عظمي الرميمِ
أودعوني بطن الضريح وخافوا ... من ذنوبٍ كلومها بأديمي
تركوني بما اكتسبت رهيناً ... غَلِقَ الرَّهْنُ عند مولًى كريمِ

ولصخر بن عمرو الشريد في أخيه معاوية:

اذا ذكر الإخوان رقرقْتُ عبرةً ... وحيَّيتُ رسماً عند لَثّة ثاويا
إذا ما أمرؤ أهدى لِمَيْتٍ تحية ... فحيّاك ربّ العرش عنّي مُعاويا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال أحدهم مودّعاً غالِيه:

وهوّن ما ألقى من الوجد أنَّني أُساكنه في داره اليوم أو غدا

وقال الآخر في مشهدٍ حزين وموعظة بليغة:

فبات يروّي أصول الفسيل فعاش الفسيلُ ومات الرَّجلُ

نعم، إنَّ المنايا لا تطِيْشُ سِهَامُها! اللّٰهم نسألك حسن الختام.

وهذه قصيدة كتبتها إبَّان حوار مع أحدالإخوة، ولها مقدمة طويلة، أكتفي منها بقلادة العنق، فمنها:

...فهي يا محبّ كالخَرِيدَةِ الأعرابية، لم تعرفْ سوى الكحل والحناء، لم تمسسها لامسة، ولم تُسمعها هامسة، أو كفَرسٍ من العرائبِ العِتاق، لم يستوِ على ظهرها سوى عصافير الفجرِ طربًا وهزجًا، بَلْ كَنَقْرَةٍ في قُلَّةِ رَضْوَى، سحَّتْ عليها غادياتُ الدّيَم..

فأكْرِعْ في نميرها عِرَابَ جِيادك المُطهّمة، وأمرع فيها سوائمك المُسنّمة، ومواشيك المسمّنة، وأجرِ في مضمارها سوابق أفكارك، واسكب عليها ينابيع أشجانك.

قَدْ سِيقت بعجَلٍ وخجَلٍ، وخفْرٍ وجذَلٍ، إلى عذب شَجنك، وحلو ذوقك، فارتشفها قُبيل رشفةِ عصفورِ الصباح وخنساء الرواح..

سكبْتُها ميميّة ستّينيّة، على بديهة ذلك الشعور الجميل، وشاطئ تيك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المشاعر الرائقة:

«يَا وَافِ أَقْبِلْ»

تـضوّعَ نـشرُها نَفَـسَ الخُزامـى ... وَنَالَـتْ مِـنْ أَقَاحِيْهَـا المَرَامَـا
وَأَضْـحَكَتِ الرُّبَـى هَبَّـاتُ غَيْـثٍ ... بِطَيْـفِ خَرِيْـدَةٍ تَـشْكُو الْغَرَامَـا
يَلُـوحُ بِثَغْرِهَـا بَرْقًـا وَشَـهْدًا ... أَغَـارَتْ فِي الحَشَا صَـلْتًا حُسَامًا
فَـمَا لِلـصَّبِّ أَحْـلَى مِـنْ لِثَـامٍ ... بِنَظْـرَةِ عَاشِـقٍ تَحْكِـي ابْتِـسَامَا
وَقَـدْ سُـكِبَ الجَـمَالُ بِوَجْنَتَيْهَـا ... بِخَـدٍّ سَـاطِعٍ يَجْلُـو الظَّلَامَـا
أَشَـاحَتْ بُرْهَـةً كَـيْمَا تُـدارِي ... لَـوَاعِجَ مُهْجَـةٍ تَرْعَـى الـذِّمَامَا
أَرَادَتْهَـا دَلَالًا فَاسْـتَحَالَتْ ... تَبُـلُّ دُمُوعُهَـا طَـرَفَ اللِّثَامَـا
وَأَرْسَـلَتِ الـسِّهَامَ بِلَفْـظِ دُرٍّ ... فَأَوْقَـدَتِ الهَـوَى نَـارًا ضِرَامًـا
فَنَالَـتْ مِـنْ حُـشَاشَةِ قَلْـبِ غِـرٍّ ... فَقَلْبِـي ذَا الـصَّبُورُ غَـدَا غُلَامًـا
فَقُلْـتُ لَهَـا بِحُـبٍّ بَرَّحَتْـهُ ... فَبَعْـدَ الـدَّعْجِ لَا أَخْـشَى الـسِّهَامَا
كِلَانَـا يَـا لُبَيْنَـى طَـلُّ شَـوْقٍ ... فَـمَا فِي الْوَجْـدِ يَـا لُبْنَـى مَلَامَـا
فَأَغْـضَتْ مِـنْ حَيَـاءٍ طَـرْفَ نُجْـلٍ ... بِوَجْـهٍ خِلْتُـهُ بَـدْرًا تَمَامًـا
وَأَشْرَقَـتِ الـدُّمُوعُ بِنَاظِرَيْهَـا ... وَأَسْـعَدَتِ الجُفُـونُ المُسْتَهَامَا
أَبَلَّـتْ مِـنْ حَـدِيْثٍ جُـرْحَ رُوحِـي ... بِثَغْـرٍ قَـدْ حَـوَى رَاحًـا مُـدَامَا
فَقَلْبِـي يَـا لُبَيْنَـى ذَا فُطُـورٍ ... وَكَبِـدِي صُـدِّعَتْ مِـنْكُمْ سِـقَامًا
أَنِـيْلِي حَاجَـةً سُـلِبَتْ بِخَفْـرٍ ... وَمَـا نَغْـشَى عَـلَى كَنَـفٍ حَرَامًـا
لَبَانَـةَ عَاشِـقٍ يَـشْدُو بِقَـوْلٍ ... وَقَـدْ كَمُلَـتْ بِعَيْنَيْـهِ احْتِـشَامًا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَـدَيْتُكِ يَـا لُبَيْنَـى كُـلَّ لَيْـلٍ ... أَلِمِّـي بِـالْجَوَى وَصِـلِي سَـلَامَا
لَـئِنْ شَـابَ القَـذَالُ فَـمَا فُـؤَادِي ... سِـوَى طِفْـلٍ يُـدافِعُ ذا الفِطَامَـا
أَجَابَـتْ مِـنْ نَهِـيْجٍ حَـزَّ عَظْمِـي ... مُحَـالٌ فِي الْكَـرَى إِلَّا لِمَامًـا
تَمَتَّـعْ مِـنْ خَيَـالٍ مَـرَّ حِيْنًـا ... وَعَلِّـلْ فِي الْكَـرَى عَامًـا فَعَامًـا
أَحَقًّـا مَـا أَرَى بَـلْ طَيْـفُ حُلْـمٍ ... كَأَنْفَـاسِ الـصَّبَا هَبَّـتْ خُزَامَـى
أَعَـاذِلَتِي أَكَـاسِرَةً سِـهَامًا ... وبالأَسَـلِ الظِّـمَاءِ بِهِـمْ عَلَامَـا
أَمَـا وَالله قَـدْ أَغْمَـدْتُ سَـيْفِي ... وَأَشْـهَرْتُ المَـوَدَّةَ وَالـسَّلَامَا
فَـمَا لِأُخُـوَّةٍ فِي اللهِ مَعْنَـىً ... إِذَا كَـانَ الـصَّدِيقُ هُـو الإِدَامَـا
وَهَـلْ مِـنْ سَـاعَةٍ للهِ تُـرْضَى ... إِذَا كَـانَ الحُـسَامُ لَنَـا احْتِكَامَـا
وَمَـا لِجَـسَارَةٍ نَعْتًـا صَـدُوقًا ... إِذَا هَـزَّ الـوَغَى وَجْـهَ الهُمَامَـا
وَقُـلْ للظَّـنِّ يَحْـسُنْ فِي رِجَـالٍ ... وَجِيـلِ عَزِيْمَـةٍ نَـزَعَ اللِّثَامَـا
تَرَضَّـوْا عَـنْ صِـحَابٍ فِي يَقِـيْنٍ ... وَقَـالُوا رَبَّنَـا نَرْجُـو الـسَّلَامَا
كَتَمْنَـا دِيْنَنَـا حِقَبًـا طِـوَالًا ... فَهَـذَا يَوْمُنَـا نُجْـلِي القَتَامَـا
خَلَعْنَـا شِـقْوَةً ذَهَبَـتْ بِوَيْـلٍ ... وَبِالتَّهْلِيـلِ أَيْقَظْنَـا النِّيَامَـا
فَيَـا ذَا الْعَـرْشِ ثَبِّتْنَـا بِلُطْـفٍ ... فَـمَا لِغَـدَاتِنَا مِنَّـا انْهِزَامَـا
بَرِئْنَـا لِلَّـذِي خَلَـقَ البَرَايَـا ... مِـنَ الـرَّفْضِ المُحِيـقِ بِهِـمْ خِطَامَا
وَخَـيْرُ أُمَّتِنَـا الـصِّدِّيقُ طُـرًّا ... بِـهِ صَـارَ الكَفُـورُ فَـرٍ هُلَامَـا
كَـذَا الفَـارُوقُ أَكْـرِمْ مِـنْ نَـسِيجٍ ... بِـهِ شَـدَّ الإِلَهُ لَنَـا الحِزَامَـا
هُـمُ الـصَّحْبُ الـرَّضِيُّ نُجُـومُ لَيْـلٍ ... فَـأَنْعِمْ بِالَّـذِي مَـدَحَ الكِرَامَـا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَقَدْ خَابَ المُؤَمِّلُ غَمْزَ صَحْبٍ ... وَأَهْلِ البيتِ أَسْيَادٍ تَسَامَى
فَآلُ الْبَيْتِ تِيْجَانٌ وَطُهْرٌ ... تَحَمَّلْ يَا مُحِبُّ لَهُمْ سَلَامًا
وَقَدْ عَادَ الظَّلُومُ يَنُوءُ حِمْلًا ... بِأَوْزَارٍ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَا
وَمَا لِلْخَلْقِ فِي الغَيْبِ اطِّلاعٌ ... وَلِلْوَحْيَيْنِ بَايَعْنَا الإِمَامَا
فَأَمْسَوا فِي التَّرَضِّي رَسْمَ رُشْدٍ ... وَأَضْحَوا بِالصَّحِيْحَيْنِ اعْتِصَامَا
فَحَيَّ هَلًا أُبَاةً فِي سَنَاهُمْ ... مُحَمَّدُ فِي الذُّرَى عَلِقَ الوِسَامَا
هُوَ المَسْعُودُ مِنْ قَوْمٍ كِرَامٍ ... وَبِالزَّيْتُونِ قَدْ بَثُّوا اليَمَامَا
أُخُوَّةُ مَعْشَرٍ تَزْدَادُ صَفْوًا ... كَمَا سَاقَتْ عَوَاصِفُهَا الغَمَامَا
رِجَالٌ أَقْبَلُوا لِلَّهِ طُرًّا ... فَمَا لِحَفَاوَتِي عَنْهُمْ مَلَامَا
أَلَا مَنْ عَذِيْرِيَ مِنْ نُفُوسٍ ... تَنُجُّ بِسَاحِنَا مَكْرًا تَطَامَى
يَرُوْمُونَ الدِّيَانَةَ بِانْتِقَامٍ ... وَثَارَاتٍ مِنَ الصَّحْبِ القُدَامَى
لِثَارَاتٍ أَزَالَتْ آلَ كِسْرَى ... وَأَلْحَقَتِ المَجُوسِيَّ اصْطِلَامَا
تَغُصُّ حُلُوقُهُمْ مِنْ ذِكْرِ سَعْدٍ ... وَسَيْفِ اللهِ أَشْبَعَهُمْ رَغَامَا
إِلَهَ العَالَمِينَ أَرِحْ فُؤَادِي ... فَقَدْ حَزَّ النُّصَيْرِيُّ العِظَامَا
أَفَاضَ الثَّكْلَ فِي الإِسْلَامِ غَدْرًا ... وَقَتَّلَهُمْ سُجُودًا أَوْ قِيَامَا
وَعَاثَ الأَبْعَدُ الأَطْغَى زَمَانًا ... وَأَكْثَرَ فِي جَوَانِبِهَا اليَتَامَى
فَمُرْ بِكَتِيبَةٍ حَمْرَاءَ تَشْفِي ... صُدُورَ الصَّالِحِينَ دَمًا سِجَامًا
وَثُنِّ إِلَهَنَا بِصَلِيْبِ كُفْرٍ ... فَدُقَّ عَمُودَهُ الأَفْرَى رُكَامًا
وَثَلِّثْ بِالْيَهُودِ جُنُودَ مِسْخٍ ... هُوَ الدَّجَّالُ فَامْتَشِقُوا الحُسَامَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٣- فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا ..

إِخَـالُ جُمُوعَنَـا والخَيْـلُ تَجْـرِي ... بِنَـا نَحْـوَ غُوطَتِهَـا الـشَّآمَا
سَـحَائِبَ جَنْـدَلٍ تَرْمِـي بِـشُهْبٍ ... عَـلَى الْكُفَّـارِ مِـنْ مَطَـرٍ حِمَامَـا
أَوِ الْـرِّيْحَ الـدَّبُورَ جَـرَتْ بِـأَمْرٍ ... مِـنَ الجَبَّـارِ تَجْتَـثُّ اللِّئَامَـا
أَوِ اللَّيْـثَ الهِزَبْـرَ يَهُـوشُ جَـدْيًا ... فَهَـلْ يَـسْتَبْقِ لِلْجَـدْيِ الـسُّلَامَى
أو النيـلَ الخِـضَمَّ يَـسُوقُ بَحْـرًا ... يَـدُكُّ عُرُوشَـهُمْ فَغَـدَتْ حُطَامَـا
فَـإِنْ شِـئْتَ البُطُولَـةَ صِـحْ بِقَـوْمٍ ... إِذَا كَـانَ الكَـلَامُ لَهُـمْ كِلَامًـا
أَصِـيحُ بَـأَدْهَمِي يَـاوَافِ أَقْبِـلْ ... فَـدُونَكَ مَنْهَـلٌ يُـرْوِي الزُّؤَامَـا
وَصَـلِّ إِلَهَنَـا فِي كُـلِّ حِـيْنٍ ... عَـلَى مَـنْ كَـانَ لِلْمِـسْكِ الخِتَامَـا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفحة بيضاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٤

وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى..

عُدْنَا من حيث جئنا مرددين: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون. وقد انقشعت بحمد الله عن صاحبي غيومُ الكآبة، وخلفتها أضواء البشر والسعادة. وبينا كنتُ أقود كان صاحبي يقرأ بصوت مسموع من كتابٍ نفيسٍ أدمن قراءته ـ وحُقَّ له ـ لابن القيم موسومٍ بالجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ويسمّيه بعضهم اختصاراً الداء والدواء. وابن القيم من نوادر أطباء القلوب، وله في التصنيف فيها الحظّ الأوفى رَحِمَهُ اللَّهُ ورحم شيخه والمؤمنين، وكان مما قرأه ـ مع شيء من الاختصار ـ:

الْعبد لَا يَتْرُكُ مَا يُحِبُّهُ وَيَهْوَاهُ، وَلَكِنْ يَتْرُكُ أَضْعَفَهُمَا مَحَبَّةً لِأَقْوَاهُمَا مَحَبَّةً، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَكْرَهُهُ؛ لِحُصُولِ مَا مَحَبَّتُهُ أَقْوَى عِنْدَهُ مِنْ كَرَاهَةِ مَا يَفْعَلُهُ، أَوْ لِخَلَاصِهِ مِنْ مَكْرُوهٍ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ خَاصِّيَّةَ الْعَقْلِ إِيثَارُ أَعْلَى الْمَحْبُوبَيْنِ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَأَيْسَرِ الْمَكْرُوهَيْنِ عَلَى أَقْوَاهُمَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا مِنْ كَمَالِ قُوَّةِ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ.

وَلَا يَتِمُّ لَهُ هَذَا إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: قُوَّةِ الْإِدْرَاكِ، وَشَجَاعَةِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ التَّخَلُّفَ عَنْ ذَلِكَ وَالْعَمَلَ بِخِلَافِهِ يَكُونُ إِمَّا لِضَعْفِ الْإِدْرَاكِ بِحَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ مَرَاتِبَ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، إِمَّا لِضَعْفٍ فِي النَّفْسِ، وَعَجْزٍ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فِي الْقَلْبِ، بِحَيْثُ لَا يُطَاوِعُهُ عَلَى إِيثَارِ الْأَصْلَحِ؛ لِرَفْعِ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ الْأَصْلَحُ، فَإِذَا صَحَّ إِدْرَاكُهُ، وَقَوِيَتْ نَفْسُهُ، وَتَشَجَّعَ قَلْبُهُ عَلَى إِيثَارِ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَالْمَكْرُوهِ الْأَدْنَى فَقَدْ وُفِّقَ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ شَهْوَتِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ عَقْلِهِ وَإِيمَانِهِ، فَيَقْهَرُ الْغَالِبُ الضَّعِيفَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ إِيمَانِهِ وَعَقْلِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ شَهْوَتِهِ، وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَرْضَى يَحْمِيهِ الطَّبِيبُ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَتَأْبَى عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَشَهْوَتُهُ إِلَّا تَنَاوُلَهُ، وَيُقَدِّمُ شَهْوَتَهُ عَلَى عَقْلِهِ، وَتُسَمِّيهِ الْأَطِبَّاءُ: عَدِيمَ الْمُرُوءَةِ، فَهَكَذَا أَكْثَرُ مَرْضَى الْقُلُوبِ يُؤْثِرُونَ مَا يَزِيدُ مَرَضَهُمْ، لِقُوَّةِ شَهْوَتِهِمْ لَهُ.

فَأَصْلُ الشَّرِّ مِنْ ضَعْفِ الْإِدْرَاكِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَدَنَاءَتِهَا، وَأَصْلُ الْخَيْرِ مِنْ كَمَالِ الْإِدْرَاكِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا وَشَجَاعَتِهَا. فَالْحُبُّ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدَؤُهُ، وَالْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ أَصْلُ كُلِّ تَرْكٍ وَمَبْدَؤُهُ، وَهَاتَانِ الْقُوَّتَانِ فِي الْقَلْبِ، أَصْلُ سَعَادَةِ الْعبد وَشَقَاوَتِهِ.

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ الِاخْتِيَارِيَّيْنِ إِنَّمَا يُؤْثِرُهُ الْحَيُّ لِمَا فِيهِ مِنْ حُصُولِ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي يَلْتَذُّ بِحُصُولِهَا،أَوْ زَوَالِ الْأَلَمِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ الشِّفَاءُ بِزَوَالِهِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: شَفَى صَدْرَهُ، وَشَفَى قَلْبَهُ، وَقَالَ:

هِيَ الشِّفَاءُ لِدَائِي لَوْ ظَفِرْتُ بِهَا وَلَيْسَ مِنْهَا شِفَاءُ الدَّاءِ مَبْذُولُ

وَهَذَا مَطْلُوبٌ يُؤْثِرُهُ الْعَاقِلُ بَلِ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ، وَلَكِنْ يَغْلَطُ فِيهِ أَكْثَرُ النَّاسِ غَلَطًا قَبِيحًا، فَيَقْصِدُ حُصُولَ اللَّذَّةِ بِمَا يُعَقِّبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْأَلَمِ، فَيُؤْلِمُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحَصِّلُ لَذَّتَهَا، وَيَشْفِي قَلْبَهُ بِمَا يُعَقِّبُ عَلَيْهِ غَايَةَ الْمَرَضِ، وَهَذَا شَأْنُ مَنْ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى الْعَاجِلِ وَلَمْ يُلَاحِظِ الْعَوَاقِبَ، وَخَاصَّةً الْعَقْلُ النَّاظِرُ فِي الْعَوَاقِبِ، فَأَعْقَلُ النَّاسِ مَنْ آثَرَ لَذَّتَهُ وَرَاحَتَهُ فِي الْآجِلَةِ الدَّائِمَةِ عَلَى الْعَاجِلَةِ الْمُنْقَضِيَةِ الزَّائِلَةِ، وَأَسْفَهُ الْخَلْقِ مَنْ بَاعَ نَعِيمَ الْأَبَدِ وَطَيِّبَ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَاللَّذَّةَ الْعُظْمَى الَّتِي لَا تَنْغِيصَ فِيهَا وَلَا نَقْصَ بِوَجْهٍ مَا، بِلَذَّةٍ مُنْقَضِيَةٍ مَشُوبَةٍ بِالْآلَامِ وَالْمَخَاوِفِ، وَهِيَ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ وَشِيكَةُ الِانْقِضَاءِ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ - قلت: وهو ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ -: فَكَّرْتُ فِيمَا يَسْعَى فِيهِ الْعُقَلَاءُ، فَرَأَيْتُ سَعْيَهُمْ كُلِّهِمْ فِي مَطْلُوبٍ وَاحِدٍ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَحْصِيلِهِ، رَأَيْتُهُمْ جَمِيعَهُمْ إِنَّمَا يَسْعَوْنَ فِي دَفْعِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ عَنْ نُفُوسِهِمْ، فَهَذَا بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَهَذَا بِالتِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ، وَهَذَا بِالنِّكَاحِ، وَهَذَا بِسَمَاعِ الْغِنَاءِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ، وَهَذَا بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، فَقُلْتُ: هَذَا الْمَطْلُوبُ مَطْلُوبُ الْعُقَلَاءِ، وَلَكِنَّ الطُّرُقَ كُلَّهَا غَيْرُ مُوَصِّلَةٍ إِلَيْهِ، بَلْ لَعَلَّ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا يُوَصِّلُ إِلَى ضِدِّهِ، وَلَمْ أَرَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الطُّرُقِ طَرِيقًا مُوَصِّلَةً إِلَيْهِ إِلَّا الْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمُعَامَلَتَهُ وَحْدَهُ، وَإِيثَارَ مَرْضَاتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فَإِنَّ سَالِكَ هَذَا الطَّرِيقِ إِنْ فَاتَهُ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا فَقَدْ ظَفِرَ بِالْحَظِّ الْعَالِي الَّذِي لَا فَوْتَ مَعَهُ، وَإِنْ حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَصَلَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ فَاتَهُ فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ ظَفِرَ بِحَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا نَالَهُ عَلَى أَهْنَأِ الْوُجُوهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ هَذِهِ الطُّرُقِ، وَلَا أَوْصَلُ مِنْهَا إِلَى لَذَّتِهِ وَبَهْجَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالْمَحْبُوبُ قِسْمَانِ: مَحْبُوبٌ لِنَفْسِهِ، وَمَحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَالْمَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَحْبُوبِ لِنَفْسِهِ، دَفْعًا لِلتَّسَلْسُلِ الْمُحَالِ، وَكُلُّ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ الْحَقِّ فَهُوَ مَحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحَبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُحَبُّ فَإِنَّمَا مَحَبَّتُهُ تَبَعٌ لِمَحَبَّةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَمَحَبَّةِ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهَا تَبَعٌ لِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمَحْبُوبِ تُوجِبُ مَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَجِبُ الِاعْتِنَاءُ بِهِ، فَإِنَّهُ مَحَلُّ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ النَّافِعَةِ لِغَيْرِهِ، وَالَّتِي لَا تَنْفَعُ بَلْ قَدْ تَضُرُّ.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُحَبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ كَمَالُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَإِلَهِيَّتُهُ وَرُبُوبِيَّتُهُ وَغِنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُبْغَضُ وَيُكْرَهُ لِمُنَافَاتِهِ مَحَابَّهُ وَمُضَادَّتِهِ لَهَا، وَبُغْضُهُ وَكَرَاهَتُهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ هَذِهِ الْمُنَافَاةِ وَضَعْفِهَا، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَاةً لِمَحَابِّهِ، كَانَ أَشَدَّ كَرَاهَةً مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا مِيزَانٌ عَادِلٌ تُوزَنُ بِهِ مُوَافَقَةُ الرَّبِّ وَمُخَالَفَتُهُ وَمُوَالَاتُهُ وَمُعَادَاتُهُ، فَإِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا يُحِبُّ مَا يَكْرَهُهُ الرَّبُّ تَعَالَى وَيَكْرَهُ مَا يُحِبُّهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُعَادَاتِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَيْنَا الشَّخْصَ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ، وَكُلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَحَبَّ إِلَى الرَّبِّ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَآثَرَهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ وَأَبْعَدَ مِنْهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُوَالَاةِ الرَّبِّ بِحَسَبِ ذَلِكَ. فَتَمَسَّكْ بِهَذَا الْأَصْلِ فِي نَفْسِكَ وَفِي غَيْرِكَ، فَالْوِلَايَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مُوَافَقَةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ فِي مَحَابِّهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَلَيْسَتْ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا تَزَيُّقٍ وَلَا رِيَاضَةٍ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالْمَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ قِسْمَانِ أَيْضًا: أَحَدُهُمَا: مَا يَلْتَذُّ الْمُحِبُّ بِإِدْرَاكِهِ وَحُصُولِهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَأَلَّمُ بِهِ وَلَكِنْ يَحْتَمِلُهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ، كَشُرْبِ الدَّوَاءِ الْكَرِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقِتَالَ مَكْرُوهٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ لِإِفْضَائِهِ إِلَى أَعْظَمِ مَحْبُوبٍ وَأَنْفَعِهِ، وَالنُّفُوسُ تَحْتَ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ، ذَلِكَ شَرٌّ لَهَا لِإِفْضَائِهِ إِلَى فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، فَالْعَاقِلُ لَا يَنْظُرُ إِلَى لَذَّةِ الْمَحْبُوبِ الْعَاجِلِ فَيُؤْثِرُهَا، وَأَلَمِ الْمَكْرُوهِ الْعَاجِلِ فَيَرْغَبُ عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ شَرًّا لَهُ، بَلْ قَدْ يَجْلِبُ عَلَيْهِ غَايَةَ الْأَلَمِ وَيُفَوِّتُهُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ، بَلْ عُقَلَاءُ الدُّنْيَا يَتَحَمَّلُونَ الْمَشَاقَّ الْمَكْرُوهَةَ لِمَا يُعْقِبُهُمْ مِنَ اللَّذَّةِ بَعْدَهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُنْقَطِعَةً.

فَالْأُمُورُ أَرْبَعَةٌ: مَكْرُوهٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، وَمَكْرُوهٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَحْبُوبٍ، وَمَحْبُوبٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَحْبُوبٍ، وَمَحْبُوبٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، فَالْمَحْبُوبُ الْمُوَصِّلُ إِلَى الْمَحْبُوبِ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِيَ الْفِعْلِ مِنْ وَجْهَيْنِ، وَالْمَكْرُوهُ الْمُوَصِّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِي التَّرْكِ مِنْ وَجْهَيْنِ.

بَقِيَ الْقِسْمَانِ الْآخَرَانِ يَتَجَاذَبُهُمَا الدَّاعِيَانِ ـ وَهُمَا مُعْتَرَكُ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ ـ فَالنَّفْسُ تُؤْثِرُ أَقْرَبَهُمَا جِوَارًا مِنْهَا، وَهُوَ الْعَاجِلُ، وَالْعَقْلُ وَالْإِيمَانُ يُؤْثِرُ أَنْفَعَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا، وَالْقَلْبُ بَيْنَ الدَّاعِيَيْنِ، وَهُوَ إِلَى هَذَا مَرَّةً، وَإِلَى هَذَا مَرَّةً، وَهَاهُنَا مَحَلُّ الِابْتِلَاءِ شَرْعًا وَقَدَرًا، فَدَاعِي الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ يُنَادِي كُلَّ وَقْتٍ:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى، وَفِي الْمَمَاتِ يَحْمَدُ الْعبد التُّقَى، فَإِنِ اشْتَدَّ ظَلَامُ لَيْلِ الْمَحَبَّةِ، وَتَحَكَّمَ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ وَالْإِرَادَةِ، يَقُولُ: يَا نَفْسُ اصْبِرِي:

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... وَيَذْهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَزُولُ

وَالْحُبُّ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَأَصْلُ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا أَصْلُ الْأَقْوَالِ الدِّينِيَّةِ تَصْدِيقُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكُلُّ إِرَادَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُزَاحِمُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ أَوْ شُبْهَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ التَّصْدِيقِ، فَهِيَ مُعَارِضَةٌ لِأَصْلِ الْإِيمَانِ أَوْ مُضْعِفَةٌ لَهُ، فَإِنْ قَوِيَتْ حَتَّى عَارَضَتْ أَصْلَ الْحُبِّ وَالتَّصْدِيقِ كَانَتْ كُفْرًا أَوْ شِرْكًا أَكْبَرَ، وَإِنْ لَمْ تُعَارِضْهُ قَدَحَتْ فِي كَمَالِهِ، وَأَثَّرَتْ فِيهِ ضَعْفًا وَفُتُورًا فِي الْعَزِيمَةِ وَالطَّلَبِ، وَهِيَ تَحْجُبُ الْوَاصِلَ، وَتَقْطَعُ الطَّالِبَ، وَتُنَكِّسُ الرَّاغِبَ، فَلَا تَصِحُّ الْمُوَالَاةُ إِلَّا بِالْمُعَادَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ الْمُحِبِّينَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧] فَلَمْ يَصِحَّ لِخَلِيلِ اللَّهِ هَذِهِ الْمُوَالَاةُ وَالْخُلَّةُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ، فَإِنَّهُ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨] أَيْ جَعَلَ هَذِهِ الْمُوَالَاةَ لِلَّهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ يَتَوَارَثُهَا الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَهِيَ كَلِمَةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهِيَ الَّتِي وَرَّثَهَا إِمَامُ الْحُنَفَاءِ لِأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

هذا وكلمة التوحيد هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَفَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَعَلَيْهَا أُسِّسَتِ الْمِلَّةُ وَنُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَجُرِّدَتْ سُيُوفُ الْجِهَادِ، وَهِيَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْعَاصِمَةُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ وَالذُّرِّيَّةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالْمُنْجِيَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَهِيَ الْمَنْشُورُ الَّذِي لَا يُدْخَلُ الْجَنَّةُ إِلَّا بِهِ، وَالْحَبْلُ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ مَنْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِسَبَبِهِ، وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ، وَمِفْتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَبِهَا انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ، وَبِهَا انْفَصَلَتْ دَارُ الْكُفْرِ مِنْ دَارِ الْإِيمَانِ، وَتَمَيَّزَتْ دَارُ النَّعِيمِ مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ وَالْهَوَانِ، وَهِيَ الْعَمُودُ الْحَامِلُ لِلْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ، وَ «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه.

وَرُوحُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَسِرُّهَا: إِفْرَادُ الرَّبِّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ: مِنَ التَّوَكُّلِ وَالْإِنَابَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، فَلَا يُحَبُّ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُحَبُّ غَيْرَهُ فَإِنَّمَا يُحَبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، وَكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَى زِيَادَةِ مَحَبَّتِهِ، وَلَا يُخَافُ سِوَاهُ، وَلَا يُرْجَى سِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يُرْغَبُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُرْهَبُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُحْلَفُ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُتَابُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَغَاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلْتَجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ وَبِاسْمِهِ، وَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: أَنْ لَا يُعبد إِلَّا إِيَّاهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقِيقَةَ الشَّهَادَةِ.

وَمُحَالٌ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَنْ تَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَقَامَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] فَيَكُونُ قَائِمًا بِشَهَادَتِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فِي قَلْبِهِ وَقَالَبِهِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ شَهَادَتُهُ مَيِّتَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ نَائِمَةً، إِذَا نُبِّهَتِ انْتَبَهَتْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُضْطَجِعَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ إِلَى الْقِيَامِ أَقْرَبَ، وَهِيَ فِي الْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ فِي الْبَدَنِ، فَرُوحٌ مَيِّتَةٌ، وَرُوحٌ مَرِيضَةٌ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ إِلَى الْحَيَاةِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ صَحِيحَةٌ قَائِمَةٌ بِمَصَالِحِ الْبَدَنِ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عبد عِنْدَ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَتْ رُوحُهُ لَهَا رَوْحًا**» فَحَيَاةُ هَذِهِ الرُّوحِ بِحَيَاةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِيهَا، فَكَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِوُجُودِ الرُّوحِ فِيهِ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا، فَمَنْ عَاشَ عَلَى تَحْقِيقِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا فَرُوحُهُ تَتَقَلَّبُ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى وَعَيْشُهُ وَأَطْيَبُ عَيْشٍ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠- ٤١] فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ. وَجَنَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْأُنْسِ بِاللَّهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالْفَرَحِ بِهِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالرِّضَا بِهِ، وَعَنْهُ مَأْوَى رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ هَاهُنَا، كَانَتْ جَنَّةُ الْخُلْدِ مَأْوَاهُ يَوْمَ الْمِيعَادِ، وَمَنْ حُرِمَ هَذِهِ الْجَنَّةَ فَهُوَ لِتِلْكَ الْجَنَّةِ أَشَدُّ حِرْمَانًا، وَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ وَإِنِ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَيْشُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَالْفُجَّارُ فِي جَحِيمٍ وَإِنِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وَطِيبُ الْحَيَاةِ جَنَّةُ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فَأَيُّ نَعِيمٍ أَطْيَبُ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَمَرُّ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ؟

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] فَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ لِلَّهِ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَنْعَمِهِمْ بَالًا، وَأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا، وَأَسَرِّهِمْ قَلْبًا، وَهَذِهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ قَبْلَ الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ.

وَكُلَّمَا كَانَ وُجُودُ الشَّيْءِ أَنْفَعَ لِلْعبد وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعَ لَهُ كَانَ تَأَلُّمُهُ بِوُجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيْءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْفَعُ لِلْعبد مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنَعُّمِهِ بِحُبِّهِ، وَإِيثَارِهِ لِمَرْضَاتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدَمُهُ آلَمُ شَيْءٍ لَهُ، وَأَشَدُّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَغِيبُ الرُّوحُ عَنْ شُهُودِ هَذَا الْعَذَابِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَالْأَلَمَ لِاشْتِغَالِهَا بِغَيْرِهِ، وَاسْتِغْرَاقِهَا فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ، تَتَغَيَّبُ بِهِ عَنْ شُهُودِ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ الْفَوَاتِ بِفِرَاقِ أَحَبِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا، وَأَنْفَعِهِ لَهَا، وَهَذِهِ مَنْزِلَةُ السَّكْرَانِ الْمُسْتَغْرِقِ فِي سُكْرِهِ، الَّذِي احْتَرَقَتْ دَارُهُ وَأَمْوَالُهُ وَأَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ، وَهُوَ لِاسْتِغْرَاقِهِ فِي السُّكْرِ لَا يَشْعُرُ بِأَلَمِ ذَلِكَ الْفَوَاتِ وَحَسْرَتِهِ، حَتَّى إِذَا صَحَا، وَكُشِفَ عَنْهُ غِطَاءُ السُّكْرِ، وَانْتَبَهَ مِنْ رَقْدَةِ الْخَمْرِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِهِ حِينَئِذٍ. وَهَكَذَا الْحَالُ سَوَاءً عِنْدَ كَشْفِ الْغِطَاءِ، وَمُعَايَنَةِ طَلَائِعِ الْآخِرَةِ، وَالْإِشْرَافِ عَلَى مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا وَالِانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى اللهِ، بَلِ الْأَلَمُ وَالْحَسْرَةُ وَالْعَذَابُ هُنَا أَشَدُّ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، فَإِنَّ الْمُصَابَ فِي الدُّنْيَا يَرْجُو جَبْرَ مُصِيبَتِهِ بِالْعِوَضِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ زَائِلٍ لَا بَقَاءَ لَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ مُصِيبَتُهُ بِمَا لَا عِوَضَ عَنْهُ، وَلَا بَدَلَ مِنْهُ، وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا؟ فَلَوْ قَضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ مِنْ هَذِهِ الْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ لَكَانَ الْعبد جَدِيرًا بِهِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَيَعُودُ أَعْظَمَ أُمْنِيَتِهِ وَأَكْبَرَ حَسَرَاتِهِ، هَذَا لَوْ كَانَ الْأَلَمُ عَلَى مُجَرَّدِ الْفَوَاتِ، فَكَيْفَ وَهُنَاكَ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الرُّوحِ وَالْبَدَنِ بِأُمُورٍ أُخْرَى وُجُودِيَّةٍ مَا لَا يُقَدِّرُهُ قَدْرَهُ؟ فَتَبَارَكَ مَنْ حَمَّلَ هَذَا الْخَلْقَ الضَّعِيفَ هَذَيْنِ الْأَلَمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا تَحْمِلُهُمَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِي.

فَاعْرِضْ عَلَى نَفْسِكَ الْآنَ أَعْظَمَ مَحْبُوبٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا، بِحَيْثُ لَا تَطِيبُ لَكَ الْحَيَاةُ إِلَّا مَعَهُ، فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ أُخِذَ مِنْكَ، وَحِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَحْوَجَ مَا كُنْتَ إِلَيْهِ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُكَ؟ هَذَا وَمِنْهُ كُلُّ عِوَضٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا عِوَضَ عَنْهُ؟!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ جِنْسًا تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْقَدْرِ وَالْوَصْفِ، كَانَ أَغْلَبَ مَا يُذْكَرُ فِيهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُخْتَصُّ بِهِ وَيَلِيقُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِهَا، وَمَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، مِثْلَ الْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكَذَا الْإِنَابَةُ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمَحَبَّةَ بِاسْمِهَا الْمُطْلَقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٦٥].

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ الْمَذْمُومَةِ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ الَّتِي يُسَوِّي الْمُحِبُّ فِيهَا بَيْنَ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلنِّدِّ الَّذِي اتَّخَذَهُ مِنْ دُونِهِ.

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِهَا الْمَحْمُودَةِ: مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ أَصْلُ السَّعَادَةِ وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا بِهَا، وَالْمَحَبَّةُ الْمَذْمُومَةُ الشِّرْكِيَّةُ هِيَ أَصْلُ الشَّقَاوَةِ وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَبْقَى فِي الْعَذَابِ إِلَّا أَهْلُهَا، فَأَهْلُ الْمَحَبَّةِ الَّذِينَ أَحَبُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ، وَمَنْ دَخَلَهَا مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى فِيهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَمَدَارُ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَمْرِ بِتِلْكَ الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمِهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَحَبَّةِ الْأُخْرَى وَلَوَازِمِهَا، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَالْمَقَايِيسَ لِلنَّوْعَيْنِ، وَذَكَرَ قَصَصَ النَّوْعَيْنِ، وَتَفْصِيلَ أَعْمَالِ النَّوْعَيْنِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَمَعْبُودَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَإِخْبَارِهِ عَنْ فِعْلِهِ بِالنَّوْعَيْنِ، وَعَنْ حَالِ النَّوْعَيْنِ فِي الدُّورِ الثَّلَاثَةِ: دَارِ الدُّنْيَا، وَدَارِ الْبَرْزَخِ، وَدَارِ الْقَرَارِ، وَالْقُرْآنُ جَاءَ فِي شَأْنِ النَّوْعَيْنِ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَأَصْلُ دَعْوَةِ جَمِيعِ المُرْسَلِينَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، إِنَّمَا هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ حُبِّهِ، وَكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ لَهُ، وَالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَوَازِمِ ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِي أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: «**لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، قَالَ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**» فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ مَحَبَّةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَوَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَمَا الظَّنُّ بِمَحَبَّةِ مُرْسِلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ؟

وَمَحَبَّةُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ تَخْتَصُّ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ فِي قَدْرِهَا وَصِفَتِهَا وَإِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ بِهَا. فَإِنَّ الْوَاجِبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَى الْعبد مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ، بَلْ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَنَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، فَيَكُونُ إِلَهُهُ الْحَقُّ وَمَعْبُودُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَالشَّيْءُ قَدْ يُحَبُّ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، وَقَدْ يُحَبُّ بِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحَبُّ لِذَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تَصْلُحُ الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا لَهُ، وَ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وَالتَّأَلُّهُ: هُوَ الْمَحَبَّةُ وَالطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإلى هذا المكان أمسكت العنان وصلى الله وسلم وبارك على محمد، ما ذرَّ ضوء النجوم، ودر نوء الغيوم، وما كان كائن وزال زائل، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب